بسم الله، والحمد لله

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه والتابعين.

قال صلى الله عليه وسلم " إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له." رواه مسلم

فهذا جمع لمقالات فضيلة الشيخ د. / عماد عيسى -رحمه الله-

العدد	السنة	الشهر	العام	عنوان المقال
522	الرابعة والأربعون	جمادى الآخرة	1436هـ	تهنئة لحصول الشيخ عماد عيسى على درجة الدكتوراه وكان عنوان الرسالة "الصبغة الحديثية وأثرها في الترجيح بين المذاهب الفقهية"
524	الرابعة والأربعون	شعبان	1436هـ	صلاح الأمة فى حسن أخلاقها
525	الرابعة والأربعون	رمضان	1436هـ	استغلال الأوقات للفوز فى رمضان
527	الرابعة والأربعون	ذو القعدة	1436هـ	صون اللسان عن الكلام فى العلماء والأعيان (الحلقة الأولى)
528	الرابعة والأربعون	ذو الحجة	1436هـ	صون اللسان عن الكلام فى العلماء والأعيان (الحلقة الثانية)
529	الخامسة والأربعون	المحرم	1437هـ	أصول مكارم الأخلاق وجوامعها.. مآثر الصدق وأثره في حياة المسلمين (الحلقة الأولى)
530	الخامسة والأربعون	صفر	1437هـ	أصول مكارم الأخلاق وجوامعها.. مآثر الصدق وأثره في حياة المسلمين (الحلقة الثانية)
531	الخامسة والأربعون	ربيع الأول	1437هـ	أصول مكارم الأخلاق وجوامعها.. مآثر الصدق وأثره في حياة المسلمين (الحلقة الثالثة)
533	الخامسة والأربعون	جمادى الأولى	1437هـ	منزلة الأم في الإسلام (الحلقة الأولى)
534	الخامسة والأربعون	جمادى الآخرة	1437هـ	منزلة الأم في الإسلام (الحلقة الثانية)
535	الخامسة والأربعون	رجب	1437هـ	منزلة الأم في الإسلام (الحلقة الثالثة)
536	الخامسة والأربعون	شعبان	1437هـ	التعصب وأثره السيئ فى ماضى الأمة وحاضرها (الحلقة الأولى)
537	الخامسة والأربعون	رمضان	1437هـ	أياما معدودات

538	الخامسة والأربعون	شوال	1437هـ	التعصب وأثره السيئ فى ماضى الأمة وحاضرها (الحلقة الثانية)
539	الخامسة والأربعون	ذو القعدة	1437هـ	التعصب وأثره السيئ فى ماضى الأمة وحاضرها - (داء ودواء) (الحلقة الثالثة)
540	الخامسة والأربعون	ذو الحجة	1437هـ	التعصب وأثره السيئ فى ماضى الأمة وحاضرها - (الحلقة الرابعة)
542	السادسة والأربعون	صفر	1438هـ	باب الأدب: أصول الآداب ومكارم الأخلاق وجوامعها (الحلقة الأولى)
543	السادسة والأربعون	ربيع الأول	1438هـ	باب الأدب: أصول الآداب ومكارم الأخلاق وجوامعها (الحلقة الثانية) الأمانة في زمن الزمانة
546	السادسة والأربعون	جمادى الآخرة	1438هـ	باب الأدب: أصول الآداب ومكارم الأخلاق وجوامعها (الحلقة الثالثة) الأمانة في زمن الزمانة - الأمانة بين الرفع والدفع
547	السادسة والأربعون	رجب	1438هـ	أصول الآداب ومكارم الأخلاق وجوامعها (الحلقة الرابعة) الأمانة في زمن الزمانة - علاج ضعف الأمانة (1)
548	السادسة والأربعون	شعبان	1438هـ	أصول الآداب ومكارم الأخلاق وجوامعها (الحلقة الخامسة) الأمانة في زمن الزمانة - علاج ضعف الأمانة (2)
549	السادسة والأربعون	رمضان	1438هـ	من معالم الاخلاق في رمضان
550	السادسة والأربعون	شوال	1438هـ	أصول الآداب ومكارم الأخلاق وجوامعها - جيل الأمانة هو جيل النصر (3)
551	السادسة والأربعون	ذو القعدة	1438هـ	أصول الآداب ومكارم الأخلاق وجوامعها (الحلقة السابعة) الأمانة في زمن الزمانة - علاج ضعف الأمانة (4) - جيل الصحابة هو جيل الأمانة
553	السابعة والأربعون	المحرم	1439هـ	حراسة ثغور الجوارح (الحلقة الأولى)
554	السابعة والأربعون	صفر	1439هـ	عناية السلف بحراسة الجوارح (الحلقة الثانية)
555	السابعة والأربعون	ربيع الأول	1439هـ	حراسة ثغور الجوارح (الحلقة الثالثة) عداوة الجوارح للعصاة وشهادتها عليهم
556	السابعة والأربعون	ربيع الآخر	1439هـ	ملف العدد: نداء لأهل مصر
557	السابعة والأربعون	جمادى الأولى	1439هـ	تحقيق تقوى الله في الجوارح
559	السابعة والأربعون	رجب	1439هـ	حراسة الجوارح - حفظ الجوارح عقبة كؤود لا يجوزها المثقلون بالأوزار
560	السابعة والأربعون	شعبان	1439هـ	حفظ الجوارح سبب محبة الله تعالى للعبد
561	السابعة والأربعون	رمضان	1439هـ	رمضان يجدد الإيمان ويرسل نسيم التقوى
562	السابعة والأربعون	شوال	1439هـ	الأخوة صفة نادرة ولزماننا مغادرة (الحلقة الأولى)
563	السابعة والأربعون	ذو القعدة	1439هـ	الأخوة صفة نادرة ولزماننا مغادرة (الحلقة الثانية) - عناية صاحب النبوة صلى الله عليه وسلم بتحقيق معاني الأخوة

564	السابعة والأربعون	ذو الحجة	1439هـ	الأخوة صفة نادرة ولزماننا مغادرة (الحلقة الثالثة) - آفات تقطع الأخوة حتى الممات
565	الثامنة والأربعون	المحرم	1440هـ	الأخوة صفة نادرة ولزماننا مغادرة: عقد الأخوة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح
566	الثامنة والأربعون	صفر	1440هـ	عقد الأخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح
567	الثامنة والأربعون	ربيع الأول	1440هـ	عقد الأخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح
568	الثامنة والأربعون	ربيع الآخر	1440هـ	عقد الأخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح
569	الثامنة والأربعون	جمادى الأولى	1440هـ	عقد الأخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح
570	الثامنة والأربعون	جمادى الآخرة	1440هـ	عقد الأخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح - من صفات الناصح الأمين
571	الثامنة والأربعون	رجب	1440هـ	كيف يُعرف الحق في أزمنة الفتن المزمنة؟ (1)
572	الثامنة والأربعون	شعبان	1440هـ	كيف يُعرف الحق في أزمنة الفتن المزمنة؟ (2) - الوسطية والاعتدال
573	الثامنة والأربعون	رمضان	1440هـ	التربية في رمضان
574	الثامنة والأربعون	شوال	1440هـ	الحور بعد الكور
575	الثامنة والأربعون	ذو القعدة	1440هـ	تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن بعده
576	الثامنة والأربعون	ذو الحجة	1440هـ	حصاد الفتن
577	التاسعة والأربعون	المحرم	1441هـ	بحار الفتن وسفن النجاة - "وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ" (الحلقة الأولى)
578	التاسعة والأربعون	صفر	1441هـ	بحار الفتن وسفن النجاة - "وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ" (الحلقة الثانية) - كيف فتن الناس بعضهم ببعض؟
579	التاسعة والأربعون	ربيع الأول	1441هـ	بحار الفتن وسفن النجاة - (الحلقة الثالثة) - سفن النجاة من فتن الغواة
580	التاسعة والأربعون	ربيع الآخر	1441هـ	بحار الفتن وسفن النجاة - (الحلقة الرابعة) - فتنة المقلين بالمكثرين (1)
581	التاسعة والأربعون	جمادى الأولى	1441هـ	بحار الفتن وسفن النجاة - (الحلقة الخامسة) - فتنة المقلين بالمكثرين (2)
582	التاسعة والأربعون	جمادى الآخرة	1441هـ	بحار الفتن وسفن النجاة - (الحلقة السادسة) - ففتنة النساء
582	التاسعة والأربعون	جمادى الآخرة	1441هـ	إعلان عن مؤلفات الدكتور عماد عيسى متوفرة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب 2020م
583	التاسعة والأربعون	رجب	1441هـ	من فقه الواقع: واقع الفرقة والتفرق "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" (الحلقة الأولى)
584	التاسعة والأربعون	شعبان	1441هـ	من فقه الواقع: واقع الجهل (الحلقة الثانية)

585	التاسعة والأربعون	رمضان	1441هـ	رمضان بين أهل الاستقامة وأهل الإخفاق والندامة
586	التاسعة والأربعون	شوال	1441هـ	من فقه الابتلاء (1) - المحن بين العقل المفكر والقلم المعبر
587	التاسعة والأربعون	ذو القعدة	1441هـ	من فقه الابتلاء (2) - إيقاظ المتغفل وإيعاظ المتأمل
589	الخمسون	المحرم	1442هـ	سبل الحياة وسفينة النجاة (1): طريق المكارم محفوف بالمكاره والمغارم
590	الخمسون	صفر	1442هـ	سبيل الحياة وسفينة الحياة (2) عمل السعادة في طلب الفوز والنجاة
591	الخمسون	ربيع الأول	1442هـ	سبيل الحياة وسفينة الحياة (3) الاعتبار سبيل الاستبصار
592	الخمسون	ربيع الآخر	1442هـ	مهما كنت لاعبا فلا تلعب بدينك
593	الخمسون	جمادى الأولى	1442هـ	أركان النجاة.. حفظ الذمام والأخذ بالزمام
594	الخمسون	جمادى الآخرة	1442هـ	الاستسلام للأقدار الغالبة والاستعداد للعواقب الغائبة (1)
595	الخمسون	رجب	1442هـ	الاستسلام للأقدار الغالبة والاستعداد للعواقب الغائبة (2)
596	الخمسون	شعبان	1442هـ	لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (الحلقة الأولى)
597	الخمسون	رمضان	1442هـ	عرى الإيمان بين الشدة والرخاوة في رمضان
598	الخمسون	شوال	1442هـ	يوم الفطر يوم الجوائز
599	الخمسون	ذو القعدة	1442هـ	فلسطين ترفع الرؤوس في حرب البسوس
600	الخمسون	ذو الحجة	1442هـ	خطورة الغياب عن إصلاح الشباب (1)
601	الحادية والخمسون	المحرم	1443هـ	خطورة الغياب عن إصلاح الشباب (2) قد اهتدى من اقتدى
602	الحادية والخمسون	ربيع الآخر	1443هـ	النافلة في سيرة الدكتور سعيد صوابي (رحمه الله تعالى) وسيرته الحافلة
603	الحادية والخمسون	ربيع الآخر	1443هـ	خطورة الغياب عن إصلاح الشباب (3) رعي العدوة بتحقيق فوائد القدوة
604	الحادية والخمسون	جمادى الأولى	1443هـ	خطورة الغياب عن إصلاح الشباب (4) - الأسوة في بلوغ الصحابة تمام القدوة
605	الحادية والخمسون	جمادى الآخرة	1443هـ	خطورة الغياب عن إصلاح الشباب (5) - المسلون بين جيل بلغ المنزل وجيل انزوى في معزل

مقالات فضيلة الدكتور الشيخ

عماد عيسى رحمه الله

بمجلة التوحيد

جمع موقع محبي مجلة التوحيد

www.altawhedmag.com

تهنئة واجبة

٢- الشيخ عماد عيسى، بجمعة أنصار السنة بفيصل، لحصوله على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز من كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وكانت الرسالة بعنوان: «الصبغة الحديثية وأثرها في الترجيح بين المذاهب الفقهية».

وأسرة تحرير مجلة التوحيد تتمنى لهما مزيدًا من الرقي والتقدم.

رئيس التحرير

Upload by: altawhedmag.com

صلاح الأمة في حسن أخلاقها

الحمدُ للهِ الذي جَعلَ الدِّينَ والخُلُقَ الحَسَنَ إليه أتمَّ وسيلةٍ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي أنزلَ على عبده الكتابَ وعلَّمَهُ تأويلَهُ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بكلِّ شرفٍ وفضيلةٍ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه، وأنصاره وحزبه الذين صار الدينُ بهم عزيزًا بعدَ فُشُوِّ كلِّ منكرٍ وشاذٍّ ورَذيلةٍ وبعد:

إعداد/ للدكتور عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

حُسن الخلق أصل في ديننا:

لا يرتابُ عاقلٌ في أنَّ حُسنَ الخلقِ في أمتنا ينبغي أن يُخصَّ بمزيدِ الاهتمام، والمجاهدة على مدى الأيام ؛ لأنَّه أصلٌ أصيلٌ في ديننَا الحنيف، ومَعْلَمٌ شريفٌ من مَعالمنَا، وإن تعجَبْ فاعجبْ لأكثرِ آي التنزيلِ المتعرضة لحُسن الخُلقِ تأصيلاً وإيصاءً، لفظًا أو معنًى - بذكره عبارةً أو إشارةً أو تصريحًا أو تلميحًا - وذلك لعلاج ما في الخُلق من أمْت وعوج، أو ضيقٍ وحرج، أو كليهما معًا، وسواءٌ ما كانَ يتعلقُ من تلك الآيات بالعقائد كما في قوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة: ٢١، أو بالعبادات كما في قوله تعالى (ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ) العنكبوت: ٤٥، وقوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة: ١٨٣، وقوله تعالى: (فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ) البقرة: ١٩٧، أو ما كان في الخلق والسلوك أصالةً كما في الآية الفاذة الجامعة لكل خُلق وفضيلة (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ) النحل: ٩٠.

وفي ذلك بينةٌ ودليلٌ على أنَّ الدينَ بعقائده وشرائعه وشعائره يصب في اتجاه صلاح الأخلاق

صَلاحُ نفسك للأخلاقِ مَرجعهُ
فَقَوِّمِ النفسَ بالأخلاقِ تَسْتَقِم

ومِمَّا يدعو إلى الانتباه أنَّ وَصْفَ نبيِّنَا صلى الله عليه وسلم بالعَظَمَة جاءَ في مَعرض الثَّناء عليه بحُسن الخُلُق في قوله تعالى (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم: ٣، ٤، ولا تنس العلاقة الواضحة بين الأجر غير المنقطع (غير ممنون) والخلق العظيم.

حُسن الخلق علمٌ تفتتح به مجالس العلم:

لقد كانت الأمةُ - يوم أن كانت أقومَ قيلًا وأهْدى سبيلًا، وأحسنَ حالًا وأكرمَ مآلًا - تَعُدُّ حُسنَ الخُلق علمًا من العلوم التي أوْلاها سلفُنا الأقدمون اهتمامًا بليغًا، بل كان مرآةً يَرى المرءُ فيها ثمرةَ علمه وعمله، فكلما ازداد علمًا ازداد خلقًا، وكلما استقام خلقًا ازداد إيمانًا، فكان الرجلُ من السلف يطلبُ العلمَ فلا يلبث أن يُرى ذلك في خلقه و صلاته وخشوعه وزهده ولباسه، وبذلك صاروا أئمةَ هدًى ومصابيحَ دجًى، يُقتدَى بهم على مرِّ الدهور ومدارِ العصور، وأصبحوا للمهتدين نجومًا،

Upload by: altawhedmag.com

وعلى المعتدين والشياطين رجومًا.

وكانوا يفتتحون به مجالسَ العلم قديمًا ليَدخل العلمُ على طهارة ومن ثَمَّ يزكو به القلبُ وتصفو به الروحُ ويطيبُ به العمل في مدة يسيرة حتى صاروا شيئًا كأنه نَسْجٌ من الخيال أو ضَربٌ من المحال فلله درُّهم وعنده جزاؤهم.

الأخلاق بين حال الأمة في الأول والآخر:

الناظرُ في حال الأمة في الغابر والحاضر يجدُ البونَ شاسعًا والفرقَ كبيرًا فالأمةُ في صدورها الأول

(عهود الصحابة والتابعين وأتباعهم وتَبَع الأتْباع وتَبَع التَّبَع) كما وصفْنا على النقيضِ من حالنا الذي يدور بين وَلد عاقٍّ وأخ مشاقٍّ، وأحوالٍ معلولةٍ وأوصالٍ غيرِ موصولةٍ إلا من رحم الله وقليلٌ ما هم

وهذا ما يفسر لنا التِّيهَ والضياعَ الذي وصَلنا إليه - حتَّى في أوساط طلاب العلم والمتدينين - في زمان كثير الفساد قليل الرشاد لا يأنَفُ أكثرُ أهلِه من الوَصْمة والْعَاب.

لقد أضاعَ المسلمونَ ثروةً عريضةً من الأخلاق الرَّشيدة التي بنَوْا بها مَجدَهم وقامتْ عليها حضارتُهم العريقة حتَّى نَبَتتْ في زماننا نَوابتُ ونابَتْ فيه نَوائبُ وراجَ تَخنُّث الأخلاق والشمائل وتأنُّث الطباع وارتخاء عَزائم الأخلاق.

ومن أشد الأسباب الموصلة إلْفُ القبيح من الأخلاق فإن إلْفَهُ مَتْلَفَةٌ للعقل والخلق والدين معا وتحصيل للشقاء المطبق والضياع المرير وبالله تُستدْفعُ البلايا.

إذا المجدُ القديمُ توارَثتْه بناةُ
السوءِ أوشكَ أن يَضيعا

حقيقة سوء الخلق:

إنَّ سوءَ الخُلُق نَفَسٌ بَذيءٌ، ومَسْلَكٌ رَديءٌ، وداءٌ مرد مُهْلِكٌ، وقاعٌ صَفْصَفٌ لا تُمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كَلأً، تَعُجُّ الخلائقُ إلى الله منها عَجيجًا، ويَضِجُّ الناسُ من صاحبها ضَجيجًا، فَصاحبُ الخُلُق السيِّء فتْنَةٌ تمشي على رِجْلَيْن وشَعوذةٌ تَخْطرُ في حِجْلَين ونعوذ بالله من سوءِ المنقلب.

الظفر بحسن الخلق اصطفاء، كيف السبيل إليه؟

إنَّ حُسنَ الخُلُق صَعبُ المُرْتَقَى عَويص المطْلب لا يُدْرَكُ بيسير الوقت ولا يُحَصلُه ضعيفُ الهمَّة فضلا عَن قَعيد العزم فهو محتاجٌ إلى رسوخ القَدَم وعَدَم اليأس ومواصلة الطلب والسعي نحوَ معالي الأمور وقبلَ ذلك إرادةُ الآخرة والسعيُ لها.

فمنْ أخْشَم نفسَهُ وَهجرَ اليأسَ بَلَغَ منهُ مَأْرَبَهُ وحقَّق بعون الله تعالى ما يريد وامتازَ من الجمهور الأعْظم ولحق بالصَّدر المُعظَّم، أهل الدرجاتِ والغرفاتِ في جنات عدن (أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة:٧.

ولا عَجَبَ فقد قالَ النبيُّ (إنَّ المؤمنَ ليُدركُ بحُسْن خُلُقه دَرجةَ الصائم القائم) أبو داود (٤٧٩٨)، وقالَ أيضًا: (إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقْربكم منِّي مجْلسًا يومَ القيامة أحاسنَكم أخلاقًا) الترمذي (٢٠١٨).

وصايا لتحقيق الملكة:

فَروِّض نَفسكَ على الخُلق الحَسَن وحقِّق منه بعضَ الملكة وابْعدْ نفسَكَ عن قَذَر سَيِّئه فهو بلا ريب عينُ الهَلكة، ولا تيْأسْ من نفسكَ فليس من أحد إلا وفيه نقصٌ ولا بُدَّ.

من ذا الذي ما ساءَ قطُّ
ومنْ له الحُسنى فقط

وعليك بحسن الخلق فإن صاحبهُ قد جمَع الخيرَ فأوعَى ودَعا زُمَرَ الفضائل فأجابتْ طوعًا.

وانفضْ يدَك من سُوء الخُلق يخْلُ لكَ وجْهُهُ الحسَن وأنتَ قريرُ العَين رَضيُّ النفس، وكُنْ صاحب نفْس طلعة وهمَّة فتيَّة وعزمة قويَّة، ولا يَغرنَّكَ الشيطانُ بأنَّكَ ضَعيفٌ أو أنَّكَ في الطَّريق وحدَك فربَّما أدركَ الطَّالعُ شأوَ الضَّليع وعُدَّ في جُملة العُقلاء المُتعاقل الرَّقيعُ.

والخيرُ عادةٌ والشرُّ لجاجةٌ، فاضْنُ لنفسك السبيلَ وادفعْ عن خُلقك الدَّخيل وارفعِ الصَّوت قبل الفوت لهجًا بالدعاء

Upload by: altawhedmag.com

النبوي (اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت) مسلم (٧٧١).

وائتِ الإسلامَ من بَابه - حسن الخلق - فإنَّك:

مَتى ما أتيتَ البيتَ من غير بابه ضللتَ
وإنْ تدخل من الباب تهتد

ولا تَنتظر أن تجري بكَ الأيامُ فلا تَستطيعُ حَوْلًا ولا طَولًا (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ) مسلم (١٨٦).

إذا الروضُ أمسَى مجدبًا في ربيعه
ففي أيِّ حين يَستنيرُ ويُخصبُ

وثِقْ بربِّك ومَنِّ نفسَك بالفوز الرَّبيح واطمَحْ إلى المعَالي من الأخلاق:

فَحَيَّهلا إن كنتَ ذا همة فقدْ
حَدَا بكَ حادي الشوقِ واطوِ المراحلا
ولا تنتظرْ بالسير رُفقةَ قاعد
ودعْهُ فإنَّ العزمَ يكفيكَ حاملا

واهْجُرْ سيئَ الخُلُق قائلًا:

إليْكَ عنِّي إليْكَ عنِّي
فلستُ منكَ ولستَ منِّي

واستعنْ بالله ولا تعجزْ من انقلاب الأحوال وتغير الزمان، ففي الله خلف وهو المستعان، ولئنْ كان عُودُ الأخلاق أصبحَ ذاويًا ورَبْعُهُ أصبح من أهله خاويًا فإنَّ في الأمة بَقيَّةً تَقيَّةً نَقيةً وفي الزَّوايا خبايًا وفي الناس بقايا فامض وراءهُم حيثُ تؤمرُ واجعلْ شعارَك (هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ) طه: ٨٤، وسيعْلمُ حالَ ما جَرى للمُتَيَّم، ومَنْ خَطبَ الحسناءَ لم يُغلهُ المهْرُ.

لولا المشقَّةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ
الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتَّالُ
وقُلْ لمُرجِّي معالي الأمور
بغير اجتهاد رجوتَ المُحالا
وكُن ابنَ مَنْ شئتَ واكتسبْ خُلُقًا
يُغنيكَ محمودُهُ عن النَّسب

وأتْعبْ نَفسكَ لراحتها وأهِنْهَا في الله لتُكْرِمَهَا مُرَدِّدًا:

أنَا العبدُ المخلَّفُ عن أناسٍ
حَووْا من كلِّ معروفٍ نَصيبَا

ولا تَكنْ مع المعْرضينَ فتُحرمَ الخيرَ بالإعراض عنك.

أيُّه المعرضُ عنَّا
إنَّ إعْراضَك منَّا
لو أردناك جعلْنَا
كلَّ ما فيكَ يُردْنَا

(مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) الأنعام: ٣٩.

وأوِ إلى ظلِّ مصلحي أخلاق الأمة وناد معهم بصوتٍ جهير - لكن بإحسان - يبلغُ الحاضرَ والبادَ: يَا أيها الناسُ حسِّنوا أخلاقكم ؛ فإن الدين كله خلق فمن زاد عليكَ في الخلق زاد عليكَ في الدين.

ولا تَأْوِ إلى القَعَدَة الذين تركوا أمَّتهم في أزْمَتها الخُلقيَّة بلا خُطم ولا أزِمَّة وقالوا: هَذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وشرابٌ حتى اتَّسع الخرقُ على الراقع.

هذه نَصيحتي إليْكَ فاظفرْ بها تَربَتْ يَمينُك، أصْلَحَ الله أخلاقَنَا، وقولَنا وعَمَلَنا، وبلَّغنا أمَلَنا، وجعلَ سَعيَنا مُقرِّبًا إليه، ومُزْلِفًا لديْه وصلى الله وسلم على نَبيِّنا محمد وعلَى آله وصحْبِه ومَن تبعَهم بإحسانٍ إلى يَوم الدين.

Upload by: altawhedmag.com

استغلال الأوقات للفوز في رمضان

إعداد/ للدكتور عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله آتاه ربه الوسيلة والفضيلة كما وعده غدا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أولي الفضل، والاقتدا، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الحشر والنداء

وبعد؛ فإن رمضان من مواسم الجود الإلهي الذي يعم نفعه، ويجل في النفوس وقعه، وأيامه تمر سراعا، وقد قال الله عنها ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)، فالوقت فيه هو العملة الرائجة والتجارة الرابحة، وقد أردت أن أحدو نفسي وإخواني- لا سيما في الأيام العامرة - في هذا المسير، للجد في أمر الوقت والصحبة قبل أن يقال للمرء ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ (الحج: ١٣)، وذلك بجمع الهم على كثرة التعبد وإتقانه، فنختم القرآن كثيرًا مع التدبر ونصلي كثيرًا مع الإطالة، ونكثر الذكر والاستغفار واللهج بالدعاء وصنوف التعبد والأوراد، وفي الله تعالى ثقتنا أن نحقق من ذلك شيئا ورجاؤنا أن يقبل منا عملنا، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، وإليك قطوف دانية موشاة بالآيات القرآنية وموشحة بالأحاديث النبوية والأحوال الإيمانية المرضية في الوصية بالوقت.

إن الله جعل الوقت والعمر نعمة تستوجب السؤال يوم الحساب، ذلك لأن الوقت هو المطية التي يتخذها العبد للسير فإما أن تصل به إلى السعادة في الدارين كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)، وإما أن تنقطع به في أرض الشقاوة فيكون ممن ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج ١١).

أما كونه نعمة فذلك في حديث ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ " رواه البخاري (٦٤١٢).

وأما كونه يستوجب السؤال يوم القيامة ففي حديث ابْن مَسْعُود، عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّه حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِه فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِه فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِه مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ " رواه الترمذي (٢٤١٦).

وكثيرة هي الأمور التي من فواتها عوض؛ كالمال والولد والزوجة وغيرها، أما الوقت فليس من ضيعته ما يعوضه؛ لأنه رأس مال العبد المتاجر مع ربه السائر إليه في طريق الآخرة، ومن خسر رأس ماله فقد خسر. ورحم الله الْحَسَنَ حين قال: "أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانَ أَحَدُهُمْ أَشَحَّ عَلَى عُمُرِه مِنْهُ عَلَى دَرَاهِمِه وَدَنَانِيرِه" (الزهد لابن المبارك ص: ٤).

وهؤلاء القوم الذين مضوا إلى الله كأنهم على خيل بُلق كان حاملهم على الجد في الأوقات مبادرتهم الأنفاس والأيام، فقد كانت الليالي والأيام كنوزًا لا يفرطون فيها، فجمعوا بين المسارعة والجد، أما أخلاف السوء من بعدهم فإنهم وإن كانوا

Upload by: altawhedmag.com

بالنسبة إليهم في السعي كأنهم على حُمُر معقَّرة فمَعَ هذا البطء في السير جعلوا قيمة العمر عندهم رخيصة فجمعوا بين البطء والتفريط ونعوذ بالله من سوء الحال وكسف البال.

لقد أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم بالمبادرة بالعمل الصالح حرصًا على الوقت فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» رواه مسلم (١٨٦).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ، وَالدَّجَّالَ، وَخُوَيْصَّةَ أَحَدِكُمْ، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ " رواه ابن ماجه (٤٠٥٦).

وكل هذه الأمور المذكورة في الأحاديث عوائق عن السير إلى الله تعالى تستحث العبد لإسراع الخطا إلى الله قبل نزول الموانع والعوارض ف ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ الأنعام: ١٥٨.

قال عَمْرُو بْنُ مَيْمُونَ: «اعْمَلُوا فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ الْمَرَضِ، وَفِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ، وَفِي الشَّبَابِ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَفِي الْفَرَاغِ قَبْلَ الشُّغْلِ» (الزهد لابن المبارك ص: ٣)

وصدق القائل:

لَيْسَ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَأَوَانٍ
تَتَهَيَّأُ صَنَائِعُ الإِحْسَانِ
فَإِذَا أَمْكَنَتْ فَبَادِرْ إِلَيْهَا
حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الإِمْكَانِ

(السير ١٨/٤١٩)

فكل هذه الأحاديث وما بعدها تؤكد على معنى العناية بالوقت، لذلك أضحى حسن الأخذ بالوقت قضية القضايا، وشأن كل ذي شأن، ومن لم يعتبر ذلك فليخلِ المطيَّ وحاديَها والقوسَ وباريَها.

إنَّ الأخذَ بالجدِّ في الوقت يجعل السعيَ مشكورًا والعملَ مبرورًا، أما التهاونُ فيه والتفريط فإنه يوقعُ بالأمة فتنًا وملاحمَ تشيبُ لها النواصي بل تجعلُ الولدانَ شيبًا.

وانظرْ إلى مجالس الناس بله مجالس كثير من الصالحين مظهرًا لا مخبرًا، وأقوالا لا أفعالا، ممن تعطلوا وتبطلوا وصاروا عبئًا على أمّتهم فانظرْ ماذا تَرَى؟

تَرَى فيها عوجًا يشقُّ تقويمه وصدعا يصعب ترميمه من غيبة ونميمة وخوض في اللغو وقرض للأعراض وتمضمض بالاعتراض، وقيل وقال؛ (وكل المسلم على المسلم حرام)، بل قد يكون الكلام في أقوام حطوا رحالهم في الجنة منذ زمن بعيد وكفاك بهذا شاهدا عدلا على ما أقول.

يُقضى على المرءِ في أيام محنته
حتى يرى حَسَنًا مَا لَيْسَ بالحَسَنِ

فيا حسرة على من ناموا فما استيقظوا وبالغوا قبل أن يبلغوا ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ (النمل: ٨١).

فـ(يَا منفقا بضَاعَة الْعُمر في مُخَالفَة حَبِيبه والبعد منْهُ لَيْسَ في أعدائك أضرّ عَلَيْك مِنْك

مَا تبلغ الْأَعْدَاء من جَاهِل
ما يبلغ الْجَاهِل من نَفسه

(اهـ الفوائد لابن القيم ص: ٦٨)

(تالله مَا عدا عَلَيْك الْعَدو إلَّا بعد أَن تولى عَنْك الْوَلِيّ فَلَا تظن أَن الشَّيْطَان غلب وَلَكِن الْحَافِظ أعرض) اهـ الفوائد ص:٦٨.

والعجيب أن هؤلاء مع قليل الخلاف يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا فاللهم غفرانك.

وبعضهم ممن أراد الله به خيرًا يشكو بعد ذلك قسوة قلبه وغفلته عن الذكر وثقل التلاوة على لسانه فضلا عن قلبه وفؤاده، ووحشة بينه وبين سيده ومولاه، وتثاقله إلى الأرض، وميله إلى الشهوات، وإخلاده إلى الراحة التي لا تأتي بالراحة وما ذلك إلا من ذنوب تلكم المجالس التي غرهم بها الشيطان (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) ناهيك عن كثرة الكلام التي كفى بها - والله - ذنبًا يورث في القلب وحشة

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب
فدعها إذا شئت واستأنس

ورحم الله الْأَوْزَاعِيَّ، حين قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَقُولُ قَلِيلًا وَيَعْمَلُ كَثِيرًا، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَقُولُ كَثِيرًا

Upload by: altawhedmag.com

وَيَعْمَلُ قَلِيلاً".

فالواجب مغادرة هذه المجالس والتحذير منها فإنها تثير الرهج وتؤذي المهج بل هي بذور نفاق ومنبت شقاق ونعوذ بالله من أقوام ليس لهم خلاق (وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) (الأنعام ٦٨).

ومن ترك هؤلاء المفاليس فقد أراد الله به الانتفاع وأحسن عنه الدفاع وأجرى أموره على أجمل الأوضاع وكلنا إلى هذه العطايا جد فقير والله الموفق لا رب سواه.

أين المجالس التي تعقد عليها مراشد الأمة فتطلق عقولا أسيرة وأبصارا حسيرة؟

ومن قرأ سيرة العلامة الأديب وشيخ العربية محمود شاكر - رحمه الله تعالى - في مقدمة جمهرة مقالاته أدرك قيمة مجالسه، وعموم نفعها وعلو قدر هذا الإمام في علوم العربية قرابة ثلاثة أرباع قرن، حتى تخرَّج من هذه المجالس في العلم أعلام، وجرت من أجل الدفاع عن العربية والإسلام أقلام وأضحت روضة العربية بعد جفافها مفتحة الأزهار مسلسلة الأنهار، فلله دره وروح الله روحه ونور ضريحه كفاء ما قدم للإسلام وأهله.

نعم، هذه المجالس لا يرغب فيها إلا الهائمون بحب دينهم المخلصون له، ولا تحرص عليها إلا نفوس ذللت لها سبل المكارم تذليلا (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله).

ففي مثل هذا فليتنافس أولو النُّهى

وحسبي من الدنيا الغرور بلاغ

حال السلف في اغتنام الأوقات:

كان سلفنا آية من آيات الله التي تمشي على الأرض ومن أئمة الهدى الذين (يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)، وكان موضعهم من الإمامة موضع الدعامة فكانوا قدوة وأسوة لهذا جعل سيرتهم لا تبلى على الدهر ولا تبيد على مر الزمان وأحوالهم تروي الظمأ وتنقع الغلة وتجيء بردا وسلاما على كبد حرى وإليك طرفا من حالهم.

قال مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ التَّبُوْذَكِيُّ: لَوْ قُلْتُ لَكُم: إِنِّي مَا رَأَيتُ حَمَّادَ بنَ سَلَمَةَ ضَاحِكاً، لَصَدَقْتُ، كَانَ مَشْغُوْلاً، إِمَّا أَنْ يُحَدِّثَ، أَوْ يَقْرَأَ، أَوْ يُسَبِّحَ، أَوْ يُصَلِّيَ، قَدْ قَسَّمَ النَّهَارَ عَلَى ذَلِكَ (السير ٧/٤٤٧- ٤٤٨).

وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ: لَوْ قِيْلَ لِحَمَّادِ بن سَلَمَةَ: إِنَّكَ تَمُوْتُ غَداً، مَا قَدِرَ أَنْ يَزِيْدَ فِي العَمَلِ شَيْئاً. قُلْتُ (الذهبي): كَانَتْ أَوْقَاتُهُ مَعْمُوْرَةً بِالتَّعَبُّدِ وَالأَوْرَادِ (السير ٧/٤٤٧).

وقال السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ: فَاتَنِي جُزْءٌ مِنْ وِرْدِي، فَلاَ يُمْكِنُنِي قَضَاؤُهُ -يَعْنِي: لاستغراق أَوْقَاتِه- (السير ١٢/١٨٧).

وقال ابن عساكر: حُدِّثْتُ عَنْهُ (أي سُلَيْمُ بنُ أَيُّوْبَ الرَّازِيُّ): أَنَّهُ كَانَ يُحَاسِبُ نَفْسَه فِي الأَنْفَاسِ، لاَ يَدَعُ وَقْتاً يَمْضِي بِغَيرِ فَائِدَةٍ: إِمَّا يَنسَخُ، أَوْ يُدَرِّسُ، أَوْ يَقْرَأُ. وَحُدِّثْتُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ إِلَى أَنْ يَقُطَّ القَلَمُ. (السير ١٧/٦٤٦).

وَهذا أَبُو مُوْسَى المَدِيْنِيُّ وَكَانَ إِمَاماً فِي فُنُوْنٍ، يَقُوْلُ: مَا أَعْلَمُ أَنِّي ضَيَّعْتُ سَاعَةً مِنْ عُمُرِي فِي لَهْوٍ أَوْ لَعِبٍ (السير ٢٠/٢٦).

وقال الأَوْزَاعِيُّ: "لَيْسَ سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ الدُّنْيَا إِلاَّ وَهِيَ مَعْرُوْضَةٌ عَلَى العَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَوْمًا فَيَوْمًا وَسَاعَةً فَسَاعَةً، وَلاَ تَمُرُّ بِه سَاعَةٌ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ تَعَالَى فِيهَا إِلاَّ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَيْهَا حَسَرَاتٍ، فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ بِه سَاعَةٌ مَعَ سَاعَةٍ وَيَوْمٌ مَعَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٌ مَعَ لَيْلَةٍ". الحلية ٦/١٤٢.

قيمة الوقت عند المسلم:

الوقت عند المسلم الواعي هو الحياة بل الحياتان الأولى والآخرة؛ فإنه لا يزرع في أولاه إلا بالوقت ولا يصل إلى الدرجات العالية في أخراه إلا بالوقت فصار الوقت بذلك عصب الدارين الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله في ذلك: "السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها والساعات أوراقها والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت في معصية فثمرته حنظل، وإنما يكون الجذاذ يوم المعاد، فعند الجذاذ يتبين حلو الثمار من مُرِّها" الفوائد ص: ١٦٤.

وقال ابن القيم: (عُمْرَ الْعَبْدِ هُوَ مُدَّةُ حَيَاتِه، وَلاَ حَيَاةَ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللهِ وَاشْتَغَلَ بِغَيْرِه، بَلْ حَيَاةُ البَهَائِمِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِه، فَإِنَّ حَيَاةَ الإِنْسَانِ بِحَيَاةِ قَلْبِه وَرُوحِه، وَلاَ حَيَاةَ لِقَلْبِه إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ فَاطِرِه، وَمَحَبَّتِه، وَعِبَادَتِه وَحْدَهُ، وَالإِنَابَةِ إِلَيْه، وَالطُّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِه، وَالأُنْسِ بِقُرْبِه، وَمَنْ فَقَدَ هَذِه الحَيَاةَ فَقَدَ الخَيْرَ كُلَّه، وَلَوْ تَعَوَّضَ عَنْهَا بِمَا تَعَوَّضَ

Upload by: altawhedmag.com

مما في الدُّنيا، بَلْ لَيْسَت الدُّنْيا بأجْمعِها عوضًا عَنْ هذه الحياة، فمِنْ كُلِّ شَيْءٍ يفُوتُ العَبْدَ عوضٌ، وَإذا فاتَهُ اللهَ لَمْ يُعَوَّضْ عَنْهُ شَيْءٌ البَتَّةَ اهـ. الداء والدواء ٨٤.

علاج مضيعة الأوقات:

ضياع الوقت داء عضال، يحتاج إلى مصابرة ورباط للشفاء منه (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران: ٢٠٠).

أمر الله تعالى في الآية بالصبر والمرابطة، فالصبر لمقاومة المرض ومجاهدة النفس والرباط للثبات على ذلك العمل حتى يتم البرء ويصبح الشفاء ميسورا لا معسورا، ومن علاج ذلك.

لابد أن يمنع اللسان لئلا يوقع بالناس أفاعيل الانتقام وضرائر الإفك وأخواتها في الرضاعة من البهتان والآثام، وأن يضرب من هؤلاء كل بنان (فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) قال النبي (من صمت نجا) وقال (أمسك عليك لسانك).

ترك المعاصي ما أمكن والتوبة مما لا بد منه فإن (المَعاصيَ تُقصِرُ العُمرَ وَتَمحَقُ بَرَكَتَهُ وَلا بُدَّ، فَإنَّ البِرَّ كَما يَزيدُ في العُمرِ، فَالفُجورُ يُقَصِّرُ العُمرَ.

وَقَد اختَلَفَ النَّاسُ في هَذا المَوضِعِ.

فَقالَت طائفَةٌ: نُقصانُ عُمرِ العَاصي هُوَ ذَهابُ بَرَكَةِ عُمرِهِ وَمَحقُها عَلَيهِ، وَهَذا حَقٌّ، وَهُوَ بَعضُ تَأثيرِ المَعاصي.

وَقالَت طائفَةٌ: بَل تُنقِصُهُ حَقيقَةً، كَما تُنقِصُ الرِّزقَ، فَجَعَلَ اللهُ سُبحانَهُ لِلبَرَكَةِ في الرِّزقِ أَسبابًا كَثيرَةً تُكَثِّرُهُ وَتَزيدُهُ، وَلِلبَرَكَةِ في العُمرِ أَسبابًا تُكَثِّرُهُ وَتَزيدُهُ.....

وَقالَت طائفَةٌ أُخرى: تَأثيرُ المَعاصي في مَحقِ العُمرِ إنَّما هُوَ بِأَنَّ حَقيقَةَ الحَياةِ هِيَ حَياةُ القَلبِ، وَلِهَذا جَعَلَ اللهُ سُبحانَهُ الكافِرَ مَيِّتًا غَيرَ حَيٍّ، كَما قالَ تَعالى: « أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ » (سُورَةُ النَّحل: ٢١).

فَالحَياةُ في الحَقيقَةِ حَياةُ القَلبِ، وَعُمرُ الإنسانِ مُدَّةُ حَياتِهِ فَلَيسَ عُمرُهُ إلَّا أَوقاتَ حَياتِهِ بِاللهِ، فَتِلكَ ساعاتُ عُمرِهِ... وَبِالجُملَةِ، فَالعَبدُ إذا أَعرَضَ عَنِ اللهِ وَاشتَغَلَ بِالمَعاصي ضاعَتْ عَلَيهِ أَيّامُ حَياتِهِ الحَقيقيَّةُ الَّتي يَجِدُ غِبَّ إضاعَتِها يَومَ يَقولُ: «يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى» (سُورَةُ الْفَجْرِ: ٢٤) اهـ الداء والدواء ص: ٥٤-٥٥.

العناية بخواتيم العمر والعمل

قال ابن القيم: (العُمر بآخره وَالعَمَل بخاتمته؛ من أحدث قبل السَّلام بَطل مَا مضى من صلاته؛ وَمن أفطر قبل غرُوب الشَّمْس ذهب صيَامه ضائعا؛ وَمن أَسَاءَ في آخر عمره لقى ربه في ذَلِك الْوَجْه اهـ الفوائد لابن القيم ٦٣.

اعتزال الناس إلا في الخير، كصلة الرحم، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، وغيرها من أبواب الخير.

ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كان يذهب إلى الفلوات بحثا عن الخلوات ويردد:

وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك القلب بالسر خاليًا

إن العزلة التي بغير عين العلم علة وبغير زاي الزهد زلة قد تضر من حيث يرجى نفعها فلتكن بهما وبقدر معلوم.

أما الاختلاط الذي لا نفع من ورائه فإنه كم نسخ من مودة ونسج من عداوة وأوقع في بلية وأورث من خزية، وعجّل من منية، وأجرى من عَبْرة، وأحضر من حسرة ؛ فلا تتماروا بالنذر.

إدراك قصر أعمارنا، وكثرة وتزاحم أعمالنا، ومن علم ذلك كيف يستحل أن يضيع وقته سدى وأن يهدره عبثًا؟

قال ابن القيم: (مُدَّة الْعُمر الَّتي هِيَ بالإضافة إلى الآخرة كنَفس وَاحِد من أنفاسها) اهـ الداء والدواء ص ٩٥.

ومن أدرك قصر عمره اجتهد في عمل الآخرة وسعى لها سعيها وجعل للدنيا فضل وقته.

قال عون بْن عَبد اللَّه: إن من كان قبلنا كانوا يجعلون لدنياهم ما فضل عَنْ آخرتهم، وانكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فضل عَنْ دنياكم (تهذيب الكمال ٢٢/٤٥٩). هذا ما تيسر وبالله ثقتنا وعليه المعتمد وصلى الله وسلم على نبينا محمد والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.

Upload by: altawhedmag.com

صَوْنُ اللِّسانِ عن الكَلامِ في العُلَماءِ والأعيانِ

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمدُ للّه والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن ولاه، وبعدُ:

قيمةُ العلماء:

فإن الله جعلَ العلماءَ للأمَّة حصنًا حَصينًا، ورُكنًا رَكينًا، وسراجًا وهَّاجًا لا ينطفئُ، وقمرًا منيرًا يُهْتدَى به في ظُلمات الفتَن، ولعمر الحقّ هذه منزلةٌ هم أحقُّ بها وأهلُها ؛ فَهُمْ يَحْمُونَ الأمَّةَ من الجهَالة المُردية، والضَّلالة المتردِّية، وكم من معضلاتٍ ومشكلاتٍ نَزَلَتْ بالأمَّة فكَّ اللّه بهم رُمُوزَها، حتَّى أسفرَ الحقُّ فيها عن مَحْضه، وأبْدَى الليلُ عن صُبْحه، فكانُوا حقًّا هُم المَلْجأ إذا نَزلَت المُعضلة.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ صَالح: أعضَلت الرَّشيدَ مَسْأَلَةٌ، فَجمَعَ لَهَا فُقَهَاءَ الأَرْض، حَتَّى أَشْخَصَ اللَّيْثَ، فَأَخْرَجَهُ منْهَا(السير ١٥٩/٨).

وأمر الله بالرُّجوع إليهم فقال: (فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧ وقال أيضا (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ) النساء: ٨٣ فالعلماء أمانٌ للأمَّة، مَنْ حفظَهُم سَادَ، ومَنْ ضَيَّعَهُم سَقَطَ وبَادَ.

حرمة أهل العلم في القديم

لقد كانَ العلماءُ قديمًا أولُي حُرمة، وذوي مهابة وجَلالة في النُّفوس، وإليكَ من ذلك صوراً مُضيئة مُشرقة ومُشرِّفة:

عَنْ أبي سَلَمَةَ:أَنَّ ابْنَ عَبَّاس قَامَ إِلَى زَيْد بن ثَابت، فَأَخَذَ لَهُ بركَابه، فَقَالَ: تَنَحَّ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُوْلِ اللّه -صَلَّى اللّه عَلَيْه وَسَلَّمَ-فَقَالَ: إِنَّا هَكَذَا نَفْعَلُ بِعُلَمَائِنَا وَكُبَرَائِنَا (السير ٤٣٧/٢).

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ سِيْرِيْنَ: جَلَسْتُ إِلَى عَبْد الرَّحْمَن بن أَبي لَيْلَى، وَأَصْحَابُهُ يُعَظِّمُوْنَهُ، كَأَنَّهُ أَمِيْرٌ (السير ٢٦٣/٤).

وكَمَا كَانَ هذا الإجْلالُ في أصْحَابِهم الذينَ يُقَدِّرونَ علْمَهم، كذلكَ كان أيْضًا في عامَّة الناس وسَوَادِهم الأعظم، سُنَّةٌ قد خلتْ من قبلُ.

ودونك في هذا المعنى مواقف مورقة غير مؤرقة:

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَعْظَمَ قَدْراً مِنْ أَبي مُسْهِر، كُنْتُ أَرَاهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى المَسْجِد، اصْطَفَّ النَّاسُ يُسَلِّمُوْنَ عَلَيْه، وَيُقَبِّلُوْنَ يَدَه (السير ٢٣٥/١٠)

وَقَالَ أَبُوشِهَاب: رَأَيْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْر انْقَطَعَ شِسْعُهُ فَخَلَعَ نَعْلَهُ الأُخْرَى وَهُوَ يَطُوفُ، فَلَمَّا رَآهُ القَوْمُ خَلَعُوا نِعَالَهُمْ اهـ (الحلية ٢٨٠/٤)

وقال أَشْعَثُ بنُ شُعْبَةَ المَصِّيصِيُّ قَدِمَ الرَّشِيْدُ الرَّقَّةَ،

Upload by: altawhedmag.com

فانْجفَلَ النَّاسُ خَلْفَ ابْنِ المُبَارَك، وَتَقَطَّعَت النِّعَالُ، وَارتَفَعَت الغَبَرَةُ، فَأَشرَفَتْ أُمُّ وَلَد لأَمِيرِ المُؤمنِينَ مِنْ بُرْجٍ مِنْ قَصْرِ الخَشَبِ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا؟قَالُوا: عَالِمٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ قَدِمَ.

قَالَتْ: هَذَا -وَاللهِ- المُلْكُ، لاَ مُلْكُ هَارُونَ الَّذِي لاَ يَجْمَعُ النَّاسَ إِلاَّ بِشُرَطٍ وَأَعْوَانٍ (السير ٨/٣٨٤).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ الأَخْرَمِ: سَمِعْتُ أَصْحَابَنَا يَقُوْلُوْنَ: لَمَّا قَدِمَ البُخَارِيُّ نَيْسَابُوْرَ اسْتَقْبَلَهُ أَرْبَعَةُ آلاَفِ رَجُلٍ رُكْبَاناً عَلَى الخَيلِ، سِوَى مَنْ رَكِبَ بَغْلاً أَوْ حِمَاراً وَسِوَى الرَّجَّالَةِ (السير ١٢/٤٣٧).

بَلْ كَانَ الخُلَفَاءُ وَالسَّلاَطِيْنُ يُجِلُّوْنَهُم وَيُنْزِلُوْنَهُم المَنَازِلَ العَالِيَةَ، وَهَاكَ طَرَفاً مِن ذَلِكَ مَنِيراً لا مُبِيراً:

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيْرُ: صَبَّ عَلَى يَدَيَّ بَعْدَ الأَكْلِ شَخْصٌ لاَ أَعْرِفُهُ.

فَقَالَ الرَّشِيْدُ: تَدْرِي مَنْ يَصُبُّ عَلَيْكَ؟قُلْتُ: لاَ، قَالَ: أَنَا؛ إِجْلاَلاً لِلْعِلْمِ (السير ٩/٢٨٨).

وقال الذهبي: كَانَ (أي السُّلطانُ الأَشْرَفُ) يُبَالِغُ فِي تَعْظِيْمِ الشَّيْخِ الفَقِيْهِ (يَعْنِي: اليُونِينِي)، تَوَضَّأَ الفَقِيْهُ يَوْماً، فَوَثَبَ الأَشْرَفُ، وَحَلَّ مِنْ تَخْفِيْفَتِهِ، وَرَمَاهَا عَلَى يَدَيِ الشَّيْخِ لِيُنَشِّفَ بِهَا، رَأَى ذَلِكَ شَيْخُنَا أَبُو الحُسَيْنِ، وَحَكَاهُ لِي (السير ٢٢/١٢٧).

وهكذا جرت أمورُ الأمة على السَّداد في الغالب مع أهل العلم، فقدْ كانَ من الأمور التي لا تخالجها شكوكٌ، ولا تُمازجُها ظُنونٌ، أنَّ العلمَ يُذكرُ بالنَّباهة أصحابُه، ويُنعتُ بالرَّجاحة طُلَّابُه، ويُستحقُّ الحمدَ عند كلِّ الفضلاءِ حاويه، ويُستوجبُ الثناءَ عندَ جميعِ العقلاءِ واعيه ؛ لأنَّهم - للهِ درُّهمْ - أحيَوا المكارمَ، وابْتَنَوُا المفاخرَ ؛ فالغيرةُ عليهم منْ جميلِ المكارمِ، بلْ هيَ أختُ الغيرةِ على المحارمِ.

وبلغَ الأمرُ بالمُصنِّفينَ ذكرُ توقيرهم في كُتبِ الاعتقادِ، وأصولِ الديانةِ.

قال الطحاوي: (وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِيْنَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِيْنَ - أَهْلِ الخَيْرِ وَالأَثَرِ، وَأَهْلِ الفِقْهِ وَالنَّظَرِ - لاَ يُذْكَرُوْنَ إِلاَّ بِالجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ) اهـ

وقَالَ ابنُ أبي العزِّ شارحًا هذا الكلام: (قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَعْدَ مُوَالاَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ مُوَالاَةُ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، خُصُوصًا الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ، يُهْدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، إِذْ كُلُّ أُمَّةٍ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا، إِلاَّ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ، فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالْمُحْيُونَ لِمَا مَاتَ مِنْ سُنَّتِهِ، فَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ، وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ، وَبِهِ نَطَقُوا) اهـ شرح الطحاوية ص: ٥٠٣.

حالُ الناسِ اليومَ مع عُلمائهم:

كان العلماءُ أشجارَ الوقارِ، ومعادنَ الاختبارِ، وأهلَ الفهمِ والاختيارِ ؛ لأنَّهم أهلُ البصيرةِ والفراسةِ، وأصحابُ الدِّفاعِ عن دينِهم، والقائمونَ عليه بالحراسةِ، ولم يزلْ أمْرُهم في عُلُوٍّ وارتفاعٍ حتَّى جرتْ في الأمَّةِ وقائعُ وأحداثٌ، وأمورٌ لم تَكُنْ في الحُسبانِ، وضَعُفَ أمرُ فئةٍ من النَّاسِ (غُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ) الأعراف: ١١٩ فأصبحَ الأمرُ على النَّقيضِ، تُشنُّ الغارةُ تلوَ الغارةِ على العُلماءِ، فليْسَ إلَّا طعنٌ وشتْمٌ، وعُدوانٌ ولَوْمٌ، تُجاهَ أهلِ العلمِ، من قليلي الفهمِ، وناقصي المُروءةِ، وبعضُهم رقيقُ الدِّيانةِ، (ويَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ).

فَساءَ ظنُّ الناسِ بالعلماءِ، وصارَ من لا يفقَهُ ولا يَنْقَهُ، يتكلمُ فيمَن انعقدتْ الكلمةُ على محبَّتِهم للهِ ورَسُولِه، وصَارُوا في مَعْنَاهُم كلمةَ إجماعٍ (قُلْ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

Upload by: altawhedmag.com

البقرة: ٩٣.

ومن أعاجيب هذه الأيام - وما أكثرها - أنَّه صار أهل السَّفه والْعَتَه يعيبُون أهل العلم، ممَّن ذاعت شهرتهم، وظهر صيتهم، هداهم الله، وإلَّا فضَّت أفواههم (إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ).

وما اجترؤوا على خوض هذه المزالق، والدخول فيها، والتي هي في حقيقتها فريةٌ بلا مريَة، إلا لأنَّ الشيطان قد استحوذ على بعض أهل زماننا بحيلة طُليت بطلاء الدِّين، تمويهًا على الجُهَّال والغافلين، وهي الكلامُ في أهل العلم وهي لعمر الحق محنةٌ عسيرةٌ، ظنُّوا أنَّها يسيرةٌ (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ).

فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون في عيبهم، فيلوُون ألسنتهم بالكلام ليحسبُوه من الحق وما هو من الحق، فلا يعمل عالم عملًا إلا عليه تغولُوا، ولا يقول الفاضل كلامًا إلا فيه تقوَّلُوا، حتَّى صارت عقولهم أسيرة للشياطين، وتحرير العقول أساسٌ لتحرير الجوارح والأبدان، ومُحالٌ أنْ يتحرَّر لسانٌ يحمل قلبًا أسيرًا، و(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) الفجر: ١٤.

فلا ظفرت يمينك حين ترمي
وشُلَّت منك حاملة البنان

(لسان العرب ٣/٢٠٨).

أصناف الطاعنين في العلماء:

الطَّاعنون في أهل العلم ليْسُوا سَواءً، فهُم ما بيْن مخدوع ومُخادِعٍ.

الصنف الأول: صنفٌ مخدوعٌ، مُكرٌ به بزيْف الدَّعاوى، وزيْغ الأقاويل، واستُدرج حتى أُوثق بحبال صيد، ووسائل كيد؛ فلا يكاد هؤلاء القوم يستطيعون فكاكًا، اللَّهُمَّ إلا إذا أزالوا عن قُلوب أقفالها، وهجروا قالة السوء، ومن يؤزُّونهم على الوقيعة أزًّا، مع النَّدم على كل فائت، والعمل على استنارة البصائر، ومع هذا فلابُدَّ من طلب المعُونة والتَّوفيق من الله تعالى، واستلهام الصَّواب منْه سبحانه، ذلك لأنَّ الله جلَّ وعزَّ قد جعل لكل شيْئ سببًا، فأتبع سببًا.

ومفتاح ذلك كله رفْعُ الشِّعار الرَّبَّاني (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) هود: ٨٨

وإنَّ ممَّا يشدُّ عضد هؤلاء على الرُّجوع، العلمُ بشديد العقاب على هذه الطُّعون التي تنزف لها قلوب، وتسحُّ بها عيونُ الدَّمع السَّخين.

فإذا علم مُسرف القوْل في العُلماء أنَّ عليْه من الله طليبًا، ومن أعْيُن الخلْق رقيبًا، ارْعَوى، وخاف سُوء العاقبة في الدُّنيا والآخرة.

عقاب الدُّنيا:

أمَّا في الدُّنيا فإنَّ من الحقائق الَّتي لا تُمانَع، والحُجج الَّتي لا تُدافَع: أنَّ (مَنْ جَرَّ ذُيُولَ النَّاس جرُّوا ذَيْلَه) ميزان الاعتدال ٤/٤١٠، فلا بُدَّ أنْ يَنزل به ما أنْزلَه بالنَّاس، ومَن حفَرَ لأخيه قليبًا وقَعَ فيه قريبًا (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) فاطر: ٤٣ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) يونس: ٢٣.

قال الذَّهبي في ترجمة الحافظ أبي نعيم الأصبهاني: (صدُوقٌ، تُكلِّم فيه بلا حُجَّة، ولكن هذه عقوبةٌ من الله لكلامه في ابن مَنْدة بهوًى) الميزان ١/١١١.

دفاعُ الله عن أهل العلم:

وانظر إلى دفاع الله عنْ أهل العلم وخُذْ من ذلك العبْرة.

قال بكْرُ بنُ مُنيْر: بعث الأميْرُ خالدُ بنُ أحْمدَ الذُّهْليُّ والي بُخارى إلى مُحمَّد بن إسْماعيْل أن احمل إليَّ كتاب (الجامع) و (التَّاريْخ) وغيْرهما لأسْمعَ منْك.

فقال لرسُوله: أنا لا أذلُّ العلْم، ولا أحْملُه إلى أبْواب النَّاس، فإنْ كانتْ لكَ إلى شيْء منْه حاجة، فاحضُرْ في مسْجدي، أوْ في داري، وإنْ لم يُعجبْك هذا فإنَّك سُلْطانٌ، فامنعني من المجْلس، ليكُوْنَ لي عذرٌ عنْدَ الله يوْمَ القيامة، لأنِّي لا أكْتُمُ العلْمَ لقول النَّبيِّ -صلَّى الله عليْه وسلَّم-: (مَنْ سُئل عنْ علْم فكتمَه أُلْجم بلجام من نار) فكانَ سببُ الوحشة بيْنهُما هذا.

فاسْتعان الأميْرُ بحريث بن أبي الوَرْقاء وغيْره، حتَّى تكلَّمُوا في مذْهبه، ونفاهُ عن البلد، فدعا عليْهم، فلمْ

Upload by: altawhedmag.com

يأتِ إلاَّ شَهْرٌ حتَّى وَرَدَ أَمْرُ الطَّاهِرِيَّة، بِأَنْ يُنَادَى عَلَى خَالِد فِي البَلَد، فَنُودِيَ عَلَيْه عَلَى أَتَان.

وَأَمَّا حُرَيثٌ، فَإِنَّهُ ابْتُلِيَ بِأَهْلِه، فَرَأَى فِيهَا مَا يَجِلُّ عَنِ الوَصْف.

وَأَمَّا فُلاَن، فَابْتُلِيَ بِأَوْلاَده، وَأَرَاهُ اللهُ فِيهِمُ البَلاَيَا اهـ (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥). بتصرف.

وَشَتَمَ رجلٌ فَقِيهَ المَغْرِب، أَبَاعَبْد اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بن عَبْدُوس - الذي أَقَامَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً يُصَلِّي الصُّبْحَ بِوُضُوءِ العِشَاء، وَكَانَ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّوَاضُع - فانظرْ في هذا السِّيَاق مَاذَا حاقَ بالرجُل.

(قِيلَ: أَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي الإِيمَان؟قَالَ: أَنَا مُؤْمِنٌ ؛ فَقَالَ: عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: أَمَّا عِنْدَ اللهِ فَلاَ أَقْطَعُ لِنَفْسِي بِذَلِكَ، لأَنِّي لاَ أَدْرِي بِمَ يَخْتِمُ لِي.

فَبَصَقَ الرَّجُلُ فِي وَجْهِه، فَعَمِيَ مِنْ وَقْتِه الرَّجُل) السير١٣/ ٦٤

هذه عبرٌ من خبر من عبر (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) القمر: ١٥ أم أنَّ أهلَ زماننا (سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ) (البقرة: ٦ - ٧).

وإذا كان هذا عقاب من بَهَتَ واحدًا من أهل العلم ؛ فكيف بِمَن بهَتَ ثلةً منْهُم، ومَنْ رَمَاهُم عَن قَوْس وَاحدة؟ نعُوذُ باللهِ منْ غَضَبِه وعِقابِه وشرِّ عبادِه.

ثم إنَّ هذا العقابَ قد يَعُمُّ الأمَّةَ لاسيَّما إذا دَبَّ إليها داءُ الأمم وحالقةُ الدِّين: البغضاءُ كما قال تعالى: (وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) الأنفال: ٢٥

إنَّ الأمةَ التي تجارتْ بها الأهواءُ فقطعتْ أوْصالَها، وسفَّهتْ حُكماءَها، وشتمتْ عُلماءَها أنَّى تُفلحُ؟!

عقابُ الآخرة:

وأمَّا عقابُ الآخرة فيكفي صاحبَهُ أنْ تَضيعَ عليْه حسَناتُهُ بردِّ المَظالم إلى أهلها يومَ التَّغابن، وهلْ أتاكَ خبرُ (المُفلسِ منْ أمَّتي)؟

إنَّه نَذيرٌ - واللهِ - فلا تتَمارَوْا بالنُّذُر، وإنَّها واللهِ القاصمةُ بلا عاصمة، فهَلْ من متدبِّر أمْ على قلوبٍ أقْفالُها؟!

الصنفُ الثاني: المخادعون للهِ ورسُوله، والغاشُّون لأمتِّهم ودينهم، وهؤلاءِ قومٌ وجبَ التَّحذيرُ منْهُم.

فهؤلاءِ القومُ لا يكادون يفْقهونَ إلا انتقاصَ دينهم، وعَيْبَ أهله خاصَّةً العُلَماء، الذين سارَتْ بفوائدهم الرُّكبانُ في الأمْصار، وطارتْ علومُهُم كلَّ مَطارٍ في البُلدان والأقْطار.

وهؤلاءِ المشؤومونَ لا يُحسنونَ إلا قَرْضَ الأعْراض، والتَّمضْمُضَ بالاعْتراض ؛ فيُوقِدُونَ نيرانَ الفتَن، لهُمْ أشْبهُ بمنافقي المدينة الذين ما تركُوا فضيلةً للمسلمينَ إلا دفَنُوها، ولا وَجَدُوا غميزةً إلا أذاعُوها (ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ) النساء: ١٤١ فأمثالُ هؤلاءِ لا نَزالُ نطَّلعُ على خائنة منْهُم.

وهؤلاءِ ليْس في قُلوبهم واعظُ اللهِ الذي في قلْبِ كلِّ مُسْلم، فلا يَصْلحُ معهم إلا دفْعُ باطلهم، وكبْتُ تنمُّرهم، وصدُّ هذا الزَّحف المهُول، وردُّ كلِّ متمرِّدٍ عنْ صرح الإسْلام المُمرَّد (فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (الأنفال: ٥٧)، و(إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: ٧).

علاجُ هذه الآفة:

وهذا يكُونُ بتَرْك الدَّوافع إليْها، واجْتنَاب الحوامل عَلَيْها، من الحسَد، والجدَل، وضيق العطَن والأفق، والاجْتراء على أهْل العلْم الذي يسْتَوْلد التَّجنِّي عليْهم والافْتراء، ومُجالسة مَرْضى القُلوب، وحُمَّى الأرْواح الذين لا يُنَال منهُم إلا حصُول العَار، ولحُوق الشَّنَار، وضيق الدِّيار، وغَلاءُ الأسْعار، فاللَّهُمَّ إنَّا نَشْكُو إليْكَ هذا الغُثاء.

وإلى ذكر التفصيل نلتقي في حلقة أخرى.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

صَوْنُ اللِّسانِ عنِ الكَلامِ في العُلَماءِ وَالأَعْيانِ

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمدُ لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن ولاه، وبعدُ:

فقد تحدثنا في العدد السابق عن حرمة أكل لحوم العلماء، ووجوب الكف عن الفضلاء، وفي هذا العدد نتناول -بإذن الله تعالى- سبل علاج هذه الآفة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

علاجُ هذه الآفة:

وَهَذَا يَكُونُ بِتَرْكِ الدَّوَافِعِ إِلَيْهَا، وَاجْتِنَابِ الحَوَامِلِ عَلَيْهَا، مِنَ الحسَدِ، وَالجدَلِ، وَضِيقِ العَطَنِ وَالأُفُقِ، وَالاجْتِرَاءِ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ الَّذِي يَسْتَوْلِدُ التَّجَنِّي عَلَيْهِم وَالافْتِرَاءَ، وَمُجَالَسَةِ مَرْضَى القُلُوبِ، وَحُمَّى الأَرْوَاحِ الَّذِينَ لا يُنَالُ منهُم إلا حصُولُ العَارِ، ولُحُوقُ الشَّنَارِ، وَضِيقُ الدِّيَارِ، وَغَلَاءُ الأَسْعَارِ، فاللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيكَ هَذَا الغُثَاءَ.

وُدُونَكَ ذِكْرُ التَّفْصِيلِ والتَّدْلِيلِ، ومَا يكُونُ من الشِّفَاءِ بِسَبِيلٍ:

١- تركُ المِرَاءِ والجَدَلِ العَقِيمِ:

وذلك بِتَنْزِيهِ النفسِ عَنْ مُمَارَاةِ السَّفِيهِ، وتَرْكِ مُنَازَعَةِ اللَّجُوجِ، والإِعْرَاضِ عَنِ الجَاهِلِينَ ورَحِمَ اللهُ رَجُلاً أَصْلَحَ مِن لِسَانِهِ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا » (أبو داود: ٤٨٠٠).

قال حجاجُ بن أَرْطَاةَ: ما خاصمتُ أحدًا قَطُّ، ولا جَلستُ إلى قَوْمٍ يَخْتَصِمُونَ (تهذيب الكمال ٥/٤٢٦) فإن اضطررْتَ إلى اعتزالِ الناسِ فافعلْ، ولكنْ كلُّ شيءٍ بمقدارٍ.

قِيلَ لِيزيدَ بن عبد الله بن الشِّخِّيرِ: ما كان مطرفٌ يصنعُ إذا هاجَ في الناسِ هيجٌ؟ قال: كانَ يلزمُ قعرَ بيته، ولا يَقْرَبُ لهم جمعةً، ولا جماعةً حتى تَنجلي لهم عَمَّا انجلَتْ (طبقات ابن سعد ٧/ ١٤٢ ترجمة: مطرف بن عبدالله).

٢- سعةُ الصَّدرِ

لا سيَّما عند الخلافِ، والخروجُ من دائرةِ

Upload by: altawhedmag.com

الجهل الضيقة العطن إلى سعة الفهم والأفق الذي يورث إنزال الناس منازلهم، واحتواء كل بما يناسبه، وعلى قدر الطاقة (ليُنفق ذو سعة من سعته) الطلاق: ٧، وأنت مع ذلك مؤمن بأن إرضاء الناس غاية لا تدرك، ومن له الحسنى فقط؟

٣- الحرص على تنقية الصدر من الحسد

قال تعالى: (أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ) النساء: ٥٤ وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا).

والتخلي عن ضغائن النفوس ؛ فإنها قاتلة لصاحبها قبل غيره، ولن يضر الحاسد إلا نفسه (وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ) البقرة: ١٠٢ (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى) آل عمران: ١١١، ومع الصبر والتقوى يذهب هذا كله كسراب بقيعة (وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا) آل عمران: ١٢٠.

ومن عقاب الحاسد ما ذكره الحصكفي الإمام الحنفي في «الدر المختار»: (من زرع الإحن حصد المحن، والحسد حسك من تعلق به هلك، وكفى للحاسد سورة الفلق في اضطرامه بالقلق، ولله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله) و« إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ » الفجر: ١٤.

إن الله قسم الأرزاق بين عباده وخص بفضله من شاء منهم قال تعالى: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ » يوسف: ٥٦ وقال أيضا: « لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » الحديد: ٢٩.

هاهو العَلَم الهمام الليث بن سعد إمام أهل مصر كان أفقه من إمام دار الهجرة مالك بن أنس، إلا أن الحظوة والصيت والشهرة كانت لمالك، والناس مراتب (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) الصافات: ١٦٤ و(قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا) الطلاق: ٣، وكلما ارتقى المرء في المنازل العالية، وكان قوي الديانة كلما خلا قلبه وسلم من الآفات.

كلما ارتقى المرء في المنازل العالية، وكان قوي الديانة كلما خلا قلبه من الآفات.

لا يحمل الحقد من تعلو به الرُّتَبُ
ولا يَنَال العُلَا مَنْ طَبْعُهُ الغَضَبُ

والتحلي بالرضا برزق الله وقدره شيئ من الإيمان الذي يقذفه الله في قلب من شاء من عباده «أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون « الزخرف: ٣٢ « وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ » « النحل: ٧١» فلا يُنال الرضا بالسهام، ولا يُقسم بالأزلام، ولا يُورث عن الآباء والأعمام، كما لا يناله ذوو الأحقاد واللئام، بل هو زرع لا يزكو إلا إذا صادف من القلب صعيدا طيبا، ومن التوفيق مطرا صيبا، ومن استمد من الله السداد، وسأله التوفيق لسلوك سبيل الرشاد، رجع صائبا لا خائبا، والله الموفق لا رب سواه.

Upload by: altawhedmag.com

٤- عدمُ الأخذ والسماع إلا من أهل الحكمة وذوي البصائر

فإنَّ القلوبَ متقلبةٌ، والنفوسَ نقَّالةٌ من حال إلى حال (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) الانشقاق: ١٩، والناسُ صارُوا يتبعونَ كلَّ ناعق ممَّن (لَمْ يَكُنْ عَلَيْه ضَوْءٌ في دينه) كما يقول الذهبي في معجم الشيوخ (٢/٥٨)، وكمْ سمعَ الناسُ كَلامَ رجلٍ سفيهٍ في صورة حكيم، ومعتوهٍ في مسْلاخ عَاقلٍ؛ فأصَابَتْهم مَصَائبُ، ووَصَمَتْهمْ معايبُ، حَتَّى أضْحَى بابُ الصوابِ كأنَّ المرءَ عنه مصدودٌ، وطريقُ الحق عنَّا كأنه مسدودٌ.

٥- إن العلماءَ ليسوا فوقَ النقد

فكلٌّ يؤخذُ منهُ ويُردُّ عليه خَلا رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ، لَكِنْ إذَا وَجَبَ ذَلكَ فَلْيكُنْ مِنْ أهله، ولْيَحْسن القصدُ؛ فَإذَا وَقَفْنَا عَلَى شَيء منْ ذَلكَ بالنَّقْد والتَّمْحيص، فَلَا يَكُن البَاعثُ الازْدراءَ والتَّنْقيصَ، بَلْ يُرادُ الإصلاحُ مَا اسْتَطَعْنَا، ثُمَّ إمْسَاكٌ بمعْرُوف، أو تَسْريحٌ بإحْسَان.

ورَحِمَ الله أبَا عبدالله الشَّافعيَّ الذي قَالَ: مَا نَاظَرْتُ أحَداً عَلَى الغَلَبَة إلاَّ عَلَى الحَقِّ عنْدي.

وَقال أيضًا: مَا نَاظَرْتُ أحَداً إلاَّ عَلَى النَّصيحَة (السير: ١٠/ ٢٩).

ومنَ المهمات في هذا الشأن استصحابُ الإنصاف فإنه يحولُ بين المرءِ وشرورِ نفسه، وسيئات أعْماله.

قالَ ابن القيم: (والمنْصفُ يَهَبُ خَطَأ المخْطئ لإصَابته، وسيئَاته لحسناته؛ فهذه سنة الله في عبَاده جزاءً وثوابًا، ومنْ ذَا الذي يكُونُ قولُه كلُّه سديدًا، وعملُه كلُّه صوابًا، وهلْ ذلكَ إلا المعصومُ الذي لا يَنْطقُ عن الهَوَى، ونطقُهُ وحيٌ يُوحَى؛ فمَا صحَّ عنْه فهُو نقلٌ مصدَّقٌ عنْ قائلٍ معصوم، وما جَاءَ عن غَيْره فثبوتُ الأمرين فيه معدومٌ؛ فإن صحَّ النقلُ لم يكنْ القائلُ معصومًا، وإن لم يصحَّ لم يكنْ وُصولُه إليه معلومًا) اهـ من روضة المحبين ص/١٤.

وقـــدْ قُلتُ في موضع آخر من قبلُ: (إنَّ الاتِّصافَ بالإنصاف مطلبٌ عزيزٌ، من فَقَدَهُ فَقَدْ فَقَدَ، ومَن لَزِمَه وجَدَّ فيه وَجَدَ، والإنصافُ أنْ لا يَجْحَدَ المرءُ ما لغيره من فضل موافقًا كانَ أو مخالفًا، معاديًا كان أو مُوَالفًا، وأمَّا العصَبيَّةُ فهي مفْتَاحُ شرٍّ، إذْ هيَ جُحُودُ الفضائل، وإنكارُ الشمائل، وبها تُعْقَدُ ألويةُ الفتْنَة، وتُطلقُ أعنَّة المحنة، أعاذَنَا الله من الفتَن والمحَن جميعًا.

وَصَدَقَ مَن قَالَ:

ولم تَزَلْ قلةُ الإنصاف قاطعةً
بَيْنَ الرِّجالِ وإنْ كانُوا ذَوِي رَحِم

فيُصبحُ غيرُ المنصف خَصْمًا لإخوانه، وعَيْبَةَ افتراءٍ عليهمْ (وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) طه: ٦١، فيَعقُّهم ويشاقُّهم بدَلًا من إسداء الشكر لهُمْ، ورَحِمَ اللهُ ابنَ قتيبةَ حينَ شَكَى مثلَ ذلكَ بقوله: كُنَّا نُؤَمِّلُ شُكْرَ الناس بالتَّنبيه والدَّلالة، فصرْنَا نرضَى منْهُم بالسَّلامَة وفي اللهِ خلفٌ وهو المسْتَعانُ) اهـ.

ولله درُّ الذهبيِّ حينَ قَالَ: (أبَانُ بنُ تَغْلبَ الكُوفيُّ شيعيٌّ جِلْدٌ، لكنَّهُ صدوقٌ، فلنَا صدقُه وعليْه بِدْعَتُه) اهـ ميزان

إن العلماءَ ليسوا فوقَ النقد فكلٌّ يؤخذُ منهُ ويُرَدُّ عليه خَلا رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

Upload by: altawhedmag.com

الاعتدال ١/٥.

فتأمَّلْ هذه القاعدة؛ لَنَا صدقُهُ وعَلَيْه بدْعَتُه، فإنَّنا لو لَمْ نَأخُذْ حديثَه وحديثَ أضرابه لفاتَ منَ السُّنن شَيْءٌ غيرُ قليل، وكَذلكَ إذا فَقَدْنَا الإنصافَ فَاتَنَا من الخير مَا لَا يُحصي إلا اللهُ تَعَالَى، فاللهمَّ لا تحرمْنَا خَيرَ ما عندكَ بشرِّ ما عنْدنَا.

نصيحة:

فَيَا أخي!! جماعُ الأمرِ في نصيحةٍ مُوجَزةٍ أقولُ فيها:

تمسَّكْ بالسُّنَّة، وكُنْ من أَخْلاسِ البُيُوت (أي الملازمين لها) إلا في مصلحة راجحة، والزم الصَّمْتَ، ولا تَخُضْ فيمَا لَا يَعْنيك، ومَا أشْكلَ عليكَ فَرُدَّهُ إلى اللهِ ورَسُوله، فإن أعْيَاكَ فارفعْ يَدَيكَ إلَى بارئِ النَّسَم، وَجَالبِ النِّعَم، ورَافعِ النِّقَم، مُرَدِّدًا الدُّعَاءَ النبويَّ، والأثرَ المصْطفويَّ: (اللهُمَّ رَبَّ جبْرَائيلَ، وَميكَائيلَ، وَإسْرَافيلَ، فَاطرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عبَادكَ فيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلفُونَ، اهْدني لمَا اخْتُلفَ فيه منَ الْحَقِّ بإذْنكَ، إنَّكَ تَهْدي مَنْ تَشَاءُ إلَى صرَاطٍ مُسْتَقيمٍ) (رواه مسلم: ٧٧٠).

فإن عجزْتَ عَن الوصُولِ إلَى الحقِّ فلَا عليْكَ، فَليْس كلُّ العلم يَلْزَمُك الوصُولُ إلى الصواب فيه، ومعرفةُ راجحه من مَرجُوحه، وذرِ الطَّنْطنةَ لعُشَّاقِ المَظَاهرِ فإنهَا لا تَغُرُّ إلا السُّذَّجَ.

فَلَوْ لبسَ الْحمارُ ثيَابَ خَزٍّ لَقَالَ النَّاسُ: يَا لَكَ منْ حمار!

ودَعِ الدَّعْوى للمُتَشَبِّعينَ بمَا ليْسَ فيهمْ، فمَن ادَّعَى مَا ليسَ فيه فَضَحَتْه شواهدُ الامتحان، وَهَؤُلاء (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) المؤمنون: ٤٠.

وَإنْ رَغمَتْ أُنُوفٌ منْ أُنَاس فَقُلْ: يَا رَبِّ لَا تُرْغمْ سوَاهَا واللهُ من ورَائهم محيطٌ و(يَوْمَئذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطلُون)، ومَنْ نَظَر في العَوَاقب تلَقَّحتْ فُهُومُه وفَهم المآلات.

ستَعْلَمُ

إذا انْجلَى الغبارُ
أفَرَسٌ تَحتَكَ أمْ حمَارُ

هذا ما أردتُ إسداءَه لإخْواني، واللهُ سبحانَهُ عندَ مقَالة كلِّ قائل، وهُو وحدَه المسؤولُ أنْ يُصلحَ قصدي.

نَصَحْتُ لكمْ وإنَّ الدينَ نصحٌ
وَلَا أُخْفي نَصَائحَ وَاجبَات

ولنقتصرْ على ذلكَ مَعَ أنَّ الخَطْبَ شديدٌ، والحاجةَ إليه ملحَّةٌ، وهُوَ يَحْتَملُ أن تُكتبَ فيه كراريسُ، لكنَّ عُذْري أنِّي قَدْ أبْلَغْتُ حاجَتي، وأوْضَحْتُ حُجَّتي، وَليْسَ غَرَضُنَا الإسْهَابُ في القَوْل، والإطَالةُ في الكلام، بَلْ قَصْدُنا أن نَخْتَصرَ ونُكْمل، وأنْ نوضِّح ونُجْمل، وَلَو فَعَلْنَا ضدَّ ذلكَ لَ(قَطَعْنَا منْهُ طَمَعَ المُتحفِّظ، وباعدْناهُ من بُغْيَة المُتأدِّب؛ وتكلَّفنا من نَقْل الحديث، ما قَدْ وُقينَاهُ وكُفينَاهُ) اهـ مقدمة غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٣.

ألْهَمنَا اللهُ توقيرَ العلماء، ورعَايةَ حُرْمتهم، ورَزَقنَا سَدادًا من خَلَل، ونجَاةً من زَلَل، والحمدُ للهِ الذي بنعمتهِ تَتمُّ الصَّالحاتُ وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

تمسك بالسنة، وكن من أحلاس البيوت، إلا في مصلحة راجحة، والزم الصمت، ولا تخض فيما لا يعنيك.

Upload by: altawhedmag.com

أُصولُ مَكارِمِ الأَخْلاقِ وجَوامِعُها

الحلقة الأولى

مَآثِرُ الصِّدقِ وأَثَرُهُ في حَياةِ المُسلِمينَ

الحمد لله الذي علم بالقلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ومصابيح الظلم.. وبعدُ:

إعداد/ د. عماد عيسى

فقَدْ جاءَتْ جوامعُ أخلاق نبينا صلى الله عليه وسلم- والتي تُعَدُّ أصولَ الأخلاقِ الكريمة والشمائل النبيلة- في حديث بدءِ الوحي حينَ تحدثتْ خديجةُ الطاهرةُ الزكيةُ- رضي الله عنها- يومَ قالتْ قولةَ رُشْد حفظَهَا التاريخُ لها فلا تُنسَى عَلَى مَرِّ الدَّهْرِ: "إنَّك لتصلُ الرحمَ وتقري الضيفَ وتحملُ الكلَّ وتَكْسِبُ المعدومَ وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ" وفي بعض الروايات كما في فتح الباري ١/ ٢٥ (٣): "وتصدق الحديثَ وتؤدِّي الأمانةَ"

فأصولُ الأخلاقِ اجتَمَعَتْ في هَذَا الحديث، قَالَ الحافظ ابْن حَجَر رَحِمَهُ الله تَعَالَى: (ثُمَّ اسْتَدَلَّتْ عَلَى مَا أَقْسَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَفْيِ ذَلِكَ أَبَدًا بِأَمْرٍ اسْتِقْرَائِيٍّ وَصَفَتْهُ بِأُصُولِ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، لأَنَّ الإِحْسَانَ، إِمَّا إِلَى الأَقَارِبِ أَوْ إِلَى الأَجَانِبِ، وَإِمَّا بِالْبَدَنِ أَوْ بِالْمَالِ، وَإِمَّا عَلَى مَنْ يَسْتَقِلُّ بِأَمْرِهِ أَوْ مَنْ لا يَسْتَقِلُّ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مَجْمُوعٌ فِيمَا وَصَفَتْهُ بِهِ) اهـ فتح الباري ١/ ٢٤ (٣)

وَنَبْدَأُ بِأَجَلِّ الأَوْصَافِ وَأَشْهَرِهَا وَأَخَصِّهَا بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ خُلُقُ الصِّدْقِ كَمَا جَاءَ فِي الحديث: "وتَصْدُقُ الحَدِيثَ" فَقَدْ عُرِفَ الصِّدْقُ

Upload by: altawhedmag.com

عَنْهُ صلى الله عليه وسلم منْذُ طُفُولته وَصِبَاهُ فَضْلاً عمَّا بَعْدَ ذلكَ مِنْ مَرَاحِل عُمْره ودَعْوَته.

وفي صَحيح البُخَاري مِنْ حَديث ابن عباس رَضيَ اللَّه عَنْهُمَا في قصَّة أبي سفيان مَعَ هرَقْل، قَالَ هرَقْل: قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تتَّهمُونَهُ بالكذب قَبْلَ أنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ، ثم قال: وَسَألْتُكَ، هَلْ كُنْتُمْ تتَّهمُونَهُ بالكذب قَبْلَ أنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أنْ لاَ، فَقَدْ أعْرِفُ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ ليَذَرَ الكَذبَ عَلَى النَّاس وَيَكْذبَ عَلَى اللَّه اهـ.

من مآثر الصدق:

إنَّ الصدقَ عنوانُ سعادة العبد، وعلامةُ فلاحه في أولاهُ وأُخْراهُ، وهو لفظٌ رائقٌ ووصفٌ لائقٌ بكلِّ من عَرَف قيمتَه، وهو كلمةٌ عليها بهاءٌ ونورٌ، ومهابةٌ وجلالٌ، وطلاوةٌ وحلاوةٌ.

قال الفُضَيْل: لَمْ يَتَزَيَّن النَّاسُ بشَيْءٍ أفْضَلَ منَ الصِّدْق، وَطَلَبِ الحَلاَل (السير: ٨/٤٢٦) وهو منزلةٌ عاليةٌ يُسمَّى أهلُها الصديقون، فهو لقبُ أهلها واليه يُنسبون فما أشرفه من نسب،

قال ابن القيم: وَلذَلكَ كَانَ لأبي بَكْر الصِّدِّيق رَضيَ اللَّه عَنْهُ وَأرْضَاهُ: ذرْوَةُ سَنَام الصِّدِّيقيَّة، سُمِّيَ الصِّدِّيقَ عَلَى الإطْلاَق، وَالصِّدِّيقُ أبْلَغُ منَ الصَّدُوق وَالصَّدُوقُ أبْلَغُ منَ الصَّادق اهـ مدارج السالكين ٢/٢٥٨.

وهو من الصفات التي تُعقدُ عليها مراشدُ الأمة، فما أفلحتْ أمةٌ إلا بصدقِ أبنائها وأجيالها،

> إن الصدق عنوان سعادة العبد وعلامة فلاحه في أولاه وأخراه.

وهذا ما يُفسِّر بقاءَ أمتنا- في قرونها الأولى الفاضلة- عالية على كل أمة وفائقة كلَّ حضارة، ولكمْ قيلَ في كثيرين منهم - سقى الله أيامَهم الخالية ومجالسَهم الراوية-: كَانَ مِنْ مَعَادن الصِّدْق، ومن هؤلاء: الرَّبيعُ بنُ خُثَيْم، وعمرو بن مرة، ومُحَمَّدُ بنُ المُنْكَدر، وغيرهم، كما قيل في كثيرين أيضا: من أوعية الصِّدْق، وكان يتحرى الصدق.

وهذا واضحُ الدلالة على أنَّ القومَ لم يُؤتوا من قِبَلِ الصدق فقدْ كانَ وافرًا لديهم ميسورًا لهم، كما كانُوا مُعَانينَ على تَحْصيله.

والصِّدْقُ هو رأسُ الفضائل، وأسُّ الشَّمَائل، وقائدٌ إلى كلِّ خير، وقاتلٌ لكلِّ شرٍّ وضير، ومِلاَكُ الصفات الحميدة، ووِعاءُ الخصال المجيدة، وهو من أرسخ الأخلاق عِرْقًا، وأطيبها عَذْقًا، فرعُه باسقٌ من دَوْحة الأخلاق، وطلعُهُ نَضيدٌ في حدائق الفضائل، وزهْرَته عَبِقةٌ من روضة المكارم.

أوَلَمْ يكفنا قَوْلُ نَبيِّنا - صلى الله عليه وسلم - " إنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ وإنَّ البرَّ يَهْدي إلى الجنة "؟! رواه البخاري ومسلم

فأكرمْ بفضيلة تَدْعُو إلى دَارِ السَّلام، وأنعمْ بخَصْلة تَدُلُّ على دَارِ المُقَامَة والإنْعَام، يَسلُكُ بها صَاحبُها سبلَ المكارم ذُلُلاً، لا يبْغي عنْها حوَلاً، ولا يَرْضَى بسوَاهَا بَدَلاً.

إنَّ الصدقَ أنفسُ بضاعة وأفضلُ تجارة، لكنَّه لما عزَّ جانبُه كثر مجانبُه، فلا يَصل إلى الله من هَجَرَهُ، ولا يُقَدِّم عندَ اللَّه مَنْ أهْمَلَه وأخَّرَهُ، فالصدقُ شيءٌ عزيزٌ، ونعتٌ نفيسٌ كالذهب الإبريز.

قال الذهبي- في كلام له ممتع-:

فَقَدْ تَرَى الرَّجُلَ وَرِعاً في مَأكله، وَمَلْبَسه، وَمُعَامَلَته، وَإذَا تَحدَّثَ يَدْخُلُ عَلَيْه الدَّاخلُ منْ حَديْثه، فَإمَّا أنْ يَتَحرَّى الصِّدْقَ، فَلاَ يَكْمُلُ الصِّدْقُ، وَإمَّا أنْ يَصْدُقَ، فَيُنَمِّقَ حَديْثَه لِيُمدحَ عَلَى الفَصَاحَة، وَإمَّا أنْ يُظهرَ أحْسَنَ مَا عنْدَهُ لِيُعَظَّم، وَإمَّا أنْ يَسكُتَ في مَوْضع الكَلاَم لِيُثْنَى عَلَيْه، وَدَوَاءُ ذَلكَ كُلِّه الانْقطَاعُ عَنِ النَّاس، إلاَّ منَ الجَمَاعَة اهـ (السير: ٨/٤٣٤)

وهذا الكلام من الذهبي كلام فائق رائق لا يتدبره إلا كل ذائق كما أنه دالٌ على دراية بالنفوس وعللها، فرحم الله مؤرخ الإسلام الذهبي الذي برأه الله مما قالوا عن جمود المحدثين وكودنة النقلة.

ولا عجب من شأن الذهبي

Upload by: altawhedmag.com

فقد كان من تلامذة الإمام الهمام حسنة الأيام شيخ الإسلام ابن تيمية صاحب الأحوال الرشيدة، والمطارحات السديدة، والمجاهدات الحميدة، ألحقنا الله بهم على أحسن حال ورزقنا مجاورتهم في دار السلام.

ولله درُّ إمام الكوفة وكيع بن الجرَّاح حين جَمَعَ الصدقَ في كلمة فقال: الصِّدْقَ النِّيَّةَ (الجرح: ١/٢٢٣، السير: ٩/١٥٨)

والصدق هو الغاية من كل شيء ومنتهاه قال الشافعي: غايةُ كلِّ أمرِ الصِّدْقُ (السير: ١٠/٤١) لهذا يكون السؤال عنه يوم القيامة، قال تعالى: " لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا " الأحزاب-٨، ثم يكون عليه الجزاء قال تعالى: " لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا " الأحزاب-٢٤.

والصدقُ صفوٌ لا كدرَ فيه، ونقاءٌ لا شوْبَ فيه، من وُفِّقَ إليه وألْهَمَه لم يأتم بسواه، ولم يحكم إلا إياه، بل يتخذه موردًا لا يتعداه، وسبيلاً لا يتخطاه، ما استطاعت إلى ذلك قواه، وقدر ما سعت إليه خطاه.

أمَّا مَنْ قَلَّ أخذه به، وضعُفَ سيرُهُ خلفَه؛ فقصُرَ فيه باعُه، وتقاصرَ عن جَنْيِ ثمارها ذراعُه، فقدْ فاتَتْه أهمُّ الفضائل.

والصَّادقُ صديقُه مَنْ صَدَقَهُ ولَوْ كانَ البعيدَ المَناوِيا، وعدُوُّه

> **" الصدق صفو لاكدر فيه ، ونقاء لاشوب فيه ، من وفق إليه لم يحكم إلا إياه . "**

مَنْ كَذَبَهُ ولَوْ كانَ القريبَ المُصافيا.

وفي جُمْلَة الأمْر يَعْتَرفُ المرءُ بتقْصيره في وَصْف هذه الخَصْلَة الزَّكيَّة، التي مَهْمَا تَفاصحَ وأبْلَغَ في الثَّناء لَمْ يَبْلُغْ مُرادَه منْها ولَمْ يُوفِّها حقَّها حتَّى ولَوْ كانَ منْ خُطباء إيَاد أوْ فُصَحاء قَوْم عَاد.

فضل الصدق:

جمعَ ابنُ القيِّم فضائلَ الصدقِ في كلامٍ وجيزٍ فقال في مَدارج السَّالكين:

مَنْزلَةُ الصِّدْق وهيَ مَنْزلَةُ القَوْم الأعْظَم، الَّذي منْهُ تَنْشأ جَميعُ مَنازل السَّالكين،

والطَّريقُ الأقْوَمُ الَّذي مَنْ لَمْ يَسرْ عَلَيْه فَهُوَ منَ المُنْقطعين الهَالكين.

وبه تَميَّزَ أهْلُ النِّفاق منْ أهْل الإيمَان، وسُكَّانُ الجنَان منْ أهْل النِّيران.

وَهُوَ سَيْفُ اللَّه في أرْضه الَّذي مَا وُضعَ عَلى شَيْءٍ إلاَّ قَطَعَهُ، ولاَ وَاجَهَ بَاطلاً إلاَّ أرْدَاهُ وصَرَعَهُ، مَنْ صَالَ به لَمْ تَرُدَّ صَوْلَتُهُ، وَمَنْ نَطَقَ به عَلَتْ عَلَى الخُصُوم كَلمَتُهُ.

فَهُوَ رُوحُ الأعْمَال، وَمَحَكُّ الأحْوَال، وَالْحَامِلُ عَلَى اقْتحَام الأهْوَال، وَالْبَابُ الَّذي دَخَلَ منْهُ الْوَاصلُونَ إلَى حَضْرَة ذي الْجَلاَل.

وَهُوَ أسَاسُ بنَاء الدِّين، وَعَمُودُ فسْطَاط الْيَقين.

وَدَرَجَتُهُ تَاليَةُ لدَرَجَة النُّبُوَّة الَّتي هيَ أرْفَعُ دَرَجَات الْعَالمينَ، وَمنْ مَسَاكنهمْ في الْجنَّات تَجْرَى الْعُيُونُ وَالأنْهَارُ إلَى مَسَاكن الصِّدِّيقينَ. كَمَا كَانَ منْ قُلُوبهمْ إلَى قُلُوبهمْ في هَذه الدَّار مَدَدٌ مُتَّصلٌ وَمَعينٌ.اهـ

طلب الصدق:

لعظيم منزلة الصدق (أمَرَ اللَّه تَعَالَى رَسُولَهُ: أنْ يَسْأَلَهُ أنْ يَجْعَلَ مُدْخَلَهُ وَمُخْرَجَهُ عَلَى الصِّدْق. فَقَالَ « وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا » (الإسراء: ٨٠) وَأخْبَرَ عَنْ خَليله إبْرَاهيمَ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، أنَّهُ سَألَهُ أنْ يَهَبَ لَهُ لسَانَ صدْق في الآخرينَ. فَقَالَ «وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ» (الشعراء: ٨٤) اهـ مدارج السالكين ٢/٢٦٠ – ٢٦١)

أنواع الصدق:

الأوَّل: صدْقُ المَنْطق واللِّسان:

صدْقُ اللِّسان هُوَ رَأسُ مَال العَبْد فَإنْ حَفظَهُ رَبحَ، وإنْ فَقَدَهُ فَقَدْ فَقَدَ.

وقَالَ إسْحَاقُ بنُ مُحَمَّد: الصِّدْقُ مُوافقَةُ الحقِّ في السِّرِّ وَالعلاَنيَة، وَحقيقَةُ الصِّدْق القَوْلُ بالْحقِّ في مَوَاطن الهَلَكَة (السير: ١٥/٢٣٣)

Upload by: altawhedmag.com

وقال ابن القيم: الصِّدْقُ في الأَقْوَال: اسْتِوَاءُ اللِّسَان عَلَى الأَقْوَال، كَاسْتِوَاء السُّنْبُلَة عَلَى سَاقِهَا. اهـ مدارج السالكين

مَنْ صَدَقَ في مَقاله دَخَلَ كلامُهُ الأُذُنَ بلا إذْن، وانشَرَحَ لحديثه القلبُ وانفَسَحَ، وهَذا شَأْنُ كُلِّ صادق، فما صَدَقَ عَبدٌ مع الله إلا أقبَلَ بقُلوب النَّاس عَليه، لأنَّ الصِّدقَ يَأسِرُ النُّفوسَ من حيثُ لا تَشعرُ، قال محمد بْنُ وَاسع، قَالَ: إذَا أَقْبَلَ العَبْدُ بقَلْبه عَلَى اللَّه، أَقْبَلَ اللَّه بقُلُوب العِبَاد عَلَيْه (السير: ١٢١/٦)

وَرُوِيَ: أَنَّ قَاصًا كَانَ يَقْرَبُ مُحَمَّدَ بنَ وَاسع، فَقَالَ: مَا لي أَرَى القُلُوْبَ لا تَخشعُ، وَالعُيُوْنَ لا تَدمعُ، وَالجُلُوْدَ لا تَقشعرُّ؟ فَقَالَ مُحَمَّدٌ: يَا فُلانُ! مَا أَرَى القَوْمَ أتوا إلا مِنْ قِبَلِكَ، إنَّ الذِّكْرَ إذَا خَرَجَ مِنَ القَلْبِ وَقَعَ عَلَى القَلْبِ (السير: ١٢٢/٦)

وَلا يَستَطيعُ غَيرُ الصَّادقينَ أنْ يتسوَّرُوا حَرَمَ الصدقِ يَخبُونَ فيه ويَضَعونَ لأنَّ اللَّه يجعل بينَه وبينهمْ حجَابًا مَستورًا يَدفَعُ افتراءَ المفترينَ، وتَقَوُّلَ المتَقَوِّلينَ، ويُلجِمُ أفْواهَهم، ويَرُدُّ أهواءهم.

إنَّ الصدقَ رَاحَةٌ للقلب لما عليه من طلاوةٌ، ولما له حلاوةٌ، ولهذا كَانَ النبي- صلى الله عليه وسلم - يَقُوْلُ في جوامع كلمه: (دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إلى مَا لا يَرِيْبُكَ، فَإنَّ الصِّدْقَ طُمَأنِيْنَةٌ، وَالكَذِبَ رِيْبَةٌ) رواه الترمذي

وَلله دَرُّ القَائل عَنِ العِلْم- وأظُنُّهُ وَكِيعًا-: هَذِه صِنَاعَةٌ

> إن الصدق راحة للقلب لما عليه من وطلاوة ولما له حلاوة.

(أَيْ العِلْم) لا يُفْلِحُ فيهَا إلاَّ الصَّادقُوْنَ.

فَالصِّدْقُ يُصلِحُ كُلَّ شَيْئٍ ولا يَصْلُحُ لكل شيء.

والقُلُوبُ الصَّادقَةُ الصَّحيحَةُ يُقبلُ كَلامُ أصْحَابِها وَلَوْ كَانتْ غَيْرَ فَصيحَة ؛ لأنَّ الكَلامَ قَبْلَ أنْ يَكُونَ بلَفْظه يَكونُ بمَعْنَاهُ وفَحْواهُ، وصِدْقُ قَصده ومَغْزَاه، وكَمْ مِنَ النَّاس مَنْ يَكتَسي من بلاغَة الكسَائي - اللغوي الشهير- بكساء، ويرتدي من فصاحة الفرَّاء - اللغوي المعروف- بفراء، ومع ذلك فكلامه مرغوبٌ عنهُ لا فيه، يُجعل دَبْرَ الأذن، وربَّما تَحْتَ القَدَم، لفُقْدَانه الصِّدْقَ الذي هو عِمَادُ قَبُولِ القَوْلِ وعُمُودُه فاللَّهم غُفْرًا.

يَا أخي!! لا تَغْتَرَّ بزخرف الألفاظ حتى تَرَى - أو يَرَى لَكَ متأهلٌ- ما وَرَاءَهَا، فإنها ألفاظٌ لها فتنةٌ ورنينٌ، مملوءةٌ وهْمًا وإيهامًا، تَضْطَرِمُ كما تضطرم الجمرةُ، ثم تجِدُها طَبْلاً فارغًا من المعاني، وزِقًا منفوخًا ملؤهُ هَوَاء لا فائدةَ منهُ، وتَأخذُ بكَ إلى كل فاتكَ، وتَسْلُكُ بكَ سبيل المهالك.

الثاني: صِدْقُ الأعمال:

وهو الصدقُ العمليُّ الذي يَعْذُبُ ذِكْرُه عَلَى القَلْبِ واللسَان، ويَهْدي صاحبَه إلى التَّمَسُّك بالطاعات والعضِّ عليها بالنَّواجذ وشَغْل وقْته بها حتى تُصبحَ حَيَاتُه مُزْدَحِمَةً بالعَمل الصَّالح بحيثُ لا يَستطيعُ أنْ يَفْرُغَ مِنْ أوْراده وأحواله مع اللَّه، وإنْ فَرَغَ مِنْ عَمَلٍ نَصَبَ إلى غَيْرِه، فَلا يَمْلكُ أنْ يُضَيِّعَ مِنْ وَقْتِه شَيْئًا، ومِثْلُ هَذا الصِّنْف مِنَ النَّاس- مَعَ شِدَّة مُعَاناته وَاجْتهاده- تَجِدُهُ أسْعَدَ النَّاس قَلْبًا، وأشْرَحَهم صَدْرًا، وأطْيَبَهم نَفْسًا، وأعْظَمَهُم طُمَأنِينَةً وأسرَّهم خَاطِرًا، لا يَمْشي إلاَّ في سَدَاد، ولا يَسْلكُ إلاَّ سَبيلَ الرَّشَاد، وهَذه أمُورٌ تَحْتَاجُ إلى الشَّرح الكَافي والبَيَان الشَّافي طَلَبًا للأجْر الوَافي وإلَيْكَ ذَلكَ مَعَ إمَام هَذا الشَّأن وهُوَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّه:

قَالَ ابنُ القَيِّم: وَالصِّدْقُ في الأعْمَال: اسْتِوَاءُ الأفْعَال عَلَى الأمْر وَالمُتَابَعَة، كَاسْتِوَاء الرَّأس عَلَى الجَسَد.

وَلهذا أخْبَرَ تَعَالى عَنْ أهْل البِرِّ، وَأثْنَى عَلَيْهِمْ بأحْسَن أعْمَالهمْ: مِنَ الإيمَان، وَالإسْلام، وَالصَّدَقَة، وَالصَّبْر، بأنَّهُمْ أهْلُ الصِّدْق فَقَالَ:

«وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ

Upload by: altawhedmag.com

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ »
(البقرة: ١٧٧)

وَهَـذَا صَـرِيحٌ فِي أَنَّ الصِّدْقَ بِالأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَأَنَّ الصِّدْقَ هُوَ مَقَامُ الإِسْلاَمِ وَالإِيمَانِ اهـ

الثالث: الصِّدْقُ في الأَحْوَالِ

اعلَمْ أَيُّها المُسترشِدُ: أَنَّ مِن البدائه المسلَّمة التي لا شَيَةَ فيها والأظهرُ ظهورًا من الشمس الساطعة في ضُحاها أَنَّ استقامَةَ القلب هي مِلاكُ الأمْرِ كُلِّه، وصِدْقُ الحالِ هُوَ اسْتِقَامَةُ القَلْبِ بالإِخْلاَصِ وحُبِّ السُّنَّة والمتابَعَة وبَذْلِ الجُهْدِ بالاجْتِهَادِ في الأَعْمَالِ الصَّالِحَة، ومَنْ جَمَعَ الأَمْرَيْنِ معًا فَقَدْ بَلَغَ المَنْزِلَ «وإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ».

قَالَ ابنُ القَيِّم: الصِّدْقُ في الأَحْوَالِ: اسْتِوَاءُ أَعْمَالِ القَلْبِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى الإِخْلاَصِ، وَاسْتِفْرَاغُ الوُسْعِ، وَبَذْلُ الطَّاقَة، فَبِذَلِكَ يَكُونُ العَبْدُ مِنَ الَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ، وَبِحَسَبِ كَمَالِ هَذِهِ الأُمُورِ فِيهِ وَقِيَامِهَا بِهِ: تَكُونُ صِدِّيقِيَّتُه، وَلِذَلِكَ كَانَ لأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: ذُرْوَةُ سَنَامِ الصِّدِّيقِيَّة، سُمِّيَ الصِّدِّيقَ عَلَى الإِطْلاَقِ، وَالصِّدِّيقُ أَبْلَغُ مِنَ الصَّدُوقِ وَالصَّدُوقُ أَبْلَغُ مِنَ الصَّادِقِ اهـ

الصِّدْقُ مع الله:

الصِّدْقُ مَعَ اللهِ تَعَالَى مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ مَا أَسْنَاهَا وَأَحْلاَهَا، وَخَصْلَةٌ بَهِيَّةٌ مَا أَجَلَّهَا وَأَجْلاَهَا،

> إن استقامة القلب هي ملاك الأمر كله وصدق الحال هو استقامة القلب بالإخلاص وحب السنة والمتابعة.

وإِذَا أَخَذَ العَبْدُ بالصِّدقِ وعَامَلَ اللهَ بِهِ وعَرَفَ قَدْرَ الصِّدقِ وَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِه، جعلَه اللهُ للناسِ إمامًا، ونَصَبَهُ لَهُم عَلَمًا هماما، وهل عَلاَ مَنْ عَلاَ، وارتفع من ارتفع إلا بالصدق؟!

عَنْ مَالِكِ بنِ دينار، أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ، قِيلَ لَهُ: مَا بَلَغَ بِكَ مَا نَرَى؟ قَالَ: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الأَمَانَةِ، وَتَرْكِي مَا لاَ يَعْنِينِي (الحلية: ٦/٣٢٨)

أَمَّا الذينَ كَذَبوا اللهَ ورسولَه فباعُوا بَاقِيًا بِفَانٍ ونَفِيسًا بِخَسِيسٍ وعَظِيمًا بِحَقِيرٍ فَهَؤُلاَءِ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ والقَاعِدِينَ فَمَاذَا يَفْعَلُ اللهُ بِهِمْ وَقَدْ آثَرُوا الْكَذِبَ عَلَى الصِّدْقِ وَاهْتَمُّوا بِالْمَظْهَرِ وَتَرَكُوا الْمَخْبَرَ وَرَاءَهُم ظِهْرِيًّا؟!

وإنما يُكال للعبد بمثل ما كال بَخْسًا ببخس، وإيفاءً بإيفاء فمَنْ وَفَّى وُفِّيَ لَهُ ومَنْ طَفَّفَ طُفِّفَ عَلَيْه.

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرِمُ ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ هَؤُلاَءِ الْكَذَبَةِ الذينَ إِذَا تَصَبَّحَ المَرْءُ بِطَلْعَةِ أَحَدِهِم مَا حَيَّاهُ وَلاَ فَدَاهُ، بَلْ أَبْغَضَهُ فيه وعَاداهُ، وتَعَوَّذَ باللهِ ممَّن لا يُفلِحُ في دينه ولا دُنْيَاهُ.

وهَذا موقفٌ -واللهِ- يَنْصَدِعُ منهُ قلبُ المؤمنِ ويَهُزُّ رَأْسَه طَرَبًا ويُقَلِّبُ كَفَّيْه عَجَبًا مِن بُلُوغِ الصِّدْقِ هَذَا المَبْلَغ.

عنْ هشامِ بنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيه، عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الجَمَلِ، دَعَانِي.

فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِه، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! إِنَّهُ لاَ يُقْتَلُ اليَوْمَ إِلاَّ ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وإِنِّي لاَ أَرَانِي إِلاَّ سَأُقْتَلُ اليَوْمَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أَفَتَرَى دَيْنَنَا يُبْقِي مِنْ مَالِنَا شَيْئًا؟

يَا بُنَيَّ! بِعْ مَا لَنَا، فَاقْضِ دَيْنِي، فَأَوْصِي بِالثُّلُثِ، وَثُلُثُ الثُّلُثِ إِلَى عَبْدِ اللهِ، فَإِنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيْءٌ، فَثُلُثُ لِوَلَدِكَ.

قَالَ هِشَامٌ: وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللهِ قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ: خُبَيْبٌ، وَعَبَّادٌ، وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ بَنَات.

قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدَيْنِه، وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ! إِنْ عَجَزْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَاسْتَعِنْ بِمَوْلاَيَ.

قَالَ: فَوَاللهِ مَا دَرَيْتُ مَا عَنَى حَتَّى قُلْتُ: يَا أَبَةِ، مَنْ مَوْلاَكَ؟

قَالَ: اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-.

قَالَ: فَوَاللهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِه، إِلاَّ قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ، فَيَقْضِيه.

(السير: ١/٦٥ - ٦٦).

للحديث بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com

أُصولُ مَكارِمِ الأَخلاقِ وجَوامِعُها

الحلقة الثانية

مَآثِرُ الصِّدقِ وأثرُهُ في حَياةِ المُسلِمين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد،

فنكمل حديثنا عن الصدق في هذه الحلقة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ د. عماد عيسى

الصدقُ مع النفس:

الصادقُ مع نفسه نَقيُّ المدخل والمخرج، حَسَنُ السِّيرَة، مُحسنُ السريرة، صافي المشرَب، طيبُ المطلب، وقد كان سلفُنا الصالحُ أكثرُ الناس صدقًا مع أنفسهم، فكانوا فيه الغاية حتى بلغوا منه- أو كادوا- النهاية، ومع هذا كانوا يتهمونها ويزرُونَ عليها.

رَوَى هشامُ بنُ حسان، عن مُحمَّد بن واسع: قيل له: كيف أصبحت؟ قال: قريباً أجلي، بعيداً أملي، سيِّئاً عملي (السير ٦/١٢١) وقارنْ هذا بما حكاه الأصمعيُّ عنه قال: لما صافَ قُتيبةُ بنُ مُسلم للترك، وهالَه أمرُهم، سأل عن مُحمَّد بن واسع؟ فقيل: هو ذاك في الميمنة، جامحٌ على قوسه، يُبصبص بأصبعه نحو السَّماء، قال: تلك الأصبعُ أحبُّ إليَّ من مائة ألف سيف شهير، وشابٌ طرير (السير: ٦/١٢١).

ولقد كانوا يعدُّون ذلك من علاج النُّفوس وشفاء الصُّدور، بل قال بعضهم: أنفعُ الصِّدقِ أن تُقرَّ لله بعُيوب نفسك (الحلية: ٩/٢٨٢).

وقال بعضُهم: لا يَشمُّ رائحةَ الصِّدق عبدٌ داهَنَ نفسَه أو غيرَه اهـ مدارج السالكين ٢/٢٦٤، الفوائد: ص ٩٩.

قال الوليدُ بنُ مُسلم: سألتُ الأوزاعيَّ، وسعيدَ بنَ عبد العزيز، وابنَ جُريج: لِمَنْ طلبتُم العلمَ؟

كلُّهم يقولُ: لنفسي، غيرَ أنَّ ابنَ جُريج، فإنَّه قال: طلبتُه للناس.

قلتُ: ما أحسنَ الصِّدقَ، واليومَ تسألُ الفقيهَ الغبيَّ: لِمَنْ طلبتَ العلمَ؟ فيُبادرُ، ويقولُ: طلبتُه لله، ويكذبُ، إنما طلبَه للدُّنيا، ويا قلَّةَ ما عَرَفَ منه (السير: ٦/٣٢٨).

الكذبُ أدوى الأدواء:

الكذبُ داءٌ من أدوى الأدْواء، سبيلُ أصحابِها أسوأُ سبيل، ومَقيلُ أهلها شرُّ مَقيل، مَن ابتُلي به فنَفعُه قليل، وضررُه وَبيلٌ، بل لا يُرجَى فلاحُه، ولا يلوحُ نجاحه، إنه يصُمُّ الآذانَ عن الحقِّ ويُعمي البصائرَ، ويظلمُ القلوبَ، ويفسدُ السرائرَ، ويُوقع في النُّفوس من المحنِ والإحنِ ضرائرَ، ويخالفُ بصاحبه الطريقَ، ويفرِّق من النَّاس الفريقَ، ويُسوِّدُ الوجهَ حتَّى كأنَّه مسحٌ أسودُ، قال تعالى: " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ " الزمر: ٦٠.

وما من كاذبٍ إلا وعليه سرابيلُ من الخيبة والعار، وتغشى وجهَه سحابةُ ذُلٍّ وهوان، يعرفُ ذلك المتفرِّسون، ومَن بلغَ هذا المبلغَ فبطنُ الأرض - واللهِ- خيرٌ له من ظهرها، ومخالطةُ الوحوش أسلمُ من مخالطته.

وما أصابَنا ما أصابَنا من الهزيمة- بل الهزائم - إلا بتخلُّف الأمَّة عن فضيلة الصِّدق.

فالكذبُ آفةٌ قاتلةٌ، وكم قصَمَ الكذبُ ظهورًا فردَّها على

Upload by: altawhedmag.com

أدبارها حائرة ثكلى؟ وكم خيَّب مسعى أقوام بعد ما كان يُرجى خيرُهم؟ وقد خاب من كذب وافترى.

ومن حرمانه وخذلانه ما قاله رافع بن أشرس: كان يُقال: من عقوبة الكذاب أن لا يُقبل صدقُه. وأنا أقول: من عقوبة الفاسق المبتدع أن لا تُذكر محاسنُه اهـ شرح علل الترمذي لابن رجب ١/ ٥٠.

لقد اقشعرّت الأرضُ وأظلمت السماءُ وظهر الفسادُ في البرّ والبحر من كذب الكاذبين، وذهبت البركات وقلّت الخيرات وتكدّرت الحياة من نفاق المنافقين، وبكى ضوءُ النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة وشكا الكرام الكاتبون والمعقّبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبايح وهذا والله مُنذرٌ بسيل عذاب قد انعقد غمامُه ومؤذنٌ بليل بلاء قد ادلهمّ ظلامُه والنجاة في البُعد عن هذا الطريق ومجانبة هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح، قبل أن يُقال إن البابَ قد أغلق، والأمر قد عُلّق، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

ولئن كانت الحسناتُ بالصدق تزكو وتنمو، فإنها بالكذب تضيعُ وتذهبُ إلى الغير، وإنّ يومًا يفرُّ المرءِ من أمّه وأبيه، ويشحُّ بحسناته من أهله وذويه، لحقيقٌ بأن يحافظ عليها ولا يدعها نهبًا للمعاصي والسيّئات وحقوق العباد.

> الكذب داء من أدوى الأدواء، سبيل أصحابها أسوأ سبيل، ومقيل أهلها شرّ مقيل.

فاحرص على الصدق حرصَ من أفلتت منه ناقتُه وعليها طعامُه وشرابُه وهو بأرض فلاة، وابحث عنه بحثَ من ضاع في الترب خاتمُه، فإنك إن فعلت خرج الكذبُ من القلب فلا يجدُ إليه رجوعًا ولا مَثابًا.

وما أجمل قول القائل:

ولا تتزيد في حديث سمعته
بكذب فإن الكذب للمرء واضع
ولم أر مثل الصدق أسنى لأهله
إذا جمعتهم والرجال المجامع

(تهذيب الكمال: ١٢/ ٥٢٧)

واعلم أنّ الصدقَ والكذبَ ضدان كالماء والنار، أو كالضبّ والحوت لا يجتمعان، قال مالك بن دينار: الصدقُ والكذبُ يعتركان في القلب حتى يُخرج أحدُهما صاحبَه (حلية الأولياء ٢/ ٣٦٠) وقال ابن القيم: الصدقُ بريدُ الإيمان ودليلُه ومركبُه وسائقُه وقائدُه وحليتُه ولباسُه، بل هو لبُّه وروحُه، والكذبُ: بريدُ الكفر والنفاق ودليلُه ومركبُه وسائقُه وقائدُه وحليتُه ولباسُه ولبُّه، فمضادّةُ الكذب للإيمان كمضادّة الشرك للتوحيد، فلا يجتمعُ الكذبُ والإيمانُ إلا ويطردُ أحدُهما صاحبَه، ويستقرُّ موضعَه اهـ زاد المعاد ٥١٧/٣

الكذبُ أساس الفجور

كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم -: " إن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار"

والكذّابُ صاحبُ نفس مهينة، فلا يكذبُ الكاذبُ إلا من مهانة نفسه عليه، وكما أن كل عمل صالح، ظاهر أو باطن منشؤه الصدقُ، فكذلك كلُّ عمل فاسد ظاهر أو باطن منشؤه الكذبُ، وخطورة الكذب في كونه يقلب الحقائق والتصورات فيجعل الحق باطلا والباطل حقا والخير شرًا والشر خيرًا، ويقيم البدعَ مقام السنن، ويُنزل النفسَ مقام العقل، ويجعل الهوى مقام الرشد، ويضع الضلال موضع الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياءَ مقامَ الإخلاص، والباطل مقام الحق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فيُفسدُ على العبد كلَّ فعل وقول فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

قال ابن القيم: الكذبُ أساسُ الفجور... وأولُ ما يسري الكذبُ من النفس إلى اللسان فيفسدُه ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم تُدركه رحمةُ الله بدواء الصدق يقلع تلك من أصلها اهـ الفوائد: ص ١٣٦

Upload by: altawhedmag.com

وكم من أناس تظاهروا بالصدق وهم ليسوا كذلك كما قال القائل:

أما الديار فإنها كديارهم
وأرى رجال الحي غير رجالها

وهؤلاء إذا دخلوا الكير وامتحنوا حقت الحقائق، وطاحت الدقائق وزاغت الأبصار وطغت، فانقلبوا بحرمان نعمة الله وفضله، لأجل متاع قليل، وكان ما كان من الكذب والافتراء، ولا يخفى هذا على كل حاذق بصير.

غراس الصدق:

لكل شجرة بذرة تُبذر، وغرس يُغرس، فإذا زكى المنبت، وطابت التربة، ووضع البذرة صاحبها وتعاهدها بالسقي والزرع فإنها تنبت نباتا حسنا بإذن ربها.

ولما غرس كعب بن مالك شجرة الصدق وسقاها ورواها حتى صارت كالنخل باسقات لها طلع نضيد، وأضحى أصلها ثابتا وفرعها في السماء أدرك (توفيق الله كعبا وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلحت عاجلتهم وفسدت عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تعبوا في العاجلة بعض التعب فأعقبهم صلاح العاقبة والفلاح كل الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمرارات المبادي حلاوات في العواقب، وحلاوات المبادي مرارات في العواقب) اهـ زاد المعاد ٣/٥٠٥.

وقد شهد النبي- صلى الله

> قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء، وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب.

عليه وسلم - لكعب بقوله: (أما هذا فقد صدق) رواه البخاري.

قال ابن القيم- في فوائد قصة تخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك-:

ومنها: عظم مقدار الصدق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ » (التوبة: ١١٩).

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء، وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس. فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب اهـ زاد المعاد ٣/٥١٦ - ٥١٧.

وقد وصف مالك بن دينار ناشئة الصدق وصفا دقيقا فقال:

" إن الصدق يبدو في القلب ضعيفا كما يبدو نبات النخلة يبدو غصنا واحدا فإذا نتفها صبي ذهب أصلها وإن أكلتها عنز ذهب أصلها فتسقى فتنتشر وتسقى فتنتشر حتى يكون لها أصل أصيل يوطأ وظل يستظل به وثمرة يؤكل منها، كذلك الصدق يبدو في القلب ضعيفا فيتفقده صاحبه ويزيده الله تعالى ويتفقده صاحبه فيزيده الله حتى يجعله الله بركة على نفسه ويكون كلامه دواء للخاطئين " حلية الأولياء ٢/٣٩٥.

وقال أيضا: " أتدرون كيف ينبت البر؟ كرجل غرز عودا فإن مر صبي فنتفها ذهب أصلها وإن مرت به شاة أكلتها ذهب أصلها ويوشك إن سقي وتعوهد أن يكون له ظل يستظل به وثمرة يؤكل منها " (حلية الأولياء ٢/٣٦٢).

وإذا تربى البيت على الصدق صار موروثا لهم، قال عبد الرحمن بن مهدي: كان أبو جعفر (عمير بن يزيد بن عمير) وأبوه وجده قوما يتوارثون الصدق بعضهم عن بعض (تهذيب الكمال: ٢٢/٣٩٣).

جزاء الصدق:

اعلم - رحمني الله وإياك - أنه لا أنفع من الصدق، ومن أجمل ما في الصدق أنه ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة فينال به العبد من أنواع المسرات وحلاوة

Upload by: altawhedmag.com

الرِّضَا وَخلع الْقبُول ما كُتب له، وما من خير تَلْقَاهُ وشرٌ تُوقَاهُ إلا وسببُه الصدقُ.

قَالَ تعَالَى: " هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صدقهم "، وَقَالَ أيضًا: " فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ "

ومن جزاء الصدق أمور:

الأول: صدقُ اللَّه عبدَه:

يُفصحُ عن هذا موقفٌ لصحابيٍّ لا يَكادُ يُعرفُ اسمُهُ، لكنَّه كُتِبَ بشهادةٍ نبويةٍ وتزكيةٍ مصطفويَّةٍ من الصادقينَ، فهنيئًا لَهُ أن لا يعرفه أهلُ الأرضِ، وحسبُه أن يعرفه أهلُ السَّماءِ.

عن شدَّاد بن الهاد: " أنَّ رجلاً من الأعراب، جاءَ إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم فآمنَ به واتَّبعَه، ثم قال: أهاجرُ معكَ، فأوصَى به النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلم بعضَ أصحابه، فلمَّا كانتْ غزوةُ خيبر غَنِمَ النَّبيُّ صلى اللَّه عليه وسلمَ فيها شيئًا، فقسَمَ، وقَسَمَ له، فأعطى أصحابَه ما قَسَمَ له، وكان يَرْعَى ظهرَهم، فلما جاءَهم دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قال: قسمته لك، قال: ما على هذا تبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا- وأشار إلى حلقه- بسهم فأموت، فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق اللَّه يصدقك، فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي صلى اللَّه عليه وسلم يحمل، قد أصابه سهمٌ حيث أشارَ، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم أهُوَ هُوَ؟ قالوا: نعم، قال: صَدَقَ اللَّه فصدقَهُ، ثُمَّ كفَّنَه النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلم

> ومن أجمل ما في الصدق أنه ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة فينال به العبد من أنواع المسرات وحلاوة الرضا وخلع القبول ما كتب له.

في جُبَّةِ النبيِّ صلى اللَّه عليه وسلم، ثم قدَّمَه فصَلَّى عليه، فكان فيمَا ظهرَ من صلاته: اللهمَّ هذا عبدُك، خرجَ مهاجرًا في سبيلك، فقُتلَ شهيدًا، أنا شهيدٌ على ذلك".

أخرجه النسائي بإسناد صحيح (٢٧٧/١)، وانظر أحكام الجنائز ص: ٦٣.

الثاني: التوفيق لخيري الدنيا والآخرة:

من أخذ بناصية الصدق وقادهُ في الحلِّ والترحال، وأمسك بزمامه وساقَهُ في رفقٍ وجمال، كان إمامًا هماماً لا يُدافعُ، وفاضلاً مُناضلاً لا يُنازَعُ، وذلك لتوفيق اللَّه له إلى كل خير.

قال ابن القيم: واللَّه يُثيب الصَّادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دُنْيَاهُ وآخرته فَمَا استجلبت مصالح الدُّنْيَا وَالآخرة بمثل الصدق اهـ الفوائد: ص ١٣٦.

وقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَاصِمٍ الأَنْطَاكِيُّ: " أَنْفَعُ الصِّدْقِ مَا نَفَى عَنْكَ الْكَذِبَ فِي مَوَاطِنِ الصِّدْقِ (الحلية: ٢٨٣/٩).

الثالث: مَنْحُ العبد قَدَمَ الصِّدْقِ، وَمَقْعَدَ الصِّدْقِ في الآخرة

إذا كانَ الصدقُ يُكسبُ صاحبَه في الدنيا هيئةً بهيةً وحلةً زهيةً، فإنه ينزلُ أهلَه في الدار الباقية المنازل الشريفة والمقاعد والرتب المنيفة.

قال ابن القيم: وجزاهم أي الصادقين بما صدقوا أمرين: قَدَمَ الصِّدْقِ، وَمَقْعَدَ الصِّدْقِ فقَالَ تعَالَى «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (يونس: ٢) وَقَالَ أيضًا: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ- في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» (القمر: ٥٤- ٥٥).

أمَّا قَدَمُ الصِّدْقِ: فَفُسِّرَ بِالْجَنَّةِ، وَفُسِّرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفُسِّرَ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَحَقِيقَةُ الْقَدَمِ مَا قَدَّمُوهُ، وَمَا يُقْدِمُونَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ قَدَّمُوا الأَعْمَالَ وَالإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقْدَمُونَ عَلَى الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ جَزَاءُ ذَلِكَ.

فَمَنْ فَسَّرَهُ بِهَا أَرَادَ: مَا يَقْدَمُونَ عَلَيْهِ، وَمَنْ فَسَّرَهُ بِالأَعْمَالِ وَبِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلأَنَّهُمْ قَدَّمُوهَا، وَقَدَّمُوا الإِيمَانَ بِهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَالثَّلاثَةُ قَدَمُ صِدْقٍ.

وَأَمَّا مَقْعَدُ الصِّدْقِ: فَهُوَ الْجَنَّةُ عِنْدَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَوَصْفُ ذَلِكَ كُلِّهِ بِالصِّدْقِ مُسْتَلْزِمٌ ثُبُوتَهُ وَاسْتِقْرَارَهُ، وَأَنَّهُ حَقٌّ، وَدَوَامَهُ وَنَفْعَهُ، وَكَمَالَ عَائِدَتِهِ. فَإِنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْحَقِّ سُبْحَانَهُ، كَائِنٌ بِهِ وَلَهُ، فَهُوَ صِدْقٌ غَيْرُ كَذِبٍ، وَحَقٌّ غَيْرُ بَاطِلٍ، وَدَائِمٌ غَيْرُ زَائِلٍ، وَنَافِعٌ غَيْرُ ضَارٍّ، وَمَا لِلْبَاطِلِ وَمُتَعَلَّقَاتِهِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ وَلا مَدْخَلٌ اهـ مدارج السالكين ٢/ ٢٦٠ - ٢٦١

وللحديث بقية إن شاء اللَّه.

Upload by: altawhedmag.com

أُصولُ مَكارِمِ الأَخْلاقِ وجَوامِعُها

مَآثرُ الصِّدْقِ وأَثَرُهُ فِي حَياةِ المُسْلِمِين

الحلقة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فما يزال حديثنا متصلاً عن الصدق ومآثره وفوائده، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ د. عماد عيسى

دواعي الصدق:

لكلِّ شيءٍ سببٌ داعٍ إليه ومعينٌ عليه، والصدقُ له علاماتٌ وأمورٌ هاديةٌ للوقوف على عتبة بابه ثم الولوج إلى ساحته ورحابه، ومن دواعيه ما يلي:

أولا: الخلوة:

الخلوةُ دواءٌ نافعٌ، وعلاجٌ ناجعٌ لكثيرٍ من الآفات، بَيْدَ أنَّ كثيرًا من الناس عن طريقها لناكبونَ، إذْ فيها راحةٌ من قرناء السوء، وفيها قلةُ الكلام الذي هو بابةُ اللغو والزَّلل، وفيها أيضا مجانبةُ الناس فيما لا ينفعُ وفيما يضرُّ، ثم هي معينةٌ على المحافظة على الأوقات، ومن خلا بنفسه كثيرًا سَهُلَ عليه إدراكُ الصدق فإنه لا يتصنَّعُ شيئًا ليس فيه ولا يدَّعي ما لايستطيعُه - وابنُ آدمَ كما قال الحكيم الترمذي-: ضعفٌ ظاهرٌ ودعوى عريضةٌ - فمن تَرَكَ الدَّعوى لم يُحرم الصدقَ بل هو منه قابَ قوسين أو أدنى، جمعنا الله - تعالى- على الصادقين في الدنيا والآخرة.

قال ذو النون: مَنْ أَحبَّ الْخَلْوَةَ فَقَدْ تَعَلَّقَ بِعَمُودِ الإِخْلاَصِ وَاسْتَمْسَكَ بِرُكْنٍ كَبِيرٍ مِنْ أَرْكَانِ الصِّدْقِ (الحلية: ٩/٣٦٩)

وقال أيضًا: وَمَنْ تَدَرَّعَ بِدِرْعِ الصِّدْقِ قَوِيَ عَلَى مُجَاهَدَةِ عَسْكَرِ الْبَاطِلِ وَاعْتَدَلَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُه (الحلية: ٩/٣٨٠)

ثانيا: صحبة الصادقين:

يَا أَخَا الإسلام- حفظَكَ الله وَتَوَلاَّكَ، وَسَدَّدَكَ وَرَعَاكَ- أَجْمِعْ رأيَكَ واحْزِمْ أمرَكَ على صحبة الصادق الذي يُسددُكَ في رأيك ويصوبُك في مَنطقكَ، فإنَّ مَنْ صَدَقَ سَبَقَ، والصَّادقونَ هم السابقونَ، وهم الصفوةُ في كل زمانٍ، ولهذا تجدهم قلَّةً على مرِّ الأزمَان، لأنها خصلةٌ عزيزةٌ، ولا يَلزمُ الصادقين إلا مَنْ صدقَ، لهذا أمرَ الله تعالى بصحبتهم فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ» التوبة: ١١٩ فالآيةُ تأمرُ بصحبة الصادقينَ ليأخذَ من خصالهم ويقتبسَ من لَحْظهم ولَفْظهم، لا أن يَكْذبَهم ويَتَّهمَهم ويرميَهم بالنقائص كما هو بينَ الناس شائعٌ، وبين الشبيبة- منهم خاصة- ذائعٌ، فكلُ هذا لا يُقال إلا تَخْويفًا، وبخسًا بحُقوق العباد وتطْفيفًا، ومَنْ كَثُرَ

Upload by: altawhedmag.com

اتهامُه للناس وعيبُه لهم لا سيَّما الأفاضل منهم فهو المتهمُ، بل إنَّ أكثرَ الناس عيوبًا ونقائصَ أكثرهم اشتغالاً بعيوب الناس فإنَّ العاقلَ من شُغِلَ بنفسه فإذا فَرَغَ منها شُغِلَ بإصلاح غيره وهيهاتَ أن يفرُغَ من نفسه، فاللهم بصرْنا بعيوبنا واشغَلْنا بها عن عيوب غيرنا.

قال عليُّ بن عثمان بن نفيل: قلت لأحمد بن حنبل: إن أبا قتادة يعني الحراني كان يتكلم في وكيع، وعيسى بن يونس، وابن المبارك، فقال: من كذَّب أهل الصدق فهو الكذابُ (٢٣/٦٨)

قال سفيان بن عيينة: كان محمد بن المنكدر من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون (الجرح: ١/٤٢، ٢٥٤)

ثالثا: الطمع في معية الله:

مَنْ أحبَّ أن يكونَ معَهُ الحارسُ الذي لا ينامُ والهادي الذي لا يَضِلُّ، فعليْه بالصدق، ومن صدقَ اللهَ، صدقَهُ اللهُ وكانَ معَهُ حفظًا وعنايةً، وصَوْنًا ورِعَايَةً، وكَلاءَةً وحمَايَةً.

قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ » (التوبة: ١١٩)

« وقال أيضًا « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وبين الآيتين تمازج وتداخل بديع فإن الله تعالى أمرَ في الآية الأولى بالتقوى ومعية الصادقين، وأخبرَ في الثانية بمعيته للمتقين والمحسنين.

> إنَّ أكثر الناس عيوبًا ونقائص أكثرهم اشتغالاً بعيوب الناس فإنَّ العاقل من شُغل بنفسه فإذا فرَغ منها شُغل بإصلاح غيره.

قال صلى الله عليه وسلم: « احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ » رواه الترمذي وأحمد.

قال أحمدُ بن الخضر: مَنْ أحبَّ أنْ يكونَ اللهُ معَهُ في جميعِ الأحوالِ فليَلْزَمِ الصِّدْقَ فإنَّ اللهَ مَعَ الصَّادِقِينَ (الحلية:)

رابعا: قلة الحرص:

الحرصُ على الدُّنيا مدعاةٌ للكذب لأنَّه يدعُو إلى المراوغةِ والخداعِ والاحتيال على النَّاس منْ أجلِ تحقيقِ المُراد، فضلاً عن الغشِّ والظُّلم والعُدْوان.

ومن علاماتِ القلبِ الصادقِ أنَّ صاحبَه لا يَحْرِصُ على الدُّنيا، إذ إنَّ الحرصَ عليها يدعو إلى منافاةِ الصدقِ بالوقوعِ في نَواقضه.

إنَّ وُلُوجَ الدنيا قلبًا وسُكْنَاهَا إياهُ تَجْعَلُه منَ الصدقِ قَفْرًا يَبَابًا، ولا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أنَّ المرادَ منْ ذلكَ الخروجُ من المالِ والأولاد فليْسَ هذا بمُرادٍ قطْعًا، وإنما المقصودُ عدمُ انشغالِ المرءِ بدنياهُ، فإذا حصَّلَ معاشَهُ وما يُقيمُ حياتَهُ فَرَغَ إلى رَبِّه « فَإِذَا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » وقد كان نبيُّنا - صلى الله عليه وسلم - وهو القدوةُ لنَا عندهُ تسعةُ أبيات ومنْ بَعْده أصحابُه - رضي الله عنهم - كانتْ عندهم أشغالهم من صفق بالأسواق وزرع الأرض لكنهم لم ينشغلوا من ذلك بشيئٍ عن آخرتهم.

قال إبْرَاهيمَ بنُ أدْهَمَ: « قِلَّةُ الْحِرْصِ وَالطَّمعِ تُورِثُ الصِّدْقَ وَالْوَرَعَ، وَكَثْرَةُ الْحِرْصِ وَالطَّمعِ تورِثُ كَثْرَةَ الْغَمِّ وَالْجَزَعِ »

خامسا: إخفاء العمل الصالح:

مَنْ صَدَقَ في سيره إلى الله لم يُخَادِعْ نَفْسَهُ، ولم يُحبَّ أن يَطَّلِعَ أحدٌ على عمله، بل يَعُدُّ صالحَ العملِ عورةً يجتهدُ في سترها وإخفائها، وهذا هُو حالُ السلفِ الصالحِ المقتَدَى بهم، فقد كان الرجلُ منهم يُخفي قيامَهُ الليلَ وصيامَه النهارَ وسائرَ عمله من صدقةٍ ونحوها عن زوجته التي

Upload by: altawhedmag.com

هي ألصقُ الناس به مبالغةً في الصِّدق والإخلاص فلله درهم، وعنده سبحانه جزاؤهم.

قال بعض الصالحين: ثلاثةٌ من أعلام الصِّدق: مُلازمةُ الصَّادقين، والسُّكونُ عند نظر المنفوسين، ووجدانُ الكراهة لاطِّلاع الخَلْق على السَّرائر استقامةً على الحق سرًّا وجهرًا، لإيثار ربِّ العالمين (الحلية: ٩/٣٩٣)

تَرْكُ حبِّ التزين عندَ الناس: بذرةُ الكذب خبيثةٌ نكدةٌ، قال تعالى: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» الأعراف: ٧، وكثيرًا ما تَنبُتُ هذه النبتةُ القبيحةُ- حتى تُصبحَ مُخْضَرَّةً- في أرض التَّزيُّد وحُبِّ الثناء والرغبة في الشُّهرة، وأصلُ هذه الآفات من حُبِّ التَّزين وإيثار محبة الناس والذكر عندهم على محبة الله والذكر عنده في الملأ الأعلى.

قيل لشعبة: ما بالُ هؤلاء الذين يكذبون (أي في الحديث)؟ قال: يُريدون أن يُعظَّموا بذلك.

ومن أعجب ما طالعتُ في مشاهد الصدق ما حكاه ميمونُ بن أبي شبيب قال: جلستُ مرة أكتبُ كتابًا فعرَضَ لي شيءٌ إنْ أنا كتبْتُه في كتابي زُيِّنَ كتابي وكنتُ قد كذبتُ، وإن أنا تركتُه كان في كتابي بعضُ القُبح وكنتُ قد

> **الحرصُ على الدُّنيا مدعاةٌ للكذب لأنه يدعو إلى المراوغة والخداع والاحتيال على النَّاس.**

صدقتُ، فقلتُ مرةً أكتبُهُ ومرةً لا أكتبُه، فأجمعتُ رأيي على تركه فتركتُه، فنادَاني مناد من جانب البيت (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) (تهذيب الكمال: ٢٩/٢٠٨).

فسبحان من يصيب برحمته من يشاء.

أخي:

اصدقْ اليومَ لينفعَكَ الصدقُ غدًا في يوم ينفعُ الصادقين صدقهم، واشترِ نفسك اليَوْمَ فإن السُّوق قائمةٌ لم تَنْفَضّ، والثمنُ مَوْجُودٌ لَمْ يُفقدْ ولم يُرفَضْ، والبَيْعةُ لم تُرَدَّ ولم تُنْقَضْ، والبضائعُ رخيصةٌ وفيرةٌ غيرُ غالية ولا شحيحة، والزمانُ يسمحُ بكلِّ نفيسةٍ وغالية، والعمرُ فيه بقيةٌ لا تحتملُ عَبَثًا ولا لاغيَةً، والحالُ جاهزةٌ ناجزةٌ لا مزجاةٌ ولا عاجزةٌ، فعَجِّلْ من قبل أن يأتي على تلكَ السُّوقِ والبضائعِ يَوْمٌ لا تَصِلُ فيهَا إلى قليلٍ ولا كثيرٍ ذلكَ يومُ التغابن (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا) (الفرقان: ٢٧- ٢٩).

إذا أنْت لم ترحلْ بزاد من التُّقى
وأبصرتَ يومَ الحشرِ من قد تزوَّدا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثله
وأنَّكَ لم ترْصُدْ كما كانَ أرْصَدَا

وإن عجزتَ عن شيء من الخير فالجأ إلى الله تعالى واجْأرْ إليه أن يفْتَحَ عليك، فإنه لا فاتحَ لما أغْلَقَ ولا مُغلقَ لما فتَحَ، قال تعالى: «مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (فاطر: ٢).

فإن أعياكَ الأمرُ فلا تيأسْ بل قاربْ وسدِّدْ فإنَّ من لم يَجِدْ الماءَ تيمَّمَ، ومنْ رأى خللاً أو نقصًا تمَّمَ.

اللهم ألْهِمْنَا الصدقَ ونقِّ دَواخلَنا وحسِّنْ سَرائرَنا وأحْسِنْ بَواطنَنا وصَفِّ مَشْرَبَنا وطَيِّبْ مَطْلَبَنا، اللهمَّ اجعلْنا ممَّن شكَرْتَ مَسْعَاهُ، وجعلْتَ الجنَّة دارَهُ ومَثْواهُ، اللهمَّ إنَّا نسألكَ في هَذا الزَّمان عصمةً من الزيغ والأشر، ونَعوذُ بكَ من العُجبِ والبَطَر، ونَستَهْديكَ السَّبيلَ الأرْشدَ، ونستَجْديكَ الطريقَ الأقصدَ، إنَّكَ بكلِّ جميلٍ كفيل، وأنتَ حسبُنا ونعمَ الوكيل.

Upload by: altawhedmag.com

مَنْزِلَةُ الأُمِّ فِي الإِسْلَامِ

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي علم وألهم حمد من آمن به وأسلم، وفوض إليه أمره وسلَّم، وانقاد لأوامره واستسلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له علم الإنسان ما لم يعلم، وصلى الله على نبينا محمد خاتم أنبيائه وفاتح أوليائه وسيد أصفيائه فأنعم به وأكرم وبعد:

فَهَذِهِ مَقَالَةٌ كَتَبْتُهَا صَبِيحَةَ وَفَاةِ وَالِدَتِي - بَرَّدَ اللهُ مَضْجَعَهَا - بَعْدَ أَنْ جَاءَنِي الْخَبَرُ يَجُرُّ النَّفِيرَ، وَيُهَيِّجُ الزَّفِيرَ، وَقَدْ هَمْهَمَتِ النَّفْسُ بِالصُّعَدَاءِ، وَجَرَى مِنَ الْعَيْنِ الدَّمْعُ وَغَلَبَنِي الْبُكَاءُ، وَحَشْرَجَ الصَّدْرُ بِالنِّدَاءِ؛ فَتَعَوَّذْتُ بِاللهِ مِنَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ، وَأَخَذْتُ بِلِجَامِ الْقَلَمِ قَبْلَ أَنْ يَضْطَرِبَ وَيَلْحَقَهُ السُّقُوطُ، وَاسْتَعَنْتُ بِرَبِّي الْبَصِيرِ فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

وَهِيَ مَقَالَةٌ تُنْبِئُ الْبَصِيرَ الْحَاذِقَ وَالْغُفْلَ الرَّيِّضَ عَلَى السَّوَاءِ بِقِيمَةِ الأُمِّ وَفَضْلِهَا، وَعَظِيمِ الأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الْبِرِّ بِهَا، لاَسِيَّمَا وَنَحْنُ فِي زَمَانٍ كَسَدَتْ فِيهِ سُوقُ الْبِرِّ، وَخَوَى فِيهِ نَجْمُ الْخَيْرِ، وَبَارَتْ بَضَائِعُ أَهْلِهِ.

وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ كَلِمَاتٍ مِنْ غُرَرِ الْعَرَبِيَّةِ وَعُيُونِ أَلْفَاظِهَا- الَّتِي هِيَ أَدَاةُ الْعِلْمِ وَآلَتُهُ وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَسَبَبُ إِصْلاَحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ (فقه اللغة وسر العربية: ص ١٥ لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي)- تَفِيضُ مَعَانِيَ وَفُهُومًا، وَتَحْوِي نَصَائِحَ وَعُلُومًا.

كَمَا أَنَّ فِيهَا مِنْ وَصْفِ قَدْرِ الأُمِّ وَجَلاَلَةِ مَنْزِلَتِهَا وَكَرِيمِ شَأْنِهَا مَعَانٍ بَاكِيَةً، عَبَّرْتُ عَنْهَا بِأَلْفَاظٍ وَافِيَةٍ تَجْعَلُهَا تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ.

وَأَرْجُو أَنْ لاَ تَغِيضَهَا نَفَقَةٌ وَلاَ يُنْقِصُهَا بَذْلٌ وَلاَ عَطَاءٌ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ يَزْكُو بِالإِنْفَاقِ وَالسَّخَاءِ وَيَزِيدُ بِالْجُودِ وَالْعَطَاءِ، بَيْنَمَا الْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ.

وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى مَا عَلَّمَ وَأَلْهَمَ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى مَا أَوْلَى بِهِ وَأَنْعَمَ، وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ مَعَ الشُّكْرِ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ، وَمِنَ اللهِ أَسْتَمِدُّ السَّدَادَ وَأَسْتَلْهِمُهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ لِسُلُوكِ سَبِيلِ الرَّشَادِ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ كَرِيمٌ جَوَّادٌ.

Upload by: altawhedmag.com

منزلة الأم

إنَّ منزلةَ الأمِّ في الإسلامِ رفيعةٌ في قدرِها، عاليةُ السَّنامِ في فضلِها، عظَّمَ الإسلامُ شأنَها، وأعلى مقامَها، وفضلُها أشهرُ من أنْ يُذكرَ، وأعرفُ من أنْ يُنكرَ.

وعلى هذا تعاضدتْ الآياتُ البيِّناتُ وتناصرتْ الأحاديثُ الصِّحاحُ السَّنيَّاتُ؛ فطوبى لمنْ انتبهَ لهذه المنزلةِ وأخذَ بزمامِها وعملَ على إحيائِها.

وقدْ جاءَ لفظُ « الأمِّ » صريحًا في كتابِ اللهِ تعالى في سبعةِ مواضعَ وفي هذا دلالةٌ على الأهميَّةِ.

الأوَّلُ: «قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» (المائدة-١٧). والثاني: «مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ (٥)» المائدة.

والثالث: «وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ» (المائدة-١١٦).

والرابع: «وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» (المؤمنون-٥٠).

والخامس: «وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ» (لقمان-١٤).

والسادس: «وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا» (الأحقاف-١٥).

والسابع: «يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ» (عبس-٣٥).

من معاني لفظة «الأم» في العربيَّة:

الأمُّ بمعنى أصلِ الشيءِ وأصلُ وجودِه وإصلاحِه وتربيتِه، فهي اسمٌ يطابقُ مسماه ولفظٌ يوافقُ معناه.

الأم أصل راسخ وفرع شامخ ومجد باذخ وعنصر نفيس كريم ومعدن في النفاسة صميم.

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانيُّ:

الأمُّ بإزاءِ الأبِ، وهيَ الوالدةُ القريبةُ التي ولدتْه، والبعيدةُ التي ولدتْ منْ ولدتْه.

ولهذا قيلَ لحوَّاءَ: هيَ أمُّنا، وإنْ كانَ بيْننا وبيْنَها وسائطُ.

ويُقالُ لكلِّ ما كانَ أصلاً لوجودِ شيءٍ أوْ تربيتِه أوْ إصلاحِه أوْ مبدئِه أمٌّ.

قالَ الخليلُ: كلُّ شيءٍ ضمَّ إليْه سائرُ ما يليه يُسمَّى أمًّا، قالَ تعالى: «وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ» (الزخرف: ٤) أي: اللوح المحفوظ وذلك لكون العلوم كلها منسوبة إليه ومتولدة منه. وقيل لمكة: أم القرى، وذلك لما رُوِيَ: (أنَّ الدُّنيا دُحيتْ منْ تحتِها)، وقالَ تعالى: «وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا» (الأنعام: ٩٢)، وأمُّ النُّجومِ: المجرَّةُ. قالَ:

بحيْثُ اهْتدتْ أمُّ النُّجومِ الشَّوابكِ

وقيلَ: أمُّ الأضيافِ وأمُّ المساكينِ، كقوْلِهمْ: أبُو الأضيافِ، ويُقالُ للرَّئيسِ: أمُّ الجيْشِ كقوْلِ الشَّاعرِ:

وأمُّ عيالٍ قدْ شهدتُ نُفوسهُمْ.

وقيلَ لفاتحةِ الكتابِ: أمُّ الكتابِ لكونِها مبدأَ الكتابِ. وقولُه تعالى: «فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ» (القارعة: ٩)، أي: مثواه النار فجعلها أمًا له، قال: وهو نحو «مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ» (الحديد: ١٥).

وسمَّى اللهُ تعالى أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم أمهاتِ المؤمنينَ فقالَ: «وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ» (الأحزاب: ٦) لما تقدَّمَ في الأبِ. اهـ. (المفردات: ٢٢ - ٢٣).

الأم صبح شامس ونور يبدد ظلام كل ليل دامس، كأن الشمس تجري في جبينها والغمام من يمينها

الأم بركة من بركات الدنيا إذ تكون الأمور صعابًا فإذا انتهت إليها ذابت الصعاب وذللت الهضاب وحَلَّ العذابُ محلَّ العَذاب.

وقدْ يكونُ الشَّيْءِ كأنَّما ضُربتْ عليْه الأقفالُ، ووُضعتْ عليْه الأغلالُ؛ فهُوَ دُونَ صاحبِه مُرتجٌ، وأمامَ طالبِه مُغلقٌ، فما تقومُ الأمُّ لهُ حتَّى يُمسِي ويُصبحُ سَهْلاً ويُضحِي وبَبيتُ ذَلُولاً مَيْسُورًا.

كما قالَ القائلُ:

يكونُ أجاجًا دُونكُمْ فإذا ما انْتهى
إليْكُمْ تلقَّى نشْركُمْ فيَطيبُ

إنَّ الأمَّ نعمةٌ لا يُؤدِّي شُكرَها إلاَّ مَنْ أرادَ اللهُ بِه خيْرًا وذلَّلَ لهُ سُبلَ الخيْراتِ ذللاً.

الأمُّ محاسنُ جمَّةٌ وأيادي بيْضاءُ وهذه حقيقة

Upload by: altawhedmag.com

لا تُنقض وحجة لا تُدحض فكم أعطت وكم جادت؟!

الأُمُّ زَهْرَةٌ عَبِقَةٌ وَرَوْضَةٌ نَضِرَةٌ يَفُوحُ مِنْهَا شَذَا الرَّيَاحِينِ الفَيَّاحِ.

الأُمُّ حِصْنٌ حَصِينٌ وَرُكْنٌ رَكِينٌ وَأَصْلٌ أَصِيلٌ بَانَ فَضْلُهُ وَمَتُنَ حَبْلُهُ.

الأُمُّ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ وَثَنَاءٌ مُسْتَطَابٌ فَكَمْ فَازَ بِدَعْوَتِهَا فَائِزٌ، وَحَازَ الْخَيْرَ بِرِضَاهَا حَائِزٌ، بَيْنَمَا خَسِرَ دُعَاءَهَا آخَرُونَ وَرَجَعُوا بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ وَصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ فَكَمْ يَكُونُ الْبَوْنُ وَالْبُعْدُ بَيْنَهُمَا؟ فَاللهم لا تحرمنا فضلك وجودك يا منان.

الأُمُّ نُورٌ سَنَاهُ لا يَتَنَاهَى بَلْ يَمْحُو دُجَى اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا.

إِنَّ الأُمَّ لَفْظَةٌ نَقِيَّةٌ وَكَلِمَةٌ تَقِيَّةٌ وَمَعَانٍ فِي الْبِرِّ وَالْعَطْفِ وَالإِحْسَانِ لا مَزِيدَ عَلَيْهَا، فَمَهْمَا طَالَ مِنَ الْمَرْءِ فِي الْبِرِّ بَاعُهُ وَرَحُبَ فِي النَّفْعِ ذِرَاعُهُ لا يَبْلُغُ مَدَاهَا وَلا يُوفِيهَا حَقَّهَا وَلا مَعْنَاهَا فَشَكَرَ اللهُ مَسْعَاهَا وَآتَاهَا سُبْلَهَا وَهُدَاهَا.

إِنَّهَا كَلِمَةٌ يَتَضَاءَلُ دُونَ مَعْنَاهَا كُلُّ شيء؛ فَهِيَ كَالشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْرَاقُهَا وَنِبْقُهَا كِظِلالِ هَجَرٍ حَامِيَةٍ عَلَى السَّوَاءِ مِنَ الْحَرِّ وَالطَّلِّ، عَظِيمَةِ الظِّلِّ، يَأْوِي إِلَى ظِلِّهَا مَنْ لَفَحَهُ هَجِيرُ الْحَيَاةِ، أَوْ آذَاهُ لَظَاهَا، وَيُؤْمُّهَا الْقَاصِي وَالدَّانِي فَلا تَرُدُّ سَائِلَهَا وَلا تُخْجِلُ قَائِلَهَا، تَقْرَأُ عَلَى صَفْحَةِ وَجْهِهَا مَخَائِلَ الْكَرَمِ، وَتَلْحَظُ فِي كَفِّهَا شَمَائِلَ الْجُودِ، وَتَلْمَحُ فِي قَسَمَاتِهَا سِمَاتِ وَآيَاتِ الشِّيَمِ.

الأُمُّ خَلْقٌ عَظِيمٌ وَمَعْنًى جَسِيمٌ، جِمَّةُ الْفَوَاضِلِ كَثِيرَةُ النَّوَافِلِ، رَاسِخَةُ الْعِرْقِ طَيِّبَةُ الْعَذْقِ، بَلْ هِيَ شيء مِعْطَاءٌ تَمْنَحُ قَبْلَ السُّؤَالِ وَتُنِيلُ فَوْقَ مَا تُسْتَنَالُ، تَبْذُلُ مَا يَضِنُّ بِهِ النَّاسُ، وَتَسْمَحُ بِمَا تَشِحُّ بِهِ النُّفُوسُ، فَهِيَ فِي جُمْلَتِهَا جُودٌ بِغَيْرِ مَنٍّ، وَإِحْسَانٌ بِلا ضَنٍّ.

الأُمُّ قَدَرٌ عَالٍ وَشيء غَالٍ، سَنِيَّةُ الْمَبْنَى سَمِيَّةُ الْمَعْنَى، هِيَ لِلدُّنْيَا شَمْسُ ضُحَاهَا وَبَدْرُ سَنَاهَا وَنَجْمُ دُجَاهَا.

الأُمُّ مِيزَانُ عَدْلٍ لا يَجِدُ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ حَرَجًا مِمَّا تَقْضِيهِ وَلا فِي صَدْرِهِ ضِيقٌ مِمَّا تُمْضِيهِ.

الأُمُّ شِفَاءُ الْعِلَلِ وَرَوَاءُ الْغُلَلِ وَبِلَّةُ الصَّدَى وَنَقَاءُ قَطْرِ النَّدَى.

لَقَدْ قَضَتْ فِي الْخِدْمَةِ وَالرِّعَايَةِ مَا لَمْ يَقْضِهِ غَيْرُهَا فِي حَمْلٍ وَوَضْعٍ وَرَضَاعٍ وَفِطَامٍ وَإِطْعَامٍ وَرِعَايَةٍ وَعِنَايَةٍ فِيهَا غُنْيَةٌ وَكِفَايَةٌ حَتَّى يَسْتَوِيَ الْوَلَدُ عَلَى الأَشُدِّ وَهَذَا بِلا رَيْبٍ عُمُرُ إِنْسَانٍ فَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ قَضَى فِي شَأْنِ عَدَدِ سِنِينَ وَمَنْ قَضَى فِيهِ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ؟! حَقًّا، إِنَّهَا عَطَاءٌ جَزْلٌ، وَإِحْسَانُ فَضْلٍ لا عَدْلٍ.

الأُمُّ أَدَبٌ جَمٌّ، وَرُوحٌ تَرْفَعُ الْهَمَّ وَتُزِيلُ الْغَمَّ، تُؤَدِّبُ وَتُهَذِّبُ، وَتُعَلِّمُ وَتُنَشِّئُ الْجِيلَ وَتُرَبِّي فَاظْفَرْ بِهَا تَرِبَتْ يَمِينُكَ، فَإِنَّ مَنْ فَاتَهُ أَدَبُ الأُمِّ وَخُلُقُهَا الْحَسَنُ فَقَدْ فَاتَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ سَيَنْدَمُ عَلَيْهِ لا مَحَالَةَ.

كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَمَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ
تُؤَدِّبُهُ رَوْعَاتُ الرَّدَى وَزَلازِلُهْ

وَقَدْ لا يُجْدِي ذَلِكَ لِفَوَاتِ زَمَانِهِ وَذَهَابِ أَوَانِهِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

يُقَوَّمُ مِنْ مَيْلِ الْغُلامِ الْمُؤَدَّبُ
وَلا يَنْفَعُ التَّأْدِيبُ وَالرَّأْسُ أَشْيَبُ

فَقْدُ الأُمِّ

فَقْدُهَا يُعَدُّ خَسَارَةً كَبِيرَةً يُورِثُ حَسْرَةً وَيُجْرِي عَبْرَةً، وَوَفَاتُهَا رُزْءٌ أَصَابَ وَهَمٌّ أَنَاخَ بِالْبَابِ، وَبَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ أُغْلِقَ دُونَ صَاحِبِهِ.

وَكُلُّ مُلِمَّاتِ الزَّمَانِ وَجَدتُّهَا
سِوَى فُرْقَةِ الأَحْبَابِ هَيِّنَةُ الْخَطْبِ

وَعِنْدَ فَقْدِهَا تَرْتَفِعُ الأَصْوَاتُ بِالْبُكَاءِ وَيَكْثُرُ الضَّجِيجُ حَتَّى إِنَّ الْمَرْءَ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا مِنْ حَوْلِهِ تَبْكِي بُكَاءً وَاحِدًا، وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَبْكِ عَلَى فَقْدِهَا مَتَى يَبْكِي وَعَلَى مَنْ يَبْكِي؟

إِذَا لَمْ يُغَبِّرْ حَائِطٌ فِي وُقُوعِهِ
فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ غُبَارُ

فَقْدُ الأُمِّ كَسِرَاجٍ خَبَا وَثَوْبٍ بَلِيَ وَمِصْبَاحٍ انْطَفَأَ بَلْ هُوَ حَسْرَةُ الأَبَدِ وَجَمْرَةٌ لا تَنْطَفِئُ بَلْ تَتَّقِدُ.

فَضْلُ الأُمِّ وَفَضْلُ بِرِّهَا فِي السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ

لِلأُمِّ فَضَائِلُ لا تُحْصَى وَمَنَاقِبُ لا تُسْتَقْصَى، فَهِيَ:

بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ بَلِ الْجَنَّةُ عِنْدَ رِجْلَيْهَا.

وَكَفَى بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ مَنْقَبَةً بِكْرًا تَدُلُّ عَلَى نَفَاسَةِ بِرِّ الأُمِّ وَكَوْنِهِ عَمَلاً عَظِيمًا.

Upload by: altawhedmag.com

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، أَنَّ رَجُلاً أَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ لِي امْرَأَةً وَإِنَّ أُمِّي تَأْمُرُنِي بِطَلاَقِهَا، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّة، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ». (رواه الترمذي(١٩٠٠) وابن ماجه (٢٠٨٩) وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ).

وروى ابن حبان في صحيحه من طريق عطاء بن السَّائب، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن السُّلَمِيّ: أَنَّ رَجُلاً أَتَى أَبَا الدَّرْدَاء، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي لَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى تَزَوَّجْتُ، وَإِنَّهُ الآنَ يَأْمُرُنِي بِطَلاَقِهَا، قَالَ: مَا أَنَا بِالَّذِي آمُرُكَ أَنْ تَعُقَّ وَالِدَكَ، وَلاَ أَنَا بِالَّذِي آمُرُكَ أَنْ تُطَلِّقَ امْرَأَتَكَ، غَيْرَ أَنَّكَ إِنْ شِئْتَ، حَدَّثْتُكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، سَمِعْتُهُ، يَقُولُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّة، فَحَافِظْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ، أَوْ دَعْ»، قَالَ: فَأَحْسِبُ عَطَاءً، قَالَ: فَطَلَّقَهَا. (صحيح ابن حبان: ٤٢٥).

وَعَنْ طَلْحَة بن مُعَاوِيَة السلميّ رَضِي اللَّه عَنْهُ قَالَ: أتيت النَّبِي صلى اللَّه عَلَيْه وَسلم فَقلت يَا رَسُول اللَّه إِنِّي أُرِيد الْجِهَاد فِي سَبِيل اللَّه قَالَ: أمك حَيَّة، قلت: نعم قَالَ النَّبِي صلى اللَّه عَلَيْه وَسلم: « الزم رجلهَا فثم الْجنَّة». (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي الْكَبِير (٨١٦٢) وهو صحيح).

توصل وهي مُشركة وتبرُّ وهي على نقيض الملَّة الحنيفيَّة.

الشرك بالله يقطع الأواصر الممتدة النواحي المتشعبة الأطراف والنوادي غير أنه لا يقصم العرى بين المرء ووالديه إذ إنهما أصل وجوده وسر لحوقه بالحياة والله أعلم.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْت أبي بَكْر رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيّ (٢٦٢٠) وَمُسلم (١٠٠٣).

وَأَبُو دَاوُد وَلَفظه عَنْ أَسْمَاءَ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي رَاغِبَةً فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَهِيَ رَاغِمَةٌ مُشْرِكَةٌ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ، وَهِيَ رَاغِمَةٌ مُشْرِكَةٌ، أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَصِلِي أُمَّكِ». قال المنذري: راغبة: أي طامعة فيما عندي تسألني الإحسان إليها، راغمة: أي كارهة للإسلام.

صلتها كفارة للذنوب وبرُّها محوٌ للخطايا.

إنَّ كفَّارَةَ الذُّنوب مطلبٌ عظيمٌ لا يَنْطوي إلاَّ على خَيْرٍ ولا يَدْخُلُ أهْلُ الجنَّة الجنَّةَ بغيْرِه بَلْ لابُدَّ أنْ يُنَقَّوا مِنْ ذُنوبِهِمْ ويُمَحَّصوا مِنْ خَطاياهُمْ.

قَالَ تَعَالَى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » (الملك -١٢).

وفي حديث أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّة وَالنَّار، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّة، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِه فِي الْجَنَّة مِنْهُ بِمَنْزِلِه كَانَ فِي الدُّنْيَا».

عَن ابْن عمر رَضِي اللَّه عَنْهُمَا قَالَ أَتَى النَّبِي صلى اللَّه عَلَيْه وَسلم رجل فَقَالَ إِنِّي أذنبت ذَنْبا عَظِيما فَهَل لي من تَوْبَة فَقَالَ هَل لَك من أم قَالَ لَا قَالَ فَهَل لَك من خَالَة قَالَ نعم قَالَ فبرها.

رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَاللَّفْظ لَهُ وَابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم إِلاَّ أَنَّهُمَا قَالاَ هَل لَك والدان بالتثنية وَقَالَ الْحَاكِم صَحِيح على شرطهمَا.

وَعن طَيْسَلَة بْن مَيَّاس قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّجَدَات، فَأَصَبْتُ ذُنُوبًا لَا أَرَاهَا إِلاَّ مِنَ الْكَبَائِر، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لابْنِ عُمَرَ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: لَيْسَتْ هَذِه مِنَ الْكَبَائِر، هُنَّ تِسْعٌ: الإِشْرَاكُ بِاللَّه، وَقَتْلُ نَسَمَةٍ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْف، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَة، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيم، وَالْحَادٌ فِي الْمَسْجِد، وَالَّذِي يَسْتَسْخِرُ، وَبُكَاءُ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْعُقُوقِ، قَالَ: لِي ابْنُ عُمَرَ: أَتَفْرَقُ النَّارَ، وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ قُلْتُ: إِي، وَاللَّه! قَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قُلْتُ: عِنْدِي أُمِّي. قَالَ: فَوَاللَّه! لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلاَمَ، وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ، لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ. (الأدب المفرد: (٨) وهو حديث صحيح).

نسأل الله العظيم أن يرحم آباءنا وأمهاتنا، وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com

مَنزِلَةُ الأُمِّ فِي الإِسْلَامِ

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مُضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. وبعد:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا وحده لا شريك له، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فما يزال حديثنا مستمرًّا عن منزلة الأم في الإسلام، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

عُقوقُ الأُمِّ

إنَّ الْعُقُوقَ لَفْظَةٌ مَا أَبْشَعَهَا، وَفِعْلَةٌ مَا أَشْنَعَهَا، تَقِفُ مِنْ لَفْظِهَا الشُّعُورُ، وَتَقْشَعِرُّ مِنْ ذِكْرِهَا الْجُلُودُ، وَيُتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنْهَا، وَيُسْأَلُ مِنْ مِثْلِهَا الْعَافِيَةُ وَالسَّلَامَةُ، وَيُخْشَى عَلَى فَاعِلِهَا الْحَسْرَةُ وَالْعَثْرَةُ، وَالْمَلَامَةُ وَالنَّدَامَةُ إِذْ هُوَ سُبَّةُ الْأَبَدِ وَفَتُّ الْعَضُدِ.

إِنَّهُ كَبِيرَةٌ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَإِفْلَاسٌ مِنَ الْأَدَبِ، وَإِمْلَاقٌ مِنَ الْخَيْرِ، وَاقْتِتَارٌ مِنَ الْفَضْلِ، وَبُعْدٌ مِنَ النَّجَاةِ، وَقُرْبٌ مِنَ الْعَطَبِ، وَضَعْفٌ فِي الرَّأْيِ، وَقِلَّةٌ فِي الْعَقْلِ، وَطَيْشٌ فِي الْفِعْلِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ وَهْنٌ فِي الدِّيَانَةِ وَضَعْفٌ فِي الْإِيمَانِ وَرِقَّةٌ فِي إِسْلَامِ صَاحِبِهَا وَاضِحَةٌ مَكْشُوفَةٌ.

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ:

الْعَيْنُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الشَّقِّ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعُ الْبَابِ بِلُطْفِ نَظَرٍ.

قَالَ الْخَلِيلُ: أَصْلُ الْعَقِّ الشَّقُّ.

قَالَ: وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْعُقُوقُ... وَالْعُقُوقُ: قَطِيعَةُ الْوَالِدَيْنِ وَكُلِّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ. يُقَالُ عَقَّ أَبَاهُ فَهُوَ يَعُقُّهُ عَقًّا وَعُقُوقًا.

قَالَ زُهَيْرٌ:

فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ

وَفِي الْمَثَلِ: « ذُقْ عُقَقَ » وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ لِحَمْزَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَهُوَ مَقْتُولٌ: « ذُقْ عُقَقَ » يُرِيدُ يَا عَاقُّ. وَجَمْعُ عَاقٍّ عَقَقَةٌ. وَيَقُولُونَ: « الْعُقُوقُ ثُكْلُ مَنْ لَمْ يَثْكَلْ »، أَيْ إِنَّ مَنْ عَقَّ وَلَدُهُ فَكَأَنَّهُ ثَكِلَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَحْيَاءَ.

وَ« هُوَ أَعَقُّ مِنْ ضَبٍّ »؛ لِأَنَّ الضَّبَّ تَقْتُلُ وَلَدَهَا. اهـ (معجم مقاييس اللغة: ٣/٤ - ٥).

عُقُوبَةُ العُقُوقِ:

إِنَّ النَّفْسَ الَّتِي تَعُقُّ الْأُمَّ نَفْسٌ مَهِينَةٌ، تَمِيلُ إِلَى صَنِيعِ الْأَلَائِمِ وَتَرْغَبُ عَنْ صَنِيعِ الْأَكَارِمِ، وَمَعَ أَنَّهَا قَدْ تَعِيشُ طَاعِمَةً نَاعِمَةً لَكِنَّ هَذَا لَا يُغْنِي عَنْهَا شَيْئًا فَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِي نِعَمِ اللهِ وَمَالِهِ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمَهْمَا طَالَتْ بِهِ الْأَيَّامُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ الدَّهْرِ فَإِنَّ الْكَأْسَ الَّتِي يَسْقِي بِهَا يَشْرَبُ مِنْهَا وَزِيَادَةً فَإِنَّ الْبَادِيَ لَا بُدَّ أَنْ يُزَادَ وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ.

الْعُقُوقُ ظَاهِرَةٌ مُؤْلِمَةٌ، وَرَزِيَّةٌ تَجِيئُ بِالْخَاطِئَةِ، وَبَلِيَّةٌ خَافِضَةٌ غَيْرُ رَافِعَةٍ، تَرْتَعِدُ مِنْ شَنَاعَتِهَا فَرَائِصُ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ.

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّهُ هَبَّتْ فِي زَمَانِنَا رِيحٌ مِنَ الْعُقُوقِ عَاصِفٌ عَقِيمٌ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْبِرِّ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ، وَلَا يَزَالُ نَقْعُهَا فِي زَمَانِنَا ثَائِرٌ، وَغُبَارُهَا قَائِمٌ، وَإِلَى اللهِ إِيَابُ الْخَلْقِ، وَعَلَيْهِ حِسَابُهُمْ.

وَدَبَّتْ فِي زَمَانِنَا عَقَارِبُ الْعُقُوقِ فَلَسَعَتْ مَنْ كَانَ عَاقًّا مُشَاقًّا وَسَامَتْهُ رَيْبَ الْمَنُونِ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ.

Upload by: altawhedmag.com

تعجيل عقوبة العقوق:

إن العقوق لوم يورث الشؤمَ ولا يمكن للعاق أن يهرب من عاقبة العقوق ولا أن يجد منه مَلْجأ أوْ مَغارات أوْ مُدَّخلاً ولو ولوا إليه وهم يجمحون.

عَنْ أبي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ؛ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالتِّرْمِذِيّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الإِسْنَادِ.

إنَّ العُقوقَ مَرْكَبٌ صَعْبٌ تَعِزُّ النَّجاةُ عَلَى راكِبِها إذْ هيَ مَرْكَبٌ مَعِيبَةٌ تُغْرِقُ أهْلَها فَكُلُّها خُرُوقٌ وَفُتُوقٌ.

قَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: يُرجَى للرَّهِقِ بالبِرِّ الجَنَّةُ، ويُخافُ عَلَى المُتَأَلِّهِ بالعُقُوقِ النَّارُ. (السير: ٦/٢٩٢).

العقوق يفسخ المودة وينسخ المحبة ويولد البغضاء ويهتف بريح الشقاء ويأتي بجهد البلاء ويحل درك الشقاء ويجعل البلاد مجدبة والحال مسغبة، ونعوذ بالله من مفاتيح الشر، لا رُعْوا.

فأفق أيها النائم وانتبه أيها الحالم ولا تغرنك أضغاث أحلام كاذبة ولا تخدعنك آمال غير صائبة ومطامع دنيا خائبة قد غرت قبلك سوالف القرون فما أغنت عنهم شيئًا « أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ » (الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧).

وإياك والعقوق فإنه مشوار كثير العثار، وصاحبه معثر مخذول، يعض على يديه وهو ناكص على عقبيه، نادمًا ندامة الكسعي يمسح خديه بنعليه ذلاً وهوانًا « وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ » (الحج: ١٨).

واعلم أن كل ذخائر الدنيا ذاهبة إلى المتالف إلا ذخيرة البر وعقيلة الإحسان، لا سيما إلى الأم، فاستعصم بعرى البر، واستمسك بأهدابه، والله تعالى معك لا يترك، ولا يلتك من عملك شيئًا، بل هو سبحانه يوفيك أجرك ولا يسألك شيئًا فلا تخف ظلمًا ولا هضمًا « وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ » (آل عمران: ١١٥)، والله تعالى لك خير معين وأكرم مسؤول وأعظم مأمول.

عقوق الأمهات من أكبر الكبائر:

الأُمُّ خَلْقٌ ضَعِيفٌ هَيِّنٌ فَهِيَ عَلَى شِدَّةِ تَحَمُّلِهَا إلاَّ أَنَّهَا عَطْفٌ وَإِحْسَانٌ وَبِرٌّ وَامْتِنَانٌ، مِنْ أَجْلِ هَذَا صَرَّحَتْ الآيَاتُ وَنَصَرَتْهَا الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَاتُ وَالآثَارُ الوَاضِحَاتُ بِالتَّحْذِيرِ مِنْ عُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ عُمُومًا وَخَصَّتْ عُقُوقَ الأُمِّ بِقِسْطٍ مُفْرَدٍ وَافٍ تَحْذِيرًا مِنْهُ وَنَذِيرًا بِهِ، فَلَرُبَّمَا أَطْمَعَ الشَّيْطَانُ بَعْضَ بَنِي آدَمَ فِي الأُمِّ فَأَدْخَلَ عَلَيْهَا مَا يُؤْذِيهَا وَهُوَ مَا نُشَاهِدُهُ وَنُطَالِعُهُ، إنَّه وَاقِعٌ مُرٌّ أَلِيمٌ حَاصِلٌ بَيْنَنَا.

قال تعالى: « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا » (الإسراء: ٢٣- ٢٤).

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ » (رواه البخاري (٢٤٠٨) ومسلم (٥٩٣)).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: «قِيلَ خَصَّ الأُمَّهَاتِ بِالذِّكْرِ؛ لأَنَّ الْعُقُوقَ إِلَيْهِنَّ أَسْرَعُ مِنَ الآبَاءِ لِضَعْفِ النِّسَاءِ، وَلِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ بِرَّ الأُمِّ مُقَدَّمٌ عَلَى بِرِّ الأَبِ فِي التَّلَطُّفِ وَالْحُنُوِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ. اهـ (فتح الباري: ٥/٦٨ (٢٤٠٨)).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْكَبَائِرِ، قَالَ: « الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ » (رواه البخاري (٢٦٣٥) ومسلم (٨٨)).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ» (رواه البخاري (٦٦٧٥)).

أيُّها العاقُّ:

ارجع إلى رشدك والزم الصواب وكن على جادة البر واحذر العقوق فإن من عق تخلى الله عنه وسلط عليه من يصرعه لليدين وللفم.

فلا تغررك الليالي ما سلمت ففي عواقبها يدرك الكدر، لذا لا مفر للعاق ولا محيد له

Upload by: altawhedmag.com

إذا الرشد والنَّصفة إلا أن يرجع إلى رشده ويتوب ويعود إلى صوابه ويثوب وإلا فإن الله لا يعجزه من هرب ولا يفوته من طلب « يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ » (القيامة: ١٠- ١١).

لا مفر لك أيها العاق من العقاب الشاق فهيئ للبلايا أسبابًا، وتدرع للرزايا جلبابًا، فإنها سكون لك بالمرصاد وإن رمت التحقق فاقرأ أول النحل وآخر ص قال تعالى « أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (النحل: ١)، وقال أيضًا: « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ » (ص: ٨٨)، ومن الكأس نفسها- كأس العقوق- لابد أن تسقى.

وَاشْرَبْ بِكَأْسٍ كُنْتَ تَسْقِي بِهَا
أَمَرَّ فِي الْحَلْقِ مِنَ الْعَلْقَمِ

قصة تثير العبرة وتبعث العبرة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«مَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ مِنَ النَّاسِ فِي مَهْدٍ إِلاَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ» قِيلَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَمَا صَاحِبُ جُرَيْجٍ؟ قَالَ: «فَإِنَّ جُرَيْجًا كَانَ رَجُلاً رَاهِبًا فِي صَوْمَعَةٍ لَهُ، وَكَانَ رَاعِي بَقَرٍ يَأْوِي إِلَى أَسْفَلِ صَوْمَعَتِهِ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ تَخْتَلِفُ إِلَى الرَّاعِي، فَأَتَتْ أُمُّهُ يَوْمًا فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ! وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ- وَهُوَ يُصَلِّي- أُمِّي وَصَلاَتِي؟ فَرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ، ثُمَّ صَرَخَتْ بِهِ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أُمِّي وَصَلاَتِي؟ فَرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ. ثُمَّ صَرَخَتْ بِهِ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: أمي وصلاتي. فرأى أن يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ.

فَلَمَّا لَمْ يُجِبْهَا قَالَتْ: لاَ أَمَاتَكَ اللَّهُ يَا جُرَيْجُ! حَتَّى تَنْظُرَ فِي وَجْهِ الْمُومِسَاتِ. ثُمَّ انْصَرَفَتْ فَأَتَى الْمَلِكُ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، وَلَدَتْ فَقَالَ: مِمَّنْ؟ قَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ. قَالَ: أَصَاحِبُ الصَّوْمَعَةِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: اهْدِمُوا صَوْمَعَتَهُ وَأْتُونِي بِهِ، فَضَرَبُوا صَوْمَعَتَهُ بِالْفُؤُوسِ، حَتَّى وَقَعَتْ، فَجَعَلُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ؛ ثُمَّ انْطُلِقَ بِهِ، فَمَرَّ بِهِ عَلَى الْمُومِسَاتِ، فَرَآهُنَّ فَتَبَسَّمَ، وَهُنَّ يَنْظُرْنَ إِلَيْهِ فِي النَّاسِ، فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا تَزْعُمُ هَذِهِ؟ قَالَ: مَا تَزْعُمُ؟ قَالَ: تَزْعُمُ أَنَّ وَلَدَهَا مِنْكَ، قَالَ: أَنْتِ تَزْعُمِينَ؟

قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: أَيْنَ هَذَا الصَّغِيرُ؟ قَالُوا: هَذَا فِي حِجْرِهَا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ. فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: رَاعِي الْبَقَرِ، قَالَ الْمَلِكُ: أَنَجْعَلُ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: مِنْ فِضَّةٍ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: فَمَا نَجْعَلُهَا؟ قَالَ: رُدُّوهَا كَمَا كَانَتْ، قَالَ: فَمَا الَّذِي تَبَسَّمْتَ؟ قَالَ: أَمْرًا عَرَفْتُهُ، أَدْرَكَتْنِي دَعْوَةُ أُمِّي، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ» (رواه البخاري).

فانظر إلى هذا العقاب العاجل بدعوة واحدة من أُمٍّ تَوَهَّمَتْ شَيْئًا ومع ذلك تحققت الدعوة كما قالتها، بل الأعجب من ذلك أن جريجًا أيقن أن هذا أثر دعوة أمه فإنه لما قيل له: فَمَا الَّذِي تَبَسَّمْتَ؟ قَالَ: أَمْرًا عَرَفْتُهُ، أَدْرَكَتْنِي دَعْوَةُ أُمِّي.

وليس من السهل أن يعرف الرجل من أين أتي إلا إذا كان يقظًا حازمًا مع نفسه.

وقد تقدم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ مَعَ مَا يدخر له؛ من البغى وقطيعة الرحم».

آيات فيها البر والعقوق معًا:

وهي آيات من سورة الأحقاف جمعت بين مثالين متناقضين ووجهين متخالفين برًّا وعقوقًا وقد ذكرتهما معًا ليدب فينا الأمل ويسري إلينا شيئ من الرجاء فإن من قرأ حوادث الأيام يجد فيها أهوالاً وصعابًا ويطالع عجائب وغرائب مما يشعر المرء بأنه قد أظلنا زمان أضحى البر فيها كَسَدَتْ سُوقُهُ وَتَقَلَّصَتْ بُسُوقُهُ (قال الراغب: والباسق هو الذاهب طولا من جهة الارتفاع، ومنه: بَسَقَ فلان على أصحابه: علاهم اهـ المفردات: ص ١٢٣) حتى غمرت بالعقوق سُوقُهُ (جمع ساق) حتى تلفت بضائعه ودرست صنائعه.

الأول: قال تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» (الإسراء: ١٥- ١٦).

فتأمل هذه الآيات تجد أنها بدأت بذكر الوصية بالوالدين والإحسان إليهما إجمالاً ثم عطفت التفصيل بما قامت به الأم من أعباء المراحل المتعاقبة وهي الحمل وما فيه من تعب وآلام ثم

Upload by: altawhedmag.com

المخاض وما فيه من مشقة لا تحس بها إلا الأم ثم الوضع والرضاع وفي هذا إشار خفية إلى العناية بالأم أكثر من الأب والحرص على الزيادة في البر لها على الأب والله أعلم.

قال ابن كثير: (حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرْهًا) أَيْ: قَاسَتْ بِسَبَبِه في حَال حَمْله مَشَقَّةً وَتَعَبًا، مِنْ وَحَام وَغَشَيَان وَثِقَل وَكَرْب، إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِمَّا تَنَال الْحَوَامِل مِنَ التَّعَب وَالْمَشَقَّة، (وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) أَيْ: بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنَ الطَّلْق وَشِدَّته، (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) (تفسير ابن كثير: ٧/ ٢٨٠).

الثاني: قال تعالى: « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (الأحقاف: ١٧- ١٩).

أما هذا الثاني: فهو إنسان تأفف من والديه بعد أن تحملا منه ما لا يحتمل وأبى أن يؤمن بما آمَنَا به.

قال ابن كثير: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِّينَ بِهِمَا وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّجَاة، عَطَفَ بِحَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْعَاقِّينَ لِلْوَالِدَيْنِ فَقَالَ: «وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا» -وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ هَذَا. (تفسير ابن كثير: ٧/ ٢٨٣).

كيف نربي أولادنا على البر؟

إنَّ الله تعالى مِنْ حِكْمَته أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ طَرِيقًا وَهَيَّأَ لَهُ سَبَبًا وَهَنَالك أمور تعين المرء على أن يكون بارًا بالناس عمومًا وبوالديه وأمه خصوصًا.

أولاً: التربية على البر:

وهذا أعظم أسباب البر طرقًا وأوسعه فجاجًا وأكثرها عونًا عليه فإن من أعياه البر صغيرًا فمطلبه كبيرًا عليه صعب وشديد كما قيل في العلم والفقه:

إِذَا أَنْتَ أَعْيَاكَ التَّفَقُّهُ نَاشِئًا
فَمَطْلَبُهُ شَيْخًا عَلَيْكَ شَدِيدُ

وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ بِأَنْ يُعَدَّ الْمَرْءُ وَيُرَبَّى لِيَنْضَمَّ إِلَى جُمُوعِ الْبَرَرَةِ وَلَا يَتِمُّ هَذَا إِلَّا بِالتَّرْبِيَةِ عَلَى ذَلِكَ وَإِعْدَادِ الْأَجْيَالِ لَهُ، فَإِنَّهُ خُلُقٌ لَا يَأْتِي فِي عَشِيَّةٍ أَوْ ضُحَاهَا بَلْ هُوَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمُعَالَجَةِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ خُلُقٍ فَتَغْيِيرُهُ يَصْعُبُ عَلَى الْمَرْءِ وَإِصْلَاحُهُ شَاقٌّ يَطُولُ، حَتَّى قَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ
وَإِنْ تَغَيَّرَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وَهَلْ يَسْتَقِيمُ الْعُودُ إِذَا اشْتَدَّ وَاسْتَوَى عَلَى عوج؟!

إِنَّ تَرْكَ الْمَرْءِ حَتَّى يُصْبِحَ قَاسِيًا صُلْبًا كَالْحَجَرِ الصَّلْدِ أَوْ حَدِيدًا كَالَّذِي يُعَدُّ لِلْقَيْدِ لَهُوَ أَشَدُّ مَا يُفْسِدُ الطِّبَاعَ وَيَجْنِي عَلَى الْبِرِّ.

ومن التربية على البر:

أن يُعَوَّدَ الطِّفْلُ عَلَى إِجْلَالِ أُمِّه وَتَوْقِيرِهَا- وَمَا يُقَالُ فِي الْأُمِّ يَنْسَحِبُ بَدَاهَةً عَلَى الْأَبِ - فَيَشِبُّ عَلَى الْخُضُوعِ لَهُمَا وَالْإِذْعَانِ لِأَمْرِهِمَا وَهَيْبَتِهِمَا وَإِجْلَالِهِمَا وَتَقْبِيلِ يَدَيْهِمَا وَغَضِّ الصَّوْتِ عِنْدَهُمَا وَخَفْضِ جَنَاحِ الذُّلِّ لَهُمَا وَالدُّعَاءِ لَهُمَا فِي حَيَاتِهِمَا وَبَعْدَ مَوْتِهِمَا وَقَدْ جُمِعَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» (الإسراء: ٢٣- ٢٤).

إن الخُلق سجية وعادة، فإن عُوِّد المرء وربِّي على أحسنه وهو في الصغر أتقنه وبلغ منه المأرب وسهل عليه الركض في ميدانه والجري مع فرسانه وإن أهمل إهمال الأنعام والبهائم لَمْ يُرْجَ خَيْرُهُ وَلَمْ يَلُحْ فَلَاحُهُ وصار الخلق السيئ عادة له ثابتة وطريقة له لازمة.

فورث أبناءك البر فهو خير ميراث كما قال الشاعر:

خير ما ورث الرجال بنيهم
أدب صالح وطيب ثناء
هو خير من الدنانير والأوراق
في يوم شدة ورخاء
تلك تفنى والعلم والأدب الصالح
لا يفنيان حتى اللقاء

وللحديث بقية في العدد القادم بإذن الله،

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

مَنزِلَةُ الأُمِّ فِي الإِسْلَامِ

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحلقة الثالثة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا وحده لا شريك له، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فما يزال حديثنا مستمرًا عن منزلة الأم في الإسلام، وقد ختمنا حديثنا في العدد السابق عن سبل التربية العملية على البر، وكيف نربي أولادنا على البر؟ ونكمل في هذا العدد فنقول وبالله تعالى التوفيق

ثانيا: إيجادُ القُدوة:

التَّربيةُ بالقُدْوَة مِنْ أعْظَم وَسَائل التَّربيَة نَفْعًا وَمِنْ أكْثرِهَا في النُّفُوس وَقْعًا، وَلهَذَا كَانَتْ دَعَوَاتُ أَنْبيَاء اللهِ وَرُسُله مَبْنيَّةً عَلَى هَذَا النَّوْع من التربية، فإذا بعث الرسول إليهم متمتعًا بصفات جيدة رائقة ونعوت حسنة فائقة اقتدى به أتباعه ونسجوا على منواله واغترفوا من بحره العذب النمير بلغوا في النهى النِّهَايَةَ وَأدْرَكُوا مِنَ الْخُلق الْحَسَن الْغَايَةَ.

وما أجمل قول الشاعر في تصويره أثر الاقتداء:

مَشَى الطاووسُ يوماً باعْوجاجِ
فقلدَ شكلَ مَشْيتِه بنوهُ
فقالَ علامَ تختالونَ؟ قالوا:
بدأْتَ به ونحنُ مقلِّدُوهُ
فخالفْ سيرَكَ المعوجَّ واعدلْ
فإنَّا إن عدلْتَ معدِّلُوهُ
أمَا تدري أبانا كلُّ فرعٍ
يجاري بالخُطى من أدَّبُوهُ؟!
وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منا
على ما كان عوَّدَه أَبُوهُ

وَمِمَّا صَرَّحَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي هَذَا الشَّأْنِ الاقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَمَا فِي قَوْلِه تَعَالَى: « لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا » (الأحزاب: ٢١).

وقوله تعالى في إبراهيم: « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ » (الممتحنة: ٤) إلى قوله تعالى: « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ » (الممتحنة: ٦).

وينبغي أن تبدأ التربية بالقدوة من الوالدين بأن يكون البر خُلقًا راسخًا فيهما فيقتبس الولد بلا عناء أو إيصاء؛

Upload by: altawhedmag.com

وذلك بأن يظهر الوالد الوقار لأبيه أمام أولاده فيعتادون البر بغير كلفة ولا مشقة ويرثونه أصلاً عن فرع لا عن كلالة، وأن يجعل بين أولاده وبين العقوق حجابًا غليظًا لا تبليه الأيام والليالي ويضرب بينهم وبينه سورًا عاليًا من البر ليس له باب لا يستطيعون أن يظهروه ولا يستطيعون له نقبًا.

أما أن يعق المرء والديه ويكون بعيدًا من البر صفر اليدين منه ثم ينتظر البر من أولاده فإن هذا حاله كحال من يزرع الحنظل ليجني منه الأترج أو التمر فأنى يكون له ما يريد؟!

ثالثًا: الدعاء بصلاح الذرية

وهذا أمر ذو بال بل في غاية الأهمية فإن الذرية التي تكون صالحة تعمل بالبر ولا تقصر فيه، بل تبذل الغالي والنفيس في بر الوالدين خاصة الأم بعد لقاء الله وانتهاء الحياة بتمام العدة وانقضاء المدة فضلاً عن برهما في حياتهما.

إن الذرية البارة هي الصالحة وإلا فقل لي بربك هل رأيت أولادًا صالحين يعقون الآباء والأمهات؟!

إن الدعوات بصلاح الذرية كان يشغل بال الأنبياء والصالحين من عباد الله وإمائه، فإنهم يعلمون أن الدعاء له الأثر البالغ في صلاح الأبناء فاقتد بهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠)، أسأل الله أن يتولانا بما هو أهله.

وهذه نماذج من ذلك:

الخليل إبراهيم عليه السلام:

لقد كان الخليل إبراهيم عليه السلام معتنيًا بهذا الأمر لهذا تجد دعواته لذريته بالصلاح في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (البقرة: ١٢٤).

وفي سورة إبراهيم دعا إبراهيم عليه السلام بدعوات جليلة تفيض شعورًا كبيرًا بقيمة صلاح الولد.

قال تعالى: « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ » (إبراهيم: ٣٥- ٤٠).

وقال تعالى: « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » (الصافات: ١٠٠- ١٠٧).

زكريا عليه السلام:

حيل بين زكريا عليه السلام وبين ما يشتهي من الولد زمنًا طويلاً حتى وهن عظمه واشتعل رأسه شيبًا وبلغ من السن مبلغًا لا يصلح لإنجاب الولد إذ لم يبق فيه لقاح ولا جماع.

غير أن الله تعالى أراد أن يضرب المثل للناس لعلهم يتفكرون، فرزق زكريا بيحيى في هذه السن الكبيرة التي خارت معها قواه واضطرم شعر رأسه شيبًا مع

Upload by: altawhedmag.com

كون امرأته كانت عاقرًا.

قال تعالى: « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » (آل عمران: ٣٨- ٤١).

وفي سورة مريم يعبر السياق عن إلحاح زكريا على ربه تعالى أن يهب له الولد الذي يحمل رسالته ودعوة النبوة من بعده ويرث من العلم والنبوة.

قال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك. (تفسير ابن كثير: ٥/ ٢١١).

وقال تعالى: «إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » (مريم: ٢- ١١).

امْرَأَةُ عِمْرَانَ:

وهذه امرأة عمران تعوذ مريم وذريتها من الشيطان وإغوائه فتقول: «رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (آل عمران: ٣٥- ٣٦).

فكيف كانت العاقبة؟ رزقها الله بمريم التي جعلها وابنها آية في الخلق وآية في العلم والعمل؛ قال تعالى: « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ » (المؤمنون: ٥٠).

قال ابن كثير: "يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَةً لِلنَّاسِ: أَيْ حُجَّةً قَاطِعَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَإِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ النَّاسِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى". (تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٧٦).

وذلك لأن الله تقبل دعوة المرأة الصالحة امرأة عمران وأنبت مريم على طريقة حسنة وأنشأها على الصلاح والولاية « فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (آل عمران: ٣٧).

ومن جملة دعوات عباد الرحمن بصلاح الذرية في خواتيم الفرقان قوله تعالى: « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » (الفرقان: ٧٤).

فأين هذا من أناس يدعون على أولادهم ليس لأنها فلتة لسان عند سورة غضب بل هي عادة لازمة في بعض الأمهات وصفة ثابتة لدى بعض الآباء ونعوذ بالله من الشقاء.

نَصِيحَةٌ:

كُنْ بَارًّا بِأُمِّكَ فَإِنَّ الْبِرَّ بِهَا مِفْتَاحُ الْخَيْرِ كُلِّهِ وَهَلْ أَفْلَحَ إِلَّا مَنْ كَانَ بِهَا بَارًّا؟!

Upload by: altawhedmag.com

لقد كان جريج الراهب عابدًا منقطعًا ومع ذلك ما أغنت عنه عبادته مما دعت عليه به أُمُّه، وَمَا حَجَبَتْ عَنْهُ غَائِلَةَ دَعْوَتِهَا، وَلاَ رَدَّتْ عَنْهُ أَثَرَ غَضْبَتِهَا بَلْ أَدْرَكَتْهُ وَهُوَ فِي العوالي حيث كانت صومعته، فهل يأمن مفرط ظالم لنفسه أو حتى مقتصد أو سابق بالخيرات أن يصيبه ما أصاب جريجًا؟! إِنَّ الْجِيلَ الَّذِي يُعْوِزُهُ بِرُّ الأُمِّ لَجِيلٌ غَيْرُ مُحَافِظٍ عَلَى قِيَمِ أُمَّتِهِ وَأَخْلاَقِ مِلَّتِهِ، يُشْفِقُ عَلَيْهِ وَيُشْفَقُ مِنْهُ؛ إِذْ إِنَّهُ نَصَبَ نَفْسَهُ لِسِهَامِ الرَّاشِقِينَ وَغَرَضًا لأَسِنَّةِ الطَّاعِنِينَ فَإِنَّ بِضَاعَتَهُ بِضَاعَةُ عَاقٍّ وَسِلْعَتَهُ سِلْعَةُ مُشَاقٍّ يَحْمِلُ الضِّغْنَ وَضِيقَ الْعَطَنِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلاَنِ.

فإياك والتهاون في ما وجب عليك من بر والدتك وفيما وجب عليك أيضًا من تنشئة أولادك على البر فلا تتمار بالنذر، فإننا في زمان ما يذهب فيه قلما يعود وما يفوت قد لا يُدرك وما يغدو قد لا يروح.

وَكَمْ مِن امْرِئٍ يَنَامُ مِلْءَ عَيْنَيْهِ وَيَضْحَكُ مِلْءَ شِدْقَيْهِ وَهُوَ عَنِ الْبِرِّ بِأُمِّهِ غَافِلٌ لاَهٍ إِذِ إِنَّ البر فاته في صغره فعز عليه تحصيله في كبره وكَأَنَّ عَلَى قَلْبِهِ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهَ أَوْ عَلَى عَيْنِهِ غِشَاوَةً أَنْ يُبْصِرَ، وَمَا أَظُنُّ وَاللَّهِ مَنْ شَمَّ رَائِحَةَ الْفَهْمِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ.

فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْبِرِّ فَإِنَّهُ سَبِيلُ كُلِّ صَالِحٍ، وَانْضَحْ عَنْهُ وَارْمِ مَنْ وَرَائِهِ بِالْكَلِمَاتِ النَّيِّرَةِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَةِ، وَانْصَحْ كُلَّ عَاقٍّ وَعَاتِبْهُ عَسَى أَنْ يَرْجِعَ، وَلاَ بَأْسَ بِالْعِتَابِ إِذَا قُصِدَ بِهِ الإِصْلاَحُ وَالْخَيْرُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَفِي الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامِ (تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ص ١٣).

إذا ذهب العتاب فليس ود
ويبقى الود ما بقي العتاب

احْرِصْ عَلَى الظَّفَرِ بِمَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْبِرِّ قَدْرًا وَحَظًّا، وَخُذْ بِهِ فِعْلاً وَلَفْظًا، وَتَزَوَّد منه بالجم الغفير، وانهل من بحره العذب النمير، وارتع في روضة منه وغدير، واستعن على ذلك بالدعاء والحرص على تحصيله؛ واجعل شعارك في البر " أن امشوا واصبروا... إن هذا لشيء يراد"، ولو أعانك عليه قوم آخرون فلا تثريب عليك فالمؤمن بإخوانه وهو مرآة أخيه، والمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

أحي من البر ما تستطيع ولك أجر القدوة إذا اقتدى بك مقتد أو تأسى متأسٍّ، ولعلك تُكتب فيمن أحيا هذه الأخلاق بعد أن عادت أعلامها إلى الدروس لما غلب عليها من هوى النفوس.

إِنَّ الأَمْرَ إِدٌّ، وَالْخَطْبَ جِدٌّ، وَطَرِيقَ الْبِرِّ مُتْعِبٌ وَمُكِدٌّ، لاَ سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ صَارَ الْبِرُّ خُلُقًا مَطْوِيًّا، وَبَاتَ نَسْيًا مَنْسِيًّا؛ فَأَحْيِ مِنْهُ مَا كَانَ مُنْدَرِسًا، وَذَكِّرْ بِمَا أَصْبَحَ مِنْ مَعْلَمِهِ مُنْطَمِسًا؛ فَإِنَّ مَنْ أَحْيَا سُنَّةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَاسْمَعْ لِنُصْحِي وَلاَ تَشْغَلْكَ الشَّوَاغِلُ أَوْ تَصْرِفْكَ الصَّوَارِفُ فَتَنْدَمَ وَلاَتَ مَنْدَمٍ.

إِنِّي مَنحتُك يا أَخِيَّ وصيَّتي
فَاسمَعْ لِقَوْلِ أَخٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ

اللهم اجْعَلْ بِرَّنَا حِجَابًا لَنَا مِنَ النَّارِ وَجُنَّةً لَنَا مِنْ دَارِ الْخَسَارِ وَالْبَوَارِ، وَأَدْخِلْنَا بِفَضْلِكَ وَجُودِكَ الْجَنَّةَ فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمِنَّةِ «فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ» (آل عمران: ١٨٥)، اللهم إنا نسألك قولاً بالحق وعملاً به وطلبًا للبرِّ وانتهاءً إليه، ونعوذ بك أن يستحوذ علينا الباطل دون الحق.

Upload by: altawhedmag.com

التعصب وأثره السيئ في ماضي الأمة وحاضرها

الحمد لله الذي علم بالقلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد المفرد العلم، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ومصابيح الظلم، وبعدُ:

فقد كانت العربُ في جاهليتها قبل شروق شمس الإسلام على الخافقين على إرث من إرث آبائهم في جاهلية جهلاء، وعصبية عمياء، وفتنة صلعاء، يهيمون على وُجوههم في الفتن حيارى، ويخوضون في الأهواء والظلمات سكارى، يترددون في بحار الضلالة، ويجولون في أودية الجهالة. شريفهم مغرور، ووضيعهم مقهور، وإلى الله ترجع الأمور، لا يعبؤون بصواب ولا خطأ، ولا يميزون بين حق وباطل، إنما هو ما يملى عليهم من قبائلهم بكرة وأصيلاً فحسب، بل كان شعارهم انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا وهذا لائح لا خفاء به على ذي عقل أو نهية.

الحلقة الأولى

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

قال ابن حجر: «ذكر المفضل الضبي في كتابه الفاخر أن أول من قال: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية لا على ما فسره النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول شاعرهم:

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم
على القوم لم أنصر أخي حين يظلم»

(فتح الباري: ٥/ ٩٨ (٢٤٤٤)).

وهكذا تغالت العرب في نزاعها، وتمادت في عصبيتها المؤدية إلى ضياعها.

وحسبك من قوم أولي بأس شديد جاسوا خلال الديار من أجل العصبية لا فرق بين أن تكون لعرض أو أرض أو مال أو حتى لناقة أو بعير.

وليست حرب داحس وغبراء- التي أهلكت من العرب أناسيَّ كثيرًا- عنا ببعيد، نعوذ بالله من سوء المنقلب.

وكذا ما كان بين الأوس والخزرج من حروب دامت أمدًا بعيدًا أزهقت فيها أنفس وراحت فيها أرواح وسقطت لأجلها جثث وهام بسبب عصبية هي أقرب إلى الأوهام منها إلى الحقائق فقتل فيها كثيرون وقد بين ذلك العلماء.

قال الخطابي: «يوم بعاث يوم مشهور من أيام العرب كانت فيه مقتلة عظيمة للأوس على الخزرج وبقيت الحرب قائمة مائة وعشرين سنة إلى الإسلام على ما ذكر ابن إسحاق وغيره» (فتح الباري: ٢/ ٥١١. وليس المراد بهذه المدة الطويلة في كلام الخطابي حرب بعاث فقط، بل المراد مدة الحروب بين الحيين والله أعلم إذ إن حرب بعاث كانت قبل الهجرة ببضع سنوات كما قرره ابن حجر في فتح الباري: ٢/ ٥١٢ والله أعلم).

وقال ابن حجر: «نعم دامت الحرب بين الحيين الأوس والخزرج المدة التي ذكرها في أيام كثيرة شهيرة. وكان أولها فيما ذكر ابن إسحاق وهشام بن الكلبي وغيرهما أن الأوس والخزرج لما نزلوا المدينة وجدوا اليهود مستوطنين بها فحالفوهم وكانوا تحت قهرهم ثم غلبوا على اليهود في قصة

Upload by: altawhedmag.com

طويلة بمساعدة أبي جبلة ملك غسان.
فلم يزالوا على اتفاق بينهم حتى كانت أول حرب وقعت بينهم حرب سُمير (بالمهملة مصغرًا) بسبب رجل يقال له: كعب من بني ثعلبة نزل على مالك بن عجلان الخزرجي فحالفه فقتله رجل من الأوس يقال له سُمير فكان ذلك سبب الحرب بين الحيين.
ثم كانت بينهم وقائع من أشهرها يوم السرارة- بمهملات- ويوم فارع- بفاء ومهملة- ويوم الفجار الأول والثاني وحرب حصين بن الأسلت وحرب حاطب بن قيس إلى أن كان آخر ذلك يوم بعاث.
وكان رئيس الأوس فيه حضير والد أسيد وكان يقال له: «حضير الكتائب» وجرح يومئذ ثم مات بعد مدة من جراحته.
وكان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان وجاءه سهم في القتال فصرعه فهزموا بعد أن كانوا قد استظهروا.
ولحسان وغيره من الخزرج وكذا لقيس بن الحطيم وغيره من الأوس في ذلك أشعار كثيرة مشهورة في دواوينهم. (فتح الباري: ٢/٥١٢ (٩٤٩)).
وفي الجملة فقد عملت العصبية آنذاك في النفوس عمل حميا الكؤوس (وهي الخمر) حتى سقطت في سبيلها جماجم وطارت من أجلها رؤوس فلله الأمر من قبل ومن بعد.

أزهى عصور الإسلام:

فلما جاء الله بالإسلام بعث إلى خلقه رسولاً وجعله إلى سبيله هاديًا وعليه دليلاً فبلغ صلى الله عليه وسلم عنه رسالاته، وبين المراد من آياته.
فتجلت أعلام الملة الحنيفية بعد انقطاعها، وعلت كلمة الحق بعد انخفاضها وانخفضت كلمة الباطل بعد ارتفاعها، وذهبت أعلام الشرك وأضاءت حجج التوحيد وتلألأت أنواره بعد انطفائها، وعادت الملة من ضيقها إلى اتساعها، فانقادت له الأمة بعد امتناعها، ورجعت من قبح افتراقها إلى حسن اجتماعها، فهجروا العصبية ولم يعاودوها بعد وداعها، وانكسرت جموع الفرقة وانمحت حصون قلاعها، وذكروا بنعمة الله عليهم من شرح صدورهم لآيات التنزيل فارتاحوا لسماعها وانقادوا لاتباعها، وأصبحوا بهذه النعمة إخوانًا بعد ما كانوا أعداء لا تأمن الأمة من ضياعها، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها بعد قرب سقوطها في الدرك ووقوعها.
وكان ذلك كله بشريعة من الأمر جعل الله تعالى نبيه عليها، كما جعل فيها تمام السلامة، وجماع الكرامة، لا تطفأ سرجها، ولا تدحض حجتها، من لزمها عصم، ومن خالفها ندم؛ إذ هي الحصن الحصين، والركن الركين الذي بان فضله، ومتن حبله. فمن تمسك بها ساد، ومن رام خلافها حاد عن الجادة وباد، والمتعلقون بها هم أهل السعادة في الآجل والمغبوطون بين الأنام في العاجل.
وما أجمل ما افتتح الخطيب البغدادي به كتابه «الكفاية في قوانين الرواية» (١/٤٧) حين قال بعد خطبة الكتاب: «أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى أنقذ الخلق من ثائرة الجهل، وخلص الورى من زخارف الضلالة بالكتاب الناطق، والوحي الصادق، المنزلين على سيد الورى نبينا محمد المصطفى» اهـ.
لقد انشرحت صدور العرب لهذا الوحي النقي، وفتح ما استغلق منها، ودخلوا في دين الله أفواجًا، وكسرت الأصنام، ودحضت الأزلام، وأسفر الحق عن محضه، وأبدى الليل عن صبحه، وانحطت أعلام الشقاق، وانهشمت بيضة النفاق؛ فالحمد لله الذي نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.
فخلعوا العصبية كما يخلع الرجل ثوبه فلم يبق فيهم منها عين ولا أثر، وكان ذلك من أثر نور كتاب الله العزيز وبركة السنة المشرفة اللذين هما وعاء الشريعة الغراء وملاكها.
ولا عجب فهما النور البهي، والأمر الجلي، والحجة الواضحة، والمحجة اللائحة، من تمسك بهما اهتدى ومن حاد عنهما ضل وغوى.
وقد شغل القوم- بعد المغاورات والتجارات وتطلب الأرباح والكدح للمعاش في رحلة الشتاء والصيف، وبعد الغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة- بتلاوة الكتاب العزيز- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد- وبالتفقه في دين الله عز وجل، وحفظ سنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام.
فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دون وحفظ حتى الآن.... فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوقيفه، عما ألفوه ونشأوا عليه وغذوا به، إلى مثل هذا الذي ذكرناه. وكل ذلك دليل على حق الإيمان وصحة نبوة نبينا محمد- صلى

Upload by: altawhedmag.com

الله عليه وسلم - (الصاحبي لابن فارس: ص ٤٤-٤٥).

وهكذا شرح الله صُدور العرب وكذا الناس من بعدهم للإسلام فانقادت لاتباعه وارتاحت لسماعه وأمات في نفوسهم بعد أن تمادت في نزاعه وتغالت في امتناعه بل تحولت أخلاقهم إلى أخلاق منيعة المنال بديعة المثال فسبحان من يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير.

التزام السلف بترك العصبية

وقد عمل السلف بهذه السنن القويمة، وبات أمر عصبية الجاهلية نسْيًا منسيًا، حتى أصبح الموالي سادة بنافع العلم وصالح العمل من أمثال عكرمة مولى ابن عباس وكذا كريب وعطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر وغيرهم، واليك مواقف تفصح عن ذلك.

قال ابن أبي الزناد: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد، حتى نشأ فيهم الغر السادة: علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، ففاقوا أهل المدينة علما وتقى وعبادة وورعا، فرغب الناس حينئذ في السراري السير: ٤/٤٦٠.

وعن أبي العالية، قال: كان ابن عباس يرفعني على السرير، وقريش أسفل من السرير، فتغامزت بي قريش، فقال ابن عباس: هكذا العلم يزيد الشريف شرفا، ويجلس المملوك على الأسرة.

قلت: هذا كان سرير دار الإمرة، لما كان ابن عباس متوليها لعلي -رضي الله عنهما-. (الجرح: ٣/٥١٠، والسير: ٤/٢٠٨).

وعن الوليد الموقري عن الزهري قال: قال لي عبد الملك بن مروان: من أين قدمت؟ قلت: من مكة، قال: فمن خلفت يسودها؟ قلت: عطاء، قال: أمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فيم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية.

قال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا، فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاووس، قال: فمن العرب، أو الموالي؟ قلت: من الموالي.

قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب، أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل.

قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، وهو من الموالي.

قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم من الموالي.

قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن من الموالي.

قال: فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب، أم من الموالي؟ قلت: من العرب، قال: ويلك! فرجت عني، والله ليسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر، والعرب تحتها.

قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين، من حفظه، ساد، ومن ضيعه، سقط. (السير: ٥/٨٥- ٨٦ وقال الذهبي: الحكاية منكرة، والوليد بن محمد: واه، فلعلها تمت للزهري مع أحد أولاد عبد الملك، وأيضا ففيها: من يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، وهو من الموالي.

فيزيد: كان ذاك الوقت شابا لا يعرف بعد، والضحاك، فلا يدري الزهري من هو في العالم، وكذا مكحول يصغر عن ذاك اهـ).

فتأمل كيف حولهم الإسلام من الحضيض إلى الدرجات العلى، ونقلهم من الدرك الأسفل إلى ذرى المعالي، وأورثهم محاسن الشيم، وبلغهم عالية القيم، ورفعهم إلى قمة القمم، ومكنهم من سياسة الأمم، بعد أن كانوا رعاة غنم وجعلهم أئمة للمتقين بعدما ظلوا حينا من الدهر على الناس عالة، ودعاة جهالة؟!

فسبحان من يحيي موات القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها.

ثم غزا الإسلام بلاد العجم ؛ ففتح الله قلوبهم للإسلام، وشرح صدورهم له، وصار منهم أئمة في العلم والعمل، وظلت الأمة في وارف ظلال العافية من العصبية حينا من الدهر.

قال الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة: «إن أزهر عصور الإسلام هو عصر اللامذهبية، عصر الصحابة والتابعين إذ كانت هداية الناس وبصيرتهم مقتبسة من الكتاب والسنة، وإذ لم يكن هناك فيهم من يقول: «الأصل كلام أصحابنا، فإن كان هناك ما يعارضه من القرآن تأولناه، وإن كان هناك حديث معارض رددناه كرد حديث أنس في رض رأس اليهودي الذي رض رأس الأنصارية لأجل نقل عن أبي حنيفة (ولو ضربه بأبي قبيس)»، كانت خير عصور المسلمين عصر

Upload by: altawhedmag.com

الصحابة والتابعين، حيث لا مذاهب تُرَدُّ لأجلها نصوص الكتاب والسنة» (التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل للعلامة المعلمي اليماني: ١٣٢/١).

الأئمة الأربعة على اختلاف مذاهبهم يرفضون التعصب

إنْصَافُ الأئمة الأربعة، وتَعْويلُهمْ على الدَّليل عَامَّةً، وَالسُّنَّة خَاصَّةً:

ثُمَّ ظَهَرَتْ المَذَاهبُ الفقهيَّةُ واشْتَهَرَ مِنْهَا الأَرْبعَةُ المَعْرُوفَةُ (الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة) وَحُفِظَ عَنْ كُلِّ إمَامٍ مِنَ الأَرْبعَة حرْصُهُ على اتِّبَاعِ الدَّليلِ وَاقْتِفَاءِ الآثَارِ وَوَصِيَّتُه بِه حَتَّى جَرَتْ كلماتُهُمْ في ذَلكَ مَجْرَى الأَمْثَال كقَوْلِ أبي حنيفة: «لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه» (الانتقاء لابن عبدالبر: ص ١٤٥).

وقال الشافعيُّ - وَحَسْبُكَ به دينًا وَفَضْلاً وَعِلْمًا وَنُبْلاً -: «إذَا صَحَّ الحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي» (السير: ٣٥/١٠).

وقال أيضًا: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد» (إعلام الموقعين: ٢٨٢/٢).

وَهَذَا الإمَامُ المُبَجَّل أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل يقول: «لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا» (إعلام الموقعين: ٢٠١/٢).

ويَقُولُ أيضًا: «لَمْ يَعْبُرِ الجِسْرَ إلى خُرَاسَانَ مِثْلُ إسْحَاقَ، وَإنْ كَانَ يُخَالِفُنَا في أَشْيَاءَ، فَإنَّ النَّاسَ لَمْ يَزَلْ يُخَالِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» (تاريخ بغداد: ٣٦٢/٧).

وَقَالَ الصَّنْعَانِي مُرْتَجِزًا:

عَلامَ جَعَلْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ دِينَنَا
لأَرْبَعَةٍ لا شَكَّ في فَضْلِهِمْ عِنْدِي
هُمُ عُلَمَاءُ الدِّينِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَنُورُ عُيُونِ الفَضْلِ وَالحَقِّ وَالزُّهْدِ
وَلَكِنَّهُمْ كَالنَّاسِ لَيْسَ كَلامُهُمْ
دَلِيلاً وَلا تَقْلِيدُهُمْ في غَدٍ يُجْدِي
وَلا زَعَمُوا حَاشَاهُمُ أَنَّ قَوْلَهُمْ
دَلِيلاً فَيَسْتَهْدِي بِهِ كُلُّ مُسْتَهْدِ
بَلَى صَرَّحُوا أَنَّا نُقَابِلُ قَوْلَهُمْ
إذَا خَالَفَ المَنْصُوصَ بِالقَدْحِ وَالرَّدِّ

(ديوان الصنعاني: ص ١٦٨).

وَقَدْ كَانَ الشَّافعيُّ يرد شهادة أهل العصبية، فقال رحمه الله: «مَنْ أَظْهَرَ العصبية بالكلام وتألف عليها ودعا إليها فهو مردود الشهادة، لأنه أتى محرَّمًا لا اختلافَ فيه بين علماء المسلمين علمتُهُ». (قال المعلمي اليماني: وأما ما ذكره الشافعي في أصحاب العصبية فالشافعي إنما عنى العصبية لأجل النسب كما هو صريح في كلامه اهـ التنكيل: ٢٢٧/١).

واحتج بقول الله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (الحجرات: ١٠)، وبقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وكونوا عباد الله إخوانا » سنن البيهقي. وذكر البيهقي في « باب شهادة أهل العصبية » ما يقارب أربعين حديثًا. (من الحديث (٢١٠٥٩) إلى (٢١٠٩٧)).

منها: ما يُودي (من الموؤدة، أي: يقتل) العصبية، وما يزهق ما يؤدي إليها كحديث أبي هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا » (رواه البخاري).

ومنها: أحاديث في الحث على الحب في الله تعالى ولا ريب أن فيها تذويبًا للعصبية وزوالاً لأثرها وتقليلاً لحدتها.

وَمِنْهَا: مَا يَنْهَى عن العصبية ذاتها كحديث جندب بن عبدالله المتقدم، وحديث سَلَمَةَ بْنِ بِشْرٍ الدِّمَشْقِيِّ، عَنْ بِنْتِ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، أَنَّهَا سَمِعَتْ أَبَاهَا، يَقُولُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْعَصَبِيَّةُ؟ قَالَ: «أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ». (وهو حديث ضعيف الإسناد، سلمة بن بشر ذكره ابن حبان في الثقات وقال: (دمشقي يروي عن سَلَمَةَ بن بشر بن عبد العزيز وسعد بن عمارة روى عنه يعقوب بن إسحاق الحضرمي وداود بن رشيد) اهـ وبنت واثلة هي: جميلة، ويُقال: خصيلة، ويُقال: فسيلة، وقال ابن حجر: مقبولة، فهي مجهولة، ولهذا ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود).

فانظر إلى عناية الأئمة بذلك الداء ويقظتهم له وإدراكهم لخطره فلله درهم، وهذا كلام حريٌّ أن يكون صحيحًا عنهم فإنهم كانوا أهل إنصاف وورع.

وَمَا بلغنا أنَّ أحدًا ممن مضى منهم ادعى الصواب كله، بل كان الواحد منهم أورع وأتقى لله جل ثناؤه من أن يقول ذلك.

فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا زَمَانَنَا وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله العزيز الحكيم؟!

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ

الْحَمْدُ للهِ عَلَى جَلائِلِ نِعَمِه، وَفَوَاضِلِ آلائِه وَقِسَمِه، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَيْرِ بَرِيَّتِه مُحَمَّدٍ وَعِتْرَتِه، وَمَنْ تَبِعَهُ عَلَى دِينِه وَمِلَّتِه، وَبَعْدُ

إعداد/ د. عماد عيسى

فإنَّ اللهَ تَعَالَى نَعَتَ شَهْرَ رَمَضَانَ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ (البقرة: ١٨٤). وَهَذَا يَعْنِي صَرَاحَةً قِلَّةَ هَذِه الأَيَّامِ وَسُرْعَةَ انْقِضَائِهَا قَبْلَ قَضَاءِ الْوَطَرِ وَاسْتِيفَاءِ الْمُرَادِ مِنْهَا إلا مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

كَمَا يَقْتَضِي مَعْنَاهَا ضِمْنِيًّا خِفَّةَ هَذِه الْعِبَادَةِ عَلَى أَهْلِ الإِيمَانِ مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ الَّتِي تَقَعُ مِنْ جَرَّاءِ مُخَالَفَةِ الْمَأْلُوفِ وَتَرْكِ الْمُعْتَادِ مِنَ الْحَلالِ الْمَعْرُوفِ- طَعَامًا وَشَرَابًا وَنِكَاحًا- مَعَ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ بِالانْصِرَافِ عَنْ قُوَاهَا الْغَضَبِيَّةِ وَطِبَاعِهَا الشَّهْوَانِيَّةِ، وَالْعُزُوفِ، مِمَّا يَتَّفِقُ مَعَ تَحْقِيقِ التَّقْوَى كَمَا فِي النِّدَاءِ الإِلَهِيِّ الَّذِي تَجِدُ فِيه رُطُوبَةَ الإِيمَانِ وَنَسِيمَ الْمَحَبَّةِ وَلُطْفَ الْمُنَاجَاةِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَذَلِكَ فِي صَدْرِ آيَةِ الصِّيَامِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وَمَعْنَى "مَعْدُودَات" أَيْ: قَلِيلاتُ الْعَدَدِ قَصِيرَاتُ الْمَدَدِ.

قَالَ الأَلُوسِيُّ: "(أَيَّاما مَعْدُودات) أَيْ مُعَيَّنَاتٍ بِالْعَدِّ أَوْ قَلِيلاتٍ لأَنَّ الْقَلِيلَ يَسْهُلُ عَدُّهُ فَيُعَدُّ وَالْكَثِيرَ يُؤْخَذُ جُزَافًا".

سُبُلُ الظَّفَرِ بِغَنِيمَةِ رَمَضَانَ:

إنَّ مَنْ أَرَادَ اغْتِنَامَ زَمَانِ رَمَضَانَ يَلْزَمُهُ أَنْ يَأْخُذَ بِأُمُورٍ:

أَوَّلاً: شَغْلُ وَقْتِه وَإِعْمَارُه بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ:

وَهَذَا هُوَ الرُّكْنُ الأَعْظَمُ فِي الْفَوْزِ بِجَوَائِزِ رَمَضَانَ الَّتِي تُعْطَى لأَهْلِهَا صَبِيحَةَ يَوْمِ الْعِيدِ وَيَظْهَرُ بِهَا الْمَرْحُومُ مِنَ الْمَحْرُومِ، وَيَتَمَيَّزُ بِهَا الشَّقِيُّ مِنَ السَّعِيدِ.

فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ لا سِيَّمَا فِي أَيَّامِ الْبَرَكَةِ، وَأَزْمِنَةِ مُضَاعَفَةِ الأُجُورِ، وَأَوْقَاتِ كَثْرَةِ الْمِنَحِ، وَأَنْ يَعْمَلَ عَلَى تَحْصِيلِ أَسْبَابِ الْفَوْزِ وَالظَّفَرِ بِأَطْوَاقِ النَّجَاةِ لِئَلا يَنْزِلَ إِلَى الدَّرْكِ وَالدُّونِ وَيَحْصُلَ عَلَى صَفْقَةِ الْمَغْبُونِ؛ فَيَخْرُجَ مِنَ الشَّهْرِ بِالْحِرْمَانِ وَيَخْسَرَ الْبِشَارَةَ بِالْجِنَانِ وَفَوَاتِ الْغُفْرَانِ وَهَذَا وَاللهِ هُوَ الْخِذْلانُ الَّذِي نَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنْهُ.

ثَانِيًا: الإِقْلالُ مِنَ الشَّهَوَاتِ:

وَإِنَّمَا عَبَّرْتُ بِالإِقْلالِ لأَنَّ امْتِنَاعَ الْمَرْءِ مِنَ التَّمَتُّعِ بِهَا أَمْرٌ يُشْبِهُ الْمُحَالَ، إِنَّمَا الْمُسْتَنْكَرُ فِي ذَلِكَ الاتِّسَاعُ فِيهَا وَالاشْتِغَالُ بِهَا وَجَعْلُهَا قَصْدًا مِنَ الْقُصُودِ وَغَرَضًا مِنَ الأَغْرَاضِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٢٠).

ثُمَّ إِنَّ مِنَ الشَّهَوَاتِ مَا أَبَاحَهُ اللهُ تعالى وَلَيْسَ فِي تَنَاوُلِه مَضَرَّةٌ بَلْ رُبَّمَا كَانَ فِي التَّمَتُّعِ بِهَذِه الشَّهْوَةِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَسَدٌّ لِبَابِ فِتْنَةٍ جَسِيمَةٍ كَشَهْوَةِ النِّكَاحِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَطَيِّبَاتِ الْحَيَاةِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

لِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَتَقَلَّلُونَ مِنَ الشَّهَوَاتِ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ وَيَرْضَوْنَ بِقَلِيلِ الدُّنْيَا.

قَالَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ: إِذَا أَكَلْتُ رَغِيفًا سَدَّ بَطْنِي وَشَرِبْتُ كُوزًا مِنْ مَاءٍ فَعَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا الْعَفَاءُ. (تذكرة الحفاظ: ٢/ ٦٠٧).

Upload by: altawhedmag.com

ثالثا: اجتناب الناس إلا من الخير:

مُخالطةُ النَّاس أصْلُ التَّخليط، وبَابٌ واسعٌ للذُّنوب والخطايا وسَببٌ كلّ تفريط، فالعاقل الذي يُغلق هذا البابَ ويَستريحُ من عناء المآثم ووَعْثاء المحارم.

والسَّبيل الأرشدُ والطَّريقُ الأقصدُ إلى اغْتنام أيّام رمضَانَ يكادُ يجتمعُ في عدم الخُلطة بالنَّاس وفي الإقلال- قدْرَ الإمْكان- من غشيان مَجالسهمْ إذ إنّ أنفاسَ النَّاس دُخانُ القُلوب الذي يخنقُها، ويَعوقُها عنْ مُباشرة أعْمالَها، ويقطعُ سَيرَها إلى ربّها تعالى ولهذا قيلَ: الاستئناسُ بالنَّاس من علامات الإفلاس، يعْني الإفلاسَ والإملاقَ من العَمَل الصَّالح.

قالَ ابنُ عونٍ: "ذكرُ النَّاس داءٌ، وذكرُ اللّه دَواءٌ".

رابعا: إدارة الوقت واليوم:

الوقْتُ رأسُ مالِ العَبْد، وأسُّ بضاعته، وأساسُ تجارته مَعَ اللّه تعالى ؛ فينبغي للمسلم أنْ يعْمل نفسَه في جمْعه وأن يشغلَها بحفظه فلا يتعطّل مَعَ العاطلين ولا يتبطّل مع البطّالين ولا يلجأ إلى التَّرخص فيه كيْ لا يكونَ وقته دُولةً بيْنَ يدَيْ خليل أو نديم فيَندم يوم لا ينفع النّدم، ويعضّ على يديْه ولاتَ حينَ مَنْدم.

وهذا طرفٌ من أحوال السَّلف في عبادتهم يبعثُ الهممَ من مَرْقدها ويُحيي مَواتَها ويَبعثُها.

١- الصَّلاة:

كانَ السَّلفُ من الصَّحابة والتَّابعينَ وأتْباعهم على قدْرٍ كبير منَ الصَّبْر على طُول الصَّلاة فمنْهُمْ مَنْ كانَ يُصلّي اللّيلَ كلّه ومنْهُمْ مَنْ يُصلّي اللّيلَ والنّهارَ معًا ومنْهم من يبْلغُ منَ السِّنّ مبْلغًا تهنْ منْه عظامُه ومَعَ ذلكَ يُطيلُ الصَّلاة.

قالَ إبْراهيم النَّخعي: "كانَ عَمْرُو بنُ مَيْمون لمّا كبر أوتدَ له في الحائط فإذا سَئمَ منَ القيام للّه تعالى استَعانَ بالوَتد".(تذكرة الحفاظ: ١/٦٥).

٢- التِّلاوة:

القُرْآنُ غذاءُ للصّالحين ودَواءٌ وشفاءٌ للعاصينَ فطُوبى لمنْ ألْهمَ تلاوتَه ورُزقَ إدْمانَ قراءته لا سيَّما في رمضَانَ وهُوَ الشّهر الذي أنْزلَ فيه.

قالَ ابنُ إسْحاقَ: ابْتدئَ رَسُولُ اللّه صَلّى اللّه عَلَيْه وسَلّمَ بالتَّنْزيل في رَمَضَان، قالَ اللّه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣). (السير: ١/١٠٩).

وقَدْ كانَ السَّلفُ لهُمْ دوِيٌّ بالقُرآن كدَويّ النَّحْل.

٣- الذِّكْر:

كانَ الذِّكْرُ لهؤُلاء القَوْم كالماء للسَّمك لا يَكادُ يفْتُرُ أحدُهُمْ عَنْهُ ولا يَملُّ منْهُ وهذا طرفٌ منْ حالهمْ.

قيلَ لأبي الدَّرْداء- وكانَ لا يفْتُرُ من الذِّكْر-: كمْ تُسبّحُ في كُلّ يوْم؟

قالَ: مائةَ ألْف، إلاّ أنْ تُخْطئَ الأصابعُ (السير: ٢/٣٤٨).

٤- الدُّعاء:

وقَدْ جاءَ الحديثُ عنِ الدُّعاء مقْرونًا بآيات الصّيام، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وفي هذا إشارةٌ إلى العَلاقة الرّابطة بيْنَ الصّيام والدُّعاء إذْ إنّ الدُّعاءَ يحْتاجُ إلى طهارة منَ الذُّنوب وتوْبة نصُوح منْها معَ التَّغلُّب على الشَّهْوة وزوال الغفْلة واجْتماع القَلْب على اللّه تعالى وهذا كلّه يتحقّق بالصّيام.

وإذا انْتفتْ هذه الأمُورُ وغلبَتْ العَبْدَ شهْوتُه واسْتولتْ عليْه الغفْلةُ تخلّفَ أثرُ الدُّعاء أوْ كانَ أثرُهُ ضعيفًا.

٥- البُكاء:

كانَ السَّلفُ منْ شدّة خوْفهمْ يغْلبُ عليْهمُ البُكاءُ في الصّلاة والتّلاوة وغيْرهما.

قالَ حمّادُ بنُ زيْد: رأيْتُ ثابتًا يبْكي حتّى تخْتلفَ أضْلاعُه.

وقالَ جعْفرُ بنُ سُليْمانَ: بكى ثابتٌ حتّى كادتْ عيْنُه تذْهبُ، فكلّم في ذلكَ فقالَ: ما خيّرهُما أنْ لمْ تبْكيا وأبى أنْ يُعالجَ (تذكرة الحفاظ: ١/١٢٥).

وهذا محمّدُ بنُ المُنْكدرُ قيلَ: إنّه تهجّدَ ليْلةً فاشْتدّ بُكاؤُه فسألَه إخْوانُه فقالَ: تلوْتُ هذه الآيةَ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر: ٤٧).

٦- المُحاسبة:

كانَتْ المُحاسبةُ عُنْوانَ السَّلف في أعْمالهمْ إذْ كانُوا يعْلمُونَ أنّ تَرْكَ المُحاسبة بابُ الإهْمال والتّفْريط التي يَنْدمُ المَرْءُ عليْها يوْمَ القيامة أشدّ النّدم ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٦).

خامسا: إدْمانُ النّظر في أحْوال السّلف ومَواعظهمْ:

مَنْ طالعَ سيرَ السَّلف ووَجدَ تَراجمَهُمْ مُوشّحةَ الصُّدور بالفضائل والمَناقب آمَنَ أنّها - أي سيرهم- جُندٌ منْ جُنود اللّه يُثبّت بها من يشاءُ منْ عبادهِ ويَهْدي بها مَنْ أرادَ به الخيْر.

هذا ما يسّرَ اللّه تعالى ممّا سمَحتْ به القَريحةُ معَ عدم فرَاغ البال وتقسُّم القَلْب وتشعُّب الهمّ واللّه تعالى المَسْئولُ أنْ يرْفعَ عنّا ما بنا وأنْ يُخفّفَ عنّا ما أناخَ ببابنا، وأنْ يشْفيَ مرْضانا وأنْ يخْتمَ لنا ولهُمْ بخيْر، ومنَ اللّه تعالى أسْتمدُّ السّدادَ وأسْألُه الثّباتَ على سبيل الرّشاد إنّه كريمٌ جوادٌ.

والحمد للّه ربّ العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

التعصب وأثره السيئ في ماضي الأمة وحاضرها

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي علم بالقلم والصلاة والسلام على نبينا محمد المفرد العلم وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ومصابيح الظلم وبعد:

فما يزال الحديث مستمرًّا عن التعصب وآثاره السيئة على الأمة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

عَصَبِيَّةُ الْمَذَاهِبِ مَنْشَأُ الْفُرْقَةِ بِفِعْلِ أَخْلَافِ السُّوءِ:

وَهَكَذَا جَرَتْ الأُمُورُ عَلَى السداد حتى ظهر المتعصبون من أخلاف السوء بعدما اختاروا التقليد خطة رُشْد لا عدْلَ لَهَا - وإن كان لا بأس بذلك (أي: التقليد) لغير المتأهل للاجتهاد بشروط معتبرة عند الأصوليين -.

وَظَهَرَ التَّبَجُّحُ بِكَوْنِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَوْلَى مِنْ ذَاكَ، وَسَرَتْ الْعَصَبِيَّةُ الْمُفْرِطَةُ فِي أَتْبَاعِ الْمَذَاهِبِ.

وَأَصْبَحَ الْوَلاَءُ وَالْبَرَاءُ مَعْقُودًا عَلَيْهَا وَظَهَرَ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ حَطُّ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ كَحَطِّ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى الشَّافِعِيَّةِ، وَالْعَكْسِ.

حَتَّى أَنَّ بَعْضَ الْمُقَلِّدَةِ أَنْزَلَ الزَّوَاجَ بِالْمَرْأَةِ مِنْ مَذْهَبٍ آخَرَ مَنْزِلَةَ الزَّوَاجِ بِالْكِتَابِيَّةِ.

وَقَالَ آخَرُ:

فَلَعْنَةُ رَبِّنَا أَعْدَادُ رَمْلٍ عَلَى مَنْ رَدَّ قَوْلَ أَبِي حَنِيفَةَ وَلأَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيمَ الْبُوشَنْجِيِّ فِي الشَّافِعِيِّ:

وَإِنِّي حَيَاتِي شَافِعِيٌّ فَإِنْ أَمُتْ فَتَوْصِيَتِي بَعْدِي بِأَنْ يَتَشَفَّعُوا

وقال آخر:

أَنَا حَنْبَلِيٌّ إِنْ حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ فَوَصِيَّتِي لِلنَّاسِ أَنْ يَتَحَنْبَلُوا

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيُّ مصنف كتاب (ذَمُّ الكَلاَمِ):

أَنَا حَنْبَلِيٌّ مَا حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ فَوَصِيَّتِي ذَاكُمْ إِلَى الإِخْوَانِ

إِذْ دِينُهُ دِينِي وَدِينِي دِينُهُ مَا كُنْتُ إِمَّعَةً لَهُ دِينَانِ

(السير: ١٨/ ٥٠٧).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: "إِنَّ الإِمَامَ الْمَهْدِيَّ (يَعْنِي الْمُنْتَظَرَ) يُقَلِّدُ أَبَا حَنِيفَةَ، وَإِنَّ عِيسَى يَحْكُمُ آخِرَ الزَّمَانِ بِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، حَكَاهُ ابْنُ عَابِدِينَ عَنْ بَعْضِهِمْ وَرَدَّهُ فِي حَاشِيَتِهِ". (حاشية ابن عابدين: ١/ ٥٧).

هَذَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ السُّنَّةَ قَدْ تَخْفَى عَلَى بَعْضِ

Upload by: altawhedmag.com

الْعُلَمَاءِ بَلْ عَلَى أَكَابِرِهِمْ، بَلْ عَلَى أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ سَبَقُونَا- كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ - فِي كُلِّ عِلْمٍ وَفَضْلٍ.

وَيَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ حَجَرٍ حِينَمَا قَالَ فِي شَرْحِ حَدِيثِ " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ "، "وَفِي الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ قَدْ تَخْفَى عَلَى بَعْضِ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ، وَيَطَّلِعُ عَلَيْهَا آحَادُهُمْ، وَلِهَذَا لَا يُلْتَفَتُ إِلَى الْآرَاءِ، وَلَوْ قَوِيَتْ مَعَ وُجُودِ سُنَّةٍ تُخَالِفُهَا وَلَا يُقَالُ كَيْفَ خَفِيَ ذَا عَلَى فُلَانٍ وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ". اهـ (الفتح: ١/ ٧٦ (٢٥)).

فَكَمْ وَقَعَتْ وَقَائِعُ وَشَبَّتْ فِتَنٌ وَأُوقِدَتْ نَارٌ لِلْحَرْبِ بِسَبَبِ ضِيقِ الْعَطَنِ وَتَضْيِيقِ مَا وَسَّعَ اللَّهُ (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ).

قَالَ الصَّنْعَانِيُّ: "إِنَّ التَّمَذْهُبَ مَنْشَأُ فُرْقَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَابُ كُلِّ فِتْنَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَهَلْ فَرَّقَ الصَّلَوَاتِ الْمَأْمُورَ بِالِاجْتِمَاعِ لَهَا فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ إِلَّا تَفَرُّقُ الْمَذَاهِبِ النَّابِتِ عَنْ غَرْسِ شَجَرَةِ الِالْتِزَامِ.

وَهَلْ سُفِكَتِ الدِّمَاءُ؟! وَكَفَّرَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا بِسَبَبِ التَّمَذْهُبِ فَإِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى الْخَلْقِ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ وَلَمْ يُوجِبْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَاعَةَ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ غَيْرُ الرَّافِضَةِ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مَعْصُومًا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ: كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". (منحة الغفار للصنعاني: ١/ ٦٧).

وقال الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة: "فلما انحدر المسلمون إلى هو ة التقليد وصار فيهم من يقول: الأصل كلام أصحابنا، ونرد ما خالفه من كتاب وسنة دالت دولة المسلمين واستولى عليهم من لا يقيم للإسلام وزنا وان تظاهر به لإسكات العامة.

ثم كانت المصائب أتخم بها بطن التاريخ من غزو التتار لشرق البلاد وفيهم أتباع مقتدي الأمة وقُدْوَة الأئمة، وغزو الإفرنج للشام ومصر، وقبلها تنصير مسلمي الأندلس.

ثم تنفس الإسلام بحيويته الكامنة؛ فكان طرد الفرنجة من الشام وشواطئ مصر وغزو الترك لشرق أوروبا وفتح القسطنطينية.

ثم فترت همة الإسلام بشؤم التقليد، والإعراض عن الكتاب والسنة، حتى كان ما نراه اليوم وقبل اليوم من استيلاء الدهرية الأوروبية على معاقل الإسلام وحصونه وديارة من الهند واندونيسيا وشواطئ إفريقيا؛ الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس ومصر والشام والعراق وأطراف الإمبراطورية العثمانية وارتماء تركيا الحديثة إلى أحضان أوروبا ودهريتها وخلاعتها.

كل هذا- وَرَبِّكَ- أَيُّهَا الْقَارِئُ بِشُؤْمِ وَتَرْكِ هِدَايَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَآخِرُ الطَّوَامِّ خُرُوجُ تركيا الفتاة وأعني رجال حكومتها عن دين الإسلام الصحيح والمحرف وإعلانهم دهرية الحكومة وأنها لا دين لها.

فهل كان هذا من عواقب اللامذهبية الذي يأخذون دينهم من كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، أو هو شؤم التمذهب بغير بصيرة ولبس الدين مقلوبا، وقياس المرأة المسلمة الشافعية التي تقول: أنا مؤمنة إن شاء الله تعالى، في حل نكاحها على اليهودية والنصرانية، وجعل طول "الذكر" أو قصره من مرجحات الإمامة في الصلاة فيقدم طويل الذكر أو قصيره إماما على من ليس كذلك، وأخيرا:

إن الأصل كلام أصحابنا، وهل الدين إلا الرأي الحسن؟ وما خالفه من كتاب أوَّلناه؛ ومن سنة رددناه كرد حديث أنس في قتل قاتل الجارية بما قتل به أنه من تخريف أنس الذي شاخ وخرف فروى لنا قتل النبي ليهودي بلا بينة ولا اعتراف، ورواية الاعتراف يرويها قتادة المدلس، الذي لم يعرف البخاري تدليسه، وعرفه أذكياء؛ ولو ضربه بأبا قبيس، وهل الدين إلا الرأي الحسن؟ وفي أصحابي من يبول قلتين لتقذير حديث: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث، وإذا كانوا في سفينة كيف يتفرقون لرد حديث: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا و... و... وأن القرآن الذي نسمعه ليس

Upload by: altawhedmag.com

إلا صوت القارئ ونغمه، ليس هو كلام الله فليس لله كلام بيننا!! وإنما هي أصوات محدثة ليس من الله بدأ، ولا إليه يعود وإن إيمان السكير العربيد مثل إيمان جبريل وميكائيل ومحمد وأبي بكر وعمر... إلخ.

كل هذا وأضعافه كان سبب ضعف الإسلام؛ وزوال دوله وقوته وعزته، وتحكم الكفار في مصائر أهله، وسومهم سوء العذاب. (التنكيل: ١/ ١٣١ - ١٣٣).

إنَّ الْعَصَبِيَّةَ وَتَرْكَ الْإِنْصَافِ كَفِيلاَنِ بِالرَّدِّ عَنْ جَمِيلِ الأَوْصَافِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

وَكَمْ أُوذِيَ عُلَمَاءُ فَحُولٌ وَأُبْعِدُوا عَنِ الْإِفَادَةِ بَعْدَمَا بَلَغُوا مِنَ الْعِلْمِ مَرَاتِبَ الْإِجَادَةِ؟!

حَتَّى حُرِمَ النَّاسُ الاسْتِفَادَةَ مِنْهُمْ كَابْنِ حَزْمٍ- الَّذِي يُسَمِّيهِ ابْنُ الْقَيِّمِ (مَنْجَنِيقَ الْغَرْبِ) (كَمَا فِي زَادِ الْمَعَادِ: ٥/ ٤٦٥)؛ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ حُجَّتِهِ وَعَارِضَتِهِ وَسَعَةِ حِفْظِهِ-، فَقَدْ أُحْرِقَ مِنْ كُتُبِهِ بَعْضُهَا.

وَمِنْ هَؤُلاَءِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فَكَمْ أُوذِيَ وَصَبَرَ؟! مَعَ أَنَّهُ كَانَتْ عُلُومُ النُّبُوَّةِ تُسْتَجْلَى مِنْهُ بَلْ وَأَسْلَمَتْ مَعَارِفُ النَّاسِ عَلَى مَعَارِفِهِ كَمَا قَالَ ابْنُ قَوَّامٍ- أَحَدُ أَصْحَابِهِ- حَتَّى مَاتَ فِي حَبْسَتِهِ الأَخِيرَةِ فِي قَلْعَةِ دِمَشْقَ (سَنَةَ ٧٢٨ هـ).

وَكَذَا أُوذِيَ تِلْمِيذُهُ النَّجِيبُ ابْنُ الْقَيِّمِ وَابْنُ رَجَبٍ حَفِيدُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ بِالتَّلْمَذَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ الصَّنْعَانِيُّ وَالشَّوْكَانِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ كُلُّ ذَلِكَ لأَنَّهُمْ خَالَفُوا أَرْبَابَ التعصب لِلْمَذَاهِبِ حِينَئِذٍ عَنِ اجْتِهَادٍ وَانْتِصَارٍ لِلدَّلِيلِ، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ مُقَارِنًا بَيْنَ مُتَعَصِّبَةِ الْمُقَلِّدَةِ وَمُتَّبِعِي الأَثَرِ: "مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْمُقَلِّدَ الْمُتَعَصِّبَ لاَ يَتْرُكُ مَنْ قَلَّدَهُ وَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ، وَأَنَّ طَالِبَ الدَّلِيلِ لاَ يَأْتَمُّ بِسِوَاهُ، وَلاَ يُحَكِّمُ إِلاَّ إِيَّاهُ، وَلِكُلٍّ مِنَ النَّاسِ مَوْرِدٌ لاَ يَتَعَدَّاهُ، وَسَبِيلٌ لاَ يَتَخَطَّاهُ، وَلَقَدْ عُذِرَ مَنْ حَمَلَ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ قُوَاهُ، وَسَعَى إِلَى حَيْثُ انْتَهَتْ إِلَيْهِ خُطَاهُ" اهـ (زَادِ الْمَعَادِ ٥/ ٢٠١).

وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّعَصُّبُ مِمَّنْ أَضْحَتْ بِضَاعَتُهُ فِي الْعِلْمِ مُزْجَاةً؛ فَانْطَفَأَتْ بَصِيرَتُهُ انْطِفَاءَ الْمُشْكَاةِ، وَقَصَرَ فِي الْفَهْمِ بَاعُهُ، وَضَعُفَ خَلْفَ الأَثَرِ اتِّبَاعُهُ بِخِلاَفِ مَنْ شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الْعَزْمِ وَاهْتَمَّ، وَطَلَبَ الْعِلْمَ مِنْ بَابِهِ، وَاقْتَدَى بِأَئِمَّتِهِ الْعُدُولِ وَائْتَمَّ؛ فَإِنَّهُ خَلِيقٌ بِأَنْ يَكُونَ سَعْيُهُ الْمَشْكُورَ، وَحَرِيٌّ بِأَنْ يُصْبِحَ عَمَلُهُ الْمَبْرُورَ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ تَكُونَ تِجَارَتُهُ الرَّابِحَةَ الَّتِي لاَ تَبُورُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَفْتَحُ- لِمَنْ أَمَّهُ مُخْلِصًا، وَطَالِبًا مَرْضَاتِهِ- كُلَّ بَابٍ، وَيُوَفِّقُهُ لِلْهُدَى وَيُلْهِمُهُ الصَّوَابَ.

ومن النماذج الغريبة التي ابتُليت بالتعصب- في القرن الهجري الماضي- فجاءت بأوابد لا شبيه لها وفرى لا امتراء فيها، الشيخ محمد زاهد الكوثري وهو حنفي محترق ومقلد جامد، يصدق فيه أنه رجل ملء إهابه التعصب. (هذا وصفٌ وصف الكوثري به الراوي: إبراهيم بن شماس، التنكيل ١/ ٩٣).

ومع ما كان عليه من وفور العلم والجلد في البحث وسعة الاطلاع- وحسبك أن يصفه الإمام الحبر المحقق المعلمي اليماني بـ(الأستاذ العلامة)- إلا أن عصبيته لأبي حنيفة حملته على الوقوع في بوائق وألجأته غير مُلْجأ إلى الولوغ في أعراض الأئمة بل الوقوع في الصحابة والطعن على التابعين وثلب منهج السلف الصالح عموما سامحه الله.

ألف الكوثري كتاب (تأنيب الخطيب) دفاعاً عن أبي حنيفة، وتكلم فيه كلام متشف متعصب، ف (تعدى ما يوافقه عليه أهل العلم من توقير أبي حنيفة وحسن الذب عنه- إلى ما لا يرضاه عالم متثبت من المغالطات المضادة للأمانة العلمية، ومن التخليط في القواعد، والطعن في أئمة السنة ونقلتها، حتى تناول بعض أفاضل الصحابة والتابعين والأئمة الثلاثة مالكاً والشافعي وأحمد وأضرابهم وكبار أئمة الحديث وثقات نقلته والرد لأحاديث صحيحة ثابتة، والعيب للعقيدة السلفية، فأساء في ذلك جداً حتى إلى الإمام أبي حنيفة نفسه، فإنَّ من لا يزعم أنه لا يتأتى الدفاع عن أبي حنيفة إلا بمثل ذلك الصَّنيع فَسَاء ما يُثْني عَليه). (طليعة التنكيل: ١/ ٩).

وقد نَعَى المعلمي رحمه الله تعالى على الكوثري تعصبه الشديد بقوله: (وَمِنْ عَجِيبِ شَأْنِ

Upload by: altawhedmag.com

التَّعَصُّب أَنَّهُ يَبْلُغُ بِصَاحِبِه مِنَ الْعَمَى أَنْ يَسْعَى جَاهِدًا فِي الْإِضْرَارِ بِمَنْ يَتَعَصَّبُ لَهُ مُتَوَهِّمًا أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْعَى فِي نَفْعِهِ). (التنكيل:١/٣٨٨).

وهكذا مسَّ الرجلُ العلمَ بقرحة شديدة من التعصب، وأصابه بـ (ضروب الخيانات والجنايات ما تقف له الشعور، وتقشعرُّ منه الجلودُ، ويسأل من مثله العافية). (من كلام علامة الشام بهجت البيطار، التنكيل: ١/٧٤).

نسخ التحاكم إلى الشريعة في المحاكم المصرية نتاج العصبية المذهبية:

لَقَدْ كَانَ الْجُمُودُ وَالْعَصَبِيَّةُ الْمَذْهَبِيَّةُ سَبَبَ اسْتِبْدَالِ مِصْرَ بِفِقْهِ الْفُقَهَاءِ، وَإِحْلَالِ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ- الَّتِي أَسَاسُهَا قَانُونُ (نَابْلِيُونَ)- مَحَلَّهُ فَأَضَاعُوا عَلَى الْأُمَّةِ غَنِيمَةً بَارِدَةً إِذْ كَانَ الْحَاكِمُ هُوَ الطَّالِبُ لِلْفِقْهِ وَتَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ «وَكَفَىٰ بِهِۦ إِثْمًا مُّبِينًا» (النساء: ٥٠)، فِي وَقْتٍ كَانَتْ الشَّرِيعَةُ - وَلَا تَزَالُ- كَالْعَيْنِ الثَّرَّةِ الَّتِي لَا يَنْضَبُ مَاؤُهَا وَلَا يُكَدِّرُ مَعِينَهَا فَإِلَى اللَّهِ الْمُشْتَكَى.

قال ابن القيم: "وَمَنْ لَهُ ذَوْقٌ فِي الشَّرِيعَةِ، وَاطِّلَاعٌ عَلَى كَمَالَاتِهَا وَتَضَمُّنِهَا لِغَايَةِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَمَجِيئِهَا بِغَايَةِ الْعَدْلِ، الَّذِي يَسَعُ الْخَلَائِقَ، وَأَنَّهُ لَا عَدْلَ فَوْقَ عَدْلِهَا، وَلَا مَصْلَحَةَ فَوْقَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَصَالِحِ: تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ السِّيَاسَةَ الْعَادِلَةَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَائِهَا، وَفَرْعٌ مِنْ فُرُوعِهَا، وَأَنَّ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِمَقَاصِدِهَا وَوَضْعِهَا وَحُسْنَ فَهْمُهُ فِيهَا: لَمْ يَحْتَجْ مَعَهَا إِلَى سِيَاسَةٍ غَيْرِهَا أَلْبَتَّةَ". (الطرق الحكمية: ١/٧).

إِنَّ أَمِيرَ مِصْرَ (الخديوي إسماعيل) طلب إلى شيوخها على لسان أحد المثقفين: أن يخرجوا خلاصة مذهبية مهذبة الأطراف والحواشي، مبوبة منظمة تعتمد قولاً واحداً من أقاويل متعددة لا يعرف الحق في أيها ليقدمه للمحاكم لتقضي به على المتحاكمين إليها من وطنيين وأجانب، فاستعفى الأمير ذلك المثقف بأنه كبرت سنه ولا يحب أن يطعن الشيوخ في دينه بهذا الطلب منهم، لما يعلمه من جمودهم على ما هم فيه وطعنهم فيمن يحاول تحويلهم عنه، فلجأ الأمير إلى أرمني (رئيس وزراء مصر آنذاك) لخص له خلاصة قانون نابليون، وأعلنه حكمًا يتحاكم إليه في المحاكم، فنسخت بذلك شريعة الإسلام في المحاكم المدنية والجنائية وسائر المعاملات، فمن المسئول عن تأخير فقه المذاهب ونسخ الشريعة الإسلامية فيها حتى لم تبق للمحاكم الشرعية إلا ثلة من الأحكام الشخصية، مثل الطوائف الأخرى من يهود، وقبط، وموارنة، في النكاح والطلاق والعدد والنفقات". (التنكيل: ١/١٢٠ - ١٢١).

وَهَكَذَا أُلْبِسُوا شِيَعًا وَأُذِيقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَانْظُرْ كَيْفَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

وَهَكَذَا أَضَاعَتْ الْعَصَبِيَّةُ مِنْ أُمَّتِنَا فُرَصًا قَدْ لَا تَعُودُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ.

وَلَقَدْ كَانَتْ الْقُرُونُ الْجَامِدَةُ مُنْذُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِيِّ وَمَا تَلَاهُ قَدْ أَثْمَرَتْ ثِمَارًا مُرَّةً وَعَقِمَتْ مِنْ أَجْلِهَا عُقُولٌ وَتَاهَتْ فِي بَيْدَاءِ الْجُمُودِ أَعْلَامٌ وَتَعَطَّلَتْ أَفْهَامٌ حتى ركد ماء العلم بعدما كان جاريًا، وكاد أن يأسن بعد أن كان عذبًا صافيًا، ومع ذلك فإن عصبية هذه الأيام قد جازت هذه القنطرة باشتداد فرقتها وتفريق جماعتها.

وإن أردت شاهدًا على ما أقول فانظر إلى الفئة الواحدة كيف صارت أوزاعًا وتحولت أشتاتًا وامتلأت قلوبهم بالعداوة وأوغرت صدورهم بالأحقاد؟! ونزلت أزمة مزمنة ربما لم تمر بالمسلمين على طول زمانهم نسأل الله النجاة.

لقد ذكرني هذا بحديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ، دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ" (رواه البخاري:(٦٩٣٥)).

حَقًّا إِنَّ الْعَصَبِيَّةَ مَكْمَنُ فُرْقَةٍ، وَمَجْمَعُ غَوَائِلَ، وَمَنْبَعُ رَذَائِلَ، وَأَصْلُ جُمُودٍ وَسَبَبُ هُمُودٍ وَخُمُودٍ؛ فَتَحْسَبُ أَهْلَهَا أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ.

بَلْ هِيَ شَرٌّ مُسْتَطِيرٌ، وَغَنِيمَةٌ بَارِدَةٌ لِكُلِّ عَدُوٍّ شَانِئٍ، وَظَفَرٌ لِلْخُصُومِ بِلَا عَنَاءٍ، وَفِي الْجُمْلَةِ فَهِيَ بَأْسٌ شَدِيدٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ.

ونواصل معكم اللقاء في الحلقة القادمة بإذن الله تعالى

Upload by: altawhedmag.com

التعصب وأثره السيئ في ماضي الأمة وحاضرها (داء ودواء)

الحلقة الثالثة

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي علم بالقلم والصلاة والسلام على نبينا محمد المقدم العلم وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ومصابيح الظلم وبعد:

أثر قفو الأثر واتباع السُّنن:

ففي المقال السابق كان الحديث عن محنة التعصب للمذاهب الفقهية والكلامية والتي استمرت قروناً متتابعة.

وَبَعْدَ قُرُونٍ خَلَتْ وَخَفَّتْ آثار هَذه الْمِحْنَةُ (أي: عصبية المذاهب) خَفَتَ أَهْلُهَا، وَبَهَتَ وَشْيُ (أي: نقش) ثَوْبِهَا، وَظَهَرَ فِقْهُ الدَّلِيلِ، وَعَظُمَ قَفْوُ الأَثَرِ حَتَّى تَهَلَّلَتْ سُبُحَاتُ وُجُوهِ الْمُخْلِصِينَ لأُمَّتِهِمْ فَرِحِينَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ، وَيَبِسَتْ شِفَاهُ الرُّمَاةِ لأُمَّتِهِمْ الْغَاشِّينَ لَهَا مَهْمُومِينَ مَغْمُومِينَ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا جَزَاءً وِفَاقًا.

وَظَهَرَتْ مَدْرَسَةُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الَّتِي أَظْهَرَتْ فِي زَمَانِهَا مَعَالِمَ النُّبُوَّةِ وَجَاهَدُوا- فِي اللَّهِ- التَّعَصُّبَ حَقَّ جِهَادِهِ، وَحَارَبُوا الْبِدَعَ وَالْمُحْدَثَاتِ، وَدَاوَوْا هَذِهِ الْجِرَاحَ حَتَّى عَادَ الإِسْلامُ نَقِيًّا صَافِيًا.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ- فِي هَذَا الزَّمَنِ الْمَائِجِ بِأَهْلِهِ- رَجُلَ الأُمَّةِ وَسَهْمَهَا إِذَا طَاشَتْ السِّهَامُ، وَرُكْنَهَا الشَّدِيدَ حِينَ وَهَتْ الأَرْكَانُ، وَكَانَ قَدْ جَمَعَ الْعُلُومَ فَأَوْعَى،وَدَعَا أَنْوَاعَهَا فَقَالَتْ: سَمْعًا وَطَوْعًا،وَضَمَّ حُسْنَ الْقَرِيحَةِ إِلَى الْفِكْرَةِ الصَّحِيحَةِ.

فَقَدْ وَاجَهَ الْمُتَعَصِّبَةَ فَكَانُوا إِلْبًا عَلَيْهِ، فَأَثَارُوا عَلَيْهِ الْوُلاةَ، وَغَيَّرُوا قُلُوبَهُمْ عَلَيْهِ وَمَعَ هَذَا فَلَّ جُيُوشَهُمْ، ، فَسَلَّمُوا لإِمَامَتِهِ، وانقادوا لقوة دليله وسلامته، وَلَمْ يَجِدُوا مَفَرًا عَنْ إِذْعَانِهِمْ لِسَعَةِ عُلُومِهِ وَتَبَحُّرِ مَعَارِفِهِ.

وَصَارَ عِلْمُهُ فِي النَّاسِ عَظِيمَ النَّفْعِ، وَفِي النُّفُوسِ طَيِّبَ الْوَقْعِ، وَفَاضَ وَادِيهِ حَتَّى بَلَغَ الرَّوَابِي، وَمَلأَ الْخَوَابِي، وَأَصْبَحَتْ عُلُومُهُ مُورِقَةَ الأَشْجَارِ، وَمَعَارِفُهُ جَارِيَةَ الأَنْهَارِ بِالْفَوَائِدِ الْغِزَارِ، فَاقْتَدَى بِهِ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا.

وَنَهَلَ مِنْ عِلْمِهِ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ وَقَامَ بِنَشْرِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ فَيَّضَهُمْ اللَّهُ لَهُ فَنَهَضُوا بِعِلْمِهِ بَرًّا بِهِ وَامْتِنَانًا بِجَمِيلِهِ وَعِرْفَانًا بِهِ كَابْنِ الْقَيِّمِ وَالذَّهَبِي وَابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ عَبْدِالْهَادِي وَغَيْرِهِم فَبَثُّوا فِي النَّاسِ حُبَّ السُّنَنِ وَتَوْقِيرَ أَئِمَّةِ الْمَذَاهِبِ مَعَ عَدَمِ تَقْدِيمِ أَقْوَالِهِمْ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكَانَ لَهُمْ الأَثَرُ فِيمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ بِقُرُونٍ مِنْ بَاعِثِي الْيَقَظَةِ فِي الأُمَّةِ وَنَافِخِي رُوحَهَا فِيهَا كَالصَّنْعَانِي وَابْنِ عَبْدِالْوَهَّابِ وَالشَّوْكَانِي وَغَيْرِهِمْ.

Upload by: altawhedmag.com

عَوْدٌ إلى العصبيّة غيرُ حميد، ورجعٌ إليها ليس ببعيد:

مَتاعٌ قليلٌ قَضَتْهُ الأمّةُ في عافيةٍ من داء التّعصّب، ثُمّ وقَعَ بالنّاس خلافٌ وشرٌّ، ولَم يَطُل بَقاءُ هذا الصّبح الّذي أسفَرَ بالهُدى والعلم المُتّبع حتّى أدبَرَ، وأقبَلَ ليلٌ قد أدلَهَمّ ظلامُه، ونَزَلَ بنا سَيلُ خلافٍ قد انعقَدَ غمامُه.

أنكرتها بعد أعوام مضين لها
لا الدارُ دارًا ولا الجيرانُ جيرانا

فلَمْ تَلْبَثْ هذه النّعمةُ طويلاً حتّى ظَهَرَتْ عَصَبيّةٌ جديدةٌ وهي عَصَبيّةُ الأفكار

وما يُسمّى (التيارات الإسلامية المُختلفة) فظَهَرَتْ جَماعاتٌ مُتَحالِفةٌ- صحيحٌ أنّ الله تعالى أجرى على يَدَيْها للأمّة خَيْرًا كثيرًا فهُوَ حقٌّ يُذكَرُ وحَقيقةٌ لا تُنكَرُ-

فكَمْ من أُناسٍ تَسبَّبُوا في هدايَتِهم، وكَمْ من ضالٍّ اهتَدى وأصبَحَ من الغيُورين على دينهم.

بَلْ كَمْ من أُناسٍ كانُوا من مَرَدَة وشَياطين الإنس فأصبَحَ الواحدُ منهُمْ داعيةً لدينه مُدافعًا عنه غيُورًا عليه.

وما شأنُ بَعْض الجَماعات المُشتَغلة بالدّعوة عنّا ببَعيد.

إنّ المَنبَغي بَلِ الواجبَ أنْ يَفهَمَ العامِلُون في مضمار الدعوة وهداية النّاس وإصلاحهم أن قيام الدين وبعث الملة جَذعَةً فتيّةً- كما كانَ عندَ السّلف الأوائل- لَنْ يَستَطيعَ بطائفة واحدة بَلْ لابُدَّ من كثرة كاثرة مُستقيمة على مَنهَج السّلف الصّالح جُملةً وتفصيلاً، مُتراحمة فيما بَيْنَهُمْ إخوةً مُتحابّين كما قال تعالى: «ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ» (البلد: ١٧- ١٨)، لأنهم في الأصل كشيء واحد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأنبياءُ إخوةٌ لعلّات، أمّهاتُهُمْ شتّى ودينُهُمْ واحدٌ» (صحيح البخاري:(٣٤٤٣)).

فكما أن الأنبياء أصل دينهم واحد إنما يتفاوتون في الشرائع فكذلك ينبغي أن يكون العاملون للإسلام أصلهم واحد.

قال الحافظ ابن حجر: «والعَلّاتُ بفتح المُهمَلة الضّرائرُ وأصلُه أنّ مَنْ تزوّج امرأةً ثمّ تزوّج أخرى كأنّه عَلَّ منها، والعَلَل الشّربُ بعد الشّرب، وأولادُ العلّات الإخوةُ من الأب، وأمّهاتُهم شتّى وقد بيّنَه في روايةِ عبد الرّحمن فقال: «وأمهاتهم شتّى ودينُهُمْ واحدٌ» وهُوَ من بابِ التّفسير كقوله تعالى: (إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا إذا مَسّهُ الشّرُّ جَزُوعًا وإذا مَسّهُ الخيرُ مَنُوعًا) ومعنى الحديث: أنّ أصلَ دينهم واحدٌ وهُوَ التّوحيدُ وإن اختلفتْ فُروعُ الشّرائع. اهـ (فتح الباري: ٦/٤٨٩).

وأنْ يفهَموا أنّهُمْ يَخدُمُونَ في مَناحٍ شتّى فمنهُمْ من يَخدُمُ في نشر العلم وإحياء التّراث، وبَعْث مَجد الأمة وعُلوم الإسلام من جديد- وهذا لعَمْر الحقّ عَمَلٌ تَنوءُ بحَمْلِه الجِبالُ الرّواسي وتَشيبُ من أجْلِه النّواصي-.

وآخرُونَ يَخدُمُونَ في مَجال الدّعوة فيَطوفُونَ البُلدانَ، ويَمشُونَ في الطّرقات والأسواق، ويَطرُقونَ الأبوابَ يَتحمّلُونَ الأذى، ويَبذُلُونَ الأوقاتَ والأعمارَ.

وبَعضُهُمْ يَعمَلُ بخدمة أهل الإسلام ورعاية الفُقَراء واليَتامى.

وكُلٌّ فيه خَيرٌ وبَعضُهُمْ من بَعضٍ ونَرجُو أنْ يكونَ كلٌّ منهُمْ مُثابًا على قَصْدِه فإنّ لكُلّ وجْهٍ مَنفعةً في خدمة الإسلام ونَشره.

لكنّ المُشكلةَ تَكمُنُ فيمَنْ يَبذُرُ بُذورَ الشّقاق؛ فيَطعَنُ في غيرِه بغير وجه حق، ويَدّعي أنّه على الحقّ، وأنّ غيرَهُ على الباطل،وتلك هي العَصبيّةُ التي نأتي على بُنيانها من القَواعد.

وأخيرًا بَعْدَ تغيُّر الأحوال في مصر وبَعض بلاد الإسلام والعُروبة اتّسعَ الخَرقُ على الرّاقع، وزادَ الطّينَ بلّةً، وباتَتْ هُوّةُ الخلاف واسعةً فأضحى الفريقُ الواحدُ فرَقًا، وعادَى الأخُ أخاهُ، وخَوّنَ الأشقّاءُ بَعضُهُمْ بَعضًا، وسَفّهَ آخرُونَ عُقولَ مُخالفيهم، وباتَ كُلُّ حزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فرِحُونَ، حتّى شَمَتَ فينا كُلُّ شامتٍ وصِرْنا ضُحكةً للرُّقعاء والسُّفهاء والله المُستعانُ.

ولأبي دلف العِجلي:

ولَمْ أرَ في الخُطوبِ أشدَّ هَوْلاً
وأصعَبَ من مُعاداةِ الرِّجالِ

(بهجة المجالس لابن عبدالبر: ١/١٦٦).

لقَدْ أصبَحَتْ الفِئةُ الواحدةُ أوزاعًا، وبَاتَ الكِيانُ الواحدُ فرَقًا ومِزَقًا.

وانظُرْ إلى بَعْض الدّعوات القائمة في مصر الّتي كانَتْ على النّهج الصّحيح كيفَ تَحوّلَتْ إلى ألوانٍ مُتعدّدة؟

حتّى قَلَّ مَنْ تَراهُ فيهم منصفًا لإخوانه بَلْ

Upload by: altawhedmag.com

أَكْثَرُهُمْ يُحَاقِقُ وَيُخَانِقُ، وَيُشَاقِقُ وَيُضَايِقُ، وَيَتَعَرَّضُ لِمُخَالِفِيهِ بِالإِهَانَةِ وَالتَّجْرِيحِ، وَيَرْمِيهِمْ بِالتَّنْقِيصِ وَالتَّقْبِيحِ وَلاَ يَمْلِكُ المَرْءُ إِلاَّ أَنْ يُرَدِّدَ مَعَ السَّابِقِينَ قَائِلاً: «غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ».

وَهَذِهِ مِنْ مُرِّ الثَّمَرَاتِ الَّتِي نَجْنِيهَا مِنَ العَصَبِيَّةِ وَعَدَمِ الرَّوِيَّةِ وَتَرْكِ العَوْدَةِ إِلَى الجَادَّةِ فَضْلاً عَنْ عَمَى البَصَائِرِ وَفَسَادِ السَّرَائِرِ وَمَا يَقَعُ فِي النُّفُوسِ مِنَ المِحَنِ وَالإِحَنِ وَتَوَابِعِهَا مِنَ الضَّرَائِرِ فَاللَّهُمَّ احْفَظْنَا فَأَنْتَ ثِقَتُنَا حِينَ تَنْقَطِعُ الحِيَلُ، وَمَا لَنَا فِي غَيْرِكَ رَجَاءٌ حِينَ يَسُوءُ الظَّنُّ.

وَعَنْ نَفْسِي أَقُولُ: لَسْتُ أَجْهَلُ وَلاَ أَجْحَدُ فَضْلَ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاَءِ وَلاَ أُنْكِرُهُمْ فِي الدَّعْوَةِ وَالإِصْلاَحِ وَهِدَايَةِ النَّاسِ لَكِنِّي أُحِبُّ لإِخْوَانِي مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي مِنَ الكَمَالِ وَسَلاَمَةِ الصَّدْرِ وَعَدَمِ شَتَاتِ الأَمْرِ فَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

علاج هذه العصبية والتفرق:

لقد وجب الأخذ بالعلاج وحق البحث عن دَوَاءِ العَصَبِيَّةِ وهو بين أيدينا وعن أيماننا وعن شمائلنا في كتاب الله تعالى وسنة نبينا- صلى الله عليه وسلم- يعرفه من نور الله بصيرته وأزال عن بصره غشاوته ورفع عن قلبه الأكنة وأطلق لفكره وعقله الأعنة فهل من مدكر؟!

أولا: تعظيم الكتاب والسنة:

وذلك بتقديمهما عَلَى مَا سِوَاهُمَا كَمَا فِي العُصُورِ الزَّاهِيَةِ وَالعُهُودِ الزَّاكِيَةِ فَإِنَّ هَذَا هُوَ المَخْرَجُ مِنَ الفِتْنَةِ وَالمُخْلَصُ مِنَ المِحْنَةِ وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى صَدْرٍ غَنِيٍّ بِالتَّقْوَى، مُمْتَلِئٍ بِحُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ، بَعِيدٍ عَنِ الهَوَى.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: «وَكَمَا أَنَّ الإِيمَانَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَفُرِضَ عَلَيْهِ هِجْرَتَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ: هِجْرَةٌ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالإِخْلاَصِ وَالإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالمَحَبَّةِ وَالتَّوْبَةِ، وَهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِهِ بِالمُتَابَعَةِ وَالانْقِيَادِ لأَمْرِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِخَبَرِهِ، وَتَقْدِيمِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ عَلَى أَمْرِ غَيْرِهِ وَخَبَرِهِ؛

«فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» (زاد المعاد: ٣/١١).

وهذا الأمر معدود من أهم أنواع الأدب مع رسول الله صلى الله عليه.

قال ابن القيم: «وَمِنَ الأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْ لاَ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ وَلاَ نَهْيٍ، وَلاَ إِذْنٍ وَلاَ تَصَرُّفٍ. حَتَّى يَأْمُرَ هُوَ، وَيَنْهَى وَيَأْذَنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (الحجرات: ١)، وَهَذَا بَاقٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَلَمْ يُنْسَخْ. فَالتَّقَدُّمُ بَيْنَ يَدَيْ سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، كَالتَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، وَلاَ فَرْقَ بَيْنَهُمَا عِنْدَ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ...

ومن الأدب معه:

أَنْ لاَ تَرْفَعَ الأَصْوَاتُ فَوْقَ صَوْتِهِ. فَإِنَّهُ سَبَبٌ لِحُبُوطِ الأَعْمَالِ فَمَا الظَّنُّ بِرَفْعِ الآرَاءِ، وَنَتَائِجِ الأَفْكَارِ عَلَى سُنَّتِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ؟ أَتُرَى ذَلِكَ مُوجِبًا لِقَبُولِ الأَعْمَالِ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِهِ مُوجِبٌ لِحُبُوطِهَا؟...

ومن الأدب معه:

أَنْ لاَ يَجْعَلَ دُعَاءَهُ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣). وَفِيهِ قَوْلاَنِ لِلْمُفَسِّرِينَ...

الثَّانِي: أَنَّ المَعْنَى: لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَهُ لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ دُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا. إِنْ شَاءَ أَجَابَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ، بَلْ إِذَا دَعَاكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بُدٌّ مِنْ إِجَابَتِهِ، وَلَمْ يَسَعْكُمُ التَّخَلُّفُ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ...

وَمِنَ الأَدَبِ مَعَهُ: أَنْ لاَ يُسْتَشْكَلَ قَوْلُهُ. بَلْ تُسْتَشْكَلُ الآرَاءُ لِقَوْلِهِ، وَلاَ يُعَارَضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ بَلْ تُهْدَرُ الأَقْيِسَةُ وَتُلْقَى لِنُصُوصِهِ. وَلاَ يُحَرَّفُ كَلاَمُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولاً، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ، وَلاَ يُوقَفُ قَبُولُ مَا جَاءَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مُوَافَقَةِ أَحَدٍ، فَكُلُّ هَذَا مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهُوَ عَيْنُ الجُرْأَةِ» (مدارج السالكين: ٢/٣٦٧- ٣٦٨).

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ حَمْزَةَ: «وَلَيْسَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ اليَوْمَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَبَيْنَ العِزِّ وَالسُّؤْدُدِ وَمُزَاحَمَةِ رَكْبِ الحَيَاةِ سِوَى التَّوَجُّهِ إِلَى كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالاهْتِدَاءِ بِهِمَا وَالعِلاَجِ بِأَدْوِيَتِهِمَا فِي تَصْحِيحِ مَا فَسَدَ مِنْ عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلاَقِهِمْ وَدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ بِلاَ تَقْيِيدٍ بِأَحَدٍ مُعَيَّنٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ، سِوَى التَّقَيُّدِ بِرِوَايَةِ الثِّقَاتِ مِنْهُمْ وَإِيضَاحِ مَا أَبْهَمَ مِمَّا أَثَرَ مِنْ عِلْمِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ.

وَقَدْ حَفِظَ اللهُ القُرْآنَ فَضْلاً مِنْهُ، وَإِعْذَارًا بِنَصِّهِ وَحُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ وَمَعْنَاهُ، وَقَيَّضَ لِمَا فَسَّرَهُ مِنْ

Upload by: altawhedmag.com

السُّنَّة النَّبويَّة مَنْ باعُوا أَنْفُسَهُمْ لله تعالَى في تدوينها وتمحيصها وتهذيبها وتبويبها للتَّناوُل، وما على النَّاس سوى الاهتداء والعمل والاقتداء واليقظة بعد طول المنام والغفلة والجهالة، أخذ الله بأيدينا وقلوبنا وأسماعنا وأبصارنا إلى سُلوك الصِّراط المستقيم آمين» (التنكيل: ١/١٣٣).

من أجل ذلك أقول: إن إقامة الدين لا يكون إلا بنبذ العصبيَّة ومجانبة التَّعصُّب، واتباع الدليل، واقتفاء الأثر، وتوظيفه في السلوك، وتوطينه في حياة المسلمين، وسلوك سبيل السلف من الامتثال للكتاب والسنة.

وهذه لعمر الله أمور كافية في إنقاذ الناس من وحل التعصب الممقوت (إذا أقاموا كتاب الله وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله صلى الله عليه وسلم-وهي سنته- لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس) (اقتضاء الصراط المستقيم: ١/١٠٥).

ثانيًا: يجبُ أنْ نَعلَم أنَّنا في مَركَب واحد إذا نَجَتْ نَجَونا جميعًا وإذا غرقَتْ غرقْنا جميعًا:

فعَنِ النُّعمَان بْنِ بَشير رَضيَ الله عَنْهُمَا، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: « مَثَلُ القَائم عَلَى حُدُود الله وَالوَاقع فيهَا، كَمَثَل قَوْم اسْتَهَمُوا عَلَى سَفينَة، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذينَ في أَسْفَلهَا إذَا اسْتَقَوْا منَ المَاء مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصيبنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذ مَنْ فَوْقَنَا، فَإنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَميعًا، وَإنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْديهمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَميعًا » (رواه البخاري: ٢٤٩٣).

وعَليْه فلا يَنْتَصبُ لقيَادَة النَّاس وَالأَخْذ بزمَامهمْ إلاَّ ذَوُوا الإنْصَاف وَالدِّيَانَة وَالنُّصح وَالخبْرَة وَالمعْرفَة بحُسْن سيَاسَة الأُمور مَعَ حُسْن خطَاب يَشْفي منَ الدَّاء المخَامر وَالخبَل الذي توطن رؤوسًا وأفسد أفهامًا وردها على أدبارها حائرة ثكلى، وجميل قَوْل يُفيدُ عَقْلاً وتَأْديبًا.

أمَّا مَنْ كَانَ أَهْوَجَ غَيْرَ رَشيد يَغْلبُ عَلَيْه الْعَويلُ وَالزَّويلُ (أي القلق والانزعاج: ينظر: السير: ٥/٢٧٢) مَعَ كَوْنه غَيْرَ مُبرَّأ عَنِ التُّهْمَة بالمَيْل هُنَا أَوْ هُنَاكَ فَلا تَتَلَعْثَمْ في عَدَم مُتَابعَته وَلا تَتَرَدَّدْ في ذَهَاب الْوُثُوق بنُصْحه.

إنَّ القَائدَ بمَعْنَاهُ لا بشَكْله وَهَوَاهُ؛ فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ في مَعْنَاهُ أَرَقَّ منَ النَّسيم، لَكنَّهُ في هَيْئَته كَاللَّيْل الْبَهيم، وَمَعَ ذَلكَ يُؤَيِّدُ الله به الإسْلامَ، وَيَفْتَحُ عَلَى يَدَيْه، وَتَحفَظُ عَنْهُ آثَارُ إحْسَان في الإسْلام وَأَهْله. بَيْنَمَا تَرَى الرَّجُلَ يَنْتَسبُ إلَى الْعلْم وَيَبْرُزُ إلَى حَمْلَته قَدْ طَوَّلَ الأَرْدَانَ وَجَرَّ ذَيْلَهُ وَرَاءه كَذَنَب الأَتَان، وَمَعَ ذَلكَ لا يُرَى عَلَيْه أَثَرُ الْعلْم وَلا يَعْرفُهُ به منَّا أَحَدٌ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ
وَلَوْ كَانَ لَوْنُ المَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

فَاحْذَرْ أُنَاسًا حَكَّمُوا المَظَاهرَ في هَذه المَخَاطر حَتَّى قَصَّرُوا بالْعَالي الْقَدْر عَنْ دَرَجَته، وَرَفَعُوا مُتَّضعَ الْقَدْر فَوْقَ مَنْزلَته، وَلَمْ يُعْطُوا كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَوَقَعَتْ بالأُمَّة مَفَاسدُ لا تُفْنَى وَلا تَنْتَهي؛ وَالْهُدَى نُورٌ يَقْذفُهُ الله في قُلُوب مَنْ يَشَاءُ منْ عبَاده فَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله.

كَمْ وَقَعَتْ في بلاد الإسْلام مُنْذُ قُرُون خُرُوقٌ لَمْ تُرْتَق، وَفُتُوقٌ لَمْ تُخَطْ وَلَمْ تُرْقَعْ بَعْدُ بسَبَب الْعَصَبيَّة، وَكَمْ غَابَتْ شَمْسُ حَضَارَتنَا قُرُونًا بَعْدَ طُول إشْرَاق وذلك بالتعصب، وَهَلْ تَشَيَّعَتْ الشيعَةُ، وَخَرَجَتْ الْخَوَارجُ، وَرَفَضَتْ الرَّافضَةُ، وَاعْتَزَلَتْ الْمُعْتَزلَةُ إلاَّ بالْعَصَبيَّة؟!

فَقَاتَلَ الله هَذه الآفَةَ، فَكَمْ أَنْزَلَتْ بالْمُسْلمينَ منْ محَن وَاحَن في حَوَاضر الإسْلام بَلْ وَبَوَاديه شَرْقيَّهَا كَالْعرَاق وَغَرْبيَّهَا كَالأَنْدَلُس؟!

ثَالثًا: يَجبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّنَا نَخْدُمُ قَضيَّةً وَاحدَةً هي دينُنَا: قَالَ تعالى: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (الأنبياء: ٩٢)، وَكُلٌّ يَخْدُمُ بما يسر الله له بنشر العلم وحفظ السنة وتعليم القرآن ودعوة الناس إلى الله ومساعدة المعوزين وكفالة اليتيم ورعاية الأرامل وغير ذلك من أبواب الخير. فالتنوع لابد منه فلن يكون الناس طيفًا واحدًا، ومن أراد ذلك فقد رام المحال، فلزامٌ على المسلمين التعاون والمساندة لا التعادي والمنابذة، فلا يضيقون واسعًا، ولا يحجرون فضل الله عن أحد.

وَلْيَعْلَمْ مَنْ شَاءَ أَنْ مَنْ لَمْ يَعْقلْ ذَلكَ الأَمْرَ وَيَفْهَمْ هَذَا الْمَعْنَى جَيِّدًا؛ فَلَيْسَ ببَعيد أَنْ يَعْمَلَ لشَقِّ عَصَا الْمُسْلمينَ وَتَفْريق كَلمَتهمْ وَتَشْتيت جَمَاعَتهمْ وَتَمْزيق وَحْدَتهمْ، فَتَهُنَ قُوَّتُهُمْ وَتَقْوَى شَوْكَةُ عَدُوِّهمْ، وَقَدْ يَسْتَحْكمُ التَّنَازُعُ بَيْنَ الْمُسْلمينَ فَتَكُونُ نَتيجَةُ الْفَشَل الْمُخْزي لَهُمْ جَميعًا وشواهد الواقع وحوادث الأيام لا تخفى على اللبيب والله المستعان.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

التعصب وأثره السيئ في ماضي الأمة وحاضرها

الحلقة الرابعة

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي علم بالقلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ومصابيح الظلم، وبعد:

فما يزال الحديث مستمرًا عن سبل علاج التعصب، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

رابعًا: تربية الأجيال على الانصاف بالإنصاف.

وَهُوَ مَطْلَبٌ عَزِيزٌ، فَإِنَّ مَنْ فَقَدَهُ فَقَدْ فَقَدَ، وَمَنْ لَزِمَهُ وَجَدَ وَجَدَ، والإِنْصَافُ أَنْ لاَ يَجْحَدَ الْمَرْءُ مَا لِغَيْرِهِ مِنَ فَضْلٍ مُوَافِقًا كَانَ أَوْ مُخَالِفًا، مُعَادِيًا كَانَ أَوْ مُوَالِفًا.

أَمَّا الْعَصَبِيَّةُ فَهِيَ جُحُودُ الْفَضَائِلِ وَإِنْكَارُ الشَّمَائِلِ، وَبِهَا تُعْقَدُ أَلْوِيَةُ الْفِتْنَةِ، وَتُطْلَقُ أَعِنَّةُ الْمِحْنَةِ.

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإِنْصَافِ قَاطِعَةً ××× بَيْنَ الرِّجَالِ وَإِنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

فَيُصْبِحُ غَيْرُ الْمُنْصِفِ خَصْمًا لإِخْوَانِهِ، وَعَيْبَةَ افْتِرَاءٍ عَلَيْهِمْ (وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ) (طه: ٦١).

وَالْعَجَبُ أَنَّكَ إِذَا نَصَحْتَ أَحَدَ هَؤُلاَءِ قَرْطَمَ الْكَلاَمَ، وجعله جُدَادًا، وصارَ يَهْذِي كَالْمَحْمُومِ وَيَتَكَلَّمُ بِكَلاَمٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ.

وَقَدْ شَكَى مِثْلَ ذَلِكَ الإِمَامُ الأَدِيبُ النَّقَّادُ ابنُ قُتَيْبَةَ بِنَحْوِ قَوْلِهِ:

قد كنا زمانًا نعتذر عن الجهل فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم، وَكُنَّا نُؤَمِّلُ شُكْرَ النَّاسِ بِالتنبيه وَالدِّلاَلَةِ فَصِرْنَا نَرْضَى مِنْهُمْ بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال وتغير الزمان، وفي الله خلف وهو المستعان.اهـ

إن تربية الجيل على الإنصاف وترك العصبية والحمية لنفسه أو لشيخه أو مذهبه أو نحو ذلك لن تصبح فاعلة فينا وقاضية على هذه الآفات وما فيها من فاحش الأوابد وسيئ العوائد وكثرة العجائب وانتشار الغرائب التي اجتمعت في زماننا وكأنها ادخرت لأهله حتى (يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو

Upload by: altawhedmag.com

على يد من يعاونه ويرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به.

فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يَسْوَدُّ وَجْهُ أَحَدِهِمْ إذا اتضح الحق على لسان خصمه؟ وكيف يخجل به؟ وكيف يجهد في مجاحدته بأقصى قدرته؟ وكيف يذم من أفحمه طول عمره؟ ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق) (إحياء علوم الدين: ١/ ٤٤).

إنَّ ما نَزَل بنا مِنْ شِدَّة الفَواقِر وبَأْسِ البَوَاقِر وعُقْمِ العَوَاقِر وكثرَةِ العَجَائب وانتشار الغرائب التي اجتَمَعت في زماننا وكأنَّها ادُّخِرتْ لأهْله إنَّما كانَ بسبَبِ عَدَمِ غَرْسِ الإنصَافِ في نُفُوسِ النَّاشئَة والشَّبِيبَة.

ولن تصح هذه التربية ولن تؤتي أكلها إلا إذا اتصف بها المشتغلون بالعلم أولاً ثم اقتدى بهم أتباعهم ومن بعدهم.

وقد كان هذا دأب الأئمة الأربعة وغيرهم من كبار علمائنا كما تقدم في حكاية أقوالهم الداعية إلى ترك العصبية والتقليد.

إن العالم إذا تعصب فقد غيرُه القدوةَ فيه، ونفرَ عامةُ الناسِ وصدوا عن دعوته فلا يكون ممَّن نفع الله به المسلمين ولا يكون ممَّن حافظ على وقته وانتفع به في ذات نفسه حتى يرجع منها بخفي حنين ويكون كالمُنْبَت الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، ونعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو حامد الغزالي: «التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه.

ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لا نجحوا فيه.

ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة. (إحياء علوم الدين: ١/ ٤٠).

إِنَّ كَلاَمَ الْمُتَعَصِّبِ لاَ يُقَامُ لَهُ وَزْنٌ لِفَقْدِ الإِنْصَافِ، فَتَرَاهُ يَسْتَوْلِدُ الْخِلاَفَ، وَيَسْتَثْبِتُ النِّزَاعَ بِغَيْرِ دَاعٍ، وَيَبْذُرُ بُذُورَ العَدَاوَةِ، وَيَزْرَعُ شَوْكَ الْخُصُومَاتِ، وَيَهْذِرُ بِكَلاَمٍ مُهْذَرٍ بَدَلاً من استيلاد الوفاقِ، ونَشْرِ المُؤَالَفَةِ بينَ النَّاسِ، يِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً.

وَلِلَّهِ دَرُّ الشَّافِعِيِّ حِينَ قَالَ: «بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ العُدْوَانُ عَلَى العِبَادِ» (السير: ١٠/ ٤٢).

وَمِنَ الْمَوَاقِفِ الْبَدِيعَةِ لِلْمُحَدَّثِ الْمُلْهَمِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ نَفْسِهِ.

مَا رواه ابن أبي حاتم بسنده عن الشعبي قال: سَاوَمَ عُمَرُ رَجُلاً بِفَرَسٍ فَرَكِبَهُ لِيَشُورَهُ فَعَطِبَ فَقَالَ لِلرَّجُلِ: خُذْ فَرَسَكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لاَ، قَالَ عُمَرُ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَكَمًا.

قال الرجل: شريح. فتحاكما إليه فقال شريح: يا أمير المؤمنين خذ بما ابتعت أو رد كما أخذت فقال عمر وهل القضاء إلا هذا؟ سر إلى الكوفة، فَبَعَثَهُ قَاضِيًا عَلَيْهَا، قال: وانه لأول يوم عَرَفَهُ فيه» (الجرح والتعديل: ٤/ ٣٣٢).

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ فُلَيْح: «نَهَانِي مَالِكٌ عَنْ شَيْخَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَدْ أَكْثَرَ عَنْهُمَا فِي (المُوَطَّأ)، وَهُمَا مِمَّنْ يُحْتَجُّ بِهِمَا، وَلَمْ يَنْجُ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ كَلاَمٍ بَعْضِ النَّاسِ فِيْهِم، نَحْوَ مَا يُذْكَرُ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ مِنْ كَلاَمِهِ فِي الشَّعْبِيِّ، وَكَلاَمِ الشَّعْبِيِّ فِي عِكْرِمَةَ، وَفِيْمَنْ كَانَ قَبْلَهُم، وَتَنَاوَلَ بَعْضُهُم فِي العِرْضِ وَالنَّفْسِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ أَهْلُ العِلْمِ فِي هَذَا النَّحْوِ إِلاَّ بِبَيَانٍ وَحُجَّةٍ، وَلَمْ تَسْقُطْ عَدَالَتُهُم إِلاَّ بِبُرْهَانٍ ثَابِتٍ، وَحُجَّةٍ، وَالكَلاَمُ فِي هَذَا كَثِيْرٌ».

قُلْتُ (الذهبي): لَسْنَا نَدَّعِي فِي أَئِمَّةِ الجَرْحِ وَالتَّعْدِيْلِ العِصْمَةَ مِنَ الغَلَطِ النَّادِرِ، وَلاَ مِنَ الكَلاَمِ بِنَفَسٍ حَادٍّ فِيْمَنْ بَيْنَهُم وَبَيْنَهُ شَحْنَاءُ وَإِحْنَةٌ.

وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ كَثِيْراً مِنْ كَلاَمِ الأَقْرَانِ بَعْضِهِم فِي بَعْضٍ مُهْدَرٌ، لاَ عِبْرَةَ بِه، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا وَثَّقَ الرَّجُلَ جَمَاعَةٌ يَلُوحُ عَلَى قَوْلِهِمُ الإِنْصَافُ» اهـ (السير: ٧/ ٤٠).

وَقَالَ الإِمَامُ الذَّهَبِيُّ: كَلاَمُ الأَقْرَانِ بعضهم في بعض لا يعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو

Upload by: altawhedmag.com

لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله.
وما علمت أن عصرًا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس. (ميزان الاعتدال ١/١١١).
وَقَالَ السُّبْكِي: «وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ حَالُ الْعَقَائِدِ وَاخْتِلَافُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَارِحِ وَالْمَجْرُوحِ، فَرُبَّمَا خَالَفَ الْجَارِحُ الْمَجْرُوحَ فِي الْعَقِيدَةِ، فَجَرَحَهُ لِذَلِكَ.

خامسًا: غرس خلق الرجوع إلى الحق:

وهي سمة قليلة وخلق عزَّ وجوده، من تمسك بها كثر من المنصفين شاكروه وقل منهم شاكوه.
ولا يعني هذا أنه لن يوجد من يعترض عليه، فهذا ما لا يكون

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى
ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟

لا سيما في زمان الائتفاض والامتعاض والتَّمَضْمُض بالاعْتِراض حتَّى قُرِضَتْ أعْرَاضُ بقَبِيح أغْرَاض وربَّما منْ أجْلِ حِقْنَةِ أعْوَاضٍ ولله الأمرُ منْ قَبْلُ ومنْ بَعْدُ.
ولَمْ يزَلِ الأئمَّةُ يرجعُ بعضُهم عنْ قوْلِه إلى ما ظَهَرَ له رُجْحانُه ومَنْ نَظَر إلى تَراجُعات الحافظ الشهاب ابن حجر لأدرك قدرَ الإنصاف الَّذي مُنِحُوهُ ورُزِقُوهُ.
ومن ذلك ما قاله الإمام ابن الصلاح:
وَهَذَا الْقِسْمُ جَمِيعُهُ مَقْطُوعٌ بِصِحَّتِهِ وَالْعِلْمُ الْيَقِينِيُّ النَّظَرِيُّ وَاقِعٌ بِهِ، خِلَافًا لِقَوْلِ مَنْ نَفَى ذَلِكَ، مُحْتَجًّا بِأَنَّهُ لَا يُفِيدُ فِي أَصْلِهِ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنَّمَا تَلَقَّتْهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِالظَّنِّ، وَالظَّنُّ قَدْ يُخْطِئُ.
وَقَدْ كُنْتُ أَمِيلُ إِلَى هَذَا وَأَحْسَبُهُ قَوِيًّا، ثُمَّ بَانَ لِي أَنَّ الْمَذْهَبَ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ أَوَّلًا هُوَ الصَّحِيحُ، لِأَنَّ ظَنَّ مَنْ هُوَ مَعْصُومٌ مِنَ الْخَطَأِ لَا يُخْطِئُ. وَالْأُمَّةُ فِي إِجْمَاعِهَا مَعْصُومَةٌ مِنَ الْخَطَأِ، وَلِهَذَا كَانَ الْإِجْمَاعُ الْمُنْبَنِي عَلَى الِاجْتِهَادِ حُجَّةً مَقْطُوعًا بِهَا، وَأَكْثَرُ إِجْمَاعَاتِ الْعُلَمَاءِ كَذَلِكَ. (مقدمة ابن الصلاح: النَّوْعُ الْأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ الصَّحِيحِ مِنَ الْحَدِيثِ: ص ٢٨).
فانظر كيف لم يتحرج الإمام من الرجوع عما كان يميل إليه ويحسبه قويًا إلى ما اختاره بعد ذلك؟!

خامسًا: إدراك قدر المفسدة المترتبة على ذلك من التدابر والقطيعة والبغضاء.

بَلْ وتمنِّي التَّلَفِ والمَوْتِ للمُخَالِفِ، ولا سيَّما بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمُتَدَيِّنِينَ.
فَقَاتَلَ اللَّهُ الْعَصَبِيَّةَ كَمْ عَادَتْ عَلَى صَاحِبِهَا كَلًّا، وَأَوْرَثَتْهُ ذُلًّا، وَأَصْبَحَتْ فِي رَقَبَتِهِ غُلًّا.
قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَنْدَهْ: حُدِّثْتُ عَنِ الرَّبِيعِ، قَالَ:
رَأَيْتُ أَشْهَبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَاجِدًا يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: اللَّهُمَّ أمت الشَّافِعِيَّ، لَا يَذْهَبُ عِلْمُ مَالِكٍ، فَبَلَغَ الشَّافِعِيَّ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ
فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ
وَقَدْ عَلِمُوا لَوْ يَنْفَعُ الْعِلْمُ عِنْدَهُمْ
لَئِنْ مِتُّ مَا الدَّاعِي عَلَيَّ بِمُخْلِدِ

السير: ١٠/٧٢.
وَقَارِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ:
مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا قَطُّ عَلَى الْغَلَبَةِ، وَيَوَدُّ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ تَعَلَّمُوا هَذَا الْكِتَابَ - يَعْنِي: كُتُبَهُ - عَلَى أَنْ لَا يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ (السير ١٠/٧٦)
إِنَّ الْخِلَافَ بَيْنَ الْمُتَعَصِّبَةِ أَشَدُّ مِنَ الْخِلَافِ بَيْنَ النُّيُوسِ - حِينَ تَغَارُ فِي زُرْبِهَا - حَدًّا وَقَدًّا، وَنَطْحًا وَرَفْسًا، ونعوذ بالله من مثل السُّوء.
لِهَذَا تَجِدُ أَمْرَاضَ النُّفُوسِ بَيْنَهُمْ تُسامي الدُّبَابَ كَثْرَةً وَعَدَدًا؛ فَهُمْ بَيْنَ كَذَّابٍ وَشَغَّابٍ، وَقَتَّاتٍ وَبَهَّاتٍ، وَهَمَّازٍ وَلَمَّازٍ، وَنَمَّامٍ وَقَاذِفٍ وَبَاغٍ لِلْبُرَءَاءِ الْعَنَتَ، وَبَاعِثٍ لِرُفَاتِ الْخِلَافِ وَهُوَ رَمِيمٌ فِي قَائِمَةٍ يَطُولُ ذِكْرُهَا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الرِّيَبِ وَالطَّرَائِقِ الْمَذْمُومَةِ؛ فَاللَّهُمَّ سَلِّمْنَا وَعَافِنَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

سادسًا: هجر الخصومات.

وَالْعَمَلُ عَلَى بَعْثِ الْإِيلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا سِيَّمَا بين مَنْ يَخْدُمُونَ دِينَهُمْ.
وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْعَقْلِ وَكَمَالِهِ، فَإِنَّ الْخُصُومَاتِ تُورِثُ غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَتُوغِرُ الصُّدُورَ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الصَّدْرِ، وشتات الأمر.
قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنَّ لِلْخُصُومَاتِ قُحَمًا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُهَا اهـ.
(الْقُحَمُ: هِيَ الْأُمُورُ الْعَظِيمَةُ الشَّاقَّةُ، واحدتها: قُحْمة، النهاية: ٤/١٩)
وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ حُضُورِ الشَّيْطَانِ فِيهِ، (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) النساء
وهذا جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ، يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْخُصُومَةَ فِي

Upload by: altawhedmag.com

الدِّيْنِ، فَإِنَّهَا تَشْغَلُ القَلْبَ، وَتُورِثُ النِّفَاقَ. (السير: ٦/٢٦٤).

وقالَ حَاتِمُ الأَصَمُّ: مَعِي ثَلاثُ خِصَالٍ، أَظْهَرُ بِهَا عَلَى خَصْمِي، قَالُوا: مَا هِيَ؟ قالَ: أَفْرَحُ إِذَا أَصَابَ خَصْمِي، وَأَحْزَنُ إِذَا أَخْطَأَ، وَأَحْفَظُ نَفْسِي لا أَتَجَاهَلُ عَلَيْهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا كَانَ أَعْقَلَهُ مِنْ رَجُلٍ (المُنْتَظم لابن الجوزي: ١١/٢٥٤)

ويرحم الله أبا يُوسُفَ إِذْ كَانَ يَقُولُ: العِلْمُ بِالخُصُوْمَةِ وَالكَلامِ جَهْلٌ، وَالجَهْلُ بِالخُصُوْمَةِ وَالكَلامِ عِلْمٌ. قُلْتُ (الذهبي): مِثَالُهُ شُبَهٌ وَإِشْكَالاتٌ مِنْ نَتَائِجِ أَفْكَارِ أَهْلِ الكَلامِ، تُوْرَدُ فِي الجِدَالِ عَلَى آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيْثِهَا، فَيُكَفِّرُ هَذَا هَذَا، وَيَنْشَأُ الاعْتِزَالُ، وَالتَّجَهُّمُ، وَالتَّجْسِيْمُ، وَكُلُّ بَلاءٍ- نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ - (السير: ٨/٥٣٩).

ثامنًا: إخمادُ الإيلافِ ونشرُ المودَّة.

وَذَلِكَ بِبَعْثِ رُوحِ التَّآلُفِ، وَعَدَمِ افْتِعَالِ الخِلافِ، وَنَبْذِ ثَلْبِ أَهْلِ العِلْمِ والفَضْلِ، وَتَرْكِ امْتِهَانِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوقِعُ الاخْتِلافَ وَيَرْفَعُ الوِفَاقَ وَيُقَطِّعُ العِصَمَ وَيُحْدِثُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ وَهُمَا يُعْمِيَانِ وَيُصِمَّانِ كَمَا أَنَّ الهَوَى يُعْمِي وَيُصِمُّ.

روى البخاري بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ آيَةً سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِلافَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «كِلاكُمَا مُحْسِنٌ فَاقْرَآ» أَكْبَرُ عِلْمِي، قَالَ: «فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَأَهْلَكُوا». قال ابن حجر: فيه الحَضُّ عَلَى الجَمَاعَةِ وَالأُلْفَةِ وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الفُرْقَةِ وَالاخْتِلافِ اهـ

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: وَتَعْلَمُونَ أَنَّ مِنَ القَوَاعِدِ العَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ جِمَاعِ الدِّينِ: تَأْلِيفَ القُلُوبِ وَاجْتِمَاعَ الكَلِمَةِ وَصَلاحَ ذَاتِ البَيْنِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» وَيَقُولُ: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا» وَيَقُولُ: «وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي تَأْمُرُ بِالجَمَاعَةِ والائتلاف وَتَنْهَى عَنِ الفُرْقَةِ وَالاخْتِلافِ.

وَأَهْلُ هَذَا الأَصْلِ: هُمْ أَهْلُ الجَمَاعَةِ كَمَا أَنَّ الخَارِجِينَ عَنْهُ هُمْ أَهْلُ الفُرْقَةِ. وَجِمَاعُ السُّنَّةِ: طَاعَةُ الرَّسُولِ.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللَّهُ أُمُورَكُمْ).

وَفِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ- فَقِيهَيِ الصَّحَابَةِ- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ وَمُنَاصَحَةُ وُلاةِ الأَمْرِ. وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مَنْ وَرَاءَهُمْ).

وَقَوْلُهُ " لا يُغِلُّ " أَيْ لا يَحْقِدُ عَلَيْهِنَّ. فَلا يُبْغِضُ هَذِهِ الخِصَالَ قَلْبُ المُسْلِمِ بَلْ يُحِبُّهُنَّ وَيَرْضَاهُنَّ. اهـ (مجموع الفتاوى: ١٨/٥١ - ٥٢).

وهذا وإن كان شاقًّا في زماننا إلا أنه يسير على من يسره الله تعالى عليه.

وإذا كان شيخ الإسلام- وهو من هو- قد اشتكى غربة الزمان فكيف بنا؟!

قال ابن كثير: وَسَمِعْتُهُ كَثِيرًا مِنْ شَيْخِنَا العَلامَةِ أَبِي العَبَّاسِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ- رَحِمَهُ اللَّهُ- يُنْشِدُ:

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ لِلذِّئْبِ إِذْ عَوَى
وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

(البداية والنهاية: ١٥/١٨٤).

كتب العتَّابيُّ إلى مالك بن طَوْقٍ يستزيده ويستهديه ويدعوه إلى صلة الرحم والقرابة بينه وبينه وكان مما كتب:

إنَّ قرابتَك من قرب منك خيرُه، وإنَّ ابنَ عمِّك من عَمَّ نفعُه، وإنَّ عَشيرتَك من أحسنَ معاشرَتَك، وإنَّ أحبَّ الناسِ إليْك أجْدَاهُم بالمنفعةِ عليْكَ، وإنَّ أهْدَاهُم إلى مَوَدَّتِك مَنْ أهْدَى إليْكَ، ولذلك أقولُ:

ولقد بلوتُ الناسَ ثم سبرتُهم
ووصلتُ ما قطعُوا من الأسْبَابِ
فإذا القَرَابةُ لا تُقَرِّبُ قاطعًا
وإذَا المَوَدَّةُ أقْرَبُ الأنْسَابِ

(ديوان المعاني لأبي الهلال العسكري: ٢/٢٥٣).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

باب الأدب

أُصُولُ الآدَابِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَجَوَامِعُهَا

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي علم بالقلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد المفرد العلم، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى ومصابيح الظلم، وبعد:

توطئة وتمهيد:

الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا يَقْتَضِي رِضَاهُ، وَلاَ يَنْقَضِي مَدَاهُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَرَسُولِنَا الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لِرِسَالَتِهِ وَاجْتَبَاهُ وَبَعْدُ.

فإن من المعلوم الواضح عند كل ذي بصيرة، أن الله فطر نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم على أحسن الأخلاق التي هدى الناس إليها، وطبعه على جميل الشمائل التي خَلَقَ النَّاسَ عَلَيْهَا، حتَّى أَضْحتْ أخلاقُ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من الدلائل الواضحات على صدقِ نبوته والمعجزات الباهرات على صحة رسالته بحيثُ يعجزُ كلُّ أحدٍ من البشَرِ عَن معَارضَتِها والإتيَانِ بمثلها كلِّها أو بعضها، أمَّا مقاربتُها والتَّشبهُ بها فهو في الإمكانِ، للأمر بالاقتداء به والتأسِّي بأخلاقه كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

ومن طُبع على صفات الخير فليسَ عليه ضيرٌ، ولا عَجَبَ فإنَّ صَنائعَ المعروفِ تقي مصارعَ السوءِ، وأيُّ معروفٍ أفضلُ من حُسنِ الخلقِ؟!

ولعل من أهم أسباب اختيار العرب لنشر دعوة الإسلام وتحمل أعبائها ما فطرهم الله عليه من قال ابن تيمية: وسبب هذا الفضل- والله أعلم- ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وذلك أن الفضل: إما بالعلم النافع، وإما بالعمل الصالح.

والعلم له مبدأ، وهو: قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وتمام، وهو: قوة المنطق، الذي هو البيان والعبارة.

والعرب هم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني، جمعًا وفرقًا، يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل، إذا شاء المتكلم الجمع ثم يميز بين كل شيئين مشتبهين بلفظ آخر مميز مختصر، كما تجده من لغتهم في جنس الحيوان، فهم- مثلاً- يعبرون عن القدر المشترك بين الحيوان بعبارات جامعة، ثم يميزون بين أنواعه في أسماء كل أمر من أموره: من الأصوات، والأولاد، والمساكن، والأطفال إلى غير ذلك من خصائص اللسان العربي، التي لا يستراب فيها.

وأما العمل: فإن مبناه على الأخلاق وهي الغرائز

Upload by: altawhedmag.com

المخلوقة في النفس، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب للسخاء، والحلم، والشجاعة، والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، معطلة عن فعله، ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي، ولا هم أيضًا مشتغلين ببعض العلوم العقلية المحضة، كالطب والحساب، ونحوها، إنما علمهم ما سمحت به قرائحهم: من الشعر والخطب، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، وما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم، أو من الحروب. (اقتضاء الصراط المستقيم: ١/٤٤٧).

وتحضرني في ذلك قصة بديعة في وقاية السوء ورفع البلاء بسبب الإحسان إلى الناس.

قَالَ حَاتِمُ بنُ الجَرَّاح: قال عَلِيُّ بنُ الحَسَنِ بن شَقِيْق: سَمِعْتُ ابْنَ المُبَارَك، وَسَأَلَهُ رَجُل عَنْ قَرْحَة خَرَجَتْ في رُكْبَته مُنْذُ سَبْع سنِيْنَ، وَقَدْ عَالَجَتْهَا بِأَنْوَاعِ العِلاَجِ، وَسَأَلْتُ الأَطِبَّاءَ، فَلَمْ أَنْتَفِعْ بِه، فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ، فَاحْفِرْ بِئْرًا في مَكَان حَاجَة إِلَى المَاء، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْبُعَ هُنَاكَ عَيْنٌ، وَيُمْسِكَ عَنْكَ الدَّمَ، فَفَعَلَ الرَّجُلُ، فَبَرَأَ (السير: ٨/٤٠٧). فاللهم اجعلنا من المحسنين.

حديث بدء الوحي وكلام الرشيدة القدوة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

لَقَدْ كَانَتْ أُمُّنَا خَدِيجَةُ امْرَأَةً عَاقِلَةً وَافِرَةَ العَقْل، رَشِيدَةً كَامِلَةَ الرُّشْد، وَكَانَتْ- واللهِ - عظيمةَ الفضل كثيرةَ العلم، عَظِيمَةَ الْحِلْم، قَدِيمَةَ السِّلْم، مِنَ الإِسْلاَم بِمَكَان.

وَقَدْ هَيَّأَهَا اللهُ تَعَالَى لِتَكُونَ عَوْنًا لِنَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم وَسَنَدًا لَهُ، وَمُسَلاَةً لِهُمُومِه في مَهْد دَعْوَتِه الَّتِي كَانَتْ أَشَدَّ أَوْقَاتِ الدَّعْوَةِ وَأَصْعَبَ مَرَاحِلِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَة.

ومِنَ العَجَبِ العَاجِبِ أَنَّ خَدِيجَةَ- رضي اللهُ عنها- آمنتْ حَالَ الكِبَر، فقد كانتْ حين نُبِّئَ عليه الصلاة والسلام زَهَاءَ الخامسة والخمسين، ولئن كانتْ الأيامُ والليالي أبْلَيْنَ عَظْمَها، وشَيَّبْنَ رأسَها، فإن همتها في إقبالها على الإسلام وخدمته - على كبر سنها- لم تَبْلَ ولم تشبْ.

وسبحانَ من قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء حتى فاوت بين الهمم تفاوتًا كبيرًا فمنها فوق الثريا ومنها تحت الثرى نسأل الله الثبات حتى الممات.

ولله درُّ القائل:

مَا شَابَ حَزْمِي وَلاَ عَزْمِي وَلاَ خُلُقِي
وَلاَ وَلاَئِي وَلاَ دِينِي وَلاَ كَرَمِي
وَإِنَّمَا اعْتَادَ شَعْرُ رَأْسِي غَيْرَ صِبْغَتِه
وَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ

وَالْمَعْهُودُ أَنَّ الشَّبَابَ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ وَأَهْدَى لِلسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ عَتَوْا فِي الْبَاطِلِ عُتُوًّا كَبِيرًا، وَعَسَوْا فِيهِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ.

وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الشَّبَابِ بَيْدَ أَنَّ أَكْثَرَ الشُّيُوخِ صَدُّوا وَنَدُّوا وَعَانَدُوا وَلَمْ يُؤْمِنُوا.

وَفِي حَدِيثِ بَدْءِ نُزُولِ الْوَحْيِ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ بُرْهَانٍ عَلَى كَمَالِهَا وَسَدَادِ عَقْلِهَا.

رَوَى الإِمَامُ البخاري في صحيحه من حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ:

أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ- وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِه، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: ٢) " فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ

Upload by: altawhedmag.com

عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي" فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ:

"لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنَ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ"، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ اهـ

سورة الضحى (فأما اليتيم فلا تقهر):

لما رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، وَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: " زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي " فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: " لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ (وفي بعض النسخ: يُحْزِنُكَ) اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ.

في هذا السياق استدلت الصحابية الصالحة الخيرة والزوجة الفاضلة الشريفة الكريمة العاقلة خديجة- رضي الله عنها- بأن من جمع الله فيه صفات الخير وحميد الخصال وجميل الخلال فلا يلحقه الخزي ولا يدركه الحزن، ولم يخالجها في هذا الأمر شكٌ، بدليل أنها أقسمت على ذلك، وجعلته أمرًا مؤبدًا، حين قال لها: " لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ لَهُ: أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ".

ثُمَّ اسْتَدَلَّتْ بِمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ وَالأَخْلاَقِ وَالشِّيَمِ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لاَ يُخْزَى أَبَدًا، فَعَلِمَتْ بِكَمَالِ عَقْلِهَا وَفِطْرَتِهَا أَنَّ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَالأَخْلاَقَ الْفَاضِلَةَ وَالشِّيَمَ الشَّرِيفَةَ تُنَاسِبُ أَشْكَالَهَا مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَلاَ تُنَاسِبُ الْخِزْيَ وَالْخِذْلاَنَ، وَإِنَّمَا يُنَاسِبُهُ أَضْدَادُهَا، فَمَنْ رَكَّبَهُ اللَّهُ عَلَى أَحْسَنِ الصِّفَاتِ، وَأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ وَالأَعْمَالِ إِنَّمَا يَلِيقُ بِهِ كَرَامَتُهُ وَإِتْمَامُ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَمَنْ رَكَّبَهُ عَلَى أَقْبَحِ الصِّفَاتِ وَأَسْوَأِ الأَخْلاَقِ وَالأَعْمَالِ إِنَّمَا يَلِيقُ بِهِ مَا يُنَاسِبُهَا) (زاد المعاد: ١٧/٣).

وَقَالَ ابن القيم أَيْضًا: وَكَذَلِكَ اسْتِدْلاَلُ الصِّدِّيقَةِ الْكُبْرَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ بِمَا عَرَفَتْهُ مِنْ حِكْمَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَكَمَالِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنَّهُ لاَ يُخْزِي مُحَمَّدًا صلى اللَّهُ عليه وسلم فَإِنَّهُ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

وَإِنَّ من كان بهذه المثابة فإن العزيز الرحيم الذي هو أحكم الحاكمين وإله رب العالمين لا يخزيه ولا يسلط عليه الشيطان وهذا استدلال منها قبول ثبوت النبوة والرسالة بل استدلال على صحتها وثبوتها في حق من هذا شأنه فهذا معرفة منها بمراد الرب تعالى وما يفعله من أسمائه وصفاته وحكمته ورحمته وإحسانه ومجازاته المحسن بإحسانه وأنه لا يضيع أجر المحسنين اهـ. (إعلام الموقعين: ١٢٩/١). وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: ثُمَّ اسْتَدَلَّتْ عَلَى مَا أَقْسَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَفْيِ ذَلِكَ أَبَدًا بِأَمْرِ اسْتِقْرَائِيٍّ وَصَفَتْهُ بِأُصُولِ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ اهـ. (فتح الباري: ٢٤/١ (٣)).

قال ابن حجر: وَالْخِزْيُ الْوُقُوعُ فِي بَلِيَّةٍ وَشُهْرَةٍ بِذَلِكَ اهـ. (فتح الباري: ٧٢٠/٨ (٤٩٥٣)). وللحديث بقية إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

أُصُولُ الآدَابِ ومَكَارِمُ الأَخْلاَقِ وَجَوَامِعُهَا

الأَمَانَةُ فِي زَمَنِ الزَّمَانَةِ

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن أصول الأخلاق مُجتمعة في (الإحْسَان، إمَّا إلى الأقارب أوْ إلَى الأجَانب، وَإمَّا بالْبَدَنِ أوْ بالْمَالِ، وَإمَّا عَلَى مَنْ يَسْتَقِلُّ بأمْرِه أوْ مَنْ لاَ يَسْتَقِلُّ، وَذلكَ كُلُّه مَجْمُوعٌ فيمَا وَصَفْتُه بِه) اهـ. فتح الباري ١/ ٢٤.

وقد ذكرنا في التوطئة في العدد الماضي عن أصول الآداب وجوامع مكارم الأخلاق كما تقدم الحديث قبل ذلك عن الصدق، ونسوق الحديث هذه المرة عن خلق نفيس وأدب عزيز كريم نبيل وهو خلق الأمانة الذي أدركت فيه المسلمين آفته وزمانته (والزمانة آفة وعاهة، يقال رجل زَمِن، أي: مبتلى بيِّن الزمانة) (لسان العرب مادة زمن).

فَقَدْ جَاءَ في وَصْف خَديجَةَ لنَبيِّنَا-صلى الله عليه وسلم- في حَديثِ بَدْءِ الْوَحْي " وَتُؤَدِّي الأَمَانَةَ"، وهذا وصف معاينة لا وصف سماع " وليس الخبر كالمعاينة"، كما قال صلى الله عليه وسلم رواه أحمد عن ابن عباس. (صحيح - المشكاة: ٥٧٣٨).

إن خديجة رضي الله عنها ممن جربت نبينا صلى الله عليه وسلم في تجارته بمالها، فكان أعظم الناس أمانة حتى أن إعجابها بذلك دعاها إلى الزواج منه مع ما كان بينهما من السن فقد كانت خديجة تكبره بزهاء خمسة عشر عامًا كما هو مشتهر عند علماء السير.

والأمَانَة مِنَ الْكَلِمَاتِ الْجَامِعَة لِلْمَعَانِي الْكَثِيرَة، شَأْنُهَا شَأْنُ كَلِمَةِ " النَّصِيحَة " وَنَحْوِهَا مِنَ الْكَلِمَاتِ الْجَوَامِعِ، فَالأَمَانَةُ هِيَ الدِّينُ كُلُّه، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَسَلَكَ الْجَادَّةَ وَأَمِنَ الْعِثَارَ.

قال ابن فارس: الْهَمْزَةُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلاَنِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالآخَرُ التَّصْدِيقُ. وَالْمَعْنَيَانِ كَمَا قُلْنَا مُتَدَانِيَانِ.

وقَالَ الْخَلِيلُ: الأَمَنَةُ مِنَ الأَمْنِ. وَالأَمَانُ إِعْطَاءُ الأَمَنَةِ. وَالأَمَانَةُ ضِدُّ الْخِيَانَةِ.اهـ. (معجم مقاييس اللغة: ١/ ١٣٣).

قيمة الأمانة:

وَهِيَ صِنْوُ الصِّدْقِ وَبَيْنَهُمَا تَلاَزُمٌ فَلاَ يَصْدُقُ إِلاَّ مَنْ كَانَ أَمِينًا، وَلاَ يُؤْتَمَنُ إِلاَّ مَنْ كَانَ صَادِقًا، وَلِهَذَا كَانَتِ الْعَرَبُ قَبْلَ الإِسْلاَمِ تُلَقِّبُ النَّبِيَّ- صلى الله عليه وسلم- بِالصَّادِقِ الأَمِينِ، وَلاَ عَجَبَ فَقَدْ كَانَ كُلُّ مَنْ رَأَى وَجْهَ نَبِيِّنَا- صلى الله عليه وسلم- الصَّبِيحَ اسْتَنْطَقَ فَاهُ بِالتَّسْبِيحِ، فَقَدْ كَانَ مَاءُ الْبِشْرِ يَجْرِي فِي غُرَّتِهِ، وَيَتَفَتَّقُ النُّورُ مِنْ أَسِرَّتِهِ، فَهَذِهِ أَخْلاَقُهُ- صلى الله عليه وسلم - الَّتِي لَوْ مُزِجَ بِهَا مَاءُ الْبَحْرِ الأُجَاجِ لَصَارَ عَذْبًا فُرَاتًا سَائِغًا شَرَابُهُ وَحَسُنَ طَعْمُهُ وَلَوِ اقْتَدَى بِهَا أَحَدٌ لَذَهَبَ هَمُّهُ وَزَالَ غَمُّهُ.

إِنَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ خُلُقٌ لاَ يُؤْتَاهُ إِلاَّ الْمُوَفَّقُونَ وَمَنْ ذُلِّلَتْ لَهُمْ سُبُلُ الْمَكَارِمِ تَذْلِيلاً وَهِيَ عَلَى النَّفْسِ حِمْلٌ ثَقِيلٌ إِذْ إِنَّ النَّفْسَ لاَ تُحِبُّ أَنْ تَحْمِلَ شَيْئًا بَلْ تُرِيدُ عَيْشَ الدَّعَةِ، وَالْعَالَةِ، وَتُؤْثِرُ الرَّاحَةَ وَتَرْكَنُ إِلَى الْكَسَلِ وَعَدَمِ الاجْتِهَادِ وَتَمِيلُ إِلَى الإِخْلاَدِ إِلَى الأَرْضِ، وَتِلْكَ هِمَّةُ نَفْسٍ قَعِيدَةٍ لاَ يَأْنَفُ صَاحِبُهَا مِنْ مُجَانَسَةِ الْبَهَائِمِ قَالَ تَعَالَى: " إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ " (يوسف: ٥٣).

Upload by: altawhedmag.com

وبمثل هذه النُّفوس الخاسرة المهينة والهمم الفاترة القعيدة تضيع الأمم وتسقط الأخلاق وتهدم الحضارة، بل تسبق الأمم سوابق الهلكة والعجز والعدم، وتلحقهم لواحق الهزيمة والندم، الذي لا ينفع بعد الفوات، وفي الله خلف من كل فائت، ودرك من كل مصيبة.

وفي مثل هؤلاء يقال:

فنعم المرء أنت لدى المخازي

وبئس المرء أنت لدى المعالي

أمَّا ذوو الهمم التي تشام القمم فإنهم يرحلون إليها من كل البلاد، ويُنادون عليها من كل ناد، حتى وهم يجودون بأنفاسهم رحيلاً إلى الآخرة ويوم التناد.

إن الأمة بغير هذه الأخلاق القويمة، أمة عاقر أرحامها من الفضائل عقيمة، وأجيالها سقيمة غير مستقيمة، فأنى تفلح؟!

لقد كان العرب قومًا عادين، يغير بعضهم على بعض، ويأكل القوي الضعيف، ويقطعون الأرحام، ويسيؤون الجوار، ويأكلون أموال اليتامى ظلمًا، ويشهدون الزور، وتجري في عروقهم حمية الجاهلية، ويأتون الفواحش، وينتهكون المحارم، ويقذفون المحصنات، ويقتلون الناس بغير الحق، فمثل هؤلاء - بهذه الأخلاق- لا يحفظون حقًا، ولا يؤدون أمانة.

وقد أحسن جمع أخلاقهم الجاهلية- في سياق واحد- الصحابي الهاشمي جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- حين خاطب ملك الحبشة فقال له: "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه،فدعانا؛ إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام". قال: فعدد عليه أمور الإسلام" (رواه أحمد بإسناد حسن ٥/٢٩٠-٢٩٢).

وانظر في أعطاف هذا السياق ترى كلمات تُنبئ الحاذق البصير والغفل الريض كليهما على السواء بقدر حريق الجاهلية للأخلاق الذي لا يُطفئه إلا سيل المداد والكتابة عن أخلاق ذوي السداد، ومدد الاقتداء بأهل الرشاد، مع انطلاق لسان، وقوة بنان، وجرأة قلب وإخلاص جنان والله المستعان على بلايا ومحن آخر الزمان.

ولهذا أعمل النبيُّ- صلى الله عليه وسلم - جهده في إصلاح هذه الأخلاق السقيمة وأحل محلها- في نفوس أصحابه - ما استطاع من الأخلاق القويمة، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ونقلهم من الجهل إلى العلم، وأورثهم بعد العداوة الألفة والسلم، وهداهم من الضلالة والجهالة الحائرة، وأنذرهم العقوبات الزاجرة، وبشرهم بالتوبة والضمانات الجابرة حتى بلغ رسالة ربه كاملة.

وفي كثير من الأحاديث نجده- صلى الله عليه وسلم- يوصي بالأخلاق ويتعاهدها مع آحاد الناس وأفراد الصحابة بل مع الوفود، فقد كان النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- يعتني بذكر الأمانة والحث عليها فيوصيهم بها في مواضع كثيرة.

ولما قدم عليه- صلى الله عليه وسلم- في شهر شعبان سنة عشر وفد خولان، وهم عشرة فقالوا: "يا رسول الله، نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، ومصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك..، وسألوه عن فرائض الدين، فأخبرهم وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاورهم، وأن لا يظلموا أحدًا. قال: "فإن الظلم ظلمات يوم القيامة" ثم ودعوه بعد أيام وأجازهم فرجعوا إلى قومهم، فلم يحلوا عقدة حتى هدموا "عم أنس» (وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه) ينظر: زاد المعاد: ٥٧٩/٣.

وكان النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- يوصي الناس بالأمانة بل كان يجعلها في مقدمة وصاياه، وقد أدرك المشركون ذلك فكانوا يعدون أمر نبينا- صلى الله عليه وسلم- بالأمانة ووصيته بها علمًا من أعلام نبوته.

Upload by: altawhedmag.com

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ، قَالَ أَبِي هِرَقْلَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ. (رواه البخاري: ٧).

وفي لفظ: أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَزَعَمْتَ: " أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ "، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ. (رواه البخاري: ٢٦٨١)

وكذلك كان الصحابة من بعده في وصيتهم بالأمانة.

فعَنْ مَيْمُونَ بْنِ مِهْرَانَ: جاء رجل إلى سلمان فقال: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أوصني قال: لا تتكلم. قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم قال: فإن تكلمت، فتكلم بحق أو اسكت. قال: زدني، قال: لا تغضب قال: أمرتني أن لا أغضب، وأنه ليغشاني ما لا أملك، قال: فإن غضبت، فاملك لسانك ويدك، قال: زدني، قال: لا تلابس الناس، قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يلابسهم، قال: فإن لابستهم فاصدق الحديث وأد الأمانة (تهذيب الكمال: ١١/٢٥٤).

حاجتنا إلى الأمانة:

هِيَ حَاجَةُ المَرْءِ إِلَى المَاءِ البَارِدِ عَلَى الظَّمَأِ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الأَمَانَةَ اليَوْمَ فِي النَّاسِ لَقَلِيلٌ بَلْ أَقَلُّ مِنَ الذَّهَبِ الأَحْمَرِ، وَإِذَا كَانَ المُتَقَدِّمُونَ يَشْكُونَ ذَهَابَهَا فَمَا بَالُنَا اليَوْمَ؟!

فَالأَمَانَةُ خُلُقٌ عَزِيزٌ صَاحِبُهَا مَيْمُونُ الغُرَّةِ مُبَارَكُ الطَّلْعَةِ جَمُّ الفَوَاضِلِ كَثِيرُ النَّوَافِلِ.

وَلِعِزَّتِهَا وَنُدْرَتِهَا بَاتَتْ وَكَأَنَّهَا عَدَتْ عَلَيْهَا عَوَادِي الدَّهْرِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا أَشْيَاءُ قَلَائِلُ وَبَقِيَّةٌ بَاقِيَةٌ مِنْ شَمَائِلَ وَمَخَائِلَ، وَكُلَّمَا تَقَادَمَ الزَّمَانُ عَزَّ جَانِبُهَا وَقَلَّ صَاحِبُهَا، مَعَ أَنَّ كُلَّ ذَخَائِرِ الدُّنْيَا بِعُرْضِ المُتَالِفِ إِلَّا ذَخِيرَةَ الأَمَانَةِ.

وَلِهَذَا بَاتَ لِزَامًا عَلَيْنَا إِحْيَاؤُهَا وَإِيقَاظُهَا مِنْ مَنَامِهَا، وَالحَذَرُ مِنَ الغَفْلَةِ عَنْهَا، فَكُلَّمَا امْتَدَّ التَّرَاخِي عَنِ الوَصِيَّةِ بِهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْ فَاقِدِيهَا تَسَوَّرَتْ سُوَرَهَا النُّخَالَةُ تَخُبُّ فِيهَا وَتَضَعُ، فَأَضَاعَتْهَا وَعَمِلَتْ بِضِدِّهَا وَنَوَاقِضِهَا وَأَعْظَمُ نَوَاقِضِهَا الخِيَانَةُ.

قَالَ الحَارِثُ المُحَاسِبِيُّ: "ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ عَزِيزَةٌ أَوْ مَعْدُومَةٌ: حُسْنُ الوَجْهِ مَعَ الصِّيَانَةِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ مَعَ الدِّيَانَةِ، وَحُسْنُ الإِخَاءِ مَعَ الأَمَانَةِ" (تهذيب الكمال: ٥/٢١٢).

قَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ: "كَانَ طَاوُوسٌ يَعُدُّ الحَدِيثَ حَرْفًا حَرْفًا، وَقَالَ: تَعَلَّمْ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ ذَهَبَتْ مِنْهُمُ الأَمَانَةُ".

وعن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَرْنِهِ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً- "ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ» رواه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥).

الخيانة شرٌ مستقرًا وشرٌ مقيلاً:

صَاحِبُهَا لَا يُرْجَى فَلَاحُهُ وَلَا يَلُوحُ نَجَاحُهُ، وَبَابُ الصَّوَابِ عَنْهُ مَسْدُودٌ، وَقَلْبُهُ عَنْ طَرِيقِ الرَّشَادِ مَصْدُودٌ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِسُوءِ قَصْدِهِ، وَخُبْثِ نِيَّتِهِ، وَفَسَادِ بَاطِنِهِ وَقُبْحِ طَوِيَّتِهِ.

إِنَّ الخِيَانَةَ تَهْوِينٌ لِارْتِكَابِ القَبَائِحِ وَالمَآثِمِ وَتُخْرِجُ مِنَ القَلْبِ تَعْظِيمَ المَحَارِمِ، فَكَمْ ضَرَّتْ ضَرَرًا بَيِّنًا وَجَاءَتْ بِبَلَاءٍ لَيْسَ هَيِّنًا، وَكَمْ أَفْقَرَتْ مِنْ غَنِيٍّ، وَأَذَلَّتْ مِنْ عَزِيزٍ، وَوَضَعَتْ مِنْ شَرِيفٍ، وَسَلَبَتْ مِنْ نِعْمَةٍ، وَجَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ، وَأَوْقَعَتْ فِي بَلِيَّةٍ، وَأَوْرَثَتْ مِنْ خَزِيَةٍ فَهِيَ فِي جُمْلَتِهَا جَلَّابَةُ النِّقَمِ سَلَّابَةُ النِّعَمِ.

إِنَّ الخِيَانَةَ أَشَدُّ مَا فِيهَا أَنَّهَا تَعْصِفُ بِأُصُولِ الأَخْلَاقِ وَفُرُوعِهَا عَصْفًا فَهِيَ لِلْمَكَارِمِ رِيحٌ عَاصِفٌ وَشَرٌّ قَاصِفٌ.

وَهَلْ مُنِيَتِ الأُمَّةُ مُنْذُ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ بِهَزَائِمَ لَا تَعْرِفُ الهَزَائِمَ إِلَّا مِنْ أَثَرِ الخِيَانَةِ وَفُقْدَانِ الصِّفَةِ الجَلِيلَةِ، وَهِيَ خُلُقُ الأَمَانَةِ؟!

لقد ألقت الخيانة في الأمة
بعصاها وحذفت بحصاها
حتى أضحت سجية لأقوام
ليس لهم خلاق، واستطار
شررها واستعرت نارها
فمن لم يحترق بها أصابه
دخانها، فإلى الله المشتكى.

Upload by: altawhedmag.com

أُصول الآداب وجوامع مكارم الأخلاق

الأَمَانَةُ في زَمَنِ الزَّمَانَة

(٥)

الأَمَانَةُ بين الرَّفْعِ والدَّفْع

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وسائر عباده الصالحين.

إعداد/ أ. عماد محمد عيسي

فقد أطبق الأولون والآخرون على شرف صفة الأمانة، وأنَّه لمَّا عَزَّ جانبُها كَثُرَ مُجانبُها، بَيْدَ أنَّها لمَّا ابْتَذَلتْ خدْرَها الأقلامُ، وهتَكَتْ سترَها الأوْهامُ رُفعتْ فيما رُفِع من الخير، ونُزِعتْ فيما نُزِعَ من البركة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقد رأينا طرفًا من أداء الأمانة في زمان الصبا، وأدركنا شيئًا من ذلك أيام التَّصابي والفتوة، وقبل أن تَعْلُوَ بنَا السِّنُّ، وعَايَنَّا حرصَ النَّاس على العَمَل بها في أيَّام الحَدَاثَة حتَّى ارْتَقَوْا منْهَا مُرْتقًى لَا بَأْسَ به، ولا عجب فقد كَانَ بابُ الأمانة يومئذٍ عليْه كظيظٌ من الزِّحام يَخبُّ فيه أقْوَامٌ ويضَعُ آخَرُون، ومَنْ أبْصَرَ عَلِمَ وليس الخبر كالمعاينة.

أمَّا الآنَ فَلاَ، إذ صَارَ في المُسْلمينَ مَن يَعْمَلُ على كَيْدها، ويَسْعَى لوَأْدها حَتَّى زَلَّتْ أقدامٌ إلى الحضيض، وحَادَ كَثيرُونَ عَنْ سَنَنِ الصَّوَاب، وَأضْحَى أدَاءُ الأَمَانَة في زَمَانَنا في الصُّعوبَة غَايَةً، بَيْنَمَا بَاتَتْ نَاقضَتُهَا- وهيَ الخيَانَةُ - بالغة النهاية، وظهرت - أي الخيانة - وصارت ظَاهرَةً مُؤْلمَةً خَافضَةً غَيْرَ رَافعَة، وانْتَشَرَتْ في الأمْوَال والأعْرَاض وغَيْرهَا، وبَاتَ يَتَوَازَعُها الجبَاعُ بصَلاَبَة جَبين، وَيَتَقَاسَمُهَا غلاَظُ الرِّقَاب بجُرْأَة فَارهَة حتَّى أصَابَتْنَا بالْخَاطئَة، وَأثَارَتْ في أمَّتنَا النَّقعَ وغُبَارَ الفتَن، وأحاطت بنا العوادي وأناخت علينا المحن، وجَاءَتْنَا ببَليَّات لا تَقْبلُ مَهْلاً ورمتنا بدواهي عظَام ومحن كبار نسأل الله تعالى السلامة والصون.

ومن الغريب أنه قد ادَّعى الأمَانَةَ- ظلمًا وزورًا - آخَرونَ، وفيهم السَّاقطُ المَهينُ، ومنهم النَّذْل الخَسيس، الواهنُ دينُه، الوَاهي إيمانُه ويقينُه، وما هذه الدعاوى- واللهِ- إلا مشارب ذهبتْ بعقل شاربها، وألحقَتْه بالمجَانين إذْ لا دليل في ذلك على

Upload by: altawhedmag.com

صدق دَعْوَاهُ، ولا أَمَارةَ على تَأْييد مَا عَنَاهُ.

كَمْ مِنْ أَسَامٍ تَزْدَهِيكَ بِحُسْنِهَا
وَصَاحِبُهَا فَوْقَ السَّمَاءِ اسْمُهُ سَمْحُ

ولا أقول ذلك فسحًا للتشاؤم، ولا تسويغًا للقنوط، ولا إعمالاً لليأس وركونًا إليه، وإنما هذا هو التحذير وبعث النفير ليستنهض المسلمون الهمم، ويذروا التقاعد، ويتركوا التثاقل إلى الأرض، وينزعوا بالثقة في الله ثم في أخلاقهم وهممهم فيصلحوا منها ما فسد، ويرتقوا منها ما سلب أو انخرق ويحققوا منها قدرًا صالحًا، عسى أن نسترد من مجد أمتنا الأثيل، وترجع إلينا سيرتنا المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ويتذاكر الناس أخبارًا خلدها الدهر، وفخرًا علا مطالع النجوم الزهر وما ذلك على الله بعزيز.

واعلم أنه والله لَوْلاَ رَحْمَةُ رَبِّي ولطفه الخفي بعباده لَنَزَلَ بنا بَلاَءٌ مُبِينٌ، وَصُبَّ عَلَيْنَا العَذَابُ صَبًّا، لكنَّ اللهَ يرحَمُنا بأطفال رُضَّع،وشباب خُشَّع،وشيوخ رُكَّع،وبهائم رُتَّع، وقد ثبت عن نبينا صلى الله عليه وسلم أن رحمة الله تعالى تسبق غضبه.

تعظيم أمر الأمانة:

وفي تعظيم أمر الأمانة قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) (النساء: ٥٨).

وفي حديث الشفاعة: « فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ،فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً » (رواه مسلم (١٩٥)).

لقد طَنَّتْ نَائحَةُ الأخْلاَق، وَرَنَّتْ صَالقَةُ المَكَارم حزنًا عَلَى الخُلُق الغَائب، وَعَزَاءً في فَقيدَتها الأَمَانَة الَّتي رُفعَتْ أو كَادَتْ، حَتَّى أَصْبَحَ فَأْلُ المرءِ في حَالِ سُقُوط، بَلْ كَادَ يغلبُهُ اليَأْسُ والقُنُوطُ، لَوْلاَ رَجَاؤُهُ في الله وثقتُهُ في مَوْلاَهُ الَّذي وَعَدَ ببقَاءِ طَائفَة من الأمَّة ظاهرينَ على الحقِّ متمسكينَ به، يفتحون أقفاله، ويفضون قيوده وأغلاله، لا يضرُّهم من خذلَهُم ولا من كَادَهم حتَّى تقومَ الساعة وهم كذلك كما تواتر عن نبينا صلى الله عليه وسلم.

إنَّ مَنْ فَقَدَ الأمانةَ فقدْ كَمُلَتْ مَفَاقرُه، وَعَظُمَتْ فَوَاقرُه، وتَمَّتْ بَوَاقرُه، إذْ إنَّهُ قد اتَّخذَهُ الشَّيْطَانُ قَرِينًا يَنصبُ لَهُ الحبَائلَ، وَيَبْغيه الغَوَائلَ، وَيَمُدُّ لَهُ الأَشْرَاكَ (جمع شَرَك وهو الفخ)، وَيَنْصبُ لَهُ الْفخَاخَ وَالشِّبَاكَ، فَإِذَا هُوَ بَيْنَ النَّاسِ كَأَنَّهُ حَيَّةٌ تَسْعَى، نَاصيَتُهُ بيَد شَيْطَانٍ، يُيَمِّمُ وَجْهَهُ شَطْرَ مَا شَاءَ، وَيُوقِعُ به كُلَّ بَلاَء.

وَتَرَى هَذَا الصِّنْفَ الْبَغيضَ لبَاسُه التَّصَنُّع، وشعَارُه المَلَق، وعُنْوَانُه التَّجَلُّدُ في النفاق والشر حقَّ الجلادَة، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ حَسَنَ الْعبَارَة، حُلوَ الإشَارَة، فَصيحَ اللِّسَان، ظَاهرَ الْبَيَان، لَكنَّهُ يَنْطَوي عَلَى قَلْبٍ خَائن، وَلسَانٍ سَاخر لَمزَة، وَهَكَذَا يَكُونُ الرَّجُلُ النَّذْلُ للزَّمَنِ الرَّذْلِ.

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ
فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرِمُ

بل هذه من خلال المنافق الذي قَالَ في وَصْفه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» (رواه البخاري(٣٣) ومسلم (٥٩)).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» (رواه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨)).

Upload by: altawhedmag.com

ومثل هذا الصنف لا تكاد تصلح الأيام منه لفساد طويته ورداءة داخلته وتغالب طباعه حتى أنه لما دعاه الهوى أجابه وحينما قاده اتبعه فأنى يفلح مثل هذا؟!

وَلَيْسَ هَذَا الَّذِي نَرَاهُ الْيَوْمَ بِعَجِيبٍ فِي زَمَانِنَا الَّذِي أَصْبَحَ الأَصْلُ فِيهِ الْعِوَجَ، وَالْفَرْعُ فِيهِ الْخُصُومَةُ وَاللَّجَجُ، بِحَيْثُ إِنَّ الْمَرْءَ كُلَّمَا تَدَبَّرَ وَتَأَمَّلَ تَحَيَّرَ وَتَمَلْمَلَ مِنْ هَوْلِ مَا يَرَى، وَعَجِيبِ مَا يَسْمَعُ وَلِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

ضَيَاعُ الأَمَانَةِ مُؤْذِنٌ بِقِيَامِ السَّاعَةِ:

بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ - فِي صَحِيحِهِ - لِذَلِكَ بَابًا فَقَالَ: بَابُ رَفْعِ الأَمَانَةِ، وَذَكَرَ فِيهِ ثَلاَثَةَ أَحَادِيثَ: الأَوَّلُ: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ - أُرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» (رواه البخاري (٥٩)).

وَفِيهِ دَلاَلَةٌ عَلَى أَنَّ ضَيَاعَ الأَمَانَةِ مُؤْذِنٌ بِقِيَامِ السَّاعَةِ مُسْتَوْجِبٌ لانْتِظَارِهَا وَقُرْبِهَا.

وَالثَّانِي: حَدِيثُ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ» وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».

وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا. (رواه البخاري (٦٤٩٧) ومسلم (١٤٣)).

قال ابن حجر: «وَحَاصِلُ الْخَبَرِ أَنَّهُ أَنْذَرَ بِرَفْعِ الأَمَانَةِ وَأَنَّ الْمَوْصُوفَ بِالأَمَانَةِ يُسْلَبُهَا حَتَّى يَصِيرَ خَائِنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ أَمِينًا وَهَذَا إِنَّمَا يَقَعُ عَلَى مَا هُوَ شَاهِدٌ لِمَنْ خَالَطَ أَهْلَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ خَائِنًا لأَنَّ الْقَرِينَ يَقْتَدِي بِقَرِينِهِ» اهـ (فتح الباري: ١٣/ ٤٣).

الثَّالِثُ: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمِائَةِ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً» (رواه البخاري (٦٤٩٨))

فِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ (٥٩٥٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا بَقِيتَ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ؟» قَالَ: وَذَاكَ مَا هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «ذَاكَ إِذَا مَرِجَتْ أَمَانَاتُهُمْ وَعُهُودُهُمْ، وَصَارُوا هَكَذَا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ قَالَ: فَكَيْفَ بِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تَعْمَلُ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَتَعْمَلُ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَتَدَعُ عَوَامَّ النَّاسِ».

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

أُصُولُ الآدابِ وَجَوامِعُ مَكارِمِ الأَخلاقِ

الأَمانَةُ في زَمَنِ الزَّمانَة

عـــلاج ضعف الأمانة

الحلقة السادسة

إعداد/ د. عماد عيسى

الحمد ولي الإنعام، والصلاة والسلام على أفضل نبي وخير ختام، وعلى آله الغر الكرام، وأصحابه أئمة الهدى وسرج الظلام، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث الآخر ويوم يكون لرب العالمين القيام وبعد ؛ فالحديث عن علاج الأمانة حديث يأكل كل حديث، وخبرٌ يطوي كلَّ خبر، ومن أجل ذلك تسوق بين أيدينا سُبُلاً وَاقِيَةً مِنْ هَذِهِ اللأَغْبِيَة، كَتَبتُها على سبيل الاستعجال مع تعاقُب الهمُوم وتكاثُر الأشغال، والله أرجو أن يُبارِكَ في الأوقات ويُعِينَنا على حُسْنِ العَمَل فيها مع تفريج الكربات، هذا، وقد قَصَدْتُ - والله من وراء ذلك- أنْ يكونَ فيها إرْوَاءُ الْغُلَل، وَحرصتُ أن يحدُثَ بها شِفَاءُ العِلَلِ منْهَا مَا يَلِي:

أوّلاً: تَعظيمُ شَأنِ الأَمانَةِ وتَعظيمُ أهلِها:

أمّا تعظيمُها فيكونُ بإقامةِ عمادِها، وإرْساءِ قواعدِها وأوتادِها، وتلقّيها بالقبولِ والتّسليم، والأخْذِ بها جِدَّ الأخْذِ بالتّعليمِ مَصْحوبًا بالتّعْظيم، وإجْرائِها على سَنَنٍ ثابتَةٍ وطُرُقٍ واحدةٍ فلا يَسُومُها الناسُ تأويلاً، ولا يحرفونَ معناها تَبْديلاً.

وأمّا تعظيمُ أهلِها فذلكَ بإجْلالِهمْ وتَوْسيدِ الأُمُورِ إليْهِمْ، وإبْعادِ مَنْ لَمْ تَعْلَ في الأمانةِ درجَتُه، ولَمْ تَكْتَمِلْ فيها آلتُهُ حتّى لا يُفْسِدَ بصورةٍ جليّةٍ، ويأتي أمورًا غيرَ مَرْضيّةٍ، فيُحدِثُ أخلاقًا رَديئةً، ومثلُ هذا الصّنفِ من الخَلْقِ لو شَهِدَ على تَمْرَتَيْنِ لم تجُزْ شَهادتُه، ولم تُقْبَلْ أمانَتُه فيَنْبَغي أن يُقْصَى، وقد جاء في كتاب الله العزيز مثلين عظيمين من نبيَّيْنِ كريمين، الأول: قصة موسى الكليم مع بنت الرجل الصالح عندما وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ قَالَ تَعَالَى في سياقها: « قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » (القصص: ٢٦).

ذكر ابن كثير في تفسيره (٤٥٢/١٠) عن عمر، وابن عباس، وشريح القاضي، وأبي مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد أنه: لمَّا قالتْ: (إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمينُ) قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإنه لما جئتُ معه تقدمتُ أمامَهُ، فقال لي: كُوني من ورائي،

Upload by: altawhedmag.com

فإذا اجتنبت الطريقَ فاحذفي لي بحصاة أعلَمُ بها كيف الطَّريقُ لأهتدي إليه، وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله- هو ابن مسعود- قال: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: أبو بكر حين تفرَّس في عُمَر، وصاحبُ يوسف حين قال: (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) (يوسف: ٢١)، وصاحبةُ موسى حين قالت: «يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمين». اهـ.

وقال ابن حجر: ورُوِيَ من طريق عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس في قوله: " إنَّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ " قال: قويٌّ فيما وُلِّيَ، أمينٌ فيما استُودِعَ، وروى من طريق ابن عبَّاس ومُجاهد في آخرين: أنَّ أباها سألها عمَّا رأتْ من قُوَّته وأمانته، فذكرتْ قُوَّتَهُ في حال السَّقي، وأمانتَهُ في غضِّ طرفه عنها، وقولَه لها: امشي خلفي ودُلِّيني على الطَّريق " وهذا أخرجه البيهقيُّ بإسناد صحيح عن عُمَر بن الخطَّاب وزاد فيه " فزوَّجه وأقام موسى معه يكفيه ويعمَلُ له في رعاية غنمه ". (فتح الباري: كتاب الإجارة- باب استئجار الرَّجل الصَّالح وقول الله تعالى إنَّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمين ٤/٥١٥).

والثاني: قصة يوسف عليه السلام حينما خرج من السجن بعد أن برأته امرأة العزيز ونسوة المدينة، قال تعالى في ذلك: «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» (يوسف: ٥٥).

قال ابن كثير: (حفيظٌ) أي: خازن أمين، (عليمٌ) ذو علم وبصرٍ بما يتولاه اهـ (تفسير ابن كثير ٨/٥٢) فانظر إلى هذين النبيين كيف أديا الأمانة على وجهها وقاما بها حق القيام؟!

ثانيا: تنشئة الأجيال عليها بغرسها في نفوسهم:

إذا كان لكلِّ أناسٍ مآلفُ من طباعهم فإن من المهمَّات اللازمات، والواجبات المحتَّمات تربيةَ الأجيال على هذه الخَلَّة حتَّى تُصبحَ نفوسُهم زكيَّة التُّربة، طيِّبةَ المَنْبَت، باسقةَ الفَرْع، يانعةَ الثَّمرة، وينبغي أن يكونَ مع هذه التَّربية الحرصُ على تعاهُدها بسَقْيها الفضائلَ، وتنقيتها من الرَّذائل، وإجادة غرسها في نفوسهم؛ لا سيَّما وهي غضَّة طريَّة لا تزال فيها النَّضارة والغَضارة، فإنَّ من ارتضع الأمانةَ بعيدَ الفطام، واحتسى محبَّتها قبل اشتداد العظام، تزولُ الجبالُ الرَّواسي ولا تزولُ الأمانةُ من نفسه؛ إذ تصيرُ حينئذٍ سجيَّةً وخلاقًا لا يكادُ المرءُ يفرِّط فيها المرءُ ولو جادَ بآخر الأنفاس.

وحينها تصبحُ أخلاقُ الأمَّة أشدَّ عضدًا، وأكثرَ عمدًا، وأقلَّ خساسةً وأبعدَ من الضَّعف والمهانة، قال تعالى: "والبلدُ الطَّيِّبُ يخرجُ نباتُه بإذن ربِّه والَّذي خبُثَ لا يخرجُ إلَّا نكدًا " الأعراف: ٧. وقال صلى الله عليه وسلم: " كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته " متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصدق القائل:

كُلُّ امرئٍ راجعٌ يومًا لشيمته
وإنْ تمتَّعَ أخلاقًا إلى حين

إن المسلمين أحوجُ إلى الأمناء من حاجة الناس إلى ماء السَّماء، فلا بُدَّ من إعداد أجيال تكون كالجبل الذي نُفخَتْ فيه الرُّوح ليُصبحوا قُرَّةَ عَيْنٍ وانشراحَ صدرٍ ممَّن تملأ رؤيتُه القلب والنَّحر فيفزع الناسُ إليه، ويكون ميزانًا يُوزَن به المرءُ ويُقاس عليه، بل يكون من البُزَّل الكُمَّل الذين إذا ذُكروا قيل: حسبُك به، أمَّا من أهمل إهمال البهائم وتُرك يسير سَيْرَ الهائم حتَّى اشتداد العُود واستواء الأشُدِّ فلَنْ يَصْلَحَ معه شيءٌ إلَّا أنْ يشاءَ الله إذْ هو شيءٌ قد فاتَ دَرْكُه نسألُ الله الهدايةَ ونعوذُ به من الغوايَة.

لقد كانتْ أجيالُ قبلنا أفضتْ إلى ما قدَّمتْ تعضُّ على الأمانة بالنَّواجذ وتُمسك بعنانها، وتأخذ بأهدابها فبُورك لهم فيها مع ضحالة علمهم وضآلة عملهم، ثم لم تزل هذه الأمانة في تناقص وذهاب وإدبار بسبب عدم زرعها في قلوب الشَّباب والأبناء حتَّى كان ما قال القائل:

تغيَّرتِ البلادُ ومَنْ عليها
فوجْهُ الأرض مُغبرٌّ قبيح
تغيَّر كلُّ ذي لونٍ وطعمٍ
وقلَّ نضارةُ الوجه المليح

إنَّ مَنْ يتدبَّر حالَ الأمة تنزف عَيْنُه وتسحُّ دمعًا سخينًا لا تَرْقَأ مآقيه على ضَياع أجيال كان يؤمَّل للإسلام من ورائها خيرٌ عميمٌ ونبأٌ عظيمٌ وبلغ الحال بالمرء حينما يرى شبابًا بعيدًا

Upload by: altawhedmag.com

شاردًا يُعزِّي نفسه في أُمَّته من غير أن يفقد الأمل لكنَّه يرى أنَّ هذا العزاء من أجل إبطاء النَّصر وتأخُّر التَّمكين بتغيُّر الأخلاق وتنكُّر من ليس له خلاقٌ وهم كُثر بل ساموا الذباب كثرة وعددًا وغلبُوا الأمَّة على أمرها فإنا لله وإنا إليه راجعون.

عَزِّ العزاءُ وأعْوَزَ الإلمامُ
واسْتَرْجعتْ مَا أعْطَت الأيَّامُ
فَدَعِ العُيونَ تَسحُّ يَوْمَ فِراقِهِمْ
عوَضُ الدُّموعِ دمًا فليْسَ تُلامُ
بَانُوا فلا قَلْبي يَقرُّ قَرارُهُ
أسَفًا ولا جفْني القَريحُ يَنامُ
فَعَلَى الذين فقدتُهم وعدمتُهم
مِنِّي تحيةُ مُوجِعٍ وسَلامُ

إنَّ أُمَّةً تُعوزُها الأمانةُ لأُمَّةٌ لا تَستَحقُّ الحياةَ بين الأمم، وإن جيلاً لا يكونُ وثيقَ الأسباب بالأمانة لجيلٍ عاجزٌ عن حَمْل أمانة الملَّة التي عَجَزَتْ عنها السماواتُ والأرضُ والجبالُ وأشفقنَ منها إذ إنه يؤثر الغبينةَ على الربح وهو يجد عليه دليلاً، وقد يسَّر الله إليه سبيلاً، ولذا فالأمْرُ جدٌّ لا هَزْلَ معَهُ وحق لا باطلَ فيه فلا تتَمارَوْا بالنُّذُر.

إنَّنا إذا لم نُربِّ أجيالَنا على الأمانة فسَيبيتُ بينهم وبينها حجابًا مستورًا قد لا نستطيع كشفه وهتكه ما طال الزمانُ، وحاجزًا منيعًا لا نَبْلُغُ منهم زوالَه ولا اقتحامَه ما تعاقبَ الملوانُ. بل يُصبحُ على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهُوها ويعْلَموها ويعْمَلوا بها، ولا نَزالُ نطَّلعُ على خائنة منهم إلاَّ قليلاً منهم، فلابد أن يُشهرَ العُلماء وطَلَبةُ العلْم والدُّعاةُ والغيُورون على دينهم وأمتهم قولةَ الحق الداعيةَ إلى الأمانة، والكاشفةَ عن خلائق الخائنينَ والملبِّسينَ والمُنتحلين، وأن يضربوا ممَّنْ يَخدَعُ كلَّ بَنان، وأنْ يُشرِّدُوا بمَنْ يَخُون ويَغُشُّ؛ ليكُونَ عبرةً لمَنْ خلْفَهُ ممَّنْ سَوَّلتْ لهمْ أنفُسُهم وكلٌّ مَجْزِيٌّ بعَمَله وما ربُّك بظلاَّم للعَبيد.

ومن الآثار الدَّالة على أهَمِّيَّة تَعويد النَّشْء على الأمانة ما قالَه الفُضَيْل بن عياض: أصْلُ الإيمان عِنْدَنا وفَرْعُهُ بَعْدَ الشَّهادَة والتَّوحيد وبَعْدَ الشَّهادَة للنَّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْه وسَلَّم بالْبَلاغ وبَعْدَ أداء الْفَرائض صدْقُ الْحديث، وحفْظُ الأمَانَة، وتَرْكُ الْخيَانَة، والْوَفاءُ بالْعَهْد، وصلَةُ الرَّحم، والنَّصيحَةُ لجَميع الْمُسْلمينَ، والرَّحْمَةُ للنَّاس عامَّةً. السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ٣٧٤.

ثالثًا: نشر فضائلها ومناقبها:

ترغيبُ الناس في الأمانة وحثُّهم عليها هو في ذاته أمانة محضة جُعلتْ في أعناق المصْلحين والدُّعاة والهُداة، ولا يكونُ أداءُ أمانة الحثِّ على الأمانة ودعوة الناس إليها إلا بنشْر فضائلها التي يَجِلُّ عن وصْفها البَنَانُ ويَكِلُّ عن نَعْتها اللِّسان.

ويكون ذلك بالكلم الطَّيب وجيِّد المقال مشفُوعًا بضرْب الأمْثال ليَنْصُرَ القولَ العملُ ويكون أيضًا بإظهار المناقب والتَّحْذير من الوُقوع في المثالب.

أمَّا تركُ النَّاشئة لا تُدرك الأمانة ولا تعْرف منْها قلا من كُثر فهؤلاء إن لَمْ يُتدارَكوا ويُلحَقُوا سيَدْفعُون في صُدور الأمانة وأعْجازها وسيَصْرفُونها عن حقيقتها بل عن مَجازها، فتَذْهبُ عنهم مُوَلِّيةً على أدْبارها ولا يبْقى منها عَيْنٌ ولا أثَرٌ، يَرى ذلك كلُّ ذي عَيْنَيْن وكلُّ ذي قَلْب حيٍّ.

ومَهْما تَكُنْ عِنْدَ امْرئٍ منْ خَليقَة
وَإنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَم

إنَّ نشرَ فضَائل الأمانة وإعْلاء قيمتها بين العباد تُخْمد أنفاسُها ريحَ الخيَانة وتُطفئُ مصابيحُها شرارةَ تلك الجنايَة.

أيُّها الإخْوةُ إنَّ الزَّمان قد اقْتربَ والحالُ قد مَرِجَ واضْطَرَبَ، وبعد أن كان الناس في حلاوة الأمانة كالرُّطب صارُوا بعد ضَعْف الأمَانة كعُود الحطَب،وساءَ حالُهم بَعْدَ ما سَرَّ، وقلَّ عيشُهم وأمَرَّ بعد ما درَّ وأقرَّ، فإلامَ التَّرْك للأمانة إلام؟ وكيفَ يغفُل الناسُ وتَتَناسَى أمتُنا العظيمَة تلكَ الأمَانة؟! وفقدُها- والله- نازلةٌ تَصْغر دونها كلُّ نازلة، وفادحة تَطْبق الأرضَ وتَملؤُها ما بين الطول والعرْض.

وكَيْفَ تَنامُ العينُ ملْءَ جُفُونها
على هَفَوَاتٍ أيْقَظَتْ كلَّ نَائم

والى لقاء قادم أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم.

Upload by: altawhedmag.com

أُصُولُ الآدَابِ وَجَوَامِعُ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ

الأَمَانَةُ فِي زَمَنِ الزَّمَانَة

عِلَاجُ ضَعْفِ الأَمَانَةِ (٢)

الحلقة السابعة

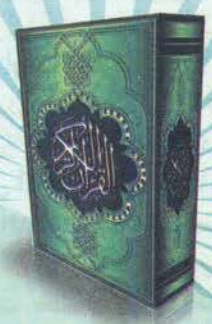

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحَمْد لله الذي منَّ علَيْنَا بهدَايته، وأخْذَنَا مِنْ غَمْرَة الجَهْل وعَمَايته إلى الدِّرَايَة بالعلم وروايَته، وصلَّى الله على نَبيِّنَا محمد خيْر بَريَّته، وعلى آله وعِتْرَته وأهْل بيته مَوْضع عنَايته، وعلى أصحَابه الذين خَصَّهمُ الله بصُحْبَته وفَازُوا بمعيَّته، وقَامُوا بحمَايته فَحَازوا طَرَفَ الفضْل في بدَايته ونهَايته، ومنْ تبعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين من أهْل ملَّته، وطَالبي رفْقَته ورَافعي رَايَته.

وبعد، فنُوَاصلُ حَديثَنَا في عِلَاج ضَعْف الأَمَانَة عَسَى أنْ نَشِيْدَ من بُنْيَان الأَمَانَة مَا وَهَى، ونشُدَّ من بنَائه ما قَوِضَ وصَارَ عَلَى شَفَا، مَعَ محَاوَلَة نَقْض نَوَاقض الأَمَانَة من القَوَاعد فَنَذَرُها - أيْ النَّوَاقض- قَاعًا صَفْصفًا لا تَرَى فيهَا عوَجًا ولا أمْتًا، وهُوَ أمرٌ لا مسَاغَ للقَلَم إلاَّ أنْ يَكْتُب عَنْهُ- والكتَابُ يُتَرْجِمُ عَمَّا في الضَّمير ويُفْصحُ- فَلَقَدْ قَفَّ شَعْري، وعَظُمَ تعَجُّبي - واللهِ- ممَّا أرَى، لذَا فَلاَ أحِلُّ قَلَمي ولا أعْفيه من كَدِّ الكتَابة عنه والتَّصنيف، ولا يكفيه وجوبًا ولا يجزئ عنه إلا الانتصابُ لحقِّ التأليف، وأنا في ذلك ملْتَمسٌ من الله تعالى التَّوفيق إلى إصَابَة القَوْل وصَوَاب العَمَل، مع رَجَاء العِصْمَة من الخَلَل والزَّلَل، فإلَيْه المَلْجَأ والمَصيرُ وهو عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، فأقُولُ وبالله التَّوفيق:

منْ أسْبَاب علَاج ضَعْف الأَمَانَة ما يلي:

رابعًا: التخْويف من عاقبَة ضَيَاعهَا:

من المُسَلَّمَات المقْطوع بها التي لا يَخْتَلف فيها اثْنَان ولا يَنْتَطح عليه

Upload by: altawhedmag.com

عَنْزان، أنَّ الحرصَ على الشَّيْءِ يكون بمعرفة قيمته وبقَدْرِ خَوْفِ فَوَاته وخشية فُقْدَانه، إذ إنَّ مَنْ أمِنَ فقْدَ الشَّيْءِ فَرَّطَ في حفظه وأهْمَلَ في رعايَته، حتَّى تَنْحسرَ مُشْرِقَةَ مغاربُه، وتَذْهَبَ مُوَلِّيَةَ مَذاهبُه، وتضيع فرصة المحافظة عليه والفرصة سريعة الفوات بطيئة العودة، وهَذا أمْرٌ سَلَّمَ به النَّاسُ، وَأَلِفَتْهُ الطِّبَاعُ وعَرَفَتْهُ، فَانْهَ نفسَكَ عَنْ التَّفريط في الأمَانة وخُذْ من نَفْسكَ لنَفْسكَ، واتَّخذْ لَهَا منْهَا زَاجِرًا حتَّى تَنْهَضَ بلوَائهَا وتَقُومَ بأعْبَائهَا.

لا زَجْرَ للأنفس عَنْ غَيِّها
ما لم يكُنْ منها لها زَاجِرُ

وَدَوَاؤُنَا في جُرْعَة خَوْف تُفزعُ القُلُوبَ وتُشعرُها بخُطورة القَضيَّة، وكَوْنَهَا مَخْرَجًا مِّما نَحْنُ فيه كما قَالَ القَائلُ:

دَوَاؤُكَ فيكَ ومَا تُبْصِرُ
ودَاؤُكَ منْكَ ومَا تَشْعُرُ

ولو اتَّخذْتَ مُعينًا على ذلك فلا ضَيْرَ إذ المَرْءُ قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخْوَانه لا سيَّمَا إذَا ظافَرُوه وظَاهَرُوه، ومَانُوه وأعَانُوه، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى عَلَى لسَان كَليمه موسَى: « وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ » (القصص: ٣٤- ٣٥).

والاثنان فما فوقهما جماعة (وهو لفظ حديث ضعيف من جميع طرقه، خرجته عن ستة من الصحابة في كتابي (الأحاديث التي أوردها البخاري في تراجم صحيحه، يسر الله إتمامه)، وقد أفلح من رُزِقَ صَاحبًا صَالحًا إن نَسيَ ذكَّره وإنْ ذَكَرَ أعَانَه، واحْذَرْ أنْ تَقُولَ مَقَالَةَ العَرَبيِّ الغَاوي:

وهَلْ أنَا إلاَّ من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ
غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدُ

فإنَّ هَذِهِ خُدْعَةٌ من إبْليسَ يُضَعْضِعُ بها القُوَّةَ ويُورِثُ المرءَ بها وَهَنًا على وَهَنٍ وذِلَّة وضَعْفًا، ويتَّخذُها إلى غَيْرِ ذلكَ من المَعَاصي سُلَّمًا ومرْقَاةً.

فخَوِّفْ نَفْسَكَ وخُذِ العَهْدَ عَلَيْها حتَّى تَسْتَقيمَ لكَ، واشْغَلْ قَلْبَكَ وفكْرَكَ بتَحْصيل الأخْلاقِ الحَميدَة والصِّفَاتِ الجَيِّدَة، ولا تَتْرُكْ قلبَكَ فارغًا فيصبحَ خَرَابًا، واعْلَمْ أنَّه بالقَلْبِ الفَارغ تُكْسَبُ الآثَامُ وإنْ كان شُغْلُ المرءِ بالفَضَائل مكرُمَةً وعَمَلُه بالمَحَاسنِ مَحْمَدَةً، فَلاَ رَيْبَ أنَّ الفَرَاغَ مَفْسَدَةٌ.

إنَّ الفَرَاغَ والشَّبَابَ والجِدَةَ
مَفْسَدَةٌ للمَرْءِ أيُّ مَفْسَدَة

واللهُ تعالى يُحْسنُ العَاقبَةَ ويَخْتمُ لَنَا بخَيْر.

خَامسًا: تَذْكيرُ النَّاسِ بحَقَارة الدُّنيا وضَآلَتها وقصَرِ مُدَّتها:

وهَذَا عِلاَجٌ نَاجعٌ لمَنْ أخَذَ به، إذْ إنَّه لا يَخُونُ عَبْدٌ أمَانَتَه إلاَّ وحُبُّ الدُّنيا من وَرَاءِ ذَلكَ، لهَذَا تَجِدُ أكْثَرَ النَّاس حرصًا على الدنيا هم أكثر النَّاس تفريطًا في الأمانة ولا غرو فحُبُّ الدنيا رأْسُ كلِّ خَطيئَة، وهؤلاء وإن أخذوا منها مرادهم فعملهم في الآخرة باطل وإلى بوار، قال تعالى: « مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » (هود: ١٥- ١٦)، وقال أيضا: « مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا » (الإسراء: ١٨).

بينما تَلْقَى أكثرَ الناس ورعًا وتَلْفَى أشدَّهم زُهْدًا في الدنيا هم أحرص الناس على الأمانة « وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » (الإسراء: ١٩- ٢٠).

ومَتَى عَلمَ النَّاسُ قيمَةَ الدُّنيا وعَجَلَتَها وصَيْرُورَتَها إلى الفَنَاء، ثُمَّ الحسَاب عَلَيْهَا والجَزَاءِ في الآخرَة فَزِعُوا وأنَابُوا إلى اللهِ

Upload by: altawhedmag.com

ولم يأتُوا شَيْئًا نُكْرًا، غَيْرَ أنَّ حُبَّ الدُّنْيَا دَاءٌ لاَ تَخْمَدُ جَذْوَتُه مع تَبَدُّل الأيَّام، ولاَ تَسْكُنُ حدَّتُهُ بتَغَيُّر الأزْمَان.

قَالَ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: " الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلاَّ ذِكْرَ اللَّه وَمَا وَالاهُ أوْ عَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا " رواه الترمذي. وقال صلى الله عليه وسلم أيضًا: " مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ كَمَا يَضَعُ أحَدُكم أصْبُعَه فِي اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ " رواه مسلم.

هِيَ الدُّنْيَا أقَلُّ مِنَ القَلِيل
وَعَاشِقُهَا أذَلُّ مِنَ الذَّلِيل
تُصِمُّ بِسِحْرِهَا قَوْمًا وَتُعْمِي
فَهُمْ مُتَحَيِّرُونَ بِلاَ دَلِيل

وانظُرْ أخَا الإسْلاَم إلَى مَنْ عَاشَ العُمْرَ المَدِيدَ، وسَكَنَ القَصْرَ المَشِيدَ، ومَلَكَ النَّاسَ، وجَمَعَ الجُنْدَ الحَشِيدَ، ووَطِدَ سُلْطَانَه بِبَأْسٍ شَدِيد، هَلْ آلَ أمْرُهُ بَعْدَ أنْ كَانَ قَائِمًا إلاَّ إلَى زَرْعٍ حَصِيد؟! لَقَدْ نَزَلَ به المَوْتُ وحَمَلَ على الآلَةِ الحَدْبَاءِ إلَى الحُفْرَةِ الجَدْبَاءِ.

وتَأمَّلْ فِي حَالِ مَنْ جَمَعَ مِنَ المَالِ الوَفْرَ والأحْمَالَ مِنْ غَيْرِ أنْ يَعْبَأَ بِحَرَامٍ ولاَ حَلاَل، وضَمَّ إلَيه الحُسْنَ والجَمَال، كيفَ رَكِبَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ وتبدَّلَ أمْرُه مِنْ حَالٍ إلَى حَال؟ فَاخْتَلَفَتْ فِيه أسِنَّةُ الأسْقَام، وَحُطَّتْ بَيْنَ يَدَيْه رِحَالُ الآلاَم، وهَجَمَتْ عَلَيْه هُجُومَ الحِمَامِ فَغَيَّبَتْه فِي الثَّرَى والرُّغَام، ثم صَارَ إلَى سُوءِ المَآلِ وسَاءَ حِسَابُه بين يَدَيْ ذِي الجَلاَلِ ولِلَّه عَاقِبَةُ الأمُور.

واعْلَمْ أخَا الإسْلاَم أنَّ النَّاسَ قَدْ وَلَعُوا بالدُّنيا تَعَلُّقًا وصَبَابَةً مَعَ أنَّه لَمْ يَبْقَ فِي إنَائِهَا إلاَّ صُبَابَةٌ يَتَصَابُّهَا أحَدُنَا مِنَ الإنَاءِ، وَيَالَيْتَهَا كَانَتْ صَافِيَةً بَلْ هِيَ صُبَابَةٌ قَلِيلَةٌ لَمْ تَصْفُ مِنْ شَوْبِ الكَدَرِ والغِيَر، هذا مع تَوَارُدِ المُثُلِ وكَثْرَةِ العِبَرِ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِم ومِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ أيْمَانِهِم وعَنْ شَمَائِلِهِم، لكنَّهم ما أسْرَعَ مَا يَنْسَوْنَ، فَأيْنَ صَفَاءُ الدُّنْيَا وَرَاحَتُها يا أهْلَ الدُّنْيَا، وهَلْ يُطْلَبُ النَّعِيمُ فِي دَارِ المِحْنَة؟!

بَنُو الدُّنيا بجهلٍ عظَّمُوها
فَجَلَّتْ عندهم وهي الحقيرَة
يُهارِش بعضُهم بعضًا عليها
مُهارشةَ الكلابِ على العقيرَة

فَلاَ تَرْضَ بالدُّنيا عِوَضًا عَنِ الآخِرَة، وَلاَ تُؤْثِرَنَّ فَانِيًا عَلَى بَاقٍ، ولاَ تَبِعِ الغَالِيَ بالرَّخِيص، وَلاَ تَشْتَرِ شَقَاوَةً بِسَعَادَةٍ، وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَسَتَلْقَى عَثْرَةً تَتْبَعُهَا حَسْرَةٌ، ثُمَّ يكونُ الخُسْرانُ المبينُ، أعَاذَنا اللَّه منه، والسَّعيدُ من اتَّعَظَ بغَيْرِه.

سادسًا: عدُّ فقدِ الأمانةِ بلاءً وتهمةً:

مِنَ المُقَرَّرِ المعْلُومِ أنَّ مَنْ سَلَكَ مَسَالِكَ التُّهَمِ اتُّهِمَ وهو مُلِيمٌ، ومن رَاوَغَ مُرَاوَغَةَ الثَّعَالِبِ فَقَدْ حَادَ عَنْ المسْلَكِ اللاَّحِبِ، ومَنْ لَمْ يَعُدَّ فَقْدَ الأمَانَةِ من البَلاَءِ فربما عُوقِبَ بفَقْدِها، ومن فَقَدَها فَقَدْ صار محلولَ العقالِ موسومَ الأغفالِ، لأنه اشْتَدَّتْ غَبَاوَتُه وتَمَّتْ شَقْوَتُه وصَارَ كالأعْمَى يُقَادُ بلاَ حِسٍّ إلَى حَتْفِه.

ومَنْ عَدَّ فَقْدَ الأمَانَةِ بَلاَءً لم يَجِدْ أنَسَةً إلاَّ بِهَا وضَرَبَ بينَه وبينَ فُقْدَانِها الحُجُبَ، وَأرْخَى بَيْنَهُ وبَيْنَ ذَهَابِهَا السُّتُورَ.

مَنْ قَالَ قَوْلاً غَيْرَ ذَا فَقَدْ ظَلَمْ
وَجَارَ فِي الحُكْمِ وبِئْسَ مَا جَرَمْ

أمَّا وُجُودُ مَنْ يَعُدُّ الأمانةَ ضعفًا ومَهَانَةً فهذه حَسْرَةٌ، ونَقْصٌ فِي المُرُوَّةِ، ومن كانَ هَذَا سبيلُه فهو سبيلٌ لَيْسَ فيه شِفَاءُ غَلِيلٍ ولا بُرْءُ عَلِيلٍ إذ هو خَفِيفُ العقلِ مزلزلُه، بَلْ عَلَى شَفَا رَفْعِ القَلَمِ عنْهُ ومِثْلُ هذا لا دَوَاءَ لِدَائِه إلاَّ أن يَرْجِعَ إليه عقْلُهُ ويَجْرِي عليه قَلَمُ التَّكْلِيفِ بِبُرْئِه مِنَ الخِفَّةِ والطَّيْشِ وضَعْفِ الحِلْمِ وسَفَاهَةِ العَقْلِ ولاَ يَكُونُ هَذَا إلاَّ مِنْ بعد إذْنِه سُبْحَانَه وتَعَالَى، وباللَّه الكريمِ عَوْنِي وأسْأله إيَّاه التوفيقَ إلى الحق وعن الباطلِ صوني.

وَالحَمْدُ للَّه أوَّلاً وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وصَلَّى اللَّه عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ.

Upload by: altawhedmag.com

مِنْ مَعَالِمِ الأَخْلاَقِ فِي رَمَضَانَ

إعداد/ د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الواحد الخلاَّق، الذي خلق الأرض في ستة أيام وكذا السبع الطِّبَاق، وجعل فيهما أسبابَ الحياة وقدَّرَ فيهما الأقْوَات والأرزاق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شَريك له الذي جعَلَ هُدَانا في ديننَا بكتابٍ وسنة ليس فيهما اختلافٌ ولا شقاقٌ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي أكملَ فيه صُورةَ الآداب ومعْنَى الأخْلاَق، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هَدَمَ بهم صُرُوح المفْسِدين والفُسَّاق ممَّن ليسَ له خَلاَق، وأقام بهم صَرْحَ الإيمان والأخْلاَق.

وَبَعْدُ؛ فَلاَ يَشُكُّ شَاكٌّ، ولاَ يَرْتَابُ مُرْتَابٌ في أنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ من الأُصُولِ العَظيمَة في ديننا التي أوْلاَهَا الإسْلاَمُ عَظيمَ الاهْتمَام عَلَى مَدَى الأيَّام، لا سيَّما في شَهْرِ رَمَضَان وأيَّام الصِّيَام، ولَعَلَّ هذَا منْ مَكْرُور القَوْل ومُعَاد الكَلاَم.

ولاَ يَخْتَلِفُ اثْنَان أنَّ سُوقَ الأخْلاَق قَدْ كَسَدَ، وأنَّ رَبْعَها قَدْ فَسَدَ، وأنَّ بضَاعَة أهلها قَدْ لحقَهَا البَوَار ووَلَّتْ عسَاكرُه الأدْبَار، فرَأيْنا من النَّاس مَنْ هُوَ آزَرُ الخِصَال، نَمْرُودُ الفِعَال، حَتَّى تَنَاكرَتْ القُلُوبُ.

أقُولُ: إنَّ المسْلمين لا يَحْتَاجُونَ في هَذَا الزَّمَان إلَى شَيْء بقَدْر حَاجَتهم إلى إصْلاَح أخْلاَقهم حَتَّى تُصْبحَ أخْلاَقُهم كأخْلاَق السَّادَة لا كأخْلاَق العَبيد، فإنَّهُ قَدْ نَبَغَتْ نَابغَةُ زَيْغ الأخْلاَق وَأظْهَرُوا البَاطلَ منْهَا ولَمْ يَسْتَنْصحُوا مُرْشدًا ولَمْ يُطيعُوا مُوَفَّقًا ولا مُسدَّدًا والرَّابحُ في الشَّرِّ خَاسرٌ ومنَ البرِّ ناقصٌ وعنه حَاسرٌ.

هَذَا وَإنَّهُ لَمَّا سَاءَ العُقَلاَءَ فَسَادُ الأخْلاَق وحَصرَتْ صُدُورُهم أن يُصْلحُوها أحْبَبْتُ أنْ أزفَّ إليهم بَعْضَ البَشَائر وأسُوقَ إلَيْهم ما يَرْغَبُ في إمْكَان عِلاَجِ فَسَادِ الأخْلاَق.

حُسْنُ الْخُلُقِ من الأُصُولِ العَظيمَة في ديننا التي أوْلاَهَا الإسْلاَمُ عَظيمَ الاهْتمَام.

ففي رمَضَانَ يَسْهُلُ أن تَصْفُوَ القُلُوبُ وتُسَلُّ السَّخيمَة وتُنشَرَ المَوَدَّةُ وتُضعَّفَ المَحَبَّةُ وتَذْهَبَ الضَّغَائنُ ويَزُولَ وَحَرُ الصُّدُور، ويَذُوبَ غِلُّ النُّفُوس وغَوَائلُها، ويُصبحَ المرءُ سمحَ السجيَّة، طاهرَ الأثْوَاب، صَافيَ القَلْب، نَقيَّ اللُّبِّ، وإذَا كَانَ الرَّضَاعُ يُغَيِّر الطِّبَاع فَمَن ارْتَضَعَ امْرَأةً فالغَالبُ عليْه طبَاعُها وأخْلاَقُها فإنَّ مثْلَ هَذه الأيَّام قَدْ نُغَيِّرُ فيها ما بأخْلاَقنَا وَيَهْدينَا اللهُ فيهَا إلَى أحسَنِ الأخْلاَق فإنَّه لا يَهْدي لأحْسَنها إلا هُوَ، ويَصْرفُ عنَّا سيئها فإنَّهُ لا يَصْرفُ عنَّا سَيِّئها إلاَّ هُوَ.

من أجْل هذا وَجَبَ العَملُ على وَضْع أسَاس الأخْلاَق في رَمَضَان، وَبنَاء صَرْحها، وَتَشْييد بُنْيَانها، وتَقْويم مَسَارها في هَذَا الشَّهْر الكَريم، بَلْ وَطَلَبها طَلَبَ الجَادِّ الحَثيث أوْ طَلَبَ المَرْأة المُصلَّة وَلَدَهَا لَيْسَ لَهَا غَيْرُه فانْظُرْ كَيْف يَكُونُ

Upload by: altawhedmag.com

حرصُها عَلَى لُقْيَاه، وشَغَفُها إِلَى رُؤْيَة مُحَيَّاه؟! ولَم لا يَكُونُ ذَلكَ في رَمَضَانَ؟ وَالنَّاسُ طِيلَةَ أيَّام رَمَضَانَ في مَسَاجِدهم تَالِيَةٌ للقرآن لا لاهِيَةٌ، وأسْوَاقُهم - وهي شَرُّ البِقَاع- لا تَكَادُ تَسْمَعُ فيهَا لاَغِيَةً، والأصْوَاتُ مغْضُوضَةٌ لا عَالِيَةٌ، وغَالبُ أُمُورهم- عمَّا كَانَتْ عَلَيْه من سُوء- في عَافِيَة.

وَبَعْدَ أنْ كَانَ شِعَارُ النَّاس إن لَم تَغْلبْ فَاخْلبْ (فَاخْدَعْ) صَارَ الصِّدْقُ عُنْوَانًا وشِعَارًا، والبِرُّ والحقُّ خُلقًا لازمًا وَدثَارًا، وَبَعْدَمَا تَجَاذَبَ النَّاسُ أزمَّةَ الضَّلاَل وَوَقَعُوا في المحَال يَسَّرَ الله لَهُمْ الحَالَ وَأصْلَحَ منْهُمُ البَالَ. وَحَسْبِي أنْ أضَعَ في هَذَا المَقَالَ عَلاَمَاتٍ وَصُوًى عَلَى طَرِيق إصْلاَح الأخْلاَق لأتَغيَّا بهَا غَايَةً نَبيلَةً عَسَى الله أنْ يُصْلحَ أخْلاَقَنَا وَيَسْتُرَ منَّا القَبيحَ وَيُظْهرَ الجَميلَ وَيَغْفرَ الجَريرَةَ وَلاَ يَفْعَلُ ذَلكَ إلاَّ هُو.

فَيَا أخي خُذْ بعنَان الأخْلاَق مَاضيًا على مُعَانَقَة الخَيْر غَيْرَ مُلْتَفت عَنْه وَلاَ مُعَرِّج عَلَى غَيْره صَابرًا عَلَى وُعُورَة المَسْلَك وصُعُوبَة الطَّريق.

وَممَّا يَنْبَغي أنْ يُؤَكَّدَ عَلَيْه أنَّ حُسْنَ الخُلُق يَعْني الإسْلاَمَ كَافَّةً وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بالدِّين كُلِّه، وَهَذَا تَأْوِيلُ تَرْجُمَان القُرْآن لقَوْله تَعَالَى: « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (القَلَم: ٤). قَالَ ابْنُ عَبَّاس وَابْنُ عُيَيْنَةَ وَأحمد ابْن حَنْبَل رَضي الله عَنْهُم: عَلَى دين عَظيم، وَفي لَفْظ عَن ابْن عَبَّاس: عَلَى دين الإسْلاَم، وَكَذَلكَ قَالَتْ عَائشَةُ رَضيَ الله عَنْهَا: كَانَ خلقه القُرْآن، وَكَذَلكَ قَالَ الحسن البَصْريّ: أدب القُرْآن هُوَ الخلق العَظيم. (أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية: ص ٢٢).

فَأَقُولُ: النَّاظرُ في أحَاديث الصِّيَام يَجدُ أنَّها أكَّدَتْ عَلَى مَعْنَى الخُلُق والتَّربيَة عَلَيْه قَوْلاً كَانَ أو فعْلاً وجَاءَ التَّنْبيهُ عَلَى الأخْلاَق في أهَمِّ الجَوَارح وأخْطرهَا عَلَى قَلْب العَبْد وهيَ اللِّسَانُ وضَبْطُه بعَدَم السَّبِّ واللَّعْن والشَّتْم وقَوْل الزُّور والفُحْش وَرَفْع الصَّوْت وحفْظ السَّمْع وغَضِّ البَصَر لأنَّ هَذه النَّوَاقضَ للصِّيَام والنَّوَاقضَ لأخْلاَق الصَّائم جَوَاذب للرَّدِيء من شَيْء الأخْلاَق وقَوَاطعُ لطَريق إصْلاَح الخُلُق ومَوَانعُ منْه ولَوْلاَ هذه القَوَاطعُ والمَوَانعُ لكانَتْ طَريقُ الأخْلاَق مَعْمُورةً بالسَّالكين غير أنَّه لا يَنْجُو منْهَا ومن شَرَكها وحَبَائلها إلا الوَاحدُ بعْدَ الوَاحد، ولاَ يَزَالُ المرْءُ في حَضيضهَا مَحْبُوسًا وعَنْ تَحْصيل صَلاَحهَا مَصْدُودًا مَنْكُوسًا طَالمَا لَمْ يَتَخَلَّص منْهَا.

تَرْكُ السَّبِّ والشَّتْم والفُحْش:

أمَّا القَوْلُ فَقَدْ نُهي الصائمُ عن الجهل والغَضَب والصِّيَاح والصَّخَب فإنَّ هَذا يَتَوَلَّد منْهُ فُحْشُ القَوْل، ورَفْعُ الأسنَّة منَ اللِّسَان عَلَى الناس خصوصًا أهْل السُّنَّة، وَلَمْزُ النَّاس بالسِّبَاب وَالشَّتَائم، ثمَّ يَعْقُبُه ارْتدَاءُ الحَمَاقَة، والتَّبَرْقُع بالصَّفَاقَة وكَأنَّنَا في وَاد لا يُنْبتُ إلاَّ نَكدًا ومُنَاكَدَة وعلاَجُ ذلكَ مجْمُوعٌ في كَلمَاتٍ خَفيفَاتٍ مُبَارَكَات من حَديث أبي هُرَيْرَةَ رَضيَ الله عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ، قَالَ: " الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإن امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إنِّي صَائمٌ مَرَّتَيْن " رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١).

وفي لفظ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ: " وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإذَا كَانَ يَوْمُ صَوْم أحَدكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ، فَإنْ سَابَّهُ أحَدٌ أوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إنِّي امْرُؤٌ صَائمٌ " فَينْبَغي للمُسْلم أنْ يتَلَطَّف في القَوْل، ويَذَرَ الخَشنَ منْهُ، وأنْ يَجْعَلَ هذَا الخُلُقَ له مَثَابَةً، ويَتَّخذَ منْهُ قُرَنَاءَ صَحَابَةً، أمَّا أن تَرْتَفع الأصْوَاتُ في المجَالس، ويَكْثُر الغَلَطُ فيها واللَّغَطُ، ويَحيصُوا حَيْصَةَ حُمُر الوَحْش، ثُمَّ يَكُونُ قَرْضُ الأعْرَاض والتَّمَضْمُض بالاعْتراض والصِّيَال بذَلك والتَّصَاول والاسْتطَالَة والتَّطَاوُل فَهَذَا خذْلاَنٌ وتَخَاذُلٌ، وَشَرٌّ كَبيرٌ يَغْشَى النَّاسَ إن لَمْ يَنْتَبهُوا ويَلْفُهُم لَفًّا كَمْن غَشيَتْهُ عَجَاجَةٌ وَغُبَارٌ كَثيفٌ فَهَلْ يُبْصرُ مَا حَوْلَهُ؟!

اجْتنَابُ قَوْل الزُّور وفعْله:

ونُهيَ المسلمُ عَنْ قَوْل الزُّور والعَمَل به إذْ هُوَ منْ أسَافل الكَلم والكَلاَمُ السَّاقطُ مُسْقطٌ لصَاحبه

Upload by: altawhedmag.com

ولهذا جاء التحذير من ذلك في حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِه، فَلَيْسَ للَّه حَاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ " رواه البخاري (١٩٠٣).

وكأن صيامه لا فائدة من ورائه ولا جدوى دونه لأنه لم يمنع صاحبه الذنوب ولم يحل بينه بين المعاصي.

إذا العُودُ لم يُثمِر ولَم يكُ أصلُه
مِنَ المُثمِرات اعتَدَّه النَّاسُ في الحَطَبْ

فاحذَرْ النُّطقَ بالكَذبِ والزُّورِ فإنَّه بابُ الفُجُور وفي الحديث: " وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلَى الفُجُورِ " فإنَّ من نَطَقَ بذَلكَ ضَلَّ وَغَوَى لأنَّه نَطقَ لا عَنِ الشَّرعِ بلْ عَنِ الهَوَى.

الغضُّ على غضِّ البصر:

ثُمَّ إنَّ الصيامَ عَوْنٌ كَبيرٌ على غَضِّ البَصَرِ وهو خُلُقٌ عَمَليٌّ بَلَغَ في صُعُوبَةِ التَّمَسُّك به غَايَةً، وفي قلَّة تَحْقيقه نهَايَة، لَكنَّهُ مُسْتَصْعَبٌ لِمَنْ كَرِهَهُ مُيَسَّرٌ عَلَى مَنْ تَبِعَهُ، فَمَنْ لازَمَهُ في الحَضَرِ، وزَامَلَهُ في السَّفَرِ سَهُلَ عَلَيْه، ولأنَ لَهُ الصعب منه، فَعَنْ عَبْدِ اللَّه بن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَقَالَ: " مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإنَّهُ أغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْه بِالصَّوْمِ، فَإنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ " البخاري (١٩٠٥).

النُّخْلُق بالجُود والإيثار:

إنَّ الصِّيَامَ عَوْنٌ عَلَى الجُودِ والإيتَاءِ والعَطَاءِ والسَّخَاءِ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ أجْوَدَ النَّاسِ بالخَيْرِ، وَكَانَ أجْوَدُ مَا يَكُونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْه السَّلاَمُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ في رَمَضَانَ، حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ القُرْآنَ، فَإذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْه السَّلاَمُ، كَانَ أجْوَدَ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ " رواه البخاري (١٩٠٢).

أقولُ: على هذا الطَّبْع من الجود كَانَ من خَتَمَ اللَّهُ به الرِّسَالَةَ واخْتَارَ لَهُ أعْظَمَ خُلُقٍ وانْتَخَبَهُ مِنْ أطْيَبِ سُلاَلَةِ صلى الله عليه وسلم، ويَتَفَرَّع منه خُلُقُ المُوَاسَاة والعَطْف على النَّاس ورَحْمَة الأرْمَلة والمسْكين وابن السَّبيل فاشْدُدْ يَدَيْكَ بِهَذَا الخُلُق وَكُنْ وَلُوعًا به وَلَوْ بالْقَليلِ مِنَ المَالِ حَتَّى تَسْمَحَ نَفْسُكَ الشَّحِيحَةُ وتَجُودَ وهِيَ الضَّنِينَةُ.

فَسِرْ عَلَى هَذَا النَّهْجِ الَّذي سَارَ عَلَيْه السَّلَفُ- عَلَيْهِمْ سَحَائِبُ الرَّحْمَةِ وشَآبِيبُ المَغْفِرَةِ والرِّضْوَانِ- فَلَمْ يَكُنِ الوَاحِدُ مِنْهُمْ يَأتِي مِنَ الأخْلاَقِ مَحْظُورًا، وَلاَ يَسْلُكُ مِنْهَا طَرِيقًا مَخْطُورًا، بَلْ مَهَّدُوا طَرِيقَ الأخْلاَقِ السَّوِيَّة، وسَلَكُوا سُبُلَ الخَلاَئِقِ المَرْضِيَّة، وَأنَارُوا سُرُجَهَا المُضِيَّة، وَكَانَ الخُلُقُ الحَسَنُ بَابٌ عَلَيْه كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ أوْ كَالحَوْضِ المَوْرُودِ للسُّقْيَا يَرِدُهُ الوَارِدُونَ وَيَصْدُرُ عَنْهُ الصَّادِرُونَ، فَالجُمُوعُ عَلَيْه مُتَكَاثِرَةٌ، والرَّغَبَاتُ إلَيْه مُتَوَافِرَةٌ، حتَّى بلغُوا بذلكَ ذِرْوَةَ المجدِ والسَّنَاء وأحْرَزُوا قَصَبَاتِ السَّبْقِ والعَلاَء.

وَلاَ عَجَبَ فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ قَدْ جُبِلَ عَلَى حَسَنِ الخُلُقِ طَبْعُهُ وعُمِّر بِحُبِّ الخَيْرِ رَبْعُهُ وهذا خُلُقُ مَنْ رَزَقَهُ اللَّه طَبْعًا سَلِيمًا وَهَدَاهُ صِرَاطًا مستَقيمًا، فَيَا لَيْتَنَا نَقْبِضُ قَبْضَةً من أثَرِ هَؤُلاءِ الأقْوَامِ فَنَنْبِذَهَا في ظَهْرَانِي أقْوَامِنَا عَسَى اللَّه أنْ يُحْيِيَ بِهَا مَوَاتَ أخْلاَقِنَا، ولاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا دَامَ الأوَّلُ يَقْتَبِسُ مِنْهُ ويَقْتَدِي به الآخَرُ.

فَخُذْ مَقَالَتِي هَذه ورِسَالَتِي إلَيْكَ أخْذَ الجِدِّ؛ فَقَدْ مَحَّضْتُ لَكَ فِيهَا النُّصْحَ النَّصِيحَ - فيما أحْسب-، وَمَخَّضْتُهَا عَنْ زُبَدِ الخُلُقِ الصَّحِيحِ، وَجَلَّيْتُ لَكَ فِيهَا الحَقَّ الصَّرِيحَ، وَذَكَرْتُ لَكَ فِيهَا فَوَائِدَ ذَوَاتِ عَدَدٍ وَعَوَائِدَ حِسَانٍ؛ فَاظْفَرْ بِهَا تَرِبَتْ يَمِينُكَ، أصْلَحَ اللَّه خُلُقَنَا، وَسَدَّدَ قَوْلَنَا وَعَمَلَنَا، وَبَلَّغَنَا أمَلَنَا، وَهَدَانَا سُبُلَنَا، وَجَعَلَ سَعْيَنَا مُقَرِّبًا إلَيْه، وَمُزْلِفًا لَدَيْه وَصَلَّى اللَّه وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِه وَصَحْبِه وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّين.

Upload by: altawhedmag.com

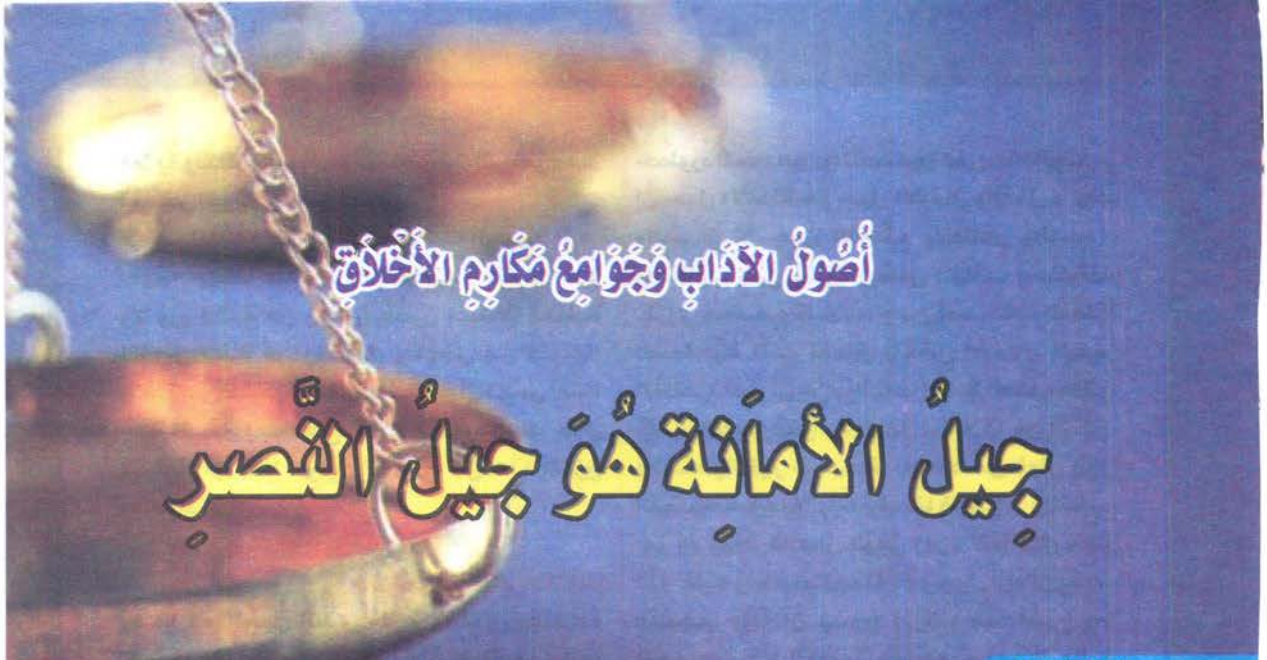

أُصُولُ الآدابِ وَجَوامِعُ مَكارِمِ الأَخْلاقِ

جِيلُ الأَمانَةِ هُوَ جِيلُ النَّصرِ

الحلقة (٣)

إعداد/ د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي خلق كل شيء وقدّره فأحسَنَ التَّقدير، ودبَّرَ أمرَ الخليقة فأكمَلَ التَّدبير، وجعل عبادَه فريقين فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير، وأكرمَنا ببَعْثة أبي القاسم البَشير النَّذير، أرسلَه رحمةً للعالمين من نار السَّعير، فأشرقت الأرضُ بنُور دعوته وأضاءتْ الدُّنيا أشدَّ من السراج المنير، اللهم صلِّ اللهُ وسلِّمْ على نبيِّنا مُحمَّد عبْدك ورَسُولك خيرِ نبيٍّ وأصْدق نذير، وعلى آله وأصحابه أولي الأيدي والتَّبصير، وعلى أتْباعه وأحْبابه ومَنْ سارَ على دَرْبه من ذَوي العَزْم والتَّشمير وبَعْدُ فمن علاج ضعف الأمانة ما يأتي:

سابعًا: صناعة الجيل المنشود وبناء المرتقب المفقود:

فحديثُنا في علاج ضَعْف الأمانة هذه المرَّة عنْ حديث مهم ألا وهو إخراج طَليعَة مُرْتَقَبة، وبناء جيل مُنْتَظر يُؤَدِّي الأمانَةَ على وجهها، ويقوم بحقها هو الحديثُ الواجبُ، واللهِ يعْلَمُ أني إذا حَضَرَني الحديثُ عَنْ هذا الجيل أحْضَرْتُ الدَّوَاةَ وأجْرَيْتُ القَلَمَ وقُلْتُ: هذا أوانُ الشَّد فاشْتَدِّي، ثُمَّ أكتبُ عقبَ ذلك بوجيب قَلْبي وعاطفة مُتدفِّقة لا أمْلكُ زمامَها، ومحبَّة غلاَّبة لا أمْسكُ خطامَها، بلْ تَنْسابُ الكلماتُ انسيابًا، وتَجْري جَرْيًا عُبابًا، بكلام أرْجُو أنْ يكُونَ فيه تَفْريحٌ للقَلْب وتَفْريجٌ للهَمِّ ونُزْهَةٌ للعَقْل وطَرَبٌ للنَّفس فإنَّ هذا مما يَشْحَذ الذِّهْن ويَصْقُلُ مرْآةَ الفكْر ويُفَجِّرُ المعَانيَ حتَّى تَتَزاحَمَ عَليكَ ويُجَدِّد المَبَانيَ فتَتَداخَلَ إليْكَ.

مَقالٌ كحدِّ السَّيْف بَيْنَ المَحافل
أقَمْتُ به ما بَيْنَ حَقٍّ وباطل

ولَوْلاَ فَضْلُ اللهِ ورَحْمَتُهُ وعَوْنُه وتَسْديدُه ونَعْمَتُهُ؛ لاخْتَلَطَ الخَاثِرُ بالزُّبَاد، والحَابِلُ بالنَّابِل، فَمَا اسْتَطَعْتُ لها تَبْويبًا ولا تَرْتيبًا، وَلاَ تَسْويدًا وَلاَ تَهْذيبًا، وَمَا هَذَا إلا لأنَّ ذاكَ الجيلَ حُلْمٌ عَظيمٌ نَرْجُو تحقيقَهُ، وأملٌ كَبيرٌ نَسْعَى في تَحْصيله، فَالقُلوبُ الصَّادقَةُ تَخْفقُ إليْه، والألْسُنُ الصَّادعَةُ تُحَلِّقُ بكَلامها فَوْقَهُ وعَلَيْه فاللهُ المُوَفِّقُ لمَا لَهُ صَمَدتُ والمُيَسِّرُ لمَا إليْه قَصَدتُ.

وأبشِّرُك بأنَّ هذا الجيلَ سَيَكُونُ في هذه الأُمَّة يَوْمًا مَا، لاَ يَعْلم مَوْعدَ ذلكَ إلاَّ اللهُ تعَالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء: ٥١)، فلا تقُلْ هَذَا خُلُقٌ قَدْ ذَهَبَتْ أرْبَابُه؛ وفُقدَتْ أسبَابُه؛ فإنَّ من سَارَ على الدَّرْب وَصَل، ومهما فاتَكَ من الخَيْر

Upload by: altawhedmag.com

فلا يفوتنَّك العَمَلُ به ومهما سُبقتَ إلى شَيْءٍ فلا تُسْبَقَنَّ إلى تقوى الله تعالى.

لا مفرَّ للأمَّة ولا وَزَرَ من إعداد هذا الجيل:

اعلَمْ - وفَّقنا الله وإيَّاكَ لطاعته - أنَّه لا مَلاذَ ولا وَزَرَ للأمَّة من رجال يُعدُّون إعدادًا بعناية لتقوم الأمَّةُ من رَقْدَتها، وتنهض من كَبْوَتها، وتُفيقَ من غَفْلَتها وغَفْوَتها، عسى أن تلبس أمَّتُنا حُلَّةَ اليُسْر بعد خَلْع حَالَة العُسْر، فلقَدْ طال شوقُنا إلى هذا الجيل للخُرُوج من هذا المأزق وذاك المَزْلق.

بعد الملتقى وشطُّ المَزارُ

وتَمادى لوصْلك الانتظارُ

وهذا هو الجيلُ الذي يَلْزَمُ المسلمينَ إعدادُهُ لاسيَّما في هذه الأيَّام، والأمَّةُ في مَرْحَلتها الصَّعْبَة وأيَّامها العصيبَة، فجُفُونُها مُرْسلاتٌ ودُمُوعُها من المُلِمَّات ذَارِياتٌ، وقد تَكالَبَتْ عَلَيْها الأعْداءُ واجْتَمَعوا على إفْنائها وتَذْويب البَقيَّة البَاقيَة من الأخْلاق فيها وتَنادَوْا من مَكانٍ قَريب وبَعيد بصَوْت جَهير يَسْمَعُه الحاضرُ والبَاد: أنْ هَلُمُّوا لِبَغْيَتكم بالتَّخلص من الأمَّة المُسْلمَة وهم يَغُطُّونَ في سُبَات عَميق ونَوْم ثَقيل، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ لا يحتاج إلى شَاهد؛ لكن يَأبَى الله ذلكَ والمؤمنُون الغَيُورُون على دينهم وأمَّتهم «يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ» (الصف: ٨).

إنَّه الجيلُ الذي يُعَدُّ الأمَانةَ سَبيلَ الهدَايَة لِمَنْ أرَادَ أن يَسْلُكَها، وكُنُوزَ السعادَة لِمَنْ كَانَ له عَزْمٌ أن يَمْلكَها، كَمَا أنَّه الجيلُ الذي يَتَّخذُ من الأمَانَة للنَّجَاة وسيلَة، ويَعُدُّها بِرَفْع المِحْنَة عن الأمَّة كفيلَة، إنَّه الجيلُ الذي لا يَيْأس من تَحْقيق الأمَانة مَهْمَا عَفَتْ في زَماننا آثارُها، وكَيْفَما خَبَتْ أنْوَارُها حتَّى يَرْجعَ بالمُسْلمينَ إلى صَفْة الأمَانَة بَعْدَ مَا جُهلَ مَكَانُها، ووَهَتْ دَعَائمُها وقُوِّضَتْ أرْكَانُها كما أنَّه الجيلُ الذي بَلَغَ من الأخْلاق الأغْوَارَ والأنْجَادَ حتَّى وَصَلَ إلى الغَايَة منْها أو كَادَ فَلَمْ يَفُتْ في عَضُده أهْلُ دَهْره الحَرُونِ ولَمْ يُفْتَنْ بِزَمَانه المَفْتُونُ.

إنَّ اللَّيَالي والأيَّامَ لَوْ سُئلَتْ

عَنْ عَيْبِ أنْفُسها لَمْ تَكْتُم الخَبَرَا

خُطُورَةُ المَخادعينَ والمُتَصَنِّعينَ على هذا الجيل:

إنَّ جيلَ الأمَانَة هُوَ جيلُ الإيمانِ والعَمَلِ والجِدِّ والصِّدْق لا جيلُ التَّصَنُّع والمَظاهر والدعوى والتَّكَاذُب ممَّنْ يَتَزيَّا ببعْض المَنَاقب وحَقيقَتُهُ في زيِّ مُخَادع كَاذب، ومَن أصْحَابُ النَّظْرَة السَّطْحيَّة الَّتي تَتَعَلَّق ببَعْض أعْمَال الخَيْر الظَّاهرَة غَيْرَ أنَّ منْ وَرَائها فَرَاغًا في العَقْل، وفَقْرًا في في العلم، وفَقْرًا في العَمَل، وإمْلاقًا من الخُلُق، وأنفسًا بالخير شحيحة، وأفعالاً من فعال ذوي الفَضيحة، وجَهْلاً بيِّنًا وضعفًا ظاهرًا، «وَالْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالجُمْلَة فَهُوَ جيلٌ أرَادَ أنْ يُعْرِبَ فَأعْجَمَ، وَرَامَ أنْ يُسْرِجَ لِيَرْكَبَ فَمَا أسْرَجَ وَمَا ألْجَمَ، فَهُوَ عَنْ الوُصُول مَحْجُوبٌ، وَمَنْ التَّوْفيق مَسْلُوبٌ، ولِلَّه الأمْرُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ.

وهَيْهات مع فَقْد الأخْلاق والأدَب أنْ يَبْلُغَ المَرْءُ الوَطَرَ ممَّا يُريدُ أوْ يُدرَكَ منْهُ الأرَب، اللَّهُمَّ إلاَّ أنْ يَصْحُوَ وَيَعْلَمَ مَا هُوَ فيه مِنْ خَطَر ثُمَّ يَقْتَدي بالسَّلَف الصَّالح ممَّنْ أخْلاقُهُم عَلَى صَفَحَات الدَّهْر مكتُوبَةٌ، وفَضَائلُهم في غُرَر المَحَاسن مَحْسُوبَةٌ، وآدابهم إلى كلِّ بلَد مَجْلُوبَةٌ، وعَسَى أنْ يَلْحَقَ ابْنُ اللَّبُون بالبُزْل القَنَاعيس فَمَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْب وَصَلَ يَوْمًا مَّا.

كما قيل لبعض السلف: بيننا وبين القوم مفاوز تنقطع فيها أعناق المَطي فهم على خيل بلق ونحن على حمر معقرة فقال: أنت على اللحاق بهم ما دمت على دربهم.

أمَّا من لم يَسْتَجبْ ويَرْعَوي مع تَتَابُع النُّذُر وتَوَاتُر النُّصْح ووضُوح الخَبَر فَكَبِّرْ عَلَيْه أرْبعًا إذ قد رَضينَا مِنْ غَنيمتَه بالنَّجَاة منْهُ في الذَّهَاب والسَّلامَة في الإيَاب، وصدق الله حين قال: «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ» (الرعد: ٤٠).

إنَّ هؤلاء القَوْمَ الموصُوفينَ بما تقدَّمَ، والمَوْسُومينَ بما تَعْلَم صَارُوا بأخْلاقهم في عَيْن أمَّتنا قَذًى وفي حَلْقها شَجًا، كَيْف لا؟! وأمْنيَّتُهم الجَامحَةُ، وهمَّتُهمُ الطَّامحَةُ لا تَعْرفُ غَيْرَ التَّعويل عَلَى الظَّاهر مَهْمَا كَانَ رَديئًا، ولا تَكَادُ تَذْكُر الباطنَ والمَخْبَر ولو كَانَ تِبْرًا نَفيسًا ومَعْدنًا ثَمينًا، فالكَسَل والتَّواني عِنْدهُم غَنيمَةٌ، والنَّميمَة

Upload by: altawhedmag.com

وأكلُ لُحُومِ النَّاسِ- لاَ سيَّمَا المخَالِفِينَ - لَدَيْهِم أكْمَلُ شيمَة.

وَلاَ رَيْبَ أنَّ هَذَا فِي التَّصَوُّرِ والفَهْمِ تَطَرُّفٌ، وَفِي الحُكْمِ عَلَى الأُمُورِ تَحَيُّفٌ، وَقَعْقَعَةٌ فَارِغَةٌ وَزَوْبَعَةٌ جَوْفَاءُ، وبِمِثْلِ هَذَا التَّصَوُّرِ المهِينِ يَزِلُّ القَائِلُ، وَيَضِلُّ السَّائِلُ، وَيَخِيبُ الآمِلُ، وَتَضِيعُ أُمَمٌ، وَتَسْقُطُ حَضَارَاتٌ، ثُمَّ يَعْلُو بَاطِلٌ حَقًّا وَتَكُونُ كَوَائِنُ اللهِ بِهَا عَلِيمٌ، وَتَذْهَبُ أجيالٌ غَيرَ مأسُوفٍ عَلَيْهَا حَتَّى تَذْهَبَ كأمْسِ الدَّابِرِ.

وَقَدْ يَمُوتُ كَثِيرٌ لاَ تُحِسُّهُمْ
كَأنَّهُم مِنْ هَوَانِ الخَطْبِ مَا وَجِدُوا

وَوَاللهِ- الذي لا يُحْلَفُ إلاَّ بِه- مَا هَذِهِ البَلاَيَا التي نَعِيشُها فِي زَمَانِنَا ونَشْكُو مِنها عَظِيمَ الشَّكَايَةِ إلاَّ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ العُقُولِ الضَّيِّقَةِ الضَّئِيلَةِ، والأفْهَامِ المُتَضَائِلَةِ العَلِيلَةِ، فَاللهُ حَسِيبُهُم بِمَا عَرَّضُوا بِأعْمَالِهِم عِرْضَ الدِّيَانَةِ للاسْتِهْزَاءِ، وَجَعَلُوا المِلَّةَ بِأفْعَالِهِم هَدَفَ العَدُوِّ للاسْتِزْرَاءِ، وَمَنْ سَلَكَ هَذَا المسْلَكَ خَلَطَ، وَمَشَى مَشْيَ عَشْوَاءِ وخَبَطَ، فَنَزَلَ بِهِ الخَرَابُ والتَّبَابُ، وغَلَبَ عَلَيْهِ البَوَارُ والانْكِسَارُ، حَتَّى يُصْبِحَ فِي الشَّرِّ فَاحِشَ الخَطَا، وفِي الخَيْرِ قَصِيرَ الخُطَا، ولو أقْنَعْتَ أحَدَهُم بِما تَقُولُ لأعْرَضَ ومَضَى قَائِلاً: لا تَهْتَمَّ فَذَا شَرْحٌ يَطُولُ، ولَوْلاَ أنَّ صُدُورَ الأحْرَارِ قُبُورُ الأسْرَارِ- كَمَا يُقَالُ - لَبُحْنَا بِأكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لكنَّ الغَرَضَ النَّصِيحَةُ والتحذِيرُ، لاَ التَّعْيِيرُ والتَّشْهِيرُ، وإذَا بَلَغَ المَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلِ الخَبَثَ، أعَاذَنَا اللهُ مِنْ شُرُورِ العَمَلَةِ، ونَجَّانَا مِنْ ظُلْمِ الظَّلَمَةِ.

وَمَا أعْظَمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَلْخِيصِ وَصْفِ المؤْمِنِ، وتَخْلِيصِ نَعْتِ المُسْلِمِ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُؤْمِنُ مَنْ أمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأمْوَالِهِمْ» رواه الترمذي (٢٦٢٧) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فَالمُؤْمِنُ حَقَّ الإيمانِ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ شَرِّ يَدِهِ ولِسَانِهِ، فيدُهُ مبْسُوطَةٌ بالخَيْرِ لكلِّ الأشْهَادِ، لاَ يَقْبِضُهَا إلاَّ على نَوَاصِي الأعْدَاءِ والحُسَّادِ، وكَانَ مع ذلك مأمونَ الجانبِ، موْثُوقَ الأمَانَةِ على المالِ والدَّمِ والعِرْضِ.

فأيْنَ هَذَا مِنَ الذينَ يَقِفُونَ مع الصُّوَرِ والأشْكَالِ ويَعُدُّونَها كلَّ شيءٍ ثم يتَّخِذُونَ النَّاسَ غَرَضًا؟! فتبًّا لَهُم من قَوْمٍ طَافَ طَائِفُهُم، ونَجَمَ بالشَّرِّ ناجِمُهُم، ما هم إلاَّ كالعَيْنِ المالِحَةِ والوُجُوهِ الكَالِحَةِ لاَ تَرَى مِنْهَا إلاَّ مَا يُؤْذِي العِبَادَ، أوْ هُمْ كالمَيَازِيبِ تَجْمَعُ المَاءَ كَدَرًا وتُفَرِّقُهُ هَدَرًا.

والعجب أنهم إذا عُوتِبُوا حَسَرُوا قِنَاعَ الشِّقَاقِ، وإنْ غُولِطُوا تَلَثَّمُوا بِلِثَامِ المُرَاوَغَةِ والنِّفَاقِ، فاللهُمَّ غُفْرًا، وكثيرٌ منهم يَتَعَلَّلُ بِفِعْلِ بعضِ السُّنَنِ وهِيَ عَلَى أهَمِّيَّتِها وقِيمَتِها؛ إلا أنهم يَتَنَاسَوْنَ بِهَا أُمُورًا عِظَامًا وأشْيَاءَ كِبَارًا، وكأنَّ هذا مِنَ العُذْرِ عِنْدَهُم، ولَنْ تَعْدِمَ خَرْقَاءُ عِلَّةً (وهو مَثَلٌ يُقَالُ لكل مُعْتَذِرٍ وهو يَقْدِرُ).

إنَّ هؤلاءِ الذينَ نَشْكُو مِنْهُم، فيهم أُناسٌ - وهُمْ كَثْرَةٌ كاثِرَةٌ- اشْتَغَلُوا بِزُخْرُفِ القَوْلِ، ومِنهم خلقٌ لا يُحْصَونَ يَعْمَلُونَ على تَزْيِينِ الكذبِ وتَمْوِيهِ البَاطِلِ حتَّى صَارَ نَفْعُهُم للإسْلاَمِ كسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حتَّى إذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، فَلاَ هُمْ للدِّينِ نَصَرُوا، ولاَ لأعْدَائِهِ كَسَرُوا، بَلْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ صِرْفًا ولا نَصْرًا؛ فأنَّى لهؤلاءِ أن يَرْفَعَ اللهُ مَنَارَهُم أو أنْ يَجْعَلَهُم أئمَّةً وَهُوَ القَائِلُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)، وتلك عَوَاقِبُ البَاطِلِ دائمًا خافِضَةٌ مُرْدِيَةٌ، بَيْدَ أنَّ عَوَاقِبَ الحَقِّ دَوْمًا رافِعَةٌ مُنْجِيَةٌ، وهي سنةُ اللهِ فيمَن أزَالَه وأذَالَه ولن تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تبديلاً، ولن تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً.

نَعَمْ لَقَدْ تَقَطَّعَتْ بِنَا الأسْبَابُ ونَزَلَتْ بِنا صُرُوفُ الدَّهْرِ وريبُ المَنُونِ، وبلَغَنَا حالاً يَسُوءُ منظَرُهَا ولا يَسُرُّ مُخْبَرُهَا وبدلاً من أن يَطِيبَ لنا بأخْلاَقِنَا العيشُ، أصْبَحَتِ الأخْلاَقُ خَلَقَةً وأدْرَكَهَا الطَّيْشُ، وقَدْ أتَتْكَ بِحَائِنٍ (هَالِكٍ) رِجْلاَهُ، ونعوذ باللهِ من سوءِ القضاءِ ومُرِّ القَدَرِ.

ووالذي لا إلَه إلا هو لولا حفظ اللهِ الدينِ والخُلُقِ بطائفةٍ لا يضرُّهم من خَذَلَهُم لصِرْنَا على حينِ فَتْرَةٍ من الرُّسُلِ، إذ كُسُوفُ شمسِ الأخْلاَقِ قد طَالَ، وطُمُوسُ سُبُلِه قَدْ مَلَّ وأمَالَ، وسبيلُ الحقِّ عافيةٌ آثَارُهُ، منكوسةٌ أعلاَمُه، مَطْوِيَّةٌ أخْبَارُه، هذا مع اضطرامِ نارِ الفتنِ، وتطايُرِ شَرَرِها، وإقبالِ ليلٍ قد اشتَدَّ قَتَامُه، وادْلَهَمَّ ظلامُه، فاللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

Upload by: altawhedmag.com

أُصُولُ الآدَابِ وَجَوَامِعُ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ

الأَمَانَةُ فِي زَمَنِ الزَّمَانَةِ

الحلقة التاسعة

عِلاَجُ ضَعْفِ الأَمَانَةِ (٤)

جِيلُ الصَّحَابَةِ هُوَ جِيلُ الأَمَانَةِ

إعداد/ د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة قديمًا وحديثًا وصلى الله على نبينا محمد الذي اتخذه الله خليلاً، وجعله أصدق الناس حديثًا وعلى آله وأصحابه ساروا على سنته سيرًا حثيثًا وعلى أتباعه وأحبابه ومن تبعهم من أهل العلم والفضل والخير فأكرم بهم وارثًا وموروثًا، وبعد فهذا مقال أبين فيه عن تربية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم على خلق الأمانة الذي كان أكثر الناس به عملاً ووصفًا فأقول في ذلك:

ثامنًا: تربية الجيل على الأمانة:

ويظهر أثرُ ذلك في تَرْبِيَة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم جيلَ أصْحَابِه على الأَمَانَة:

التَّربيَةُ على منْهَاجِ ودعَائم النُّبُوة هي المخْرَجُ مما وصفتُ بأن تَجْعَلَ حُسْنَ الخُلُق جُنَّةً تترَّسُ بها، وأن تَخْلَعَ عن نفْسك خلْعَةَ الغَفْلة والتَّغْفيل والجَهْل والتَّجْهيل، وأن تَقْطَع أذْيَال الشَّكِّ والتَّضْليل وأن تَطوفَ على أبواب الخير والأخلاق وترجع منها بأفضلِ المطالب وأرفع المواهب، وأن تَلبس لهذا الزمان من الصبر لأمَته، وأن تعدَّ لَهُ من الحِلْم عُدَّتَه حتَّى إذَا حَمِيَ الوَطيسُ ودَارَتْ رَحَى الخلاَف واشْتَدَّ النَّفيرُ وتَنَادَى المتَخَاصمُون بالخصَام والنِّفَاق وصوَّتَ المتَنَازعُون بالنِّزَاع والشِّقَاق لجَأْتَ إلى مَا اعْتَصَمْتَ به منْ حُسْنِ خُلُقك إلَى مَغَارَات ومُدَّخَل تولي إليها وتجمح ولَسْتَ بذلكَ رَاضيًا بأَنْ تَكُونَ مَعَ القَوَاعد والخَوَالف بَلْ تَكُونَ مَعَ النَّاجينَ فَتَنْجُو مَعَ قَليل ممَّنْ نَجَا.

لَقَدْ رَبَّى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ عَلَى الأَمَانَة ولم يزل يعالج هذه الأخلاق فيهم من أول وهلة ومنذ بدء دعوته حتَّى استووا على سوقهم، وانبلج فجرهم، وأضاء في الدنيا نورهم، بل بدت أخلاقهم في الناس بدو البدر وسط سمائه وضوحًا وحسنًا وجمالاً، ويؤكد ذلك ما جاء في حديث عَبْد الله بْن عَبَّاس رَضيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: "أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ، أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَزَعَمْتَ، أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ". (رواه البخاري: ٢٦٨١).

كما علَّم أصْحَابَه أنْ يُؤَدُّوا الأمَانَات ويَقْضُوا الدُّيُون قبلَ التَّبَرُّع والتَّصَدُّق في وُجُوه الخَيْر خَلاَصًا للنَّفْس وابْرَاءً للذِّمَّة.

قال الإمام البخاري في كتاب الوصايا ٤/٥: وَيُذْكَرُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِالدَّيْنِ قَبْلَ الوَصِيَّةِ، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا» (النساء: ٥٨)؛ فَأَدَاءُ الأَمَانَةِ أَحَقُّ مِنْ تَطَوُّعِ الوَصِيَّةِ.

ولَمَّا لَحِقَ صلى الله عليه وسلم بالرَّفيقِ الأَعْلَى واخْتَارَهُ اللهُ

Upload by: altawhedmag.com

تَعَالَى إِلَى جِوَارِهِ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا مَلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَقَالِيدَ البِلَادِ، وَدَانَتْ لَهُمْ رِقَابُ العِبَادِ فِي مُدَّةٍ لَا تُعَدُّ شَيْئًا فِي أَعْمَارِ الأُمَمِ، حَتَّى صَارُوا غُرَّةً فِي جَبِينِ الزَّمَانِ وَأَرْبَى خُلُقُهُمْ عَلَى الإِحْسَانِ، لَقَدْ أَخَذُوا بِالأَخْلَاقِ فَقَعَّدُوا قَوَاعِدَهَا، وَشَدُّوا سَوَاعِدَهَا، وَأَبَادُوا مُعَانِدَهَا، كَمَا عَضَّدُوا عَوَاضِدَهَا وَنَهَجُوا جَمِيلَ مَقَاصِدَهَا، فَمَا مِنْ قُوَّةٍ فِي الدِّينِ وَلَا عِلْمٍ وَخُلُقٍ مَتِينٍ إِلَّا وَإِلَيْهِمْ يَلْتَجِئُ وَيَفْزَعُ، وَمَا مِنْ أَدَبٍ حَمِيدٍ وَلَا رَأْيٍ سَدِيدٍ إِلَّا وَهُوَ إِلَيْهِمْ بِالفَضْلِ يَعْتَرِفُ وَيَنْزَعُ، فَمَا أَرَدْتَ مِنْ نَادِرِ أَدَبٍ وَلَا كَرِيمِ أَخْلَاقٍ إِلَّا وَجَدْتَهُ عِنْدَهُمْ بِلَا اخْتِلَاقٍ، وَلَا قَصَدْتَ مِنْ إِغْرَاقٍ فِي طَلَبِ عَظِيمِ الأَخْلَاقِ إِلَّا اجْتَنَيْتَهُ مِنْ رَوْضِهِمْ مَعَ سَلَامَةِ أَصْلٍ وَأَصَالَةِ مَعْدِنٍ وَطِيبِ أَعْرَاقٍ، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ ظُهُورَ النَّهَارِ، لِهَذَا صَارُوا كَعْبَةً لِلْفَضَائِلِ يَنْبَغِي حَجُّهَا وَقِبْلَةً لَهَا يَجِبُ قَصْدُهَا، وَكُهُوفًا لِلأَخْلَاقِ يَلْزَمُ اللُّجُوءُ إِلَيْهَا وَلُزُومُهَا، وَطَرِيقًا يَسْلُكُهَا مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهَا السَّبِيلَ، وَمَلْجَأً يَأْوِي إِلَيْهِ القَانِعُ وَالمُعْتَرُّ وَالمُقِيمُ وَالظَّاعِنُ وَكَذَا ابْنُ السَّبِيلِ، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا مِنْ شَانِئِيهِمْ وَرَافِضِيهِمْ فَقَدْ فَجَرَ وَالْتَقَمَ الحَجَرَ وَلَوْلَا خَشْيَةُ الإِطَالَةِ لَأَسْهَبْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَأَكْثَرْتُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ؛ فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

وَإِنْ مِمَّا يُؤَكِّدُ أَثَرَ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ مِنْ عَظِيمِ قِيَامِهِمْ بِالأَمَانَاتِ كُلِّهَا حَتَّى أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِسْلَامِ ظِلَّهُ وَأَعْلَى بِهِمْ فِي دَرَجِ التَّمْكِينِ مَحَلَّهُ وَلَا غَرْوَ فَقَدْ كَانَتْ أَمَانَتُهُمْ عَظِيمَةً وَدِيَانَتُهُمْ قَوِيمَةً.

وَفِي حَدِيثِ الهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ تَعْبِيرٌ صَادِقٌ يَنُمُّ عَنْ حِسٍّ مُرْهَفٍ وَقَوْلٍ جَامِعٍ بِكَلَامٍ مَنْصَفٍ ذَكَرَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يُفْصِحُ لَنَا عَنْ كَوْنِ تَرْبِيَةِ الجِيلِ عَلَى الخُلُقِ هِيَ مِنْ أَهَمِّ المُهِمَّاتِ، كَمَا يُعْرِبُ عَنْ تَبْكِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ وَذَاكَ الإِعْدَادِ لَا كَمَا نَفْعَلُ فَنَتْرُكُ الشَّبَابَ وَالفِتْيَانَ وَالوَاحِدَ مِنْهُمْ حَدَثُ السِّنِّ غَضُّ الإِهَابِ طَرِيُّ العُودِ تَقْبَلُ طِينَتُهُ الخَتْمَ وَيَسْهُلُ تَقْوِيمُهُ وَتَعْدِيلُ طِبَاعِهِ حَتَّى إِذَا كَثُرَتْ شَيْبَتُهُ وَرَقَّ عَظْمُهُ وَنَفِدَ عُمُرُهُ وَخَلَعَ رِبْقَةَ الأَخْلَاقِ مِنْ عُنُقِهِ وَكَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عُرْيَانًا جَهِدْنَا فِي لَمِّ شَعْثِهِ وَإِصْلَاحِ خَلَقِهِ، إِنْ هَذَا لَمِنْ ضِيَاعِ الأَجْيَالِ وَالسُّقُوطِ فِي الفِتَنِ " أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ".

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ-وَاللَّهِ- مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَنَا فِي ذَلِكَ مَا كَانَ.

فَلَمَّا جَاؤُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟

قَالَتْ: وَكَانَ الَّذِي يُكَلِّمُهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: "أَيُّهَا المَلِكُ! إِنَّا كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ، وَنَأْتِي الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَيَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا

Upload by: altawhedmag.com

رَسُولاً منَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ.

قَالَتْ: فَعَدَّدَ لَهُ أُمُورَ الإِسْلاَمِ.

فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُوْنَا، وَفَتَنُوْنَا عَنْ دِيْنِنَا لِيَرُدُّوْنَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُوْنَا وَظَلَمُوْنَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِيْنِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ.

وقريب منه قول هرقل لأبي سفيان: فماذا يأمركم به؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

ثم قال هرقل: وسألتك ماذا يأمركم به، فزعمت أن يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وهذه صفة نبي، قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم؛ وإن يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقيه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه".

وطالع متفضلاً -أخا الإسلام- هذا الموقف من صحابيٍّ ضرب مثلاً شرودًا في الأمانة، وتأمله غير مأمور بل متكرمًا، فإنَّ من تأمل أدرك، ومن تفكر اعتبر.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كُنْتُ أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: " يَا غُلاَمُ، هَلْ مِنْ لَبَنٍ؟ " قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَلَكِنِّي مُؤْتَمَنٌ، قَالَ: " فَهَلْ مِنْ شَاةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ؟" فَأَتَيْتُهُ بِشَاةٍ، فَمَسَحَ ضَرْعَهَا، فَنَزَلَ لَبَنٌ، فَحَلَبَهُ فِي إِنَاءٍ، فَشَرِبَ، وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: " اقْلِصْ " فَقَلَصَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالَ: فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: " يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِنَّكَ غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ " (رواه أحمد بسند حسن ٣٧٩/١ وصححه ابن حبان: ٧٠٦١).

فهيَّا إخوةَ الإسلام لإعداد طليعة وشباب قد ارتضى الناس خلائقهم، وأمنوا بوائقهم، فخيرُهم يُرتجى وشرُّهم يُتَّقى، ويتلفَّعون بالعفَّة والعفاف، ويشتملون بالنزاهة والاستعفاف، ويُحيُون من الأمانة ما وهَى ورثَّ، ويعملون على بثِّها في المسلمين أحسنَ البثِّ، ويُدقِّقون في النَّقير منها والقطمير، ويتبصَّرون فيها أتمَّ التَّبصير، ويُقرِّرونها أحسنَ تقرير، ويتعوَّذون بالله من الهوَى فيها والتَّقصير، «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» (الروم: ٤- ٥).

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

حِرَاسَةُ ثُغُورِ الجوارِحِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعدُ: فهذه مقالاتٌ متتابعةٌ يُلقِّحُ بعضُها بعضًا، ويأخذُ بعضُها برقاب بعض في حفظ الجوارح، وحراستها من المعاصي، وحمايتها من الوضر والأذى، وصيانتها من الذنوب والقبائح؛ بعد أن عمت الخطايا وشاعت وسهلت على فاعليها فلا يكاد يسلم من وهج غبارها وإثارة نقعها إلا من عصمه الله وحماه.

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

أصل هذه الحراسة ومأخذها:

حراسة الثُّغور وحماية الجوارح من أهمِّ المهمَّات؛ إذ إننا صرنا إلى زمان سُوء قد يقعُ المرءُ في أي إثم ويبوء به حتى أصبح غشيان الذنوب أمرًا ميسورًا لا يكاد يمنع منه مانعٌ، ولا يحول بين فاعله وآتيه حائل.

وهذه الحراسة والرعاية مأخوذة من حديث عَبْدِ اللَّه بْن عُمَرَ، رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، قَالَ: " أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته، فَالإِمَامُ الَّذي عَلَى النَّاس رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته، وَالرَّجُل رَاعٍ عَلَى أَهْل بَيْته، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته، وَالْمَرْأَة رَاعيَةٌ عَلَى أَهْل بَيْت زَوْجهَا، وَوَلَده وَهيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُل رَاعٍ عَلَى مَال سَيِّده وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته " رواه البخاري (٧١٣٨).

قال الحافظ ابن حجر نقلاً عن بعض العلماء: "دَخَلَ فِي هَذَا الْعُمُوم الْمُنْفَرِدُ الَّذِي لَا زَوْجَ لَهُ وَلَا خَادِمَ وَلَا وَلَدَ فَإِنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ رَاعٍ عَلَى جَوَارِحه حَتَّى يَعْمَلَ الْمَأْمُورَاتِ وَيَجْتَنِبَ الْمَنْهِيَّاتِ فِعْلًا وَنُطْقًا وَاعْتِقَادًا فَجَوَارِحُهُ وَقُوَاهُ وَحَوَاسُّهُ رَعِيَّتُهُ وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِكَوْنِهِ رَاعِيًا أَنْ لَا يَكُونَ مَرْعِيًّا بِاعْتِبَارٍ آخَرَ. وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ مِثْلَ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ فَزَادَ فِي آخِرِهِ " فَأَعَدُّوا لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابًا قَالُوا وَمَا جَوَابُهَا قَالَ: " أَعْمَالُ الْبِرِّ " أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِيٍّ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَسَنَدُهُ حَسَنٌ وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: " مَا مِنْ رَاعٍ إِلَّا يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَقَامَ أَمْرَ اللَّهِ أَمْ أَضَاعَهُ " وَلِابْنِ عَدِيٍّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسٍ: " إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ حَفِظَ ذَلِكَ أَوْ ضَيَّعَهُ" اهـ (فتح الباري: ١٣/١١٣- ٧١٣٨).

Upload by: altawhedmag.com

واعلم رحمك الله أن السلف كانوا أكثر الناس عناية بهذه الحراسة وأشدهم عليها حرصًا لهذا كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعظم الناس إيمانًا فما من متين علم ولا قويم رأي إلا ومن مشرقهم مطلعُه، ولا من مغرِّبة فَضل إلا وعندهم مَغْربُه وإليهم منزَعُه، ولا من كرم أخلاق إلا وجدتَّه كاملاً فيهم بلا اختلاق، ولا طيب أعراق إلا رأيته فيهم معرقًا أيما إعراق، فلله درهم.

سقى الله أيامًا لنا لستن رُجَّعا

وسُقيًا لعصر العامريَّة من عصر

توطئة وتمهيد:

إن الله تعالى ببديع صنعته، وبليغ حكمته جعل لكل بلد ثغورًا يتلمسها العدو كي يدخل منها مستخفيًا أو مستعلنًا وكذلك لكل بيت أو دار مدخل أو مداخل يلج منها الوالج (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) (البقرة: ١٨٩). وإذا أحسن الناس حراسة تلك الثغور والمداخل وراعوها حق رعايتها باتوا في أمن من العدو واقتحامه الدور بغتة، بيد أن إهمال هذه الثغور يهيئ الفرصة لكل داخل وخارج، ودابٍّ ودارج. والثَّغْر: المَوْضِعُ الَّذِي يَكُونُ حَدًّا فَاصِلاً بَيْنَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْمَخَافَةِ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ اهـ. (النهاية: ١/٢١٣).

وهذا المثال نضربه تبيانًا لحال العبد فإن لكل امرئ ثغورًا يتربص بها الشيطانُ تربُّص الذئب بالإنسان كما في الحديث عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَل، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ" (رواه أحمد: ٢٢٠٢٩).

فالشيطان لعنه الله يريد أن يلج منها فيعدهم ويمنيهم ويسول لهم ويملي ويوسوس في صدور الناس ويضلهم ضلالا بعيدا، لكن من استعان بالله وصدق وجبت له المعونة، وخفت عليه المؤونة، وإن كانت حاله وهنا على وهن. وإذا كان الصحب الكرام رضي الله عنهم وهم خيرة الناس بعد النبيين والمرسلين، وأعظم الناس حماية وحراسة لدينهم لمَّا أخلى بعضهم مكانه يوم أحد، دخل منه العدو وكان ما كان من الشهداء السبعين- منهم مصعب وحمزة رضي الله عنهم جميعا- وكثرة الجراح- حتى برسول الله صلى الله عليه وسلم-، فكيف بالضعفاء أمثالنا؟ اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا فإنك إن وكلتنا إليها وكلتنا إلى ضعف وضيعة (وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ) (الحج: ١٨).

وجوب المرابطة ودوامها:

المرابطة مما ينبغي أن تضرب إلى تحصيلها أكباد الإبل ويبذل من أجل اعتيادها كل غالٍ ونفيس حتى تكون ملجأ للقاصدين وكهفًا للراغبين وعدة لكل مؤمِّل النَّجاة من كل شدَّة؛ فمن أدركَ ذلك وحقَّقه فتحَ الله عليه فُتُوحَه وخرجتْ له من المخبَّآت كوامنُها، ومن الركاز دفائنُها.

أمَّا من فاتته تلك المهمة - المرابطة واليقظة - خُلعت عليه خلْعَة الغفلة والتَّغْفيل، وتعثَّر في أذيال الشَّقاوة والتَّجْهيل حتى تَضِجَّ الحقائقُ منه ضجيجًا وتعجُّ الأحوالُ منه عجيجًا. فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ "لُزُومُ ثَغْرِ الْقَلْبِ وَحِرَاسَتُهُ لِئَلاَّ يَدْخُلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، وَلُزُومُ ثَغْرِ الْعَيْنِ وَالأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ، فَهَذِهِ الثُّغُورُ يَدْخُلُ مِنْهَا الْعَدُوُّ فَيَجُوسُ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَيُفْسِدُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، فَالْمُرَابَطَةُ لُزُومُ هَذِهِ الثُّغُورِ، وَلاَ يُخَلِّي مَكَانَهَا فَيُصَادِفَ الْعَدُوُّ الثَّغْرَ خَالِيًا فَيَدْخُلَ مِنْهُ" اهـ (الداء والدواء: ص ٩٧).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com

الحلقة الثانية

عنايةُ السَّلف بحراسَة الجوارِح

الحَمْدُ للَّه الَّذي أَنْزَلَ عَلَى عَبْده الْكتَابَ، وَجعَلَهُ تبْيَانًا لكُلِّ شَيْءٍ وَذكْرَى لأُولي الأَلْبَاب، وَأَمَرَنَا بالاعْتصَام بهِ إذْ هُوَ حَبْلُهُ الَّذي هُوَ أَثْبَتُ الأَسْبَاب، وَهَدَانَا به إلَى سُبُل الْهُدَى وَمَنَاهج الصَّوَاب، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ رَبُّ الأَرْبَاب، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بجَوَامع الْكَلم وَالْحكْمَة وَفَصْل الْخطَاب، صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَعَلَى آله صَلاَةً دَائمَةً بَاقيَةً بَعْدُ إلَى يَوْم الْمَرْجع وَالْمَآب، وبعد:

إعداد د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

ثُغور ابنِ آدم:

فإن الثغور التي نقوم على حراستها هي جوارح العبد التي يتربص بها الشيطان ويقف على مداخلها ومخارجها؛ كما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَرَاهُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامه فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاَثًا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومه» رواه البخاري (٣٢٩٥) ومسلم (٢٣٨).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ايضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «يَعْقدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافيَة رَأْس أَحَدكُمْ إذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَد يَضْربُ كُلَّ عُقْدَة عَلَيْكَ لَيْلٌ طَويلٌ، فَارْقُدْ فَإن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّه، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشيطًا طَيِّبَ النَّفْس وَإلاَّ أَصْبَحَ خَبيثَ النَّفْس كَسْلاَنَ » رواه البخاري (١١٤٢) ومسلم (٧٧٦).

فهي مواضع مخوفة يدخل الشيطان منها ويتسلل إليها لواذًا وهو فقيهُ الشرِّ وخِرِّيتُ دُرُوبه وهذه الثغور هي (اللسان، العين، الأذن، واليد، والرجل).

وعَنْ ابْن عَبَّاس، قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ باللَّمَم مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللَّه كَتَبَ عَلَى ابْن آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْن النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَان الْمَنْطقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ « رواه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧).

وهذه الجوارح يحتاج المرء إلى أن يدفعَها إلى الخير ويُزْجيها، ويُعلِّلها لبلوغ الأرَب منها ويرتجيها، ولا يكون ذلك إلا بإصلاح خلائقها ونَفْي بوائقها مستَصْحبًا جميلَ الأوصاف والألطاف،

Upload by: altawhedmag.com

مُشْتَملاً بالنَّزاهة والكَفَاف، متلفِّعًا بالقَنَاعة والعَفَاف، فلعلَّه بعد ذلكَ يَظفر بالغَنيمة في الذهاب والإيَاب خلْوًا من اللَّوْم والخَطأ والعتَاب، وبهذا يكون قد فاز بضالَّته المنشودَة وبُغيته المفقودَة. كما أنها تحتاج إلى دفْعها عن الشرِّ دفْعًا، ودعْها عنه دَعًّا لئلاَّ تكونَ ناكبةً عن الرُّشْد سالكةً غيرَ القصْد فيشْكو صاحبُها الداءَ القديمَ والمرضَ العقيمَ.

فقفْ أيها الكريم على ثُغورك وكنْ من الثابتَين عَليها ممن لا يَتَبَدَّل به حالٌ ولا يعتَريه اختلالٌ واحذرْ أن تتلوَّن مع الأيام أو تتَغيَّر أو تلْوي عن الحراسَة وتَتَنكَّر لئلاَّ تَنْدَم ولاتَ مَندم.

عنايةُ السَّلف بهذه الحراسة:

لقد كان سلفنا الصالح يعتنون بحراسة الجوارح أيما عناية حتى بلغوا قرارةَ المجد ونهايةَ العلاء في أمر الدُّنيا والدِّين بل وحرس الله مجدَهم وأهلك ندَّهم وهزمَ ضدَّهم، وكان ذلك بسبب الحراسة الجادة الجامعة للمحاسبة والمراقبة والمتابعة التي زمُّوا بها نفوسَهم، وجعلوها في أعناقها كالأغلالِ والسلاسل، ولما كانوا أكثر الناس مراعاة لهذا الباب، وأعظمهم تجربة فيه وممارسة له-وإنما تنفع التجاربُ من كان عاقلاً ذا بصيرة- لم يخامرْهم عند الموت جزعٌ، ولم يَشُبْ حالَهم عند لقاء الله تعالى روعُ السكرات ولا الفَزَع، بل كان علمُهم بأحوال النُّفوس فياضٌ، وثوبُ علْمهم بها فضفاضٌ، وأما حالهم فهي تُطلق لسان العَيِيّ وتَفتق ذهنَ البليد، وهذا أمرٌ لا يُنكره إلا أكْمَه، ولا يجحَدُه إلا أبْلَه، لأجل هذا لا يمل المرء من الحديث عنهم والإشادة بهم عسى أن يكون ذلك داعيًا إلى الاقتداء بهم ومرغبا في الانتساء للراغب في الجري في مضمارهم والمعتني بآثارهم.

> كان سلفنا الصالح يعتنون بحراسة الجوارح أيما عناية حتى بلغوا قرارة المجد ونهاية العلاء في أمر الدُّنيا والدِّين.

واعلم أن كلامنا ليس للإزراء بزماننا ولا للطعن في أهلنا أو التنقيص من إخواننا، وإنما توصيف الحال جزء من الدواء، والمودة تقتضي إخلاص النصيحة، والمحبة تستوجب الصدق فيها وإنما كان تقديم اعتذاري ضرورة لكثرة الظنون.

نماذج الحراسة:

كان السلف يحرسون جوارحهم ويحمونها جيدًا وهذه صور تقيم الحجة علينا بل فيها تقريع لمن قرأها ولم يعتبر وطالعها ولم ينزجر لأن أحوال السلف من أبلغ العظات ففيها طبٌّ لمن كان سقيمَ القلب، وتقويةٌ لمن كان ضعيفَ الإيمان موصوفا بالنقص والثَّلْب ؛لكنها تحتاج إلى قلب محبٍّ منيب، ونفس مقبلة راغبة كرغبةِ المحبِّ في الحبيبِ، فمن قرأها وهو كذلك كان والجا حدائقَ الرُّشد من كل باب، ضاربًا في أفانين الآداب، بخلاف زماننا الذي من التَمَس الخير في أهله أعضل، وإن سلك له مسلكًا مع أهله أعوز وأشكل؛ إذ هم ما بين مقدام غير أنه متعنت ومهجام إلا أنه متبكت، وبين مسقام متأخر وعاجز كسل مفتر؛ فأوجز

Upload by: altawhedmag.com

ولا تضيع نَصَبَك سُدًى ولا تُذْهب تعبَك عبثًا فعَنْ أبي حَفْص النيسابوري، قَالَ: حَرَسْتُ قَلْبِي عشرِيْنَ سَنَةً، ثُمَّ حَرَسني عشرِيْنَ سَنَةً، ثُمَّ وَرَدتْ عَلَيَّ وَعَلَيْه حَالَةٌ صرنا محروسَيْن جَمِيْعاً. (السير: ٥١١/١٢).

عَنِ المُنْكدر بن مُحَمَّد، عَنْ أَبِيْه: أَنَّ تَمِيْماً الدَّارِيَّ نَامَ لَيْلَةً لَمْ يَقُمْ يَتَهَجَّدُ، فَقَامَ سَنَةً لَمْ يَنَمْ فِيْهَا عُقُوْبَةً لِلَّذِي صَنَعَ. (السير: ٤٤٥/٢).

وعَنْ مَيْمُوْن بن مِهْرَانَ، قَالَ: لاَ يَكُوْنُ الرَّجُلُ تَقِيّاً حَتَّى يَكُوْنَ لِنَفْسه أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيْك لشرِيْكه، وَحَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ مَلْبَسُهُ وَمَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ. (السير: ٧٤/٥).

وهذا حَاتِمٌ الأَصَمُّ الزَّاهِدُ، القُدْوَةُ، الرَّبَّانِي قِيْلَ لَهُ: عَلَى مَا بَنَيْتَ أَمرَكَ فِي التَّوَكُّل؟ قَالَ: عَلَى خِصَال أَرْبَعَة: عَلِمتُ أَنَّ رِزْقِي لاَ يَأْكُلُهُ غَيْرِي، فَاطْمَأَنَّتْ بِه نَفْسِي، وَعَلِمتُ أَن عَمَلِي لاَ يَعْمَلُهُ غَيْرِي، فَأَنَا مَشْغُوْلٌ بِه، وَعَلِمتُ أَنَّ المَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً، فَأَنَا أُبَادِرُهُ، وَعَلِمتُ أَنِّي لاَ أَخْلُو مِنْ عَيْنِ اللهِ، فَأَنَا مُسْتَحٍ مِنْهُ. وَعَنْهُ قَالَ: مَنْ أَصْبَحَ مُسْتَقِيْماً فِي أَرْبَعٍ، فَهُوَ بِخَيْرٍ: التَّفَقُّه، ثُمَّ التَّوَكُّل، ثُمَّ الإِخْلاَص، ثُمَّ المَعْرِفَةُ. وَعَنْهُ قَالَ: تَعَاهَدْ نَفْسَكَ فِي ثَلاَث: إِذَا عَلِمتَ، فَاذْكُرْ نَظَرَ اللهِ إِلَيْكَ، وَإِذَا تَكَلَّمتَ، فَاذْكُرْ سَمْعَ اللهِ مِنْكَ، وَإِذَا سَكَتَّ، فَاذْكُرْ عِلْمَ اللهِ فِيْكَ. (السير: ٤٨٥/١١).

وَحَكَى أَبُو صَالِحٍ مُفْلِحٌ الزَّاهِد، العَابِد: أَنَّهُ رَأَى فِي جَبَلِ اللُّكَّام فَقِيْراً عَلَيْهِ مُرَقَّعَة، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُ هُنَا؟ قَالَ: أَنْظُر وَأَرْعَى قُلْتُ: مَا أَرَى بَيْنَ يَدَيْكَ شَيْئاً؟ قَالَ: فَتَغَيَّر، وَقَالَ: أَنْظُرُ خَوَاطِرِي، وَأَرْعَى أَوَامِرَ رَبِّي. (السير: ٨٤/١٥).

وقَالَ ابْنُ طَاهِر: لَمَّا عزم سَعْدٌ عَلَى المجَاوَرَة، عزمَ عَلَى نَيِّفٍ وَعِشْرِيْنَ عَزِيْمَة، أَنْ يُلزمهَا نَفْسَه مِنَ المُجَاهدَات وَالعِبَادَات، فَبقِي بِه أَرْبَعِيْنَ سَنَةً لَمْ يُخِلَّ بِعَزِيْمَة مِنْهَا. وَكَانَ يُمْلِي بِمَكَّةَ فِي بَيْتِه- يَعْنِي: خَوفاً مِنْ دَوْلَة العُبَيْدِيَّة- (السير: ٣٨٧/١٨).

> لاَ يَكُوْنُ الرَّجُلُ تَقِيّاً حَتَّى يَكُوْنَ لِنَفْسه أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيْك لِشَرِيْكِه، وَحَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ مَلْبَسُهُ وَمَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ.

وإذا أردت أن تعلم أن الصواب يوافق ما قلتُه، وأنه مكيلٌ بالصاع الذي كِلْتُه؛ فانظُر في حال كل من سار مسير السلف جادًّا لا لاعبًا، ومجتهدًا بغير فتور ولا إعياء ولا لاغبًا، وأفسحْ قلبَك لهذه المناقب العظيمة، واشرحْ صدرَك لتلك الأحْوَال الكريمة التي غفَل عنها وتَناساها الأكثرون، عسى أن تشفي من ظمأ قلبك غليلاً، وتتبوأ بذلك في الجنة ظلًّا ظليلاً، وسرْ على درب هؤلاء تخلُص من بلايا الزمان نجيًّا، وترتقِ في الدرجات مكانًا عليًا، ودَعْكَ ممن يخلِّط ويخْلط، ويتعثَّر في عشواء الجَهالة ويخبط؛ فإنهم يُفْترون الهمة ويُضْعفون المُنَّة فمن تبع هؤلاء صار ضُحكةً للبطالين وهُزأةً للساخرين ثم يكون في الآخرة مع الهالكين نعوذ بالله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

Upload by: altawhedmag.com

حِرَاسةُ ثُغُورِ الجوارِحِ

عداوةُ الجوارِحِ للعصاة وشهادتُها عليهم

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ؛ فهذا مقال أوضعتُ إليه ركابَ خاطري، وأنضيتُ فيه ذهني وأسهرتُ من أجله ناظري، وما ذلك إلا لخطورة الخطب وفداحته، مع الغفلة عنه والاشتغال بما هو دونه من صغائر الأمور ومحقراتها، وهي كلماتٌ أرجو أن تورث الإقدامَ لا الإحجامَ، وتبعث تركَ النقض إلى الإبرام، ذلك أني رأيت زهدَ أهل العصر في حراسة جوارحهم، وتثاقلهم عن طلب ذلك وتحصيله، وملك الجهل لقيادهم- والمرء عدوٌ ما يجهل- ورأيت أفضل ما يُعطي الله لعبده إدراكا لأمر آخرته، وسلطانًا يملك به نفسه الغويّة، ولُبًّا يقمع به هواه، وعملاً صالحًا يُرغم به شيطانه ويُنضيه كما يُنضي الرجل بعيره، ورأيت أهل دهرنا غلبت الشهوات عليهم،ووجدت الشباب الناشئة مؤثرين للشهوات صادفين عن سُبل الخيرات، كتبتُ في ذلك والنقص في الناس فاش والعجز لهم شامل، إلا خصائص كدراري النجوم في أطراف الأفق- كما يقول ابن دريد في مقدمة جمهرة اللغة - أردت أن أبثّ الموعظة في أهلها وأضعها فيمن يعرف قدرها فأقول:

مع تَرادُف الأيام وتطاوُل الأعوام يَنْسى كثيرون أنهم محاسَبُون وعلى أعمالهم مجزيُّون ومدينون حتى إذا خَسَفَ قمرُ العمُر وكسفتْ شمسُه واقتربتْ المدةُ من انقضائها والمهْلةُ من ذهابها استيقظ بعض النُّوَّام، وبادرُوا الموتَ قبل الفوت، واستعدُّوا لبغْتته وحذرُوا من غفلته وغفوته ووصلوا إلى غاية الواحد منهم يرضاها ويقول وصلتُ إلى بغيَتي وهذه إياها، وهؤلاء خيرٌ من الذين طال نومُهم ولم ينتبهوا إلا ساعة الموت يطلبُون الرَّجْعة بعد الفوات وأنَّى لهم ذلك؟!

لذا صار التنبيهُ على عداوة الجوارح لأصحابها يوم القيامة أمرًا واجبًا، والقيام على التحذير من شهادتها عليهم فرضٌ لازبٌ، وبئستْ الخطة للرجل أن يرْعَى جوارحه بكل مطعَم ومشْرَب، ثم إذا التَمس منها الخيرَ أعضلَتْه وإذا أراد منها برًّا أعوزَتْه، ونعم المطيةُ للعبد أن تكون جوارحُه ناصبةً في الطاعة آناء الليل وأطراف النهار فينعقدُ وينتظمُ عقْد لآليه ويبني من البرِّ مبانيَه ويجتنب مغاويَه ويُشيدُ من الفضل مراشدَه ويصل من الخير مقاصدَه.

Upload by: altawhedmag.com

إنَّ إهمال المرءِ جوارحَه حتى تصبحَ عدوًّا له يوم القيامَة لأمرٌ تأباهُ العقولُ وتنفرُ منه طباعُ كل من يؤمنُ بالرُّجعى إلى الله والوقوفِ بين يديْه والمثول.

إنَّ الله عزوجل هو الذي يملك هذه الجوارحَ ثم يكلُ استعمالَها ويملكُها لعبده عَفْوًا صَفْوًا لينظرَ كيف يعملُ قال تعالى: « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » (يونس: ٣١- ٣٢).

وقد امتن الله على عباده بهذه الجوارح « وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (النحل: ٧٨)، وقال الله تعالى: « ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » (السجدة: ٧-٩).

قال الله تعالى: « قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » (الملك: ٢٣).

فإن أخذَ بنصيبه من الصَّلاح فهو المصيبُ وان غفلَ عنه فليس له من نصيب.

وهذه الجوارح كالغراس في الأرض فإذا كانت طيبةً وصارت عامرة تُنبت النبات الحسن وتثمرُ الخيرَ وما ينفع وان كانت خبيثة كانت خرابًا وبورًا وان أنبتَتْ أنبتَتْ الحنظل ثم يصبحُ روضُها مصوَّحا وخيرُها مطوَّحا.

ولا يظهر ذلك إلا بالعمل فإن كانت الجوارحُ عاملةً فهي كالتجارة النفيسة لا تهونُ إضاعتها ولا تُبخس بضاعتُها.

وإن كانت غير عاملة بأن أُهملت أو أُغفلتْ أو عُطلت كانت كالعين العمياء والأذن الصمَّاء واليد الشلاَّء والرجل البَتْراء وحينئذ يتداعَى ما شُيِّد من العمل ومبانيه فقُلْ لي بربِّك كيف ينتفع بها.

ويوم القيامة يشتدُّ ندمُ هؤلاء المفرطين ولا ينفعُهم قال الله تعالى: « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » (السجدة ١٢).

وقال جل وعلا: « وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ » (فصلت: ٢١- ٢٤).

وعَنْ أَنَس بْن مَالك، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْه وسلَّم فَضحك، فَقَالَ: " هل تَدْرُون مِمَّ أَضْحَك؟ " قَال قُلْنَا: الله ورسُولُه أَعْلَم، قَالَ: " مِنْ مُخَاطَبَة العَبْد رَبَّه، يَقُول: يا رَبِّ ألم تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْم؟ قَالَ: يَقُول: بلى، قَالَ: فيَقُول: فإنِّي لا أُجِيز عَلَى نَفْسِي إلا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فيَقُول: كَفَى بِنَفْسِك اليَوْم عَلَيْك شَهِيدًا، وبالكِرَام الكَاتِبِين شُهُودًا، قَالَ: فيُخْتَم عَلَى فِيه، فيُقَال لأَرْكَانه: انْطِقِي، قَالَ: فتَنْطِق بأَعْمَاله، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَه وبَيْن الكَلام، قَالَ فيَقُول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِل" (رواه مسلم: ٢٩٦٩).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُول الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْم القِيَامَة؟ قَالَ: " هَلْ تُضَارُّون فِي رُؤْيَة الشَّمْس فِي الظَّهِيرَة، لَيْسَتْ فِي سَحَابَة؟" قَالُوا: لا، قَالَ: "فَهَلْ تُضَارُّون فِي رُؤْيَة القَمَر لَيْلَة البَدْر، لَيْس فِي سَحَابَة؟" قَالُوا: لا، قَالَ: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لا تُضَارُّون فِي رُؤْيَة رَبِّكُمْ، إلا كَمَا تُضَارُّون فِي رُؤْيَة أَحَدهمَا، قَالَ: فيَلْقَى العَبْد، فيَقُول: أَيْ فُل أَلَمْ أُكْرِمْك، وأُسَوِّدْك، وأُزَوِّجْك، وأُسَخِّرْ لَك الخَيْل والإبِل، وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع؟ فيَقُول: بلى، قَالَ: فيَقُول: أَفَظَنَنْت أَنَّك مُلاقِيَّ؟ فيَقُول: لا، فيَقُول: فإنِّي أَنْسَاك كَمَا نَسِيتنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فيَقُول: أَيْ فُل أَلَمْ أُكْرِمْك، وأُسَوِّدْك، وأُزَوِّجْك، وأُسَخِّرْ لَك الخَيْل والإبِل، وأَذَرْك تَرْأَس، وتَرْبَع، فيَقُول: بلى، أَيْ رَبِّ فيَقُول: أَفَظَنَنْت أَنَّك مُلاقِيَّ؟ فيَقُول: لا، فيَقُول: فإنِّي أَنْسَاك كَمَا نَسِيتنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِث،

Upload by: altawhedmag.com

فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ" (رواه مسلم: ٢٩٦٨).

فانظر كيف نطقتْ الجوارح على أصحابها وشهدت بأعمالها وقامت على أهلها الحجة فأي عاقل يركن إلى جوارحه ويعول في المعاصي عليها؛ فحدِّثْ نفسَك بمؤاخذة جوارحك على ما فيها واعملْ على حلِّ عُقَد مغازيها واعملْ على حمَايتها باللُّجوء الصادق إلىَ اللَّه تعالى والاحتمَاء به فما أمنعَ من احْتَمى بحمَاه وأسعدَ من ازدانَ بحُلاه فمن فعل كان عملُه الصالح خيرًا موصُولاً يتصل طارفُه وتليدُه ولباسًا من التقوى لا يبْلى جديدُه وذخرًا لا يفنى عتيدُه لأنه يأمنُ من الفزع يوم التَّناد ويسعدُ يوم يأخذ كتابَه بيمينه أشدَّ الإسعاد لما يَرَى من ثوابه وفوزه بعد البعث والمعَاد يوم يرَى ما أنعمَ اللَّه عليْه من فضله وأجزلَ له من مثوبَته وطَوْله «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ» (الحاقة: ١٩- ٢٤).

معرفة السلف بعداوة الجوارح:

كان أسلافنا على بصيرة نافذة ونظر فيه شفوفٌ ولا يُنكر ذلك من له من العقل مُسْكَة ولا يردُّه من الفهم حُنْكَة ومن طالع أخبارَهم وَجَدَ أنهم كانوا يرغبون في استعمال جوارحهم في كل أبواب الخير بل كانوا مشغوفين به يتهالكون عليه، ويُنضون ركابهم إليه، وكان شعارهم: نفسك وجوارحك إن لم تشغلْها بالحق شغلتْك بالباطل.

لذا كانوا بالعمل الصالح في حلٍّ وترْحال لا يَمَلُّون، ومجاهدة للنفوس ونزال فلا يخافون بل كانوا يبادرون الأنفاس ويسابقون الزمن في العمل لإيمانهم بأن أنفاسَ المرءِ خُطاه إلى أجله وخروجَها إيذانٌ برحيله كما قال الحسنُ: "يا ابنَ آدمَ إنما أنت أيامٌ فإذا ذهبَ يومُك ذهب بعضُك"؛ فحازوا المحتدَ الأصيلَ، وفازوا بالمَجْد الأثيل، وحصلوا على العزة القعْسَاء، وبلغوا الرُّتبة الشَّمَّاء، وصارُوا من جوارحهم في حرْز حريز وكنَف عزيز، وإذا صحَّتْ النيةُ، واستقام المرءُ، ولزم المجاهدةَ، وتمسَّك باليقظة، وعضَّ على دينه بالنواجذ جاءتْه الفتوحُ من كل باب، وأقبلتْ عليه البَرَكاتُ والخيراتُ من كل مكان، ومَعَ ذلك لمَّا مضَوْا لم يجِدُوا لمنهجهم أولياءَ وأنْصارًا إلا قليلاً.

مَضَى الجميعُ فلا عينٌ ولا أثرُ
مُضيٌّ عادٍ وفُقْدان الأُولي إرَمِ
وخلَّفوا معْشرًا يجْدُون لبْستَهم
أعْمى من البَهم بل أعْمى من النَّعَم

فجَدِّد عهْد السَّلف بما تيسَّر واستعنْ باللَّه ولا تعجز واحذرْ الوقوعَ في لُؤم النَّفس فإنه دليلُ فساد الباطن وهو شرُّ ما يكون.

إذا المرءُ لم يدنَّس من اللُّؤم عرضُه
فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ
وإنْ هُوَ لم يصْرخْ عن اللؤم نفسَه
فليسَ إلى حسن الثَّناءِ سبيلُ

وهذه المعرفة بعداوة الجوارح وإن كانتْ عند السلف عَلَى وجهها وبحقِّها غير أنها غيرُ مقصورة على زمانهم ولا خصَّهم اللَّه بها دُون غيرهم بل جَعَل ذلك في كل جيل مقسَّمًا بينهم على قدر هممهم وتفاوُت أقْدارهم ونحن وإن كان فينا من هو البَرْق الخُلَّب الخادع- وهو برقٌ لا مطر فيه- وهو الغالب إلا أن فينا من هو كالمطر الصَّادق.

وللحديث بقية إن شاء الله،
والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

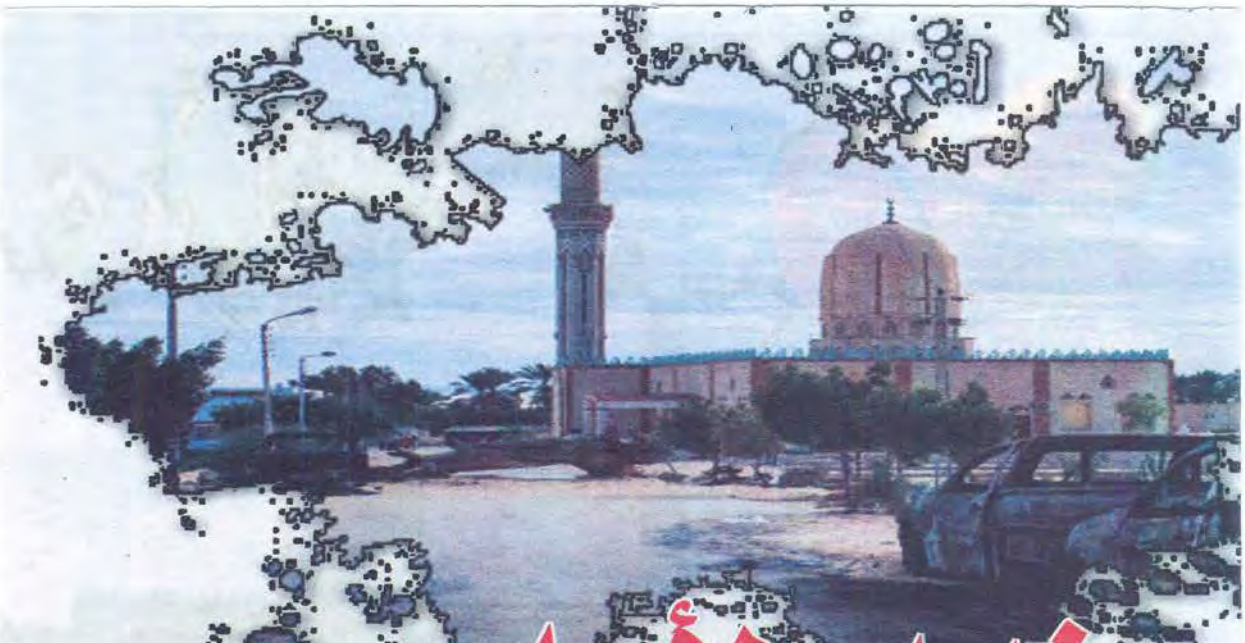

نداء لأهل مصر

إعداد
د. عماد بن محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله ذي المنَّة والطَّوْل، والقوة والصَّوْل، رافع الحقِّ ومُعْليه، وقامع الباطل ومُرْديه، ومعزّ المصلحين ومُديلهم، ومذلّ المفسدين ومُزيلهم، يُنزّل رحمتَه على من جاهدَ في حراسة الدّيار، ويُحلّ عقوبتَه بمن جاهر بإضاعة الحرُمات والذِّمار، المتكفّل بتأييد الأبرار حتى يَظْفروا، وبخذْلان الفُجّار حتى يُدحَروا، الذي لا يفوته المجرمُ الهارب، ولا ينجو منه المستترُ بجُرمه والموارب، ولا يَؤودُه حفظُ البلاد وحقنُ دماءِ العباد، لكنه سبحانَه يبتلي ليهذّب لا ليعذّب، إذ لا يُعييه المعضل، ولا يُعجزه المشكل، وصلى الله وسلم على مسك الختام، المبعوث بالرحمة والسلم والإسلام، وعلى آله أعلام الهُدى وسُرُج الظلام على مدَى الأيّام، وعلى أصحابه مصابيح الدُّجى والغُرّ الكرام، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث لربّ العالمين وساعة القيام. وبَعْدُ؛

فهذه مَقالةٌ كَتَبْتُها بَعْدَ أَنْ جاءَنِيَ الْخَبَرُ - خبر مسجد الروضة بالعريش- يَجُرُّ النَّفيرَ، وَيُهَيِّجُ الزَّفيرَ، وَقَدْ هَمْهَمَت النَّفْسُ بالصَّعَداء، وَجَرَى مِنَ الْعَيْنِ الدَّمْعُ وَغَلَبَ الْبُكاءُ، وَحَشْرَجَ الصَّدْرُ بالنِّداء؛ فَتَعَوَّذْتُ بالله مِنَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ، وَأَخَذْتُ بِلجَامِ الْقَلَمِ قَبْلَ أَنْ يَضْطرِبَ وَيَلْحَقَهُ السُّقُوطُ، وَاسْتَعَنْتُ بِرَبِّي الْبَصيرِ فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصيرُ، وحينئذ أقبلتْ الكلماتُ تتكاثر، وأسرعتْ العباراتُ تتناثر، وجاءتْ الفوائدُ تتراكم، وترجّلتْ المعاني تتزاحم، هذا مع ما حولي من أعمالٍ وأشغالٍ لا يكاد يسلم معها فكر، ولا يسمح بها طبع، فالله المستعان، وقد خفتُ أن لا يطاوعُني قلمي لهَوْل ما وقع، وشدة ما إليه كلُّ آثم نزع؛ إذ يكون القلمُ في المصائب أحيانًا كالابن العاقّ، والصاحب المُشاقّ، والكلام مستصعبٌ عند النوازل، وربما كان نزعُ ضرسٍ أهونَ منه، لكنَّ الله وفّق وأعان

upload by: altawhedmag.com

فله الحمدُ فهو سبحانه له أهل، فجاءت المَقَالَةُ على غير موعد تُنْبئُ الْبَصِيرَ الْحَاذِقَ وَالْغُفْلَ الرَّيِّضَ- عَلَى السَّوَاءِ- على خُطورة الأمر وبلوغ المحْنة من مصر مبْلغًا شديدًا، وحَسْبِي أَنْ أَضَعَ فِي هَذَا المَقَالِ عَلَامَاتٍ وَصُوًى عَلَى طَرِيقِ إِصْلَاحِ حَالِ البلاد لَأَتَغَيَّا بِهَا غَايَةً نَبِيلَةً عَسَى اللَّهُ أَنْ يكف عنا بأس المفسدين ولا يَفْعَلُ ذلك إلا هُو.

حرمة الدماء والحُرمات:

لا يَشُكُّ شَاكٌّ، ولا يَرْتَابُ مُرْتَابٌ في أَنَّ الإسلام عظم حرمة الدماء أشد تعظيما فقال: « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا » (النساء: ٩٣)، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» رواه البخاري (٦٨٦٢).

وقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أيضًا: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ، الَّتِي لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا، سَفْكَ الدَّمِ الحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ» رواه البخاري (٦٨٦٣)؛ فإذا كان هذا فيمن قتل مؤمنًا واحدًا فكيف بمن قتل المؤمنين ركعًا وسجودًا؟!

سيروا على درب هؤلاء:

ومما يُثلج صدورَنا ويُبَشرنا بالسَّير على خُطى هؤلاء ما فَعَلَهُ الأزهرُ - كعبةُ العلم وقبلتُه صانه الله وحماه من العداة وأدامه للمسلمين وأبقاه للهداة- من صرْف المعاشات، وبذْل المعُونات، ومنْحهم رحلة الحجّ إلى بيت الله الحرام مُواساةً لهؤلاء المبتلَيْن من الأرامل واليَتامى مع تعليمهم في أزهرنا الشامخ بلا كُلفة ولا نفقة، فجزى الله من فعل ذلك- عن أهل الروضة- خيرًا، وثقّل به موازين حسنات المحسنين.

كما لا يَخْتَلِفُ اثْنَان أَنَّ سُوقَ تعظيم الحرمات عمومًا دماءً وغيرها قَدْ كَسَدَ، وأَنَّ رَيْعَها قَدْ فَسَدَ، وأنَّ بِضَاعَةَ أهلها قَدْ لحقَهَا البَوَار وولَّتْ الأدْبَار، فرَأَيْنا من النَّاس مَنْ هُوَ متجرئ على قتل المصلين في بلاد المسلمين ولو كان هذا من اليهود وغيرهم من أعداء الأمة لهان الخطب غير أنه بات في المسلمين من هو آزرُ الخِصَال، نَمْرُودُ الفِعَال، حَتَّى تَنَاكرتْ القُلُوبُ، وَغلبَتْ عَلَيْهَا الشُّكُوك والرِّيب، ولا يَسْتَطيعُ المرءُ منْ هَوْل ما يَرَى ونَكَد ما يُطَالِعُ إلا أنْ يَتَعَوَّذ باللَّه رَبِّ الفَلَق من شَرِّ ما خَلَقَ عمومًا ومن شَرِّ الفتن وأهلها خصوصًا.

شَكَوْتُ وما الشَّكْوَى لمثلي عادة
ولكنْ تفيضُ الكأسُ عندَ امتلائها

يوم شدة:

بَدْأَة ذي بَدْء أقول: إنه ليوم أيومٌ وليلةٌ ليلاء وساعات شديدة على مصر وأهلها أن يذهب في دقائق معدودات-لا في عشية أو ضحاها- قريب من ثلاثمائة رجل وشاب وطفل يُقتلون بلا جريرة ارتكبوها ولا خطيئة اقترفوها تستوجب ذلك الحادث، قد قتلهم المجرمون في بيت من بيوت الله وهم يصلون الجمعة وفي وقت ساعة الإجابة ومع شدة الخطب والمصاب الجلل وفداحة الحادث وخسارة تلك الأرواح الزكية والأنفس الطاهرة - نحسبهم كذلك والله حسيبهم ولا نزكي على الله أحدًا - إذ أحسن الله ختامهم في بُقْعة طاهرة وبيْت من بيوت الله وفي ساعة إجابة وهو متطهرون « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ».

ومن أهم أسباب هذا الحادث أنَّه قَدْ نَبَغَتْ في بلادنا نَابِغَةُ زَيْغ ونابتة فساد وشر، أظْهَرُوا البَاطِلَ وأوهَموا الناس أنه حق صريح ولَمْ يَسْتَنْصحُوا ناصحًا ولَمْ يُطيعُوا مُوَفقًا ولا مُسدِّدًا والرَّابحُ في الشَّرِّ خَاسِرٌ ومَنَ البرِّ ناقصٌ وعنه حَاسِرٌ.

upload by: altawhedmag.com

ولا ننسى أن نقول: إن الأيام ستكشف عن هؤلاء الجناة وسيظهر السر المكتوم لهؤلاء الغواة وستبوح الفترة المقبلة بهؤلاء المحاربين لله ورسوله والأيام حبالى بكل جديد «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ».

نداء لأهل مصر:

هَذَا وَإِنَّهُ لَمَّا سَاءَنِي ما ساء العُقَلاَءَ من هذا القتل الذريع وحَصرَتْ صُدُورُنا أن يهتدوا ويرجعوا ويكفوا أيديهم عن إهلاك الحرث والنسل أَحْبَبْتُ أنْ أواسي أهل مصر عمومًا بتلك الكلمات، وأردف ذلك بما أزفّه من بَعْضَ البَشَائِر وأَسُوقَ إِلَيْهم ما يَرْغَبُ فِي إِمْكَانِ عِلاَجِ ذَلك، فأكُونَ بذلكَ قد رَفَعْتُ هَذَا المبْتَدَأ بالخَبَر ونَصَبْتُهُ للعَيْنِ بعْدَ الأَثَر، كما قال القائل:

إذَا هبتْ رِيَاحُك فَاغْتَنِمها
فعُقْبَى كل خافقَة سكونُ

يا أهل مصر أحمدُ إليْكم الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل وأعزيكم عزاء نرجو به المثوبة فأقول:

يا أهل مصر أنتم في رباط وثغر عتيق هو مطمع لكل حاقد فاحذروا الفتن.

يا أهل مصر «اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون».

يا أهل مصر «لاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» فلكم عند الله الأجر والمثوبة.

يا أهل مصر «وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين».

يا أهل مصر لئن جاءكم سفكة الدماء «مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» فأنتم إن شاء الله منصورون «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون».

يا أهل مصر هؤلاء القتلة الآثمون شر مكانا و«إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد».

يا أهل مصر «اللَّه مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ».

يا أهل مصر إن الفتن تحصد الناس حصدًا «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّة».

يا أهل مصر «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا».

يا أهل مصر سلوا الله من فضله ليرفع عنكم البلاء يا أهل مصر أبشروا بالفرج القريب والنصر المؤزر «فإن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا» ولن يغلب عسرٌ يُسْرَيْن.

يا أهل مصر استقيموا كما أمرتم لتكون لكم العاقبة فـ«العاقبة للمتقين».

منْحَة بعد محْنَة:

يا أهل مصر من المحن تأتي المنح فكما رأينا هذه البلوى فعن قريب يكشفها الله وسيحفظ الله مصر وأهلها ورجالها ومن يخلص لها ويقوم على أمنها وحراستها وحمايتها وسيقيض الله لمصرنا من يردع القتلة وسيهيئ لها من يدفع كل من يهلك الحرث والنسل غير أن من الواجب علينا أن نعمل على أن تَصْفُوَ القُلُوبُ وتُسَلَّ السَّخِيمَة وتُنشَرَ المَوَدَّةُ وتُضعَفَ المَحَبَّةُ وتَذْهَبَ الضَّغَائِنُ ويَزُولَ وَحَرُ الصُّدُور، ويَذُوبَ غِلُّ النُّفُوس وغَوَائِلُها، من أجْلِ هذا وَجَبَ العَمَلُ على وَضْعِ الأيدي في الأيدي لحل الإشكال، وتَقْوِيمِ مَسَارِنا من باب قول الله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّه وَأَصْلِحُوا ذَاتَ» وَبَعْدَ أنْ صار شِعَارُ النَّاس إن لم تَغْلِبْ فَاخْلِبْ (فاخْدَعْ) لا بد أن تَظهر في النَاس معاني الأخوة «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم»، وَبَدلاً من أن يتجَاذَبَ النَّاسُ أزمَّة الخلاف ويقعُوا في المحَال ندعو الله أن ييَسِّرَ لَهُمْ الحَالَ وَأَن يصْلِحَ منْهُمُ البَالَ.

فَيَا أخي خُذْ بِعِنَانِ هذا الأمر مَاضيًا على محاربة كل ضَير ومُعَانَقَة الخَيْر كل

upload by: altawhedmag.com

الخير غَيْرَ مُلْتَفت عَنْه ولاَ مُعَرِّج عَلَى غَيْره صَابرًا عَلَى وُعُورَة المَسْلك وصُعُوبَة الطَّرِيق مع ترك ارْتِدَاءُ الحَمَاقَة، ونبذ التَّبَرْقُع بالصَّفَاقة أمَّا أن يَكْثُر الغَلَطُ واللَّغَطُ، ويَحِيصَ النَاسُ حَيْصَةَ حُمُر الوَحْش، ثُمَّ يكُونُ قَرْضُ الأعْرَاض والتَّمَضْمُض بالاعْتِرَاض والصِّيَال بذَلك والتَّصَاول والاسْتِطَالَة والتَّطَاوُل ثم تزهق نفوس بريئة وتذهب أرواح فهَذَا خذْلاَنٌ وتَخَاذُلٌ، وَشَرٌّ كَبِيرٌ يَغْشَى النَّاسَ إن لم يَنْتَبِهُوا ويَلْفُظُهم لَفًا كَمْن غَشِيَتْهُ عَجَاجَةٌ وغُبَارٌ كَثِيفٌ فَهَلْ يُبْصِرُ مَا حَوْلَهُ؟!

وهو أمرٌ مُسْتَصْعَبٌ لِمَنْ كَرِهَهُ مُيَسَّرٌ عَلَى مَنْ تَبِعَهُ، فَمَنْ لاَزَمَهُ في الحَضَر، وزَامَلَهُ في السَّفَر سَهُلَ عَلَيْه، ولاَنَ لَهُ الصعب منه، وإذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ انصَرَفُوا عن علاج ذلك فَلاَ تَقُلْ: إذَا كُنْتَ في قَوْم عُور فَغَمِّضْ عَيْنَيْك حتَّى تَعُدَّ أعْوَر، فَهَذَا كَلاَمُ من لم يُمْعِن الغَوْصَ في الخَبَايَا، ولَمْ يَجِدْ في طَلَب الخَفَايَا، وسَيَنْدَمُ هؤلاء يومَ يَجْنِي الزَّارِعُون ما زَرَعُوا ولاَتَ سَاعَةَ مَنْدَم، فَدَعْكَ من النَّاس فَإنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ من اللَّه شَيْئًا واجْتَهِدْ وَاللَّه للسَّاعِينَ خَيْرُ مُعِين.

لاَ يَحْصُدُ المَرْءُ عِنْدَ فَاقَتِه
إلاَّ الَّذِي في حَيَاتِه زَرَعَا

أخي احذر هؤلاء القتلة وتبرأ إلى منهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنت عليه من الهدى والحق، إنَّكَ إنْ أطَعْتَ هؤلاء الغُوَاة وانصَعْتَ لهؤلاء الغُوَاة وتَبِعْتَ هؤلاء الحُوَاة خَسِرتَ دينَكَ ودُنياكَ في زمان الاجتراء على محارم اللَّه، ورَجَعْتَ بعْدَ طُولِ عُمْرٍ وَغَيْبَة بالخَيْبَة وصفْرِ العَيْبَة، واعْلَمْ أنَّهُ ليسَ قَصْدي بهَذه الكَلِمَات إلا الوَصيَّة بتَحْقيق هذا الغَرَض والنَّصيحَة بأدَاء الحَقِّ المُفْتَرَض بَعيدًا عَن اتِّهَام العباد فلستُ عَلَيْهِمْ بوَكيل، غَيْرَ أنِّي أوصِفُ حَالاً أعَايِنُها، وَأعْمَل عَلَى إزَالَتِهَا ودَوَاء علَّتِهَا.

فسِرْ عَلَى هَذَا النَّهْج الَّذي سَارَ عَلَيْه السَّلَفُ- عَلَيْهِمْ سَحَائِبُ الرَّحْمَة وشَآبِيبُ المَغْفِرَة والرِّضْوَان- فَلَمْ يَكُنْ الوَاحِدُ مِنْهُمْ يَأتِي من الدماء مَحْظُورًا، وَلاَ يَسْلُكُ مِنْهَا طَرِيقًا مَحْظُورًا، بَلْ مَهَّدُوا طَرِيقَ حفظها السَّوِيَّة، وسَلَكُوا سُبُلَ صيانتها المَرْضِيَّة، وَأنَارُوا سُرُجَهَا المُضِيَّة، ولا عجب فقد رَزَقَهُم اللَّه طَبْعًا سَلِيمًا وَهَدَاهُم صِرَاطًا مستَقِيمًا، فَيَا لَيْتَنَا نَقْبِضُ قَبْضَةً من أثَر هؤلاء الأقْوَام فَنَنْبِذَهَا في ظُهْرَانِي أقْوَامِنَا عَسَى اللَّه أنْ يُحْيِيَ بِهَا مَوَاتَ أخْلاَقِنَا، ولاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا دَامَ الأوَّلُ يَقْتَبِسُ مِنْهُ ويَقْتَدِي به الآخَرُ، فَسِيرُوا عَلَى دَرْبِ هؤلاء.

تحذير ونذير:

إياكم والدخول في الفتن فإنها إذ هاجت لم تنته دون بلوغ إرادتها ومنتهى غايتها وحينئذ لا يدفعها دافع ولا يقوم لها جمع جامع ورحم اللَّه العلاَّمة البَشير الإبراهيمي حين قال- محذرًا من الاغترار بالمفسدين- في كلمات بليغة ما معناه: لا يَلْفِتَنَّكم مُعَلِّل بسَرَاب، ولاَ حَاوٍ بجَرَاب ولاَ عَاوٍ في خَرَاب يَأتَمُّ في البَيْن والقَطِيعَة بغُرَاب، ولاَ يَفْتِنَنَّكُم مُنْزَوٍ في خَنْقَة ولا مُلْتَوٍ في زَنْقَة ولا جَالِسٌ في سَابَاط على بُسَاط يُحَاكِي فيكم سُنَّة إخْوَة يوسُف من كَيد ومَكْر وهُمُ الأسْبَاطُ فكُلُّ هؤلاء مُشْعُوذٌ خَلاَّبٌ وسَاحِرٌ كذَّابٌ اهـ.

فخُذُوا مَقَالَتِي هَذه ورِسَالَتِي إلَيْكم أخْذَ الجِدِّ؛ فَقَدْ مَحَّضْتُ لكم فيهَا النُّصْحَ النَّصِيحَ - فيما أحْسب-، ومَخَّضْتُهَا عَنْ زُبَد الأمر الصَّحيح، وَجَلَّيْتُ لَكَ فيهَا الحَقَّ الصَّرِيحَ، أصْلَحَ اللَّه خُلُقَنَا، وَسَدَّدَ قَوْلَنَا وَعَمَلَنَا، وَبَلَّغَنا أمَلَنَا، وَهَدَانَا سُبُلَنَا، وَجَعَلَ سَعْيَنَا مُقَرِّبًا إلَيْه، وَمُزْلِفًا لَدَيْه وَصَلَّى اللَّه وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلَى آله وَصَحْبِه وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإحْسَانٍ إلَى يَوْم الدِّين.

upload by: altawhedmag.com

تَحْقيق تَقْوَى اللّهِ في الجَوَارِح

إعداد: د. عماد عيسى

الحمدُ لله الذي هدانا إلى الإسْلام سَبيلاً، وأشهد أنَ محمدا عبدُه ورسولُه شهادةً تَشْفي من ظلماً القُلوب غليلاً وتدخلُنا في الآخرَة ظلاً ظليلاً، وبعدُ:

فإنَ تقوى الله في الجوارح عملٌ كبيرُ الفائدة عظيمُ الجدْوَى يحتاج إلى القدوة بالسلف لتحقيق الاقتداء وحصول العَدْوَى الأخلاقيّة لأنَه كَمَا أنَ خلائقَ السفهاء تُعْدي فكذلك يَنبغي أن تكونَ أخلاقُ الرّفعاء أشدَّ عدْوى لموافقتها للحقّ ومشابَهَتها الصّدق، وإنَّما تكونُ تقوى الجوارح بالعمل على صلاحها واستصلاحها واهتبالِ الفُرْصة في ذلك لكيْلاَ تفوتَ على صاحبها، فإن الفرصةَ إذا فاتَتْ قد لا تعُود.

فأجْمعْ أمرَك ولا يكن أمرُك عليك غُمة ولا تبرحْ الأرض حتى تتقي الله في جوارحك، ولا تستيئس من ذلك حتى تخلص نجيًا؛ بل خُذْ على نفسك موثقًا من الله أن لا تفرط في ذلك وإلا كنت شرًا مكانًا وصرْتَ إلى ضلالك القديم وتحقيق تقْوى الله في جوارحك بأمورٍ سأرقمها لك وأتْلو عليكَ منْها ذكرًا:

أولا: توظيف الجوارح في العمل الصالح:

إنَ من تقوَى الله في الجوارح أن توظّفَها في مراضي الله وتستعملَها في محابّه وهذا أعظمُ مساعد وخيرُ معوان على تَحْقيق التَّقْوى فيها لأنَ نفسَك إن لم تشغلْها بالحقّ شغلتْك بالباطل من حيثُ لا تشعرُ، ومن وُفّق في هذا الأمر رُفع إلى مَناط النّجوم وبلغَ المراتبَ العاليةَ والرُّتبَ السامية وصار إمامًا وقدوةً في الخير يُبْدأ ذكرُه ويُعادُ ويصبحُ ممَّن قيل فيه:

بلغْتَ به شأوًا رفيعًا ومحْتدًا
ونلْتَ به مَا لَمْ يَنَلْ كلُّ نائل

وهذا حقٌّ لأنّه لم يبلغْ إمامٌ منزلةَ الإمامة في الدّين ولا درجتَها إلا بعمله وتقْواه إلى جَنْب الاشتغال بالعلْم تعلُّمًا وتعْليمًا، وما من واحد منهم إلا تَجدُه قَدْ نبذَ الدُّنيا وراءَ ظهره، ثم أقبَلَ على آخرَته فجعَلَ سَمَرَه في التّلاوة، وسهَرَه في التّعبُّد، واستَرْواحَه في الصّلاة، ولذّته في الذّكر، فقلوبُهم بلَذاذة ذلك عامرةٌ، ونفوسُهم بحَلاوته غامرةٌ فللّه درُّهم وألهمنا الله حسن القدوة بهم.

لتقْرعنَ عليَ السنَ من ندم
إذا تذكرتُ يومًا بعضَ أخلاقي

وهذا التوظيف لا يأتي في يوم وليلة بل ربما استغرق نصف العمر أو أكثر من عشَرات السّنين،

altawhedmag.com

ورحم الله ثابتًا البُناني حين قال: كابدتُ قيامَ الليل عشرينَ سنةً وتلذذتُ به عشرينَ سنةً أخرى وهذا عجب يعز وجوده فسبحان مقلب القلوب ومحركها إلى علام الغيوب.

فلو أنني أقسمت ما كنت كاذبا
بأن لم ير الراؤون حيرا يعادله

فالأمر يحتاجُ إلى مجاهدة وصدق في الجدّ والعمل، لا سيَّما والساعي اليومَ في هذا الشأن فاقدُ المساعد عديمُ المعين.

اني رأيت وفي الأيام تجربة
للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمر يحاوله
واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

أما الكسل والتواني فإنه يمنع القلب من الحضور ويورث صاحبَه الجفاءَ والنفور فانتبه لهذه العقوبة والحرمان وخذ من ذلك مزْجَرةً للتذكُّر ومَنْهاة للتبصُّر.

ثانيا: لا تطمع من الناس آثما أو كفورا:

صحبة الأثمة عبء يصعب احتماله، وجرح يبعد اندماله، إلا أن يكون ذلك بالاجتناب والمجافاة والمباعَدة التّامّة والصَّرْم والقطيعَة، ولقد كنتُ إذا وجدتُ حولَ رجلٍ صحبةً غير صالحة قلتُ: «هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زِلْزالاً شَديدًا»، وتذكرتُ الآية «ألا في الْفِتْنَة سَقَطُوا»؛ لأن الصحبة لها سلطان على ابن آدم، ولا تكاد تصلُح منه الأيام شيئًا ما دام مع هذه الصحبة وهي دليل على رداءة داخلة المرء وفساد طويته ولذلك يصعب الخروج منه إلا بمعونة ربانية ومنحة إلهية.

وهذا المعْنى مستقًى من حديث أبي هُرَيْرَةَ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" رواه أبو داود (٤٨٣٣) وحسنه الألباني، ومن كلام العرب: "إخوانُ السُّوءِ كشجرةِ النارِ يحرقُ بعضُها بعضًا".

فاتَّخِذْ من الصُّحبة الطيِّبة مَثابةً ومن الرُّفقة الصالحة صحابةً واعلم أنَّ الصحبةَ الآمرةَ بالمنكر الناهيةَ عن المعروف من أتاها فقد جاء شيئًا نكرًا لا يُحيطُ به خُبْرًا، أو جاءَ أمْرًا إمْرًا لا يستطيعُ معه صبرًا لأنه يحملُ يوم القيامة بما عمل وعملوا وزرًا وساءَ لهم يومَ القيامة حِمْلاً وقد خابَ من حَمَل ظلمًا.فانتبِذْ منهم مكانًا قصيًّا واجعله مفارقتهم أمرًا مقضيًّا وردِّدْ قولَه تعالى "أفأنت تكون عليه وكيلاً".

إن الصحبة السيئة أولو قوة وأولو بأس شديد وجنودٌ لا قبلَ للعبد بها لو ابتُلي بذلك فذرْهم وادفعْهم أذلةً وهم صاغرون.

إنّ اختيارَ الصحبَة أمرٌ دقيقٌ يحتاجُ إلى نظر صحيح وتمييز وبصر فحاولْ أن تكون بنفسكَ مكتفيًا وعن كلّ أحدٍ مستغنيًا ولا تكن واسعَ الخطْو في مُصاحَبَة النّاس بل كن ضيقَ الخُطا في ذلك متشدّدًا غير متساهل في الاختيار لئلا تصادقَ الخسيسَ الذي يكون كالعذاب البئيس.

ثالثا: اجتناب مظان المعاصي:

وهذا أمرٌ لا تكاد تبلُغُه ويصعبُ تحقُّقه في هذا الزمان إلا بشقِّ الأنفس لفُشُوّ المنكرات وانتشار المخالفات. ومع هذا الانتشار فسبلها فجّةٌ مائلةٌ عن المحجّة، فأْوِ إلى الخلوة وآثر العُزلة على رفقة السوء يهيئ الله لكَ من أمرك مرْفقًا وذلك خيرٌ ثوابًا وخيرٌ عقبًا.

لقد كان أهل الكهف على توفيق كبير ومقرُبة من النجاة حينَما غادرُوا قومَهم «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» (الكهف: ١٠)، إلى قوله تعالى «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا» (الكهف: ١٨).

فمَنْ تنزَّهَ عن أماكن المعصية طبْعًا كرهَها شرْعًا، ومن اجْتَنَبَ مواطنَ العصيان ومسالكَ أهلها ودُروبهم واشتغلَ بالطاعات كانَ وليًّا لله تعالى لأنه سيكونُ تقيَّ الجوارح مُبعدًا لها عن كلّ منكر. فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ

altawhedmag.com

أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" رواه البخاري (٦٥٠٢).

رابعًا: مُراقبة الله في الجوارح:

كان من مضى من السلف أعظمَ الناس مراقبةً لله تعالى في جوارحهم بحيثُ يضعُ أحدُهم يدَه على عينه وهو يمشي لئلا تنظر إلى محرَّم، وبعضهم يضع يمينه في شماله كي لا يقع في الخيلاء، وآخر يجعل يديه في أذنيه إذا مرَّ على قوم يسمعون الغناء والمنكرَ، ولم يكن أحدهم يفعل ذلك في الملإ من الناس فحسب، بل هو كذلك إذا خلا في سِرِّه أو انفردَ بنفسه، وهؤلاء القوم يدركُني حنينٌ إليهم إذا كتبتُ عنهم فأنا أعدُّهم أصلي وفصلي وإليهم يهفو ويحنُّ قلبي، وهذا شرفٌ أدعيه وأنتسب إليه وأرتجيه، ولا عجب من هذا الشعور فالقوم فروعهم في الأخلاق شامخة، وعروقهم في الديانة راسخة.

خامسًا: مُخالفة الشيطان:

وتتبُّعُ هذا الأمر في كلِّ نواحيه صعبٌ وحصرُه لا يُمكن، لكن نذكرُ منه ما يبرِّد اللوعةَ ويسكِّنُ الرَّوعةَ وعذري عندئذٍ مبذولٌ وهو عند الكرام مقبولٌ، فاعلم أن جماع النجاة من الشيطان ووساوسه يكون في مخالفته لا سيَّما في زمان من يشهدون الزُّور وغرَّهم بالله الغرور حتى حاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوحْشِ، فمن خالف شيطانَه فَرَقَ الشيطانُ من ظلِّه فلم يستطعْ أن يغويَه ولا أن يوظِّف جوارحَه في المعاصي، «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ» (النور: ٢١)، والشيطانُ لعَنَهُ الله قدْ ينْصبُ للعبد أشرَكَ الخُدع ويستَنزِلُه بأنواع الطَّمع فمن وفَّقه الله نجاه منه ومن لا كان من الغاوين.

ومما ينبغي أن ينبهَ عليه أنَّ الشيطانَ لا يُظهر عداوتَه بل يُخفيها أشدَّ الإخفاء وهذه أخطرُ عداوةٍ إذ إنَّ أوهنَ الأعداء كيدًا أظهرُهم لعداوته ومن تأمل قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (البقرة: ١٦٨)، وقد صرحت آيات كثيرة في كون العداوة بينة واضحة فكيف تَخْفى على الناس حتى أن أكثر الخلق يُخدَعون بها ولا يُبْصرون حقيقتها؟

الجواب: أنَّ الشيطانَ لعنةُ الله عليه يدخلُ من مداخلَ غير مدخل العداوة، فيتدرَّع بلباس النُّصح ويلبسُ مُسُوحَ حبِّ الخير، ويُخفي كلَّ علامةٍ وأمارةٍ تدلُّ على عداوته، فيدخلُ للعابد من عبادته، ويأتي العالم من جهة علمه، ويأتي للعاقل من طريق عقله، ويفتح على الجاهل من بوّابة جهله فيعامل كلاً بما يُخفي فيه عداوتَه ويُظهر فيه براءَتَه.

إن العدوَّ وان أبدى مسالمةً
إذا رأى منك يومًا فرصةً وثبا

وانظر إلى صبر الشيطان على ابن آدم حيثُ يرميه بنباله حتى يوقعَه في شَرَكه ويوثقه بحباله تجدْ صبرًا وكيدًا عجبًا يكون لمراده سببًا، يبدو ذلك واضحا في حديث جابر، قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ، فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ، فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً " وفي لفظ: " إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ " قَالَ الْأَعْمَشُ: أُرَاهُ قَالَ: "فَيَلْتَزِمُهُ" (رواه مسلم: ٢٨١٣).

فتأمل في بعث الشيطان بعوثَه وسراياه ليفتنُوا العبادَ ثم إليه يلجؤون ومن كل حدب، وتدبر تعظيم منزلة أشدهم فتنة، حين يقول أحد الشياطين: ما تركته أي: لم أزل لزيمًا وقرينًا حتى فرقت بينه وبين زوجته، بينما قال الأول: فعلت وفعلت بلا ذكر ملازمة فلا يخدعنك الشيطان وتعوذ بالله من همزه ونفخه ونفثه ووسوسته؛ فإن رُزقتَ ذلك فُزتَ بخيري الدارين.

أسأل الله أن يَمُنَّ علينا بغفرانه، ويعوِّضنا برحمته في دار رضْوانه، إنه لا يردُّ دعاءَ من دعاهُ، ولا يَخيب رجاءُ من رجاهُ.

altawhedmag.com

حراسة الجوارح

حفظُ الجوارح عقبةٌ كَؤُودٌ لا يَجُوزُها المثقَلونَ بالأَوْزَار

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي أسلم له من في السموات والأرض من لا يعقل منهم وذَوُو العقول الصحيحة والنَّظَر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي حنَّ له الجذع وانقاد الشجر، وعلى آله وأصحابه ذوي الخشية والحذر، ومن تبعهم بإحسان واقتفى منهم الأثر وبعد، فأقول فيه مستعينًا بالله مؤمِّلاً معونته على الصواب وراجيًا توفيقه إلى هُداه: إنَّ من أجلِّ نعم الله تعالى على عبده المؤمن نعمتين جليلتين هما: إنعامه سبحانه على العبد بالطاعة ومنعُه من المعصية، فالأولى: معونته له على أمر دينه وتيسيره له وتوفيقه، والثانية: إلهامه حجابًا يمنعُه من الآثام، وحاجزًا يحظُره من المعاصي، ولا يختلفُ اثنان أنَّ حفظَ الجوارح من المعاصي يحتاجُ إلى امرئٍ مهاجر إلى الله ورسوله، ويفتقر إلى عبدٍ قد تغرَّبَ عن الخلق وأوى إلى كهف العُبودية وهو باسطٌ ذراعيه أو كفيه بوصيده لحراسة جوارحه من الشيطان ثم يجدُّ في عمله وهو قائمٌ غير حصيد وبغير ذلك لن يُصلح المرءُ من شأنه، ولن يُفلحَ إذًا أبدًا؛ إذ هذا أمرٌ لابدَّ أن يكون من قرارة نفسه وداخلته.

وليس بمغنٍ في المودة شافع
إذا لم يكن بين الضلوع شفيع

واعلم أنَّ الشيطان ينفخُ في المرء ويخيَّل إليه أنَّه من أهل الورع والزُّهد مع أن عمله لا أثرَ له في إيمانه ولا في حياته وأيامه، وبعض هؤلاء لا يصلُ عملُه إلى أن يكونَ شيئًا مذكورًا، وربما كان مقتحمًا لمحرمات واتيًا لمنكرات، كما قد يهوِّن الشيطانُ عليه كلَّ رذيلة، ليُشعرَه بأنَّه لا يفعل شيئًا من الخطايا، ومما يُعين المرءَ على حفظ جوارحه من الأوزار أمورٌ مفتقرةٌ إلى الجدِّ والاجتهاد؛ إذ ليستْ بالقلوب ألصقَ لصعوبتها، ولا بالنفوس أعلقَ لمشقتها، ولا في الأسماع أنفذَ لوعورتها، غير أنَّ فاعلها موفقٌ ملهمٌ معانٌ على نفسه لذا تجده بعيدًا من الحيرة، مُشفيًا على المراد قريبًا من الغرض، واليك بعض المداخل التي تحل عقدة الأوزار وتزيل كل عقبة دون ذلك والله سبحانه المرجو أن يحقق فينا ذلك.

أولاً: الخوف من الله:

وهو- عند من عقلَ أمرَ دينه وفَهِمَ العواقب- من جلائل النِّعم وسوابغ الآلاء والقسَم، غير أنه في زماننا تقلُّ قيمتُه، وتصغر قمَّتُه مع جلالة شأنه، وعُلوّ مكانته، وعظيم أثره في حال المرء مع ربِّه وأحواله عند الطاعات والمعاصي، والخوف قرارةُ العمل الصالح وغايته ونهايته، إذ الغايةُ من العبادة تحقيقُ الخوف من الله وتحصيلُه باعتبار أنَّ العبادةَ ذلٌّ تامٌّ وحبٌّ كاملٌ ولا يكون الذلُّ كاملاً

Upload by: altawhedmag.com

إلا مع الخوف، كما أنه مَجْمَع الخير كلّه لأنّ الخائف ينظرُ إلى غيره نظرَ عبرة وتذكّر وإلى نفسه نظرَ موعظة وتدبُّر، والخوفُ شيءٌ لا يخفى إذ الخائفُ تبدُو عليه علاماتُ الخوف فهو شيءٌ يَجِيش في الصدر، ويَضيقُ عن كتْمانه الصَبر قال تعالى: « وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » (آل عمران: ١٧٥)، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَن خافَ أدْلَجَ ومَنْ أدْلَجَ بَلغَ المنزلَ» رواه الترمذي (٢٤٥٠).

والخوف عاقبتُه ألذّ من الزّلال العذْب، وأحلى من تَعْريسة الفجْر، فمن خاف الله تعالى عَزَبَتْ عنهُ همومُ الدُّنيا، ولم يخفْ إلا الختامَ وسوءَ الحساب والجزاء، وهما (الختام والحساب) السِّرّ المكتُوم، والخبرُ غير المعلوم، وإذا بلغ المرءُ من الخوف منزلة حسنة لا بأس بها غَلَبَ عليْه حبُّ العملِ الصالح، واتّخذهُ مطيَّة المطايَا، وجعلَه شُغْلَه الشّاغل ثم لا يُفقده الله تعالى في مكان يحبُّه فيه، ولا يجدُه في موضع يكرهُه فيه، ولا يطلبه الشيطانُ في موضع فيجدُه ولا يشهد المعصية أيضًا في نفسه ولا في غيره كما قال تعالى: «والّذين لا يَشْهَدُونَ الزُّور»، ولا يستطيع الصبرَ عن إتيان الطاعة كما لا يستطيعُ الصبرَ أيضًا على فعل المعصية؛ لأن الخائف يحبُّ ما يرجُو، ويكرهُ فواتَه، ويسعى أشدَّ السعي في تحصيله، بل إذا حضَرَ وقتُ العمل الصالح طارَ قلبُه له اشتياقًا، وذابتْ له نفسُه احتراقًا، وهذا من اكتمال فهْم العبد، ونُضْج عقله، وقُوّة بصره، وشفُوف نظره.

إذا كمّل الرحمنُ للمرء عقلَه

فقد كمُلَتْ أخلاقُه وضرائبُهْ

يعيشُ الفتى بالعقل في الناس إنّه

على العقل يَجْري علمُه وتجاربُهْ

ومن الأمور التي لا تُحْتَجبُ أنوارُها إلا على أكمَه أنّ الخوفَ من الله أمرٌ يُعدُّ من أقوَى الدّوافع على الطّاعة والبُعْد عن المآثم، وهو حاجزٌ للعبد عن عثَرات الشّباب، ومعينٌ له على لُزوم الصّدق والتّقى، ومن قرَأ سيرَ السّلف وجدَ خوفَهم هو المحرّك الأساسيّ والعامل الرئيس في كل أحوالهم الايمانية والقلْبية، ومن هنا ندركُ أنّ الخوفَ ولودٌ لا عاقرٌ، ولكلّ أبواب الخير فاتحٌ، ولبُطون الأعمال باقرٌ، فمن يتركُ الخوفَ يتعثّرُ في عشواء الجهالة ويتخبّط في أوديَة الضّلالة فيخْلط ويُخَلّط ويصيرُ ضُحْكة للبطالين وهُزْأة للسّاخرين ونعوذ بالله من الخذلان.

ثانيا: تهذيبُ النّفس وحسن سياستها:

وهو أمر نافعٌ مفيدٌ، ومحصّلُه موفقٌ سعيدٌ؛ لأن تهذيبَ النّفْس وإصلاحَها أشدُّ من سلّ السيوف، وأشقُّ من مُصاوَلة الصُّفوف، وأصعبُ من منازَلة الحتُوف، وقد جعل الله تعالى الخيرَ كلّه والفلاحَ في صلاح النّفس والخيبةَ والشرَّ في فسادها فقال: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا» وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « لَيْسَ الغنَى عَنْ كَثْرَة العَرَض، وَلَكنَّ الغنَى غنَى النَّفْس» رواه البخاري(٦٤٤٣).

العبدُ عبدُ النّفس في شهواتها

والحرّ يشبع تارة ويجوع

ولهذا يتأخر كثيرون عن بُلوغ الوطر منه، ويتعطّلون عن إدْراك الظّفر به؛ إذ لا يقومُ به إلا من ألهمَ الصّدقَ، ورُزِقَ تصْحيح النيّة، وأعين على تحقيق الإخلاص ووُفق للخبْرة بدُروب النّفوس ومعرفة مسالكها ويعين على ذلك مطالعةُ كُتب السُّلوك لما فيها من تصْحيح المعاملة، وإصْلاح القُلوب، والعمل على السَّيْر الصحيح إلى الله تعالى، ومثل هذا أكثر ما تجدُه في كُتب الإمام ابن القيم، وهو رجلٌ إمامٌ في هذا الفنّ، وعالمٌ شديدُ الأنس بهَذا العلم اللطيف الشريف، ومتبحّرٌ فيه وواسعُ المدارك لأبوابه وأحواله، وذو قدم راسخة فيه، ومكان مكين، وبصر نافذ، وإحاطة كبيرة كأنه كان مخلوقًا له وكذا شيخه ابن تيمية رحمة الله عليهما ولا غرْو فهُما رجُلان عَرَكَتْهما الأيام عرْك الأديم، وعرَفوا كيف يُخادع العبادَ الشيطانُ اللئيمُ؛ فمن طالَعَ كتُبَهما ظَفر بغُرَره وعُيونه، وحصّل أبكارَ فُنونه، ولم يزلْ أمرُه في صعود، وحاله في صلاح حتى يُصبحَ عند الله عبدًا زاكيًا، ومن أدوائه معافًى وحسبُك بالله تعالى من كلّ داءٍ شافيًا.

هذا بخلاف من يدّعون المعرفة بالنّفوس وأحوالها وهم حفاةٌ عراةٌ من ذلك فهم كمن يتدرّع الشيء وهو عار عنه، ويُظهر القرب منه وهو ناءٍ بحاله وبعيد منْهُ، وهذا الأمر لا بُدّ فيه للنفس من أدب لبلوغ الحاجة منه والأرب، وذلك بأمور مهمّة أنبّهك على فضلها، وأوقفك على نُبلها، وأكشف عن بعض سرائرها وألطاف معانيها حتى تعتصمَ بها

Upload by: altawhedmag.com

فربما كانت سببًا للنجاة:

أولها: المراقبة:

والمراقبة تدفع عن الإيمان كلّ نقيصة، وتمحو عنه كلّ نقيصة، وتبلغ بالمرء الأغراض القلبية وتَرُدّ عن صاحبها الآفات، وتقضي له الحاجات وتستخلص له كلّ نافع ومفيد، وهذه الصفة- المراقبة- يتعبُ من يتصدّى لغايتها، ويتعنّى من يسمو إلى نهايتها؛ فالمنصف معترفٌ بالغلبة لأن النقص في الناس فاشٍ، والعجز لهم شامل.

ثانيها: المحاسبة والمعاتبة:

العتابُ داعيةُ الاجتناب، ومبدأُ إصلاح القلب وتهذيب اللباب، فمن عاتبَ نفسَه وحاسبَها تركَ الذنوبَ واجتنَبَها، وحفظَ حواسَّه وجوارحَه منها، وأما المحاسبةُ فهيَ داعيةُ القلى(البغض) للمعاصي، وباعثُ الهُجْران لها، ورَسُولُ الفراق بين النَّفْس والذَّنْب، ورضيَ الله عن عُمر بن الخطاب حينَ قالَ: حاسِبُوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبُوا وزِنُوا أعمالَكم قبل أن توزنَ عليكم وتهيؤُوا للعرض الأكبر على ربِّكم «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ»، إن التجربة عند أهل المعرفة تقضي بأنّ محاسبةَ النفس خيرُ دواءٍ للذنوب وأفضلُ علاج لحفظ الجوارح من الآثام، لكن إنما تنفعُ التجاربُ من كان عاقلاً كما أنّ تركَ النفس بغير حساب ولا وقفة عتاب يجرُّ العبد إلى مهاوي ومغاوي لا قِبَل له بها.

ومحاسبةُ النفس تكون بدوام التَّنْقير والبحث عن آفاتها وأسقامها وخوالجها وجواذبها.

ثالثها: خلوة وعزلة:

كان الأُنسُ بالنّاس قديمًا أمرًا نافعًا، وعملاً شافعًا، فكان من يجتمع بالناس يستفيد خُلقًا ويَسهُل طبعُه، وينهل علمًا ويكثر نفعُه لما كان في الناس من خير وبرّ، ونقاء وصفاء ونفوس قويمة وقلوب مستقيمة، ثم انقلب الأمرُ إلى ضدّه، واستحال إلى ندّه؛ فكثرت النُّخالة، وأكل سوسُ الطِّباع دواخلهم حتى صارتْ تعجبُك أجسامُهم وإن يقولوا تسمع لقولهم غير أنهم كجُلمود الصخر أو كخُشُب مسنّدة لا يحسُّ أحدٌ بأحد، ولا يلوي أحدٌ على أحد.

فنعم العملُ الخلوة وأحبُّ المجالس إلى المؤمن أخْلاها، فمن أراد النجاةَ والمخلصَ من هذه الفتن المظلمة كقطع الليل فليجعلْ الخلوةَ موطنًا يرجع إليه، وموئلاً يعتمدُ عليه، وليخلُص من بليّة الاختلاط نجيًّا؛ ليرتقيَ من النَّجاة مكانًا عليًّا، إنّ الخلوةَ مقدمةُ الهداية، والعُزلةَ طليعةُ الوصول إليها فاعتزلْ الناسَ قدرَ الإمكان، وتجنَّبْهم قبلَ أن تُجنَبَك الخُلطة حظَّك من المعرفة بالله تعالى، وانتقلْ عن الناس قبلَ أن يُنتقلَ بك عنهم بالموت ومفارقة الحياة، فإنه لا ينجُو في هذا الزمان المُرّ إلا من غلبتْ عليه العُزلةُ ولَزِم الخلوةَ واستأنسَ بالله وعكفَ على رضا مولاه مخالفًا هواه، ولا قوة إلا بالله.

رويدك جانبْ ركوب الهوى

فبئس المطية للراكب

وحسبك بالله من مؤنس

وحسبك بالله من صاحب

وإن لم تجدْ بدًّا-وهو في العادة كائنٌ ومحقّق- فاقتصدْ في عَدد الأصحاب قدرَ ما تستطيع، وأقللْ من الأخدانَ والإخوان ما أمكنك، ولا تُكثر من معرفة الناس فإن الإكثارَ من المحبوبين مملولٌ فكيف بمن دون ذلك من المكروهين؟! والاقتصادَ في المعروفين ممدوحٌ فكيف بالمجهولين؟!

تذكر الموت:

وهذا أمرٌ كل ما قبلَه وما بعدَه تبعٌ له، فهو طليعةُ الرغْبة في عمل الخير، ومقدّمة حُبّ أعمال البرّ فتركُه يضرُّ ولا ينفعُ، وإهمالُه يحطُّ ولا يرفعُ.

وأنتَ ترَى الموتَ في كل لحظة لا يفرُقُ بين شابٍّ وشيخ ورجل وامرأة كما قال أبو العتاهية:

فلا تنسَهُ ولا تَتَناساهُ ولا تُشغل عنه فإن من غفَلَ عن الموت فسَدَ قلبُه واجترأ على المعاصي، قال سعيدُ بن جبير: إذا غابَ ذكرُ الموت عن قلبي فسَدَ عليَّ.

فخُذْ بهذه النصائح واعملْ عملَ عبدٍ هو مُلاقيه، ولا تكنْ ممن صمَّ وكابَر، وجاهَر بالمعاندة وظاهر، وجدَّ في أمرك ولا تتهاون فالجِدُّ علامةُ النَّجاح، والحزمُ أمارة الفلاح.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

Upload by: altawhedmag.com

سببُ محبّة الله تعالى للعبد

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على نعمه أولاً وأخيرًا، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد الذي أرسلهُ ربُّه بالحقّ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله وأصحابه ومن كان له مُعينًا وظهيرًا، ومن تبعه على دعْوته وكان لأهلها مواليًا ونصيرًا.

وبعدُ؛ فإنَّ محبَّة الله تعالى لا تحصلُ للعبد إلا بعد القيام بمَحابِّ الله سبحانه واتيان مَرَاضيه؛ إذْ العَملُ الصالحُ سببُ حصولِ تلك المحبَّة ومقدّمتُها، كما أنّ المحبة هي ثمرةُ ذلك العمل؛ فإذا كان حفظُ الجوارح يزرعُ الطاعة ويغرسُ العملَ الصالحَ، فإن المحبَّة هي ثمرةُ ذلك وحصادُه ومن هنا نستطيع أن نقول: إنّ من أراد أن يَعلم محبّةَ الله له- وهي الشأنُ الأعظمُ- فلينظرْ هل يوفَّقُ لحفظ جوارحه من المعاصي أم لا؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والتقربُ إلى الله تعالى الذي يُثمر محبَّتَه يكون بأداء الفرائض والنوافل فالطرقُ التي بعث الله بها رسوله هي التقرب إلى الله بالفرائض، وبعد الفرائض بالنوافل، لا يُتقرّب إليه إلا بفعل واجب أو مستحبٍّ وتستوي في ذلك الأمورُ الباطنةُ في القلوب والظاهرةُ للعيان، فحقائقُ الإيمان الباطنة في القلوب موافقةٌ لشرائع الإسلام الظاهرة على الأبدان". (الإيمان لابن تيمية: ص٣٤٤).

فكيفَ يصلُ العبدُ إلى أن تكونَ جوارحُه بهذا الوصف بحيثُ يصدقُ فيه قوله تعالى في الحديث القدسي: "كُنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَهُ التي يَبْطش بها، ورجْلَه التي يَمْشي بها، فبي يَسْمع، وبي يُبصر، وبي يَبطش، وبي يَمشي، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه" تفرَّد به البخاري.

الجواب: أنّ الوصولَ إلى هذه المنزلة، وتحقيقَ هذه المرتبة سهلٌ قريبٌ- مع قوّة العزيمة وعلوّ الهمّة- لا يحتاج المرءُ أن يطوّح بفكره، ولا أن يُبعد به، وهو أن تعملَ الجوارحُ بكلّيّتها على الظّفر بالطاعة، وترك المعاصي.

ومع هذه السهولة جوابًا إلا أنّ ذلك جدُّ صعب من جهة العمل، وعند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان، فالأمرُ يحتاجُ إلى عبدٍ واسع الخَطْو في الطاعة سريع الإقدام إليها، مجتهدٍ في العض عليها، بيْد أنّه في المعاصي يجب أن يكون ضيقَ الخُطى شديدَ الإحْجَام، كما يفتقرُ إلى صاحب جزْم في العبادة وحزْم، وعقْد في العمل الصالح وابرام، وأن يكونَ ذلكَ بهمّة طامحة إلى المَزيد من الطّاعة، وقوّة جامحة إلى التزوّد من العبادَة، وعزيمة جادّة صادقة في بلوغ المُراد كما قال القائل:

وعزيمتي مثلُ الحُسام وهمّتي
نفسٌ أصُولُ بها كنفْس القَسْور
وإذا تُنازعُني أقولُ لها اسْكُتي
قتلٌ يُريحك أو صعودُ المنبر

وأن يلزمَ عتَبَة العبوديّة ليلًا ونهارًا حتى تصبحَ العبودية همَّهُ الذي يجمعُ شَمْلَه، وأن يطرُقَ أبوابَها مرارًا وتكرارًا، وإن لم يجدْ أولياءَ وأنصارًا، وبهذا يَبْلغ مَنَازلَ الأبرار، ويجاورُهم في الجنّة؛ فنعْم عُقْبى الدار، وكذا أن يكونَ في أعمال الإيمان دائمَ الحلّ والتّرحال، والمبارزة في ميدان العمل والنّزال، وبهذا يفوزُ العبدُ من المنازل بالقدْح المعلّى، ويتقلّدُ من مَحاسن الأعمال بالصارم المحلّى، ومثل هذا يؤيَّد بالتّوفيق،

altawhedmag.com

ويَركبُ كلَّ مَرْكَب في طلبِ الباقياتِ الصالحاتِ ويسلكُ كلَّ طريق.

وكذا العُلى لا يُستباحُ نكاحُها
إلا بحيثُ تُطلَّقُ الأعْمارُ

أمَا من يشتغلُ بصروفِ الدهرِ والفتنِ، ولا ينتبهُ لجريانِ العمرِ وتقادُمِ الزَّمنِ، فإنَّه لن يصلَ من الجِدِّ والاجتهادِ إلى حِرزٍ حريزٍ، ولنْ ينزلَ منهُ بالمنزلِ العزيزِ؛ لاستحواذِ الشَّيْطانِ عليه وسلبِه بضاعتَه التي يتاجرُ بها مع ربِّه، بل يكونُ حالُه أشبهَ ما يكونُ بامرأةٍ سُلبَتْ حليَها فتُركت عاطلًا، فبِمَ تُفاخرُ وتُقاولُ؟! أو فارسُ ميدانٍ أُخذَ سلاحُه وتُرك أعْزَلَ راجلًا فبمَ يُصاولُ ويُحاولُ؟! وحالُ الجاهلِ مفتاحُ حتفِه كما يُقالُ في الأمثالِ. ورحمَ اللهُ تعالى أبا العَتاهيةِ حينَ قالَ:

حتَّى متى ذُو التِّيهِ في تيهِه
أصلحَهُ اللهُ وعافاهُ
يَتيهُ أهلُ الجهلِ في جهلِهم
وهم يموتونَ وإن تاهُوا
مَنْ طلبَ العزَّ ليبقَى بِهِ
فإنَّ عزَّ المرءِ تقواهُ
لم يعْتصمْ باللهِ من خلْقِه
من ليسَ يرْجوهُ ويخْشاهُ

هنالكَ بعضُ الأمورِ التي من حققَها بلغَ المرادَ قبلَ موسمِ الحصادِ، ومن فاتتْه زلَّتْ به أقدامٌ، وضلَّتْ منه أفهامٌ، ونزلَ المقامَ الضَّنْكَ، والمعْتَرَكَ الصعبَ، منها:

أولًا: تصحيحُ النيَّة:

وهو شيءٌ عظيمُ النَّفعِ طيِّبُ الوقْعِ، وفوائدُه تبلُغُ الروابيَ وتملأُ الخوابيَ، وهو من أعظمِ الأعمالِ وأجلِّها قدْرًا؛ إذ إنَّه يَنطقُ باستقامةِ القلبِ، وطهارةِ البواطنِ وسلامةِ الدَّواخلِ، لأنَّه عملٌ قلبيٌّ محضٌ لا علاقةَ للِّسانِ به خُصوصًا وكذا الجوارحُ عمومًا، وهو شيءٌ ينطقُ بالحقائقِ ويُفصحُ عنها، فيُرى أثرُ ذلكَ على الجوارحِ ولذا يقولُ العلماءُ: النيةُ محلُّها القلبُ، بل لو نوى شيئًا بقلبِه ونطقَ اللسانُ بخلافِه فالعبرةُ بما انعقدَ القلبُ عليه لا بما تكلمَ به اللسانُ.

ويدلُّ على ذلكَ قولُه صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم يقولُ: "إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى" متَّفقٌ على صحَّته.

وهو مما يُريحُ الجوارحَ لأنَّه بتصحيحِ النيَّةِ يَعْظُمُ يسيرُ العملِ، ويكثرُ قليلُه، ويكبرُ غُنمُه، ويصغُرُ غُرمُه، وكم من عملٍ صغيرٍ تُعظمُه النيَّةُ، وكم من عملٍ كبيرٍ تُصغِّرُه النيةُ، إذْ إنَّه يكونُ المعوَّلُ على القلبِ، وبقدْرِ ما في القُلوبِ يتفاوتُ الناسُ، قالَ أبو عبدِ اللهِ الأنطاكيُّ: إذا صارتِ المعاملةُ إلى القلبِ، استَراحتِ الجوارحُ. (السير: ١٠/٤٨٨).

والعجبُ كلُّ العجبِ من انشغالِ الناسِ عنه مع سهولتِه وعدمِ كُلفتِه، وعظيمِ أجرِه، ورفعةِ قدرِه، فرُبَّ رجلٍ وهو على الفُرُشِ يسبقُ بنيَّتِه من يُصلِّي ويصومُ ويحجُّ ويعملُ الصالحاتِ، بل يسبقُ من يكونُ قتيلًا بين الصفين. فعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ رجعَ من غزوةِ تبوكَ فدنَا من المدينةِ، فقالَ: "إنَّ بالمدينةِ أقْوامًا، ما سرْتُم مسيرًا، ولا قطعْتُم واديًا إلَّا كانُوا معَكُمْ"، قالُوا: يا رسولَ اللهِ، وهُمْ بالمدينةِ؟ قالَ: "وهُمْ بالمدينةِ، حبَسَهُمُ العُذرُ" رواه البخاري (٤٤٢٣).

ومن ذلكَ أيضًا ما وقعَ لأصْرَمَ بنِ عبدِ الأشْهَلِ رضيَ اللهُ عنه الذي قُتلَ يومَ أحُدٍ ولم يسجدْ للهِ سجدةً ودخلَ الجنَّةَ، فعنْ أبي إسْحاقَ، قالَ: سمعْتُ البَراءَ رضيَ اللهُ عنْهُ، يقولُ: أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ رجُلٌ مُقنَّعٌ بالحديدِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ أقاتلُ أوْ أسْلمُ؟ قالَ: "أسْلمْ، ثمَّ قاتلْ"، فأسْلمَ، ثمَّ قاتلَ، فقُتلَ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ: "عملَ قليلًا وأجرَ كثيرًا" روا البخاري: «٢٨٠٨».

قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ: وقدْ أخرجَ ابنُ إسْحاقَ في المغازي قصَّةَ عمْرِو بنِ ثابتٍ بإسْنادٍ صحيحٍ عنْ أبي هُريْرةَ أنَّه كانَ يقولُ: أخبِرُوني عنْ رجُلٍ دخلَ الجنَّةَ لمْ يُصلِّ صلاةً ثمَّ يقولُ: هُوَ عمْرُو بنُ ثابتٍ اهـ. فتح الباري: ٦/٢٥، «٢٨٠٨».

تفاوتُ الناسِ بتفاوتِ نياتِهم:

وإنما يتفاوتُ أكثرُ الناسِ بنياتِهم وبواعثِهم وإخلاصِهم للهِ تعالى؛ لأنَّ النيَّةَ ركنُ العملِ الرَّكينِ وأصلُه الأصيلُ، وعمودُ خيْمتِه الذي به

altawhedmag.com

قيامُها وبغيره تقويضُها.وهل قَبِلَ اللهُ توبةَ قاتلِ المائة نفس إلا لنيَّته التوبة وصدقه في ذلك حتى دخل الجنّة بغير عملٍ قليلٍ ولا كثيرٍ سوى صدقِ النيَّة، وحسبُكَ به عملاً

إن صدق صاحبُه؛ فإنَّ الرجلَ قَتَلَ تسعةً وتسعين نفساً،فلمَّا سأل العالمَ قال له: انْطلقْ إلى أرْضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناساً يعْبُدُونَ اللهَ تعالى فاعْبُدِ اللهَ معَهُمْ،ولاَ تَرْجِعْ إلى أرْضِكَ فإنَّها أرْضُ سُوءٍ، فانطلَقَ حتَّى إذا نَصَفَ الطَّريقُ أتاهُ المَوْتُ فاخْتَصمتْ فيه مَلائكةُ الرَّحْمَةِ وملائكةُ العَذاب.

فقالتْ ملائكةُ الرَّحْمَةِ: جاءَ تائباً مُقْبِلاً بقلْبِه إلى اللهِ تعالى، وقالتْ ملائكةُ العذاب: إنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خيْراً قطُّ، فأتاهُمْ مَلَكٌ في صُورةِ آدَميٍّ فجعلوهُ بيْنَهُمْ أي-حَكَماً- فقالَ: قيسُوا ما بَيْنَ الأرْضَيْنِ فإلَى أيَّتِهما كانَ أدْنى فهُوَ لَهُ، فقاسُوا فوَجَدُوه أدْنَى إلى الأرْضِ التي أرادَ فقَبَضَتْهُ مَلائكةُ الرَّحمةِ" متفقٌ عليه.

وفي روايةٍ في الصحيح: "فكانَ إلَى القَرْيَةِ الصَّالحةِ أقْرَبَ بشِبْرٍ، فجُعِلَ مِنْ أهْلِها".

وفي روايةٍ في الصحيح: " فأوْحَى اللهُ تعالَى إلَى هذهِ أنْ تَبَاعَدي، وإلى هذهِ أنْ تَقَرَّبِي وقَالَ: قِيسُوا مَا بيْنَهما، فوَجدُوه إلَى هذهِ أقْرَبَ بشِبْرٍ فغُفِرَ لَهُ" وفي روايةٍ: "فنأى بصَدْرِه نَحْوَهَا".

وتصحيحُ النيَّة يكونُ باستحضارِها من غير تكلُّف فهي تأتي عفْوًا من غير اعتمَال، وتكون سليقةً من غير افْتعال، بل هو أمرٌ يحضُرُ القلبَ، ويغلبُ على الذِّهن، ويتردَّدُ على البَال عند الهمِّ بالعمل، ويهجمُ على النَّفس بتوكيد الثِّقة في النَّفس بالرَّغبة في العمل الصالح.

والنَّفسُ راغبةٌ إذا رغبْتها

وإذا تُرِدْ إلى قليلٍ تقنعُ

ومن صحَّتْ نيتُه صحَّتْ بدايتُه ونهايتُه؛ لأن النيَّة أساسُ العمل، وطليعةُ القلب، والموفَّق من رُزِقَ حُسْنَ النية، وألْهِم تقواه وقتَ العمل؛ فاللهم أصلح نيَّاتنا.

إن من فاته تصحيح النية قارنه الخذلان واستحوذ عليه الشيطان لأن التوفيق على قدر النوايا

ثانيا: التحفُّظ من السيئات:

وهذا أمرٌ استدامتُه لغير الأنبياء محالٌ؛ لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء والرسل، أمّا البُعْد عن أكثر السيئات فهو في الإمكان، والعبرةُ بالغالب فإذا غلبَتْ على المرء الطاعةُ، وكان من شأنه وعادته بغضُ المعاصي وتركُها؛ فلن يقعَ في المعصية إلا قليلاً، ومثل هذه المعاصي مع التوبة والاستغفار وتزكية النُّفوس تَذهبُ إلى العدم، وتصبحُ كالسَّراب، أو كرَمَاد اشتدَّتْ به الريحُ في يوم عاصف فلا يَبْقى منه أثرٌ ولا عينٌ.

وبقدرِ ما يَحتاط المرءُ، ويبتعدُ عن الخَطايا بقدرِ ما تَقِلُّ ذنوبُه، ومن دَعَواتِ الملائكة حَمَلَةُ العرش للذين آمنوا قوله تعالى: « وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ » (غافر: ٩).

إن المجانبةَ للسَّيئات تؤلِّف قلب العبد على الطاعة، وتجعلُها إليه أحب البضاعة، على العكس من غشْيَان المعاصي فإنه يجعلُ في المرء مشايعةَ الشيطان بعد حبِّ الطاعة والمتابعة ويُحدثُ في النَّفس بعد التَّواصل بالعبادة القطيعةَ لها والمدابرة، ويُنبت فيها بعد المحبَّة البغضاءَ للعمل الصالح والمنافرة، وهذا شأنُ كلّ من خالفَ ما جاءَهُ من الهُدى تحلّ به الرزايا والردى؛ لأن الطاعةَ نجاةٌ والسيئاتِ هلكةٌ، وهذا واضح بيِّنٌ في حال الناس لا خفاءَ به، فتجدُ المرءَ بعدما كان في المُلك يصيرُ إلى الهُلك ويُحطُّ بعد الرِّفعة ويذلُّ بعد العزِّ والمنَعَة، جزاء بما اقترفوا من الكبائر والموبقات، واجترحُوا من السَّيِّئات ورحمَ اللهُ تعالى الإمامَ ابنَ القيِّم حين قال: المَعْصيةَ تُورثُ الذُّلَّ ولا بُدَّ؛ فإنَّ العزَّ كلَّ العزِّ في طاعَة اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: « مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا » (فاطر: ١٠) أيْ فلْيَطْلُبْها بطاعَة اللهِ، فإنَّهُ لا يَجدُهَا إلَّا في طاعَة اللهِ. وكَانَ منْ دُعَاءِ بَعْضِ السَّلَفِ: اللَّهُمَّ أعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ. وقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إنَّهُمْ وَإنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، إنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبَى اللهُ إلَّا أنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

altawhedmag.com

رمضانُ يجدّد الإيمانَ ويُرسِل نسيمَ التقوى

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وبَعْدُ:

فهذه تذكرةٌ وشذور من كلام صريح فصيح، عزيز وجيز، قليل المباني كثير المعاني أسوقها لمَنْ شاءَ يتَّخذَ من أيَّام رمضان ولَيَاليه إلى ربِّه سَبيلاً، وأزُفُّها إليكم وأتركها بين يَدَيْكم، لا تطولُ فتملَّ السامعين، ولا تَنْقَطِعُ وبالنُّفوس ظَمأً إلى المزيد، وهي في صَفَحات قَلائل إذْ يَكْفي من القِلادَة ما أحاطَ بالعُنُق، وإنَّما ينفعُ قليلُ الكلام مَنْ كانَ عاقلاً، وشرُّ القَوْل ما لا يُسْمَع، ولا لصاحبه فيه مُنْتَفَع.

وها هُوَ شَهْرُ رمضانَ يَحْدُو الرِّكاب مُسْرِعًا إلينا، ويَحُثُّ المَطايا مُتَعَجِّلاً للقُدُوم علينا، فهَلْ نَحْن مُسْتَعِدُّون للقائه، وهَلْ يَمَّمْنا قُلوبَنا للقائه، ووَجَّهْنا وُجُوهَنا تلقاءَه.

إنَّ رمضانَ يَنْبَغي أن يَعْمَلَ في قُلوبنا عَمَلَ الزِّلْزال ويُحْدِثَ فيها هزَّةً إيمانيَّةً ليُفيقَ الغافلُ وينبِّهَ الحالمَ ويُفْزِعَ أهلَ العِرْفان ويُرْدِعَ أهلَ الإيمان، وإلا أصبحَ الحالُ ما حالَ والأمْرُ ما زالَ، إنَّ هذه التذكرة لتَجْديد الإيمان في رمضانَ لا سيَّما إذا بلي وخَلَق وذلك لِما في رمضانَ من فَضائلَ لا تُحْصَى وفَواضلَ لا تُنْسَى، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرو بن العاص قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الإيمانَ ليَخْلَقُ في جَوْف أحدكم كما يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فاسْأَلُوا اللهَ أن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبكم» رواه الحاكم (٤/١) وقال: رواته مصريون ثقات»، ووافقه الذهبي. وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٥٢/١) وقال: رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن اهـ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٥٨٥).

ومِمَّا لا رَيْبَ فيه أنَّ العَبْدَ مَعَ تَطاوُلِ الأيَّام يَشْعُرُ بصَدإٍ في إيمانه ونَقْص فيه قدْ لا يكْمُل إلا بمَشَقَّة ووَقْص قد لا يَكْتَمل إلا بعُسْر وشدَّة، فالإيمانُ يَبْلَى كما يَبْلَى الشَّجَرُ، وربَّما غَلَبَ الرانُ على القلب فأغْلقت أبوابُ القَلْب وطُبِعَ عليه فصارَ صاحبُهُ لا يَفْقَهُ ولا يَنْقَهُ فينبَغي أنْ تُدْرَكَ فُرْصةُ أيام رَمَضان بأنْ تكونَ مهيأةً لتُجْعل مطيَّة للعَبْد في عبادته، وأن تُتَّخذ لياليه جَمَلاً في سَيْرِ العبْد إلى الله، وتَجْديد إيمانه لا سيَّما في أزْمنة الإيمان ومواسم العبادة وأوقات مُضاعَفة الأجُور والليالي العامرة والساعات الفاضلة بالفضائل، لذا يحتاج العبدُ إلى التأمُّل في مَعاني الإيمان والنَّظَر في منازع

altawhedmag.com

فقهه كما يحتاجُ إلى أمُورٍ مُهمّة لا يتمّ بدُونها منها:

إدْرَاكَ قيمة الإيمان والشُّعُورُ بالحاجة إليه، ثم محبَّة ذلك والوَلَهُ به صدقًا لا ادعاءً.

ورحم الله شيخ الإسلام ابنَ تيميّة فإنّه كان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: «واللهِ إني إلى الآن أجدِّدُ إسْلامي كلَّ وقت، وما أسْلَمْتُ بَعْدُ إسْلامًا جيّدًا». (مدارج السالكين: ١/ ٥٢٠ والعقود الدرية: ص ٤٥٠ - ٤٥١).

ولا يَظُنّ أحدٌ أنّ كلامي هذا تقريعٌ وتوبيخٌ أو تهكّم وتحكّم، فكَمْ من كلمة فظّة، ولفظة فيها غلظة كانتْ كالدَّواء المُرّ الذي يأتي معَهُ الشّفاء، وتأتي في إثره العافية بل هو تعريفٌ في غيْر تعْنيف، وتنْكيتٌ بغير تبْكيت وتوْقيف؛ وكلامٌ جاءَ على قدر كي يسُدَّ الخلل ويشْفي العلل:

أوّلا: دفعُ الآفات عن الإيمان وقضاءُ الحاجات منه:

وهُما بمعْنى دفْع الأغْيار، وقضاء الأوْطار، فدفْعُ الأغْيار هو هجْرُ كلّ ما يقْطعُ مسيرة الإيمان، ونبْذُ ما يعطلها ويمْنع منها أو يعكرها، وقضاءُ الأوطار هو أداء صالحات الأعْمال، فبسبب عدم دفْع الأغْيار عنْه وردّ الآفات وهنَتْ أحوالُ المسْلمينَ وظهر فيهم عدمُ الاكْتراث بأحْوال الإيمان بيْنما كان السّلفُ يقُولُ أحدُهم لأخيه: «اجلس بنا نُؤمن ساعة»، كما علّقه البخاريُّ عن مُعاذ بن جبل رضيَ الله عنه في أوّل كتاب الإيمان من صحيحه.

ثانيا: المسارعة بالإيمان:

قال تعالى: «وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ» (آل عمران: ١٣٣)، وقال صلّى الله عليْه وسلّم قال: «بادرُوا بالأعْمال فتنًا كقطع اللّيْل المُظلم، يُصْبحُ الرّجُلُ مُؤْمنًا ويُمْسي كافرًا، أوْ يُمْسي مُؤْمنًا ويُصْبحُ كافرًا، يبيعُ دينَهُ بعَرَض من الدُّنْيا» رواه مسلم (١١٨).

من علمَ أنّ اليوْمَ الرّهانُ وغدًا السّباقُ والجنّةُ الغايةُ تخفّفَ وتعجّل وسارَعَ ولمْ يُؤجّلْ، وهذا ما ينْبغي أن يكُون.

وإذا فرحَ المرْءُ بالدُّنيا كدّرها عليْه سُرْعة الزّوال وساعةُ الموْت وكثْرة المُنغّصات، وهذا ممّا يبْعثُ الهمّة لانْتهاز مُهْلة العُمْر والاسْتقاء من بحْر الإيمان الفياض والاكْتساء من ثوْبه الفضفاض، قبْل أن يأتي الموْت، وبقيّة عُمْر المؤمن لا ثمنَ لها، يُدْرك بها ما مضى وفات، ويُحْيي بها ما ذهب ومات، ومع ترادُف الأيام وتطاوُل الأعْوام فالموْتُ متربّصٌ بابن آدمَ يخْطفُه على غرّة في أيّ لحْظة.

إنّ الاجْتهادَ في أيام رمضانَ يجْعلُ للعبْد في التّقْوى والإيمان القدَمَ الرّاسخ إذْ إنّه يطْوي من مفاوز العمل فراسخ، فيُسْفر له الإيمان عنْ قناعه ويفُوزُ العامل باطّلاعه.

ثالثا: تجديدُ النّوايا والأعْمال:

وهذا أمرٌ يضيقُ عنْدَ ذكْره الصّدرُ، ولا يكادُ ينْطلقُ اللّسانُ إلا الفيْنة بعْدَ الفيْنة، إذ الغفْلة والشّغْلة عنْه زائدةٌ جعلتْ القُلوبَ عنْها ذاهلة، وعنْ طريقها حائدة، مع أنّ المؤمنَ يحْتاجُ ليثْبُتَ على إيمانه أنْ يُجدّد النيّة مع كل عمل بلْ يُجدّدُها في خلال العمل الواحد ليحافظ على خُلوصها من الدّواخل والعوارض وهذا

altawhedmag.com

التَّجديد في النيَّة والعَمل يبْعثُ النَّشاطَ ويقتلُ الكسلَ كما قال القائلُ:

وحينئذ تَنْجَذبُ النفسُ للعَمل ويَجْتَمع الحسُّ ويَجُولُ الفكر في المعَاني اللَّطيفة والخواطر الشَّريفة، أمَّا الرَّتابَة مَن غيْر فكْر في العمل ورَويَّة فيه فتَجْعل العملَ الصالحَ مَمْلولاً ويَكونُ ممَّا أهَانَه الاستعْمال وأذَالَهُ الابْتذَال، فنوِّعْ عَملَك وجدِّدْ نَشَاطَكَ فإذَا فَترَتْ فارْفُقْ وإذا تَعبْتَ فاسْترِحْ، وصِلْ حينًا واتْلُ القرآنَ حينًا، واشْتغلْ بالذكر حينًا، وأعملْ التَّفكُّرَ حينًا، واستَغْفرْ من تَقْصيرك حينًا، وعاتبْ نفْسَكَ وحاسبْها حينًا، ثُمَّ انظرْ إلى الإيمان في قلبك بَعْدَ ذلكَ فستَجدهُ يَزْكُو كزَرْع سُقيَ بمَاء فنَبَتَ واخْضَرَّ وآتى أكلَهُ.

رابعًا: النَّظرُ في عَواقب الإيمان:

قال تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» (آل عمران: ١٣٧)، وهَذَا الأمْرُ من أحَقّ وأوْلى ما وَقَعَ عليْه الاخْتيَارُ، وأجَلُّ وأعْلى مَا اسْتَحقَّ التَّقْديمَ والإيثَارَ، إذْ إنَّه لا يَنْبَغي الإقدامُ على أمر قبلَ النظر في عاقبته فإنَّ النظرَ في العواقب خيرٌ من النَّدم بَعْدَ الفوَات ومَنْ تأمَّلَ العَواقبَ كانتْ خُطوَاتُه مُسَدَّدةً وأعْماله مُؤيَّدةً.

لقدْ بُليَتْ هذه الأجيالُ المتأخرةُ- زَمَنًا وحالاً والخَفيفَة وَزْنًا ومَعْنًى- بعَدَم النَّظر في المآلات فلَمْ يَنْظُروا إلى جَنَّة عَرْضُها السَّمَاوات والأرضُ كما كانَ الصَّحابة ينظُرون.

عَنْ عَمْرو بن دينار أنَّه سَمعَ جَابرًا، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَوْمَ أحُد: أيْنَ أنَا يَا رَسُولَ اللهِ إنْ قُتلْتُ؟ قَالَ: «في الْجَنَّة»، فَألْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ في يَده، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتلَ. رواه مسلم (١٨٩٩).

لَقَد استطابَتْ أجيالُنا الحياةَ الدنيا وكأنَّهم أعْجَبَهم زوالُها وتقاتلوا على الدُّنيا وفارقُوا الطَّاعة والرَّشاد وتَهالَكُوا على الشَّهوات تَهالُكَهم على اليوم الموعُود ووَرَدُوا حياضَ الملذَّات أيَّما وُرود فبئْسَ الوِرْد المَوْرُود.

خامسًا: نية التجارة بالأعمال الصالحة لتحصيل الأجور:

من سنَّة الله الجَاريَة في خلقه أنّ العُمَّال يعمَلُون وهم يَنْتظرُون الأجُورَ ويُؤَمِّلُون الجَائزَة عَلى ذَلكَ ولو لَمْ يكنْ هذا الأمرُ جبلَّة وفطْرَة في العباد ما عَملَ عَاملٌ ولا جَدَّ مُجدٌّ ولاَ اجْتَهَدَ مُجْتَهدٌ، إنّ المرءَ من أجْل عَطَاء لا يتأخَّر ولو رَكبَ من الأمْر نُكرًا واقْتَضَّ بَحْرًا بكْرًا ويَسْلُكَ مَهَاوِيَ المَهَالك ومَعَاطنَ المَعاطب.

وهذا الأمْرُ لَوْ حَسُنَ الأخْذُ به وأُجيدَ استعْمَاله سيَرْبَحُ المؤمنُ من وَرائه حَسَنات وسَيَجْمَعُ من جرَّائه أعْدادًا منها جَزيلاَت لاَ تَقُومُ لَهَا سَيِّئاته ولَوْ كَانَتْ مثْلَ زَبَد البَحْر أو كَانَتْ كأمْثَال الجبَال فـ«إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» (هود: ١١٤). ومَنْ نَوى التِّجارَة مع ذلك نقَّبَ عن الأعْمَال ذَوات الأجُور العَاليَة والثَّواب المُضَاعف منها كتلاوَة القُرْآن وقَوْل سُبْحَانَ وبحَمْده سُبْحَانَ اللهِ العَظيمَ وقَوْل سُبْحَانَ اللهِ وبحَمْده وصلى اللهُ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

altawhedmag.com

الأُخُوَّة صفةٌ نادرةٌ ولزماننا مغادرة

د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي خلق الإنسان وزيّنه بحُسن تقويمه وتقديره وجعل اختيار الصاحب إلى اجتهاد العَبْد وتَشْميره وَسَهَّله عَلَيه بتوفيقه وتيسيره وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى مُحَمَّد عَبْد الله وبشيره ونذيره الذي لاحت أنوار النبوة من بين أساريره وظهر الصدق من مَخايله وَتَباشيره وَعَلَى آله وأصحابه الذين طهَّروا وجهَ الأرض من ظُلمة الكُفْر ودياجيره فَلَمْ يَتَدَنَّسُوا بعد إسلامهم بقَليله وَلا بكَثيره.

وبعد، فإن الأُخُوَّة صفةٌ عيارية فهي كالميزان تُقاس بها أحوالُ الأمم من جهة الإيمان والأخلاق وسلامة الطباع واتساقها مع الفطرة التي فطر الله النَّاسَ عليها لأنها تكون بين القلوب والأرواح، وارتباط القلوب بالقلوب أقوى من ارتباط النَّسب، وتآلف الأرواح أشدُّ من تعلُّق السبب بالسبب، لهذا جاءتْ آيات مشاهد القيامة تُبيِّن رابطة التآخي وتُفصح عن قُوَّتها وشدَّتها بذكر انقطاع الأخ عن أخيه وفراره منه قال تعالى: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ»، وقال أيضًا: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ».

واعلم رحمك الله أن الصاحبَ الصالحَ المهديَّ المعينَ على الخير؛ والبرّ في هذا الزمان شيءٌ قليل كأنَّه غُرَّةٌ في وجه الدهر ودُرَّةٌ في تاج الفخر.

جيل الصحابة جيل الأخوة:

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يلح على أصحابه بهذا المعنى كي يصح فيهم غرسه فآخى بين المهاجرين والأنصار وكان المهاجري يرث أخاه الأنصاري وفي الأحاديث آخى رسول الله بين قريش والأنصار رواه النسائي، وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رواه الشيخان، وآخى بين سلمان وأبي الدرداء رواه البخاري، وكان زيد مؤاخيًا لحمزة آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه أحمد ١/٣٢٠، وقال بعض الصحابة يومًا: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد رواه الترمذي.

وكان بين الأشعريين وهذا الحي ودٌّ وإخاءٌ، ومكثت هذه الأمور الحميدة وتلك الأحوال المجيدة حتى نزلت آيات المواريث وأحكام الفرائض فنسخَتْها وصار الأمرُ لا يعدُو الوُدّ ولا يتجاوزُ الإخاء، أمّا المواريث فلأولي الأرحام «وأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ».

كان هذا بعد أن وُضعت قواعدُ الأخوة ورُفعتْ أعلامُها تَخْفق على أهلها وصارتْ شيمةً ومعلَمًا لا يُغادر الصحابيُّ منها صغيرةً ولا كبيرةً - وقد كان فآتى أكلَه وصاروا خيرَ جيل تآخى في الله وتحابُّوا فيه واجْتَمَعوا عليه سبحانه وتفرَّقوا عليْه سوى من بعض الهَنَات التي وقعتْ بين بعضهم وفي فئة قليلة منهم والتي لا يَكادُ يسلم منها أحدٌ ولا يخلو

Upload by: altawhedmag.com

منها بشرٌ إلا أن يكونَ نبيًا، ومع ذلك يعتقد أهل السنة والجماعة أن كل هذا كان باجتهاد لا عن قصد سوء وعناد، ويعتقد أهل السنَّة أيضًا وُجُوب الكفِّ عما شَجَرَ بينهم لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذَا ذُكر أصْحابي فأمْسكُوا».

ومع ما كان بين قلة منهم رضي الله عنهم إلا أنَّه لم يَنْقُص عُرَى الأُخُوَّة ولم يَفُكَّ زرًّا من أزرارها لأنها نُسجتْ على التقوى وحيكتْ بالإيمان وصُبغَتْ بالمحبَّة الخالصة لله تعالى، وكان هذا ثمرةَ اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق الأُخوة بينهم وتأسيسها فيهم.

عناية النبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق معاني الأخوة:

الأحاديث التي جاء فيها ذكرُ الأخوة والحث على مُراعاتها كثيرة منها ما رَبَط الإيمان وأناطَ الإسلامُ بالأُخُوَّة كقوله صلى الله عليه وسلم: «المُؤمنُ أخُو المؤمن» رواه أبو داود وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يُؤْمنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنَفْسه» رواه الشيخان وقال صلى الله عليه وسلم: «المَسْلمُ أخُو المسْلم» رواه الشيخان.

وقال صلى الله عليه وسلم: «وكونوا عباد الله إخوانًا» رواه الشيخان.

ذهاب الأخوة في زماننا مزقًا وتفاريق:

من علامات الساعة انتشار القطيعة وفشو البغضاء، لأجل ذلك أصبح زماننا هذا أو أوشك أن يكونَ حاسرًا عن الأُخُوة عاريًا عنها غيرَ متدثر إلا بالقليل منها وكأنَّها صارتْ كهشيم «تَذْرُوه الرِّيَاح» أو «كسَرابٍ بقيعة يَحسبُه الظَّمآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يَجدْهُ شيئًا» أو «كرماد اشتدَّتْ به الرِّيحُ في يوم عاصف» لا نقدرُ على شيءٍ منه.

والذي يَزيدُ المرءُ عجبًا أن ما بقي من خصالنا في تَقَلُّص وانحسار، وما فضلَ من خلالنا في هُبوط وانحدار، حتى باتَ الأخ الوفي منقبةً في هذا الزمان لا تَعادلُها منقبةٌ وفضيلةٌ لا تُوازيها فضيلةٌ وحسنةٌ لا تكاد تحيط بها ولا تحبطها سيئة؛ لأنَّ الأخوةَ الصادقةَ صارتْ عزيزةً والصحبةَ الصحيحةَ الوفيَّةَ أصبحتْ نادرةً في هذا الزمان بل كادتْ أن تكون له مغادرةً وذلك بعد أن تبدَّلتْ الأمور من بَعْد يُسْرها عُسْرًا، وهذا أمر والله يُبكي العيون ويُنكي القلوب ويُفتُّ الأعضادُ ويُفَتِّت الأكبادَ، أعاذنا الله من غوائل الزمان وعصَمَنا من مَكايد أهله ومخايل النَّكد وشَكْله ولا قوة إلا بالله.

قال إبْرَاهيم بْن أدهم: «أعز الأشياء في آخر الزمان ثلاثة: أخ في الله يؤنس به، وكسب درهم من حلال، وكلمة حق عند سلطان». (تهذيب الكمال: ٢/٣٥).

فأين الأخ في الله الذي يملأ العينَ جمالًا والقلبَ جلالًا والأذنَ بيانًا بحيث ترى فيه الخصال الرضيَّة والخلال المرضيَّة، لقد كان هذا في الأزمان الماضية أما الآن فلا تكاد تجد من ذلك شيئًا حتى عظُم المصابُ وعزَّ التصبُّر عنه.

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم
وبقيتُ في خَلَف كجلد الأجرب
يتأكلون مغالة وملاذة
ويُعاب قائلُهم وإن لم يشغب

لقد صرنا في حال يَحارُ فيه اللبيبُ ويَتعجَّبُ منه الأريبُ ويقعُ به في شكٍّ مريب، لكن الذي لا يقطع رجاءَنا ولا يُؤيسُنا حسنُ ظنٍّ في الله وأنه لا بدَّ أن يُوجد في النَّاس خيرٌ وإلا قامَتْ الساعة.فلسْنَا ممَّن يقول:

لا تَتْعَبَنْ فدُونَ ما حاولتَهُ
خَرْطُ القَتَاد وامْتطاءُ الكوكَب

إنما نقول مؤملين في الله أن يوفقنا ويهدينا

وما كلُّ دانٍ منْ مَرام بخاسر
ولا كل نَاءٍ عن رجاءٍ بخائب

فشمِّر عن ساعد الجدِّ ملتحفًا بحقيقة الصِّدْق تُوفَّقْ إلى أخ لك يُعينُك على أمْر دينك ويَنْصحُك ويدلُّك على الطَّريق ويُرْشدُك في السَّيْر على الجادَّة ويأخُذ بيدك إلى الله تعالى ويومَها ستجدُ من النَّاس أفْرَادًا ملكوا قَلْبَك بفَضْلهم وعَمَرُوا صَدْرَك بوُدِّهم وكلُّ هذا في ذات الله ولوجْهه الكريم وابتغَاء مَرْضَاته.

سألتُ النَّاس عن خِلٍّ وفيٍّ
فقالوا ما إلى هذا سبيلُ
بنفسك إن ظفرتَ بودِّ حُرٍّ
فإنَّ الحرَّ في الدُّنيا قليلُ

إنَّ أكثر من تراهم تبيض وساوس الشيطان في رأسهم وتفرخ وترفع نفوسهم وتشمخ.

وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الأخوة صفة نادرة ولزماننا مغادرة

الحلقة الثانية

عناية صاحب النُّبوَّة صلى الله عليه وسلم بتحقيق معاني الأُخوَّة

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

كانت عناية نبينا صلى الله عليه وسلم كبيرة بإرساء معاني الأخوة وترسيخ قواعدها وإظهار معالمها في الصحابة رضي الله عنهم، ولتكون نافعة للأجيال بعدهم فتعقدُ العُرَى وتشدّ الأواصرَ بين المسلمين وتوثّق العلائقَ بينهم.

ومما يدلُّ على ذلك الأحاديثُ التي جاء فيها ذكْرُ الأخوة، والحث على مُراعاتها، وهي كثيرة: منها ما رَبَط الإيمان وأناط الإسلامُ بالأخوَة كقوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمنُ أخو المؤمن» رواه أبو داود.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتّى يُحبَ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه» رواه الشيخان.

وقال صلى الله عليه وسلم: «المسْلِمُ أخُو المسْلم» رواه الشيخان.

وقال صلى الله عليه وسلم: «وكونوا عباد الله إخوانا» رواه الشيخان.

وشرّف النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر بقوله: «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكنْ أخي وصاحبي» رواه البخاري، وقال لأبي بكر أيضا: أنت أخي في دين الله وكتابه. وقال له أيضا صلى الله عليه وسلم: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» رواه الترمذي.

وبشّر من كان في خدمة أخيه بقوله: «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» رواه الترمذي، وقال: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» رواه أبو داود والترمذي.

وجعل المساعدة له صدقة قال صلى الله عليه وسلم: «وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة» رواه الترمذي.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من كان عنده خُبزٌ فليبعث به إلى أخيه» رواه ابن ماجه.

وجعل من النفع للأخ الدعاء بظهر الغيب وهو من أعلام المحبة وعلاماتها القوية فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ الدَّرْدَاءُ، قَالَ: قَدِمْتُ الشَّامَ، فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلَمْ أَجِدْهُ وَوَجَدْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، فَقَالَتْ: أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ لَنَا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ» رواه مسلم.

وكذا عدّ الابتسامة في وجه الأخ صدقة؛ قال صلى الله عليه وسلم: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة».

ووعد من ردَّ عن عِرْض أخيه بقوله: «من ردَّ عن عِرْض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة» رواه ابو داود والترمذي.

وأمر بنصره ظالمًا بردّه عن الظلم ونصره مظلومًا بردّ حقه عليه فقال صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» رواه البخاري.

وحرَّم النَّيْل من دَم الأخ أو من عِرْضه الأخ أو من ماله فقال صلى الله عليه وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» وقال صلى الله عليه وسلم: «فما نلتما من عِرْض أخيكم آنفًا أشدُّ من أكل منه» رواه أبو داود.

وقال صلى الله عليه وسلم: «كل مسلم على مسلم محرَّمٌ أخوان نصيران» رواه النسائي.

وجعل المؤمن مرآة أخيه بقوله صلى الله عليه وسلم: «إن أحدكم مرآة أخيه» رواه الترمذي.

ونهى عن أمور تكدّر صفو الأخوة وتمزق حبال الصلة وتقطع عروتها؛ قال صلى الله عليه وسلم: «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه».

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: «لا يسوم الرجل على سوم أخيه» رواه الترمذي وقال صلى الله عليه وسلم: «ولا يزيدن على بيع أخيه» رواه البخاري. وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يقيم الرجل أخاه من مجلسه» رواه البخاري.

Upload by: altawhedmag.com

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» رواه الشيخان.

وقال صلى الله عليه وسلم: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» رواه مسلم.

ونهى أن تسعى المرأة في طلاق أختها فقال صلى الله عليه وسلم: «ولا تسأل المرأة طلاق أختها» رواه البخاري.

وحدد حقوق وواجبات الأخوة فقال صلى الله عليه وسلم: «للمرء المسلم على أخيه من المعروف ستٌ؛ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ، وَيُشَمِّتُهُ إِذَا عَطَسَ، وَيَعُودُهُ إِذَا مَرِضَ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ، وَيَشْهَدُهُ إِذَا تُوُفِّيَ، وَيُحِبُّ لَهُ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَنْصَحُ لَهُ بِالْغَيْبِ» رواه أحمد.

الأخ الوفي والخليل الصفي والصاحب النجي:

وهو عملة نادرة في زمان التمرد والكدر والخيانة والمكر والخديعة، قال الله تعالى: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ»، وقال أيضا: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا»، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي» رواه أبو داود.

وقارب إذا قاربت حرًا فإنما
يزين ويزري بالفتى قرناؤه

إن من نعمة الله على عبده أن يوفقه لصاحب وفي وأخ نجي فمن منحه الله صاحبًا كريمًا وأخًا قويمًا فقد أجاد له اختيار الرفيق ورزقه حظه من التوفيق فليتمسك به وليعض عليه بناجذيه ولا يتجاوزه فيندم ولا يتخطاه فيُثلم ولا يسلم.

ولعل أصدق وصف فيه هو ما ذكره الله سبحانه على لسان موسى الكليم في قوله وهو يسأل ربه سبحانه: «واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا» (طه: ٢٥- ٣٣)، وقد أجابه الله بقوله: «سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون» (القصص: ٣٥).

خواطر في وصف الأخ الصادق:

لقد ندر هذا الجنس من الناس لأنه مجال ضنك، ومعترك صعب، كم زلت فيه أقدام، وضلت عنده أفهام أقوام، وافترقت بالسالكين الطرقات، وأشرف كثير من الناس على أودية الهلكات، وكأنه بات بحرا تخوضه، وأصبح صعبا تروضه، لا تأمن النجاح والظفر بالمطلوب منه، فأنت في ذلك على شك كبير ومنه في ريب قوي.

إن الصاحب الصادق في أخوته ومحبته هو أعظم من أن يصفه كلمي وينبه على شأوه قلمي، لأن الأخ الوفي والصاحب الصادق صيد ثمين كصيد الغزالة من مرابض الأسد وهذا صعب وجوده ومتعسر إيجاده وأحيانا يتعذر بالمرة لا سيما في أيام العسرة والشدة أعني عسرة الأخلاق لا عسرة القوت والمال وشدة المؤونة.

إن الصاحب الصادق تجده مجبولا على الخير لا يتصنعه ولا يتطبعه بل هو سجية جارية فلا يستطيع ان يتركه ولا يمكن أن يتخلى عنه لذا تجده في العلاقة وثيق القصب نقي العصب، يجري بأخوته في الصعداء، ويمشي فيها على الاستواء، فليس الذي تجده يصيب مرة ويخطئ أخرى أو يأتي بما يوافق المروءة حينا ويقع في ما يخالف المروءة أو ينقضها حينا آخر.

إن الأخ الصادق طويل العذار في قبول الأعذار، أمين قليل العثار عند الاستشارة وأخذ القرار، من أندى الناس راحة (الراحة: كف اليد) وأرحبهم ساحة.

الأخ الصادق يجمع ولا يشرد، ولا يفرق ولا يتمرد، ولا يطوح به نزق التمرد إلى رمي أصحابه والقدح في الصلحاء منهم والفضلاء.

الأخ الصادق مغيث لأخيه ولو كان صاحبه في بحر تجري سفينة راكبه في موج كالجبال، وتسير في معترك تتضاءل عنده شجاعة الأبطال، وتتحير فيه عقول الألباء من الرجال.

الأخ الصادق منة جسيمة وقد يكون مبدأ لمنح كريمة وأساسا لنعم عظيمة.

الأخ الوفي وثيق الصلة كالحبل الممدود والعهد المعهود، واضح سبيله راشد دليله.

الأخ الصادق ناصح أمين يقف معك بعين الإنصاف العرية عن المجاملة والمخاتلة والمخادعة والانحراف، الصاحب الدين يعينك على أمر دينك فيقلم معك أظافير الفتن ويقمع عنك نوائب الضلالة ويقلع عن نفسه وعنك نوابت الزيغ وما أكثرها في هذا الزمان.

ولهذا تجد أوصافه متعاضدة ومواقفه متناصرة وأحواله متوافرة موصولة غير معلولة ومستقرة لا مضطربة وكلها تصب في معين الخير والبر والإحسان والمروءة، كما قال القائل:

جاءت تهادى مشرفا ذراها
تحن أولاها على أخراها

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

Upload by: altawhedmag.com

الأخوّة صفةٌ نادرةٌ ولزماننا مغادرة

(آفات تقطع الأُخوة حتى الممات)

إعداد: د. عماد عيسى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين علا بهم منار الدين وارتفع، وشيَّد بهم من دينه الحنيف ما شرع، وعلى مَن سار على نهجه واتبع، وبعد فهنالك بعْض صفات وبضْعُ آفات تفسد علاقةَ الأخوّة وتقطّع رَوابطها وتفصم عُراها وهذه الصفات من وُجدت فيه من الناس أو وُجد فيه بعضُها فصُحبتهم تأتي بالداء العليل وتملأ الصدر بالشئ الثقيل، وتجعل القلب ممتلئًا بالضغينة فهو بها شغيل، بل يصير كالقدْر الذي يفُور غليانًا وله من الحُزن أزيزٌ وربما أحدثت في عقْل المرء ما هو كالتخليط وقد تسمع منه زمزمة كالأطيط من صدمة ما يَرَى من أثر هذه الآفات.

فقدُ المروءة:

فقدُ المروءَة داءٌ عُضَالٌ وسُمٌّ قتَّال أعْيَا الأطبَّاء دواؤُه وعزَّ عليهم شفاؤه؛ لأنه جبلَّة في صاحبه وطبيعةٌ لازمةٌ وسجيَّةٌ ثابتةٌ، لذا تَجدُ فاقدَ المروءَة في العادَة صُحبَتُه لا تَشْفي عَليلًا، وأخوَّته لا تَروي غليلًا، بل إنه يُحدثُ الكوارثَ ويُنزل البَلايا بنَفْسه وبمَن حوْله، فاسْتَنْقذْ نفسَكَ من إساره، واعمل على التخلُّص من ناره؛ فإنه لا عهْدَ له ولا ذمَّة لا يَبْقَى على أحَد ولا يَرْعَى أحدًا إلا لفَائدَة يُفيدُها منه، فهو جامعٌ لأمورٍ عجيبَةٍ أكثرها مساوٍ ومغاوٍ.

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوَانِي
لَمَا أمْهرْنَ إلا بالطَّلاقِ

واعلم أنّ فاقدَ المروءة تعرفُه بريبَته فهو مُرْتابُ الحال مُضطربُ الأمْر، فهو ممَّن «ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ» ومن مارَسَ لُغةَ المُرتاب عرفَه في لحْن خطابه ومواقفه الواضحة كالشَّمْس في الهُزْء والسُّخْف، فهو امْرُؤٌ بيِّن النَّقص بحيث لا يُجْبَر ولا يُدفع، مكشُوفُ الوقْص فلا يمكنه أن يتستَّر ولا أن يتقنَّع، ولا ترَى هذا المرءَ إلا نذْلًا رَذْلًا فَسْلًا، وتجد فسادَ حاله أوضحَ من النيِّرين، وأظْهَر من فَرق الصُّبح لذي عَيْنيْن، ولولا خَشْيةُ الملالَة، لَما نَكبْتُ عن الإطَالَة، لَما في هذه الفئَة من الأوْصَاف الدَّميمة، والخِصَال الذَّميمة بحيْثُ يَتعثَّر الواحدُ منهم عثَرات يَدْمَى منها الأظَلّ، ويَدْحضُ دحَضَات تُخرجه عن طريق الهُدَى إلى سَبيل مَنْ ضَلّ، ومع أن قليلَ المروءة يُجامل في المنازَعَة ويخاتل بالمخادعة ويُبَارزُ بالمقاطَعَة إلا أنه تدبّ إليْه عقَاربُ مكره ويَرُدّ اللّه كيدَهُ في نَحْره «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» واللّه غالب على أمره.

Upload by: altawhedmag.com

إن فاقد المروءة لا يُؤتمن لأنه غير أمين، فهو يخون صاحبه في ماله وأهله وإن دق.

هؤلاء الذين يفقدون المروءة لا يسلكون سبل المكارم؛ لأنه ليس من جادَة طباعهم أما اللؤمُ فهم أعرفُ الناس بسُبُله وفجاجه وطرقه

تميمٌ بطُرقِ اللؤم أهدى من القَطا
ولو سلكتْ سبلَ المكارم ضلَّتِ

الاتصاف باللؤم:

صحبة اللئام ضياع، ولحوق بالمفلسين الجياع، بينما صحبة الكرام متاع وانتفاع، فمن رام إدراك الأخوة من اللئيم فقد نفخ في غير ضَرْم أو أراد الشمَّ من أخْشَم، وهذا الأمر إن لم يكن محالًا فهو عسير غير يسير.

إن هؤلاء الذين يحملون بين جوانحهم لؤمًا كلؤم الحية وخبثًا كخبثها ومكرًا كمكر الثعلب مهما تخلّق أحدُهم بالخلق الجميل أو تظاهر به فله سوء خلق قد تجذر في طبعه أصيل لا يكاد ينزع عنه فتخلقه بالأول لا محالة زائل وهو إلى خلقه الثاني راجع وآيل كما يُطلي الذهب على النُّحاس فيزول وتظهر صُفرتُه للناس.

يا أيُّها المتحلِّي غيرَ شيمتِه
ومن خلائقِه الإقْصارُ والمَلَقُ
ارجع إلى خُلقك المعروفِ وارضَ به
إنَّ التخلُّقَ يأتي دُونَه الخُلُقُ

إن الكريم مهما فعلتَ به لا يرجع إلا إلى أخلاق الكرام، وإن اللئيم مهما أحسنتَ إليه لن يرجعَ عن أخلاق اللئام.

وهاءُ الدِّيانة وضعفُ الإيمان:

ضعيفُ الدِّيانة نَزْرُ المُروءة لا يكادُ يُصْلحُ من حالِه

حتَّى لو أُوثِقَ بالسَّلاسل والأصْفاد وضُرب بالسِّياط بلا أعْداد، وضعفاء الديانة هم أهل المقاصد الفاسدة وأصحاب القلوب التي عن نصرة الحق حائدة.

إن قليلَ الدِّيانة لا يُوجدُ عندَهُ من الخَيْر خَبَر، ولا يقفُ المرءُ منه في ذلك على عَيْن ولا أثَر، فضَرَرُ صُحْبَته جازَ حدَّ الأوْهام، وفاتَ قُوَى العُقول فمن حكَّم عقلَه واستَمْكن من رأيه وجدَ أن صُحْبَة هؤلاء تُزْهِد العُقَلاء في المرء وتُنْقص من قيمَته.

من كان ضعيف الديانة واهي الإيمان لا يعينك على الخير؛ لأنه هو نفسه يحتاج المعين قد لا يصلح من شأن نفسه هؤلاء قتلتهم الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر وغطى على عقولهم حب الدنيا السارقة سارقة العقل والدين معًا لا سارقة المال.

إن واهيَ الدِّيانة لا ينفع وقتَ الشدَّة ولا يُغيثُ عند اللَّهَف والأزْمَة، ولا يشفَعُ عند الحاجَة لأنَّه يَمْتطي مَهْزُولَ الهوى المُفْضي به إلى التَّوى، فكيف تُزيحُ عنه غطاءَ الهوى وقد استعْبَدَه هواهُ، واستحوذَ عليه فأنساه هُداهُ قال تعالى: « أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (الجاثية: ٢٣).

أخ الظاهر عدو الباطن:

احذر إخْوةَ العلانية أعداءَ السريرة وانتق صديقك ليكون جيد المظهر والمخبر، حسن الظاهر والجوهر.

إذا المرءُ لم يختَرْ
صديقًا لنفْسه
فنادِ به في الناس
هذا جَزاؤُهُ

فاحذر هذا النوع من بني

Upload by: altawhedmag.com

آدم فإن الأفاعي أخف منهم ضررًا وأهون شررًا فإنهم لا إنصاف ولا عقل ولا قلب ولا شيء.

وهذا الصنف لا يقدر على نفع نفسه فضلًا عن الغير، ولا يعمل على دفع ما ينزل بغيره من مساءة وضير؛ لأنه لا ينطوي على محبة الخَلْق ولا يحمل بين جوانحه وجوانبه الحرص عليهم.

فقلبه لا ينعقد إلا على البغضاء ولسانه لا ينطلق إلا بالمذام وهذا طبعه والطبع أملك للإنسان من أدبه.

إذا كان الطباعُ طباعَ سَوْءٍ
فلا أدبٌ يُفيدُ ولا أديبُ

إن الطبع غريزة وسجية في الناس يعزُّ التنقُّل عنه ويشقّ تغييرُه، فالحُرُّ حُرٌّ وإن مسَّهُ الضُّرّ والعبدُ عبدٌ وإن مشى على الدُّرّ.

متبع الهوى:

اتباع الهوى أمر تضطرب منه الأنفاس ويَضيقُ من ذكره القلب لأنه للشر كالأساس، فهو جالب الخطأ والعيب، وبابة الضلالة والبطالة، ومدخل الخلل والخطل، وداعية المعصية والزلل، قال تعالى: «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فيضلك عن سبيل الله»، وقالَ تعالى: «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله»، إذْ أكثر البلايا والأذايا من قِبَله، فيا أخي خاطبْ نفسك فقلْ يا نفسُ: إذا كان الهوى لكَ فأنت في الهَوالك.

وقد جاء في الصحبة المنهيّ عنها والمأمور باجتنابها قول الله تعالى: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا»، وهذه الثلاث من أشد العواطب التي تجعل الصحبة من النوائب، وتحوّلها إلى داء عضال ومرض مُرْد، فمصاحبة من كانتْ على قلبه غيومُ الغفلة، وسحائبُ البُعد عن الله، ومرافقة من ملأ الغمام سماءه حتى صار كالحجاب بين العبد ومولاه تورث المرء الغفلة، فمَثَلُه كالصحيح يُعْديه الأجربُ، وكذا ثانيهم: صاحبُ الهَوَى وثالثهم: من كانَ مُسْرفًا على نفسه ومفرّطًا في جَنْب الله تعالى.

واعلمْ أن الذي يجعلُ المرءَ مائلًا إلى اختيار هؤلاء ومتحوّلًا إليهم ومنقادًا لهم هو اتباع الهوى.

وأصبر الناس من كان رادًّا لهواه متبعًا لهداه، وهو امتحان شديد حقًّا لا يكاد ينجحُ فيه ويصبرُ عليه إلا الذين هدى الله.

ولو فتشتَ في صُحبة العباد لوجدتَ الحاملَ عليها في الغالب هو الهوى فاجعل هواك عدوًّا لك بحيث لا تطيعه بل تخالفه وتعصيه، وحينها سيكون صاحب السوء ليس من أربابك، ولا من أترابك ولن تضيع معه زمانك لئلا يُوجب ذلك عليك دخلًا، ويُدخل عليك خللًا، فترى الاضطرابَ من أمْوَاجه، والمُرَّ من أجاجه، وتراه متقلبًا كالشتاء لا يَقرُّ على حال حتى ينقضي فظلماتُه متكاثفة، وبروقُه خاطفة، ورياحه عاصفة، عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء» رواه أحمد وصححه الألباني.

نعوذ بالله من غلبة الهوى، ونسأله التوفيق لما يحب ويرضى.

Upload by: altawhedmag.com

عقد الأُخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح

إعداد: د. عماد عيسى

الْحَمْدُ للهِ عَلَى جَلائِلِ نِعَمِه، وَفَوَاضِلِ آلائِه وَقِسَمِه، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَيْرِ بَرِيَّتِه مُحَمَّدٍ وَعِتْرَتِه، وَمَنْ تَبِعَهُ عَلَى دِينِه وَمِلَّتِه، وَبَعْدُ:

فإن عقد الأخوة إذا اشتدتْ آصرتُه لم يقبل الانفصام، وإذا فسد وانطوى صاحبُه على ضدٍّ ذلك لم يقبل الالتئام، غير أن ذلك العقد لا يُحقَّق إلا بما يقتضي رفع لواء الإخاء حتى يصبح كالهدف، ولا يُوثَق إلا بعقد رايات الأخوة والحرص عليه كاللؤلؤ في الصدف، والتخلي عن الشَّبَه والشُّبَه مما يعكر الصفاء ويمنع النقاء، ولا ريبَ أنَّ الفراقَ الجميلَ خيرٌ من أُخُوَّة على دَخَن.

أركان وشروط عقد الأخوة:

الأُخُوَّة تمثّل في علاقة المسلم بأخيه عقدًا وعهدًا وثيقًا غُرَّة غرره الإخلاص والصدق ودرة دُرَره العقل والنصح، بيْد أن هذه الأخوَّة أصبحت عقدًا قد أهانه الاستعمال، وأذاله الابتذال حتى ذَبُلَ فرعُه وجفَّ ضرعُه، وأصبح هذا العقد كالكنز الذي ضُربتْ على بابه أقفالٌ حتى حِيلَ بين الناس وبينها؛ لذا وقع الفساد ودبَّت القطيعةُ، وانتشرتْ الوقيعةُ، وهذا يصعُب الوصولَ إلى المراد، ويقلُّل النجاحَ في تحقيق الغرض.

لكن لو اتخذنا من الأُخُوَّة قضيَّةً لا نحققها إلا بالذهاب في طلبها والرحلة في تحصيلها، لا سيما في زمان الإدبار والمدابرة والقطيعة والمقاطعة فقد يُكتب لنا النجاحُ أو بعضُه إذا جَرَيْنا على رَسْمها

Upload by: altawhedmag.com

ومَضيْنا على حُكمها والتوفيق بيد الله تعالى، أما إذا أهملنا هذه الصفة الكريمة فلا يزال أمرنا في إدبار وزَوَال وسعدُنا في سفال وذهب عزنا كأمس الذَاهب.

إن التداخلَ والتعاملَ بين الناس أمر جُبلتْ عليه النفوسُ ومُيِّلتْ إليه القلوب وقلّ من الناس من لا يكون كذلك؛ إذ الإنسان مدنيٌ بطبعه والإنسان مشتقٌ من الإيناس لأنه يحب الأنس وهو ضد الوحشة ولعقد التآخي شروطٌ ربما كانت مغمورة، وأركان أبوابها مهجورة، وأكثر الناس فيها لا يَرْكب متنَها بل هو أول نازل، وقليل منهم من يسير فيها وهو راجل منها:

أولًا: حسن النية:

وقد بدأت بالنية تيمنًا واستفتاحًا وتبركًا واستنجاحًا، وما أجمل النية في التآخي بأن تكون خالصة لله تعالى وحده قال تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» (البينة: ٥)، والنية ركنٌ في كل عمل من أعمال القلب والجوارح، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"، وإذا صدقت النية استقام العبد واهتدى وهل أُتينا إلا من قِبَل النيّة؟! وما وُفّق أحدٌ إلا لصحة نيته ولا خُذل إلا لفسادها، ففضل النية عظيم، ورُبَّ رجل على فراشه نائم يسبق القائم الذي لا يفتر والصائم الذي لا يفطر.

هذا لعمرُك فضلٌ ليس يجحدُهُ
إلا حسودٌ عنيدٌ ما له أدبُ

ففساد النية في الصحبة يضرُّك ولا ينفعُك ويحطُّك ولا يرفعُك، وحسن النية في الأخوة أن تكون لله وحده ورجاء شفاعة الآخرة وللحوق بدرجات الصالحين في الجنة.

وانظر إلى الصحابة والسلف بعدهم لما حسنت النية في أخوتهم كان لهم شأن آخر فبعد ما كانوا يخبطون خبط عشواء ويمشون على غير السواء ويضعفون عن حمل تلك الأعباء فالفرقة والعداوة والبغضاء كانت هي الأصل بحيث يضعونها موضع الشفاء للداء فكيف يحصلونها وحالهم كالقابض على الماء؟!

لقد تمسكوا بالحق بعد ما لاح لهم وبان وعملوا به في أعقاب نزول «وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ» (آل عمران: ١٠٣)، بالفرقان حتى جاء الحق وزهق الباطل وبان، فقربُوا منّا المسير، وهوّنوا علينا العسير، وعرّفونا كيف نسير، فاجعل من حال القوم شعارًا واتخذ أدبهم دثارًا حتى تصيب السهم المصيب، وتظفر منه بأوفر نصيب.

لقد اتخذوا الأخوة كالأمانة عرضًا، وتحمّلوها فرضًا، ومع أنّ الله تعالى خلق عبادَه على منازل ودرجات فجعل فيهم الضعيف والقويّ، والفهيم والغبيّ، والمطيع والعصيّ، والداني القريب والقصيّ، والمنقاد للخير والأبيّ إلا أنهم كانوا في الأخوّة على قُرب من قدم سواء حتّى كانوا كمدَار الأسْوَاء، وذلك لأنّ الله تعالى قد تَدَاركهم بلُطفه العظيم، ومنَّ عليهم وهو البرُّ الرحيم؛ إذ بدون ذلك كانوا لا يستطيعون حيَلًا، ولا يهتدون بأنفسهم سُبُلًا، وبعدما قطعوا في طلب مرادهم مهامه فيحًا، وكابدوا من أحوال الناس حسنًا وقبيحًا، ولاقوا من المخالفين متجهّمًا وصبيحًا، وجاهدوا من كان مانعًا حتى صار مبيحًا، وأما من أصرَّ على ضلالته وقطيعته فبعضهم عاد طريحًا ومنهم من صار بسيف الحقّ قتيلًا وجريحًا، وانقسم الناس بأخوة الصحابة إلى من أصاب عيشًا هنيئًا ومن مات لا مريحًا ولا مستريحًا.

لقد رحل أكثر أصحاب النوايا الحسنة، والصدور النقية، والنفوس الطاهرة، وبقي كثيرون ممن يغشون ويدلّسون، ويكذبون ويلبّسون حتى ظن بعض الناس أن الحال ما حال (أي ما تحول) والأمر ما زال (أي لم يتغير).

نسأل الله أن يرزقنا صدق الأخوة ومحاسنها، ويجنبنا الزلل في القول والعمل.

وللمقال بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com

الأخوَّة صفةٌ نادرةٌ ولزماننا مغادرة

عقد الأُخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح (٣)

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله المليك العلام، والصلاة والسلام على خاتم الرسل ومسك الختام، وعلى آله البررة الكرام، وصحابته الغُرِّ الأعلام، طالما جرَتْ على الصحائف الأقلام، وغرَّد على الغُصون والأفْنَان الحمامُ، ومن تبعهم على دربهم ونهجهم إلى يوم الحشر والزحام.

الصدق ركن الأخوة المتين:

هذا ركنٌ ثانٍ من تتمة أركان عقْد الأخوَّة الصحيح أزفُه إليكَ أخي الكريم كي تجعلَه أصلًا تتدبَّره، ولتَقِف عليه عند كل ضائقة وعُسْرة، وتردُّ إليْه كلَّ ما يردُ عليْك لتأتي البُيوت من أبوابها لا سيَّما في كل محنة وشدَّة، فإذا حقَّقتَ الأوَلَ وهو حسنُ النيَّة فإليكَ الثاني وهو الصَدق يأخذُ برقبَة الأوَل ويُمسك بحُجْزته.

الغرض من الصدق:

وغرضي من الكلام عن الصَدق في التآخي أن أتوصَل معك إلى مغْنَاه، وتحقيق مغْزَاه، والناس يُميِّز بينهم الصدقُ تمييزَ الطيب من الخبيث، فلولا امتحانُ الصدق لم تَعْرِف كيف يختلفُ الناس وتتفق، ولا من أين تجتمعُ وتفترق؛ إذ الناس يُقاسَوْن بالصَدق ويُوزنُون به، ولولا اشتراط الصدق في الأخوة لذهبت أحوال الناس إلى عداوات وبغض وشنئان وقطيعة فوق ما نرى حتى يصبحوا أشتاتًا وفرقًا ومزقًا.

أصناف الناس في الصدق:

فمن النَاس من يكونُ الصدقُ ركيزةً في أخلاقه وعُمْدةً في صفاته، وهذا في جَوْهرهُ شريفٌ كالذَهب الإبريز يزيدُ في قيمته، ويرتفع في قدره ويصل إلى قمَّته، فهو يدور ما بين قيمة تَغْلُو، وقمَّة منزلة تعلُو، وأنت لو اخْترتَه وكان من أهل الرضا سيقف إلى جنبك ولو كنتَ على جَمْر الغَضَا، وسيُغمد سيف الحَسَد ويربط الأخوَّة بحبلٍ من مسَد.

Upload by: altawhedmag.com

ومن النّاس صنفٌ آخر لا يَعُدُّ الصدقَ شيئًا بل يراه من صفات الدّراويش والمعتوهين، وهذا من الأغْرار وذوي الزّلَل والعثار ويكون أحدُهم كالمعدن المزيَّف لا يزيد مع الأزمان إلا رداءة وصدأ، فلا يعي وعْيَك ثم هو يحسُدُك إذا لم ينلْ سعيَك، فتجدُهُ يجعلُ محاسنَكَ عُيُوبًا وحسناتك ذنوبًا، ويرشُقُك-ما وجدَ إلى ذلك سبيلاً- بأليم السّهام، ويفْعل معك أحوالَ اللئام، ولا يصحبُك بأخلاق الدين والإسلام ويحرّف الكلم عن مواضعه، ويُوقع الأمرَ في غير مواقعه، ويعكس المعانيَ ويقلبُها، ويحرّفها عن وجوهها ويسلبُها، فهو كالنابح بالقبائح والطاعن القادح المشتغل بنشر الفضائح، شغله التّجَرّي على إخوته لا التثبُّتُ والتّحَرّي، وعمله التّغنّي بالباطل والتّجنّي.

هذا ما أرادُوا فما أحسنُوا ولا أجادُوا، وكل لبيب مقصودٌ، وعن بلوغ الغرض محاربٌ ومصدودٌ؛ ولا عجب فكل ذي نعمة محسودٌ، ومع كل أسف هذا ما جرى فيه الزمن على عاداته في مطالبته أهل الفضل بنقْصه وتراته وقصدهم بإساءاته، أما أهل النقص فهم يلهون ويلعبون ويفسدون ولا يصلحون ومع ذلك لا يكاد ينكر عليهم منكر ولا يتعقبهم متعقب في نقائصهم وهذا من بلايا آخر الزمان فالله المستعان.

لذلك كانت صحبة هذا الصنف زيغ وفساد، وكان البعد منه سلامة من العيب ونجاة من الشين ومما يخفيه الغيب، وإنّ من براهين الصدق في الأخوّة عدم المحاباة ولا متابعة الهوى، ولا الإفراط في المدح ولا التفريط في الذم، مع مصاحبة الثبات في حالتي الكُرْه والسّخط، ولزوم الحق والجادة في صفتي الرضا والغضب.

جمال صدق الأخوة وجلاله:

الصدقُ خلقٌ حسُنَ لفظُه وجاد معناه، فله حلاوةٌ في الصّدر وجلالةٌ في النّفس، من سلك مسلكه، أدرك من الطمأنينة حظًا حُرِمَه غيرُه وما أدركه، ويؤدي هذا المعنى وزيادة قوله صلى الله عليه وسلم: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنّ الصدق طمأنينة، والكذبَ ريبة" رواه الترمذي (٢٥١٨) وصحّحه.

ووجودُه للأخوّة كالحبْل الممْدُود والعهْد المعْهُود، وهو عُنوان الأخوّة فبدونه ينفسخ عقدُها وبفَواته يفُوت نسينتُها ويضيع نقدُها؛ لأنّ الصدقَ مفتاحُ الخير وإقليدُ البرّ لذا أمر الله تعالى بصحبة أهله فقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»، وقال عليه الصلاة والسلام: "إنّ الصدقَ يهدي إلى البرّ، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدُق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا" رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم(٢٦٠٧).

وقد علّق النبي صلى الله عليه وسلم الفلاح على الصدق فقال في حديث الأعرابي الذي سأل عن شرائع الإسلام ثم عاهد نفسه على الصدق في أدائها دون زيادة ولا نقصان: "أفلح إن صدق" رواه البخاري (١٨٩١) ومسلم(١١).

وقال الفضيل بْن عياض: ما من مضغة أحب إلى الله من لسان صدوق، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب. (روضة العقلاء: ص ٥٢) ولله در القائل:

الصّدق أولى ما به
دان امرؤٌ فاجعلْه دينا
ودع النّفاق فما رأيْتُ
منافقًا إلّا مهينا

واعلم أنّ الصدقَ من المناقب الحميدة والمآثر الحسنة التي تقرُّ بها عيونُ أهل العرفان، وتَشْجى بها حلوقُ أهل الطغيان، والظفر به يُحمَد أولاه ويُثْنى على أخراه، وفقدُه فقرٌ لا يُعلَم مَداه وهَمٌّ لا ينقضي مُنتهاه، وهو دليلٌ على الرُّشد كما أنه مَنبعُ الهُدى ومعدنُ الصّواب فمن رُزِقه فقَدْ وُفق إلى سواء الطّريق وهُدي وأعطي حظًا حَسَنًا من التّوفيق، ومن الشرّ نجا ووُقي، فلا ينبغي أن يأسى على ما فاته من الدنيا فهل من مدكر أم على قلوب أقفالها؟! وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك في الدّنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفّة في طعمة" (رواه أحمد (١٧٧/٢) وحسنه المنذري في الترغيب ٥٨٩/٣ وصححه الشيخ شاكر).

قيمة الأخ الصادق:

إنّ الأخَ الصادقَ يكون دائمًا ردءًا لك وظهيرًا ومعينًا، فيُشركُك في أمرك ويُشير عليك بمقتضى

Upload by: altawhedmag.com

صدقه وأمانته، ويؤمن بك إذا كفرَ النّاس، ويفي لك إذا غدَرُوا، ويعرفك إذا أنكَرُوا، ويُقبل عليك إذا أدْبَروا، فاجعَل الصدقَ وأهلَه عمادَ قَلبك وجِلاءَ بصرك تنجو وتفلح وتحسَ بالثقة لما تجدُه من راحةَ الضَّمير والوُجْدان.

إنّ صادقَ الأخوّة من يكونُ صدقُه فعلًا وطبعًا، لا قولًا وسجعًا، فيكون باطنُه وظاهرُه سواءً وتجدُ مظهرَهُ ومخبرَهُ واحدًا فلا ينطوي إلا على خيْر بلا ضيْر، بخلاف الكذّاب فإنّك ترَى فيه الخلافَ والشقاقَ، والوقيعةَ والنفاقَ، ومثل هذا لا يُفلح علاجُه، ولا يصلُح على مدى الأيّام مزاجُه ولو ظننتَ خيرًا فهو مما يتعلقُ بالظاهر أما باطنُه فلا يمكن ترميمُه، ولا يتسنّى تقويمُه لأنه أسّس على فساد، وبُنيَ على خلل وعناد. قال البحتري:

إذا ما الجرحُ رُمَّ على فسادٍ
تبيَّنَ فيه تفريطُ الطبيبِ

فتمسّك بصاحبك الصادق، واعضض عليه بناجذيك، ولا تتجاوزه فتندم، واجتهد في سلوك سبله الواضحة، وتأدب بآداب أهله اللائحة، ولعلنا إذا قمنا بذلك نحقق من أخلاق أسلافنا فيُقال: ما أشبَه الليلة بالبارحة فقد كان الأسلاف يعْتنون بالصّدق ويُعلّمونه أبناءَهم ويُوصونهم به ويؤكّدون ذلك.

قالَ إسْمَاعيل بْن عُبَيْد الله: كان عَبْد الملك بْن مراون يأمرني أن أجنّب بنيه السّمَن وكان يأمرني أن لا أطعمهم طعامًا حتى يخرجوا إلى البراز، وكان يقول: علّم بنيَّ الصدقَ كما تعلّمهم القرآن وجنّبهم الكذب وانْ فيه كذا وكذا يعني القتل. (روضة العقلاء ص: ٥١)، فاحذر فاقد الصدق فإنه تالف الظاهر فاسد الباطن.

إذا مَا المرءُ أخطأهُ ثلاثٌ
فبعْدُهُ ولو بكفٍّ من رمادِ
سلامَةُ صدرِه والصدقُ منْه
وكتمانُ السّرائر في الفُؤادِ

ثمرة تحقيق صدق الأخوة:

فإذا حققتَ الصدقَ وأخذتَ من تلك العوارف وأويْتَ إلى ظلّها الوارف فاحمد الله تعالى على تلك النّعْمة؛ إذْ قد طافَ بك مَن لطائف الخَيْر خيرُ طائف، وساعتُها لن تجدَ أيْمَنَ طَائرًا، ولا أجْمل أوّلًا وآخرًا، ولا أهْدى إلى سَبيل الإحسان، ولا أجلبَ للاستحسان من أن تتمسّك بالصّدْق في الأخُوّة.

واعلم أنّك لو أردتَ أن تَحكم في تفاضُل الأخلاق إذا أردتَ أن تَقْسم بينها حظوظَها من الاستحسان، وأن تَعْدل بينَها في القسْمة بصائب القسطاس والميزان فلن تجدَ أعظمَ جدّةً ولا أعْرقَ أصالةً ولا أجْمعَ لخِصَال الخير ولا أوْعَب لصفات البِرّ من الصّدْق فالزمْه تنجُ وتُفْلح وحينَذاك ستجدُ نفسَك بالأدب مُتحقّقًا وبحُسْن الخُلُق متخلّقًا وبصفات الطّالحين مُتعلّقًا ويكون لك في هذه الآداب قدمُ صدقٍ وساقٍ، وباع خيرٍ وساع، وكرم طباع وحسن انطبَاع، وإن رُمْتَ دليلًا فانظر إلى الصادقين وما على مُحيّاهم من البهاء والنُّور وتأمّل في قلّتهم فسترى صدقَ ما أقول.

خطورة فقد الصّدق:

بدون الصّدق تصيرُ القرائح عن تصرُّفها مغلولةً، وبفَقْده تجدُ العقولَ عن فهْمها معقولةً، ومن غيره تصبحُ الأذهانُ عن سُلطانها معزولةً، أما القلوب فتجدها خاويةً من ودائعها، ومسجونةً في مواضعها، وحينئذ لا يدل شيءٌ على سرائرها، ولا يُبرز مكنونَ ضمائرها، بل لا يظهر للعيان مدحٌ وتزيين من ذمٍّ وتهجين وحينئذ ينحل عقال الأخوّة ويُفك رباطُها فتذهب كسراب بقيعة أو كنبات بعدما كان أخضرَ يانعًا صار كهشيم تذرُوه الرّيَاح.

أخي رُبَّ صديق فاقد للصّدق فوالاك قولُه وأعجبك ظاهرُ فعلِه، ثمّ عاداكَ باطنُه وكرهك قلبُه وهذا ضرره أشد ممن لا يُظاهرك في الظاهر ولا في الباطن لأنّ الأول يصْدمُك ويفُتّ في عضُدك فتُصبح بمنزلة الزّنيم الملصَق بالقوم الذي لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذبّون دُونه بل يحطون عليه أما الثاني فهو واضح لا يخادعك وإن كان يضرُّك في العلَن.

ألا رُبَّ من تَغْتشُّه وهو لك ناصحٌ
ومؤتمنٌ بالغيْب غيرُ أمينِ

ومثل هذا المخادع لا يصلح معه إلا الصُّرْم والقطيعة، ولا يجدي معه الاختلاط أو الوقيعة، ولا تزجره إلا المنابذة لا المجابذة، فلا تشتفي منه بعلاج لفساد الفطرة منه والمزاج، فاللهم اجعلنا من الصادقين وارزقنا محبّتهم وصُحبتهم.

Upload by: altawhedmag.com

الأخوَّة صفةٌ نادرةٌ ولزماننا مغادرة

عقد الأُخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح (٤)

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على نعمه الباطنة والظاهرة وأياديه المتواترة المتظاهرة، والصلاة على خاتم النبيين ذي الفضائل الباهرة، وآله وعترته الطاهرة، وصحابته الأنجم الزاهرة، ما ضحكت أزهار الرياض من بكاء السحب الغامرة.

وبعدُ، فمن أهم الصفات فيمن تُؤاخيه وتُصاحبه وتُواخيه - لكي تَكمل أركانُ عقد الأخوة وتُستوفى شروطه- اتِّصافُ من تتَّخذه أخًا وصاحبًا بالعقل الجيد والفهم الواسع ليُحسن تعقُّل الأمور ووزنها، وهذا الركنُ هو الثالثُ في عَقْدنا الأخَوِيّ.

ثالثًا: العقل:

وهُو أجملُ حُلَّة وأجَلُّ حلْية إذ الواقف على شاطئه هو الموفَّق والمُعان، والوالِجُ في لُجَّته هو الراسخُ المعصومُ، بينما عند مَغيب العقل يُصبح الشَّخصُ الشَّاخصُ شبيهًا بالأنعام، ويلعبُ الشيطانُ به كتلاعبَ المشركينَ بالأزْلام، ولا عجب فقد رُفِعَ عنه القَلَم لما فَقَد من العِرْفان، لا يدري ما حوله كالولهان، وأمّا مع نقْصانه وبانتقاصه يَصير المرءُ كالطَّيْر مقْطوعَ الجَنَاحيْن كسيرَ الجانبَيْن، فلا هو يَمْشي ولا هو يطير، وهذا أمو قرَّرته الآيات والأخبار وشدّ معاقدَه السَّلف الأخيار، وشيّد معاقلَه العُلماء والأحْبَار النُّظَّار، وإذا اتَّضح الدليل ووضح السبيل، فلا مناصَ من الإقرار ولا موضع للإنكار.

ولولا ما يطرأ على البشر من الخطأ والزلل، ويطرق أفكارهم من العلَل، وما جُبِلُوا عليه وفُطروا من الخَلَل، لكان العاقل قريبًا من العصمة والنجاة لكن من رحمة الله تعالى أنه لم يترك العقل وحده، بل أرْدَفَه ببعْثَة الرُّسُل لبيان الشرائع والأحكام، ودلالة النَّاس على

Upload by: altawhedmag.com

طريق النجاة ودعوتهم إلى دار السَّلام، إذ إن نورَ العقل وحدَهُ لا يكفي بل لابُدَّ من الرُّسل الهُدَاة، والآمرين النَّاهين من أتباعهم الدُّعاة حتى تقوم الحجة الرسالية ولذا لا تخلو الأرض من قائم لله بالحُجَّة ولذا قال تعالى: «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى» (طه: ٣٤)، وقال أيضًا: «وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (القصص: ٤٧).

إنَّ العقلَ وإن كان حقًّا لا يُعارض، وحكمةً لا ينكسرُ قانونها وكمالًا لا يحومُ النقصُ حول حمَى كمالها إذا كان على وجهه وعلى طريق الاستواء شريطةَ أن ينضبط بالوحي المبارك من كتاب الله - تعالى- الناطق وحديث النبي - صلى الله عليه وسلم- الصادق، أمَّا إن كان يغدو ويروح بغير الوحي ويذهب ويجيء بدونه فذاك قليل الخير ناضبُ المعين، ورحم الله تعالى ابن القيم حين قال عن العقل: ومدار العلم بالوحي على الفهم والمعرفة، ووفور العقل. (زاد المعاد: ٥/٥٦٥).

إنَّ اجتماعَ الوحي الصحيح النقيّ والعقل السليم السويّ نور على نور لأنَّ العقل وعاءُ الوحي فالوحي بدون العقل ولا تُعرف معارفُه ولا تدركُ مداركه ولا تُفهم مقاصدُه ولا يُنتفع به بل يصبح كزرع في أرض بور لا حياة فيها فلا تُنبتُ كلأً ولا زرْعًا والعقل بدون الوحي كمن يمشي في الظلمات ليس بخارج منها ولهذا سمَّى الله الوحيَ نورًا في قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (الشورى: ٥٢).

قال ابن القيم: فسمَّاه روحًا لما يحصل به من الحياة، وجعله نورًا لما يحصل به الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان فحيثُ وُجدتْ هذه الحياة بهذا الروح وُجدتْ الإضاءة والاستنارة، وحيثُ وُجدتْ الاستنارة والإضاءة وُجدتْ الحياة، فمن لم يقبل هذا الروح فهو ميّتٌ مظلمٌ كما أنَّ من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل فلهذا يضرب الله المثلين: المائيّ، والناريّ معًا لما يحصل بالماء من الحياة وبالنار من الإشراق والنُّور اهـ. (الوابل الصيب: ص ١٢٤- ١٢٥).

إن المؤمن العاقل تجده كثير الخير قليل أو منعدم الشر فهو لا يكاد يؤذي الفاجرَ ولا البَرَ بل لا يضرُّ الذرّ وذلك لكمال إيمانه واكتمال فطرته وعقله، قال ابن القيم: وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرتْ قلبَه وخالطتْ بشاشتَه فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فَطَره الله تعالى عليه، فاجتمعَ له نورُ الوحي إلى نور الفطرة، نورٌ على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدتْ به فطرتُه فيكون نورًا على نور، فهذا شأنُ المؤمن يدرك الحقَّ بفطرته مُجملًا ثم يسمع الأثر جاء به مفصّلًا، فينشأ إيمانُه عن شهادة الوحي والفطرة اهـ. (الوابل الصيب: ص ١٢٣).

واعلم أنني تعمدت الإشارة إلى أهمية الإيمان مع العقل وأنه لابد من تواطؤ نور الوحي مع نور العقل وسلامة الفطرة لما غلب على الناس من فساد تصورهم وسوء ظنهم وحُسبانهم أنَّ العاقلَ هو الفصيح اللَّبق الذي يُحسن التَّلاعبَ بالنَّاس ويُجيد الوُلوج في المضائق، ويُحسن الخروجَ من المآزق وكلَّما رأوْا الرجلَ كثيرَ الكلام مُفرمًا صبًّا بالزِّحام كارهًا للعُزْلة مُحبًّا للخُلْطة قالوا هذا هو الضالَّة المنشُودَة والدُّرَّة فقودَة ولم يلتفتوا إلى ضَعْف إيمانه وقلَّة صلاته وإحسانه وتَمسُّكوا به ورجعُوا إليه في أمُورهم ورجعُوا إليه وشاوروه في شؤونهم وعدُّوه فرد زمانه، وحَسبوه قدوة أوانه، وظنُّوه وحيدَ أقرانه، وفَريدَ إخوانه وعديمَ خِلَّانه، وهذه والله من الطَّوَامّ التي بُلِي بها المسلمون على السَّواء منهم الخواص والعوامّ.

لذا وجب التنبيه على اشتراط الإيمان في العاقل ولأجل هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ" (رواه أبو داود).

ولو كان الأمر بالذكاء وحده والفقاهة

Upload by: altawhedmag.com

والفهامة لكان أولاهم بذلك أبو جهل وأبو لهب وغيرهم من كبراء قريش ممن كانوا على نصيب وافر من الخاطر العاطر في أمور الدنيا لكن أبى الله إلا أن يوفق الصالحون.

هتف الذكاءُ فقال لستُ
بنافعٍ إلا بتوفيق من الوهَّاب

فلا بد من توفيقِ الله وتيسيره ومعونته وهدايته "وما توفيقي إلا بالله"

إذا صحَّ عونُ اللهِ المرءَ لم يجدْ
عسيرًا من الآمالِ إلا مُيَسَّرا

ومن حكمة الله تعالى أن جعل الدين من عنده منزَّلًا لا بالعقل مؤوَّلًا ولا مبدَّلًا ولذا فبعض الأحكام تأتي على خلاف العقل ولعل ذلك من باب الابتلاء والفتنة ليظهر من يتبع الشرع ممن ينقلب على عقبيه، فعن علي رضي الله عنه، قال: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خفيه. (رواه أبو داود: ١٦٢، وإسناده صحيح).

وقد علَّق البخاري في كتاب الصوم أثرًا فقال: وقال أبو الزناد: إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيرا على خلاف الرأي، فما يجد المسلمون بُدًّا من اتِّباعها، من ذلك أن الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة. اهـ (صحيح البخاري ٣/٣٥).

وفي المقابل فأصل كلِّ بليَّة ومادةُ كلِّ فتنة تركُ العقل والعمَل بالهوى وهذا باب الشَّهوات والأخذ بالرأي المجرَّد وإهمال أمْرِ الشَّرع وهذا باب الشُّبهات.

قال ابن القيم: وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. (إغاثة اللهفان: ٢/١٦٧).

نعمة العقل:

اعلم أنَّ وجودَ العقل نعمةٌ كبيرةٌ فمن جهة الحُجَّة برهانُه أنور، وسلطانُه أقْهَر، وبيانه أبْهَر، ومن جهة الشَّرف فشأوُه أبعدُ، وشرفُه أجدّ وأصعدُ، ولذا كان فقدُه بلاءً وعناءً وعدمُه في الأثر أوجع وميسمُه في الشكل ألذَع، وأثرُهُ أشدُّ وحدُّه أحَدّ وهذا أمر يدركه بادي الرأي قبل الذكي اللبيب والفطن الأريب.

والصاحب العاقل معينٌ على المعروف وفاتحٌ لأبواب الخير في فعله وقوله، ففعله خيرٌ وبرٌّ، وكلامُه إحسانٌ لا تجد فيه ما يضرّ، والعاقل تجده أحوذيًّا قد أعدَّ للأمور أقرانَها.

وتعلم رجاحَةَ العقل وحدة الذهن في صاحبه بعدم ذَهَاب مُهْجته وبقاء بَهجَته.

إنَّ العاقلَ يُضمر الوُدَّ لصاحبه ولو كان ذلك على البُعد وتراخي المزار.

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الأخوَّة صفةٌ نادرةٌ ولزماننا مغادرة

عقد الأُخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح (٤)

إعداد د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، وصلى الله على رسول الله، وبعد:

فاعلم-رحمني الله وإياك- أن الأمور بغير العقل تنقلبُ عن سجيَّتها وتبتعدُ عن فطرتها، وتزول عن موضوعها فتُحمَّل ما ليس من شأنها أن تحتمله، وتؤدِّي ما لا يوجب حكمُها أن تؤديَه فيكون العقل حلًّا لما انعقد منها ومُزيلًا لمشكلها وفاتحًا لمغلقها، ورافعًا لمُقفلها، ومُيسرًا لمعضلها وفاكًّا لأغلالها، ولا عجب، فنعمة العقل تأتي الخسيس فتشرُفه، والضئيل فتفخمُه، والخامل فتنوِّه به، والنازل فترفعُه والعاطل فتحليه والمشكل من الأمر فتجليه فسبحانَ من زيَّن ابن آدم به وله الحمد والفضل وصدق الله تعالى حين قال: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» (الإسراء: ٧٠).

أثر التقوى في العقل:

جاء الأمر بالتقوى في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى: «وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ» (البقرة: ١٩٧)، وقال تعالى: «وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (الأعراف: ٢٦)، وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ» (آل عمران: ١٠٢) وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ» (التوبة: ١١٩).

ومن رأى فعل التَّقوى في عقل المرء لم يصحب إلا تقيًّا، ومن تأمَّل أثرَها فيمن حولَه لم يرافقْ إلا من اتَّسم بالتَّقوى واتَّصف بصفات أهلها، بل من شمَّ ريحَ التَّقوى وأحسَّ بأثرها ووجدَ رُوحها مَجَّت نفسُه من كان على غير ذلك، وأدركتْهُ أنفةٌ لا يستطيع لها ردًّا، ولا يملك من نفسه لها دفعًا، ومن هنا يدرك قيمة الوصية النبوية السديدة بترك مصاحبة غير المؤمن، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ». (رواه أبو داود ٤٨٣٢، وحسنه الألباني).

وَالعربُ تمدَحُ الرجُل إذا كان عاقلًا مُمَيِّزًا واسعَ الإدْرَاك حَصِيفًا فتقول: فلانٌ ذو حَصَاة وأَصَاة، وَلا يختلفُ أحدٌ في أنَّ التقوى إذا دخلتْ على العقل تُورثُه زيادةً واتِّساعًا، وإذا كان الشيءُ يَعبق برائحة ما يجاوِرُه، وينصبغُ بلونِ ما يُدانيه ويقاربُه، فاعلم أنَّ العملَ الصالحَ والتقوى لهما أثرٌ كبيرٌ في اكتمال عقل العبد وتوفيقه إلى اختيار الصواب وإحكام الجواب وما أجمل مقالة نبي الله شعيب عليه السلام حين قال لقومه: «وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (هود: ٨٨).

ومن هنا أحسن بعض العلماء الجواب حين سئل: مَنْ أعقلُ الناس؟ فقال: الزهاد، وهذا جوابٌ محكمٌ وقولٌ سديدٌ؛ لأنَّ الزاهدَ أتقى الناس لله وأنقاهم للناس وذلك لعلمه بقلَّة الدُّنيا، وحَقَارَة شأنها، وضآلة متاعها،

Upload by: altawhedmag.com

وسُرعَة انقضائها، لذا لا يطول فيها أملُه ولا يتعلق بها قلبُه، وهذا أصلٌ مهمّ في جوْدَة العقل وكماله.

ومن هنا صحّ القول بأن العقل يزيد بالطاعة حتى تنشأ للعبد به بصيرةٌ يرى بها الحق حقًّا ويُعان على اتّباعه، وينقص- أي العقل- بالمعصية فيَرى الحقَّ باطلًا ويُحرم اتباعَه ويرى الباطل حقًّا ويَقْوى على فعله، ويُنوَّر بالحسنة حتى يكونَ نورًا على نور ويُطفأ نورُه بالسيِّئة حتى يكون ظلمات بعضها فوق بعض، فإذا وجدتَ عاملًا بالخير والحسَنَات فالزمْهُ فهو من أولي الألباب، فعندهُ من البصيرة ما يُلهمُه الصَّواب، ويدلُّه على الرُّشْد، وإذا وجدتَ عاملًا بالشرّ والسيّئات فدعْهُ ولا تطعْهُ لئلا يرديَك.

وكما أنّ نورَ الطّاعة يُبارك العقْل ويجعلُ المرءَ يَرَى الحقَّ حقًّا فيَتْبَعه والباطلَ باطلًا فيردعُه ويغلبُ شيطانَه ويصرعُه، وكما أن تقديمَ الرأي على الوحْي يعطّله، فكذلك تقديمُ الهوى على العقل يُفسده ويُتلفُه.

فبركةُ الطّاعة على عقْل المؤمن أمرٌ لم يزلْ العلماء يقضون بصحَّته ويرَوْن الأخْذ بسُنَّته لأنَه بالعمل الصالح يستقيم لأهل الدّين دينُهم، ومن سلمَ له دينُه واستقام عليه فقد أصبح من أحَبّ الخلْق إلى الله تعالى.

أمّا فَقْدُ التَّقْوى وقلةُ العمل الصالح فهي متلفةٌ العقل ومنقصةٌ له بل تلحقُهُ نقائصُ الغيّ والضلال وتُدركه الضَّعَةُ والخَبَال لأنه لا يجد من العقْل ما يَحْبسه على جدّ الأمْر ولا ما يقفُ به عند الزَّجْر بل ربّما تمادى به نقصُ عقله حتى يكونَ كالبهائم العجْمَاء لا ينفعُها نُصْح ولا يضرها قُبْح بل لا يردعهم إلا ما يُوجع من حدّ الحديد وسَطْو البأس الشديد فلو لم توضع على أعناقهم السُّيوف ولو لم تُطلق فيهم الحتُوف لما ارتدَعُوا.

من أوصاف الصاحب العاقل:

إنّ العاقلَ يكونُ في أمره كلّه قصدًا وسطًا عوانًا في كل شيء بين طَرَفي قصد الأمور فتراه في مدْحه عدلًا وفي ذمّه عدْلًا، فلا يحمله الميل على الإفراط، ولا يدفعه الهوى إلى التّفريط، فهو منصفٌ لا يَحيف، وعادلٌ يميل ولا يَجْنف، لا سيَّما في زمانِ الإنصافُ فيه قليلٌ، والإقرارُ بالحقّ والاعترافُ به ثقيلٌ.

إنّ الصاحبَ العاقلَ لطيفُ الرُّوح، صادقُ اللهْجة، كريمُ المواساة حاضرُ البديهة، كما أنّه حسنُ العشْرة، موطّأ الأكناف، عفُّ الخصومة إذ له مُسكة من أدبٍ، وحظٌّ من جَودة طبْع.

أما الصاحبُ الّذي بضدّ ذلك فلا يصلحُ فسادُه مع الأيّام لفساد طويَّته، ورداءَة داخلَته وخلَّته، وغلبَة طبْعه السّيّء، فمثْلُ هذا الصّنف لا تصحُّ معاملتُه إلّا بجَفْوة وصُرم وإعراض ومُدابَرة لأنه لا يتغيَّر مع طُول الأيّام، وهل يكونُ الغثُّ يَوْمًا سَمينًا؟!

ثمَّ إنّ الصاحبَ إذا لم يكنْ عاقلًا تجدُه محرومًا فلو بلغ الرزقُ فاهُ لولّاه قَفاه، وإنّ من بلاء الزمان غلبةَ الجهل والسفه على الطّباع وذهابَ من يعمل بما يقْتضيه العقلُ الرجيح والفهم الصحيحُ، ويُذْعَن له ويطّرح الهوى ويصبُو إلى الجميل ويأنفُ القبيح، إن ذهابَ العقل أو بطلانَه وخروجَ النّاس عن سُلطانه ويأسَ الفطن الأريب أن يصادفَ عندهم سمعًا يعي أو فهْمًا يستوعب أو عقلًا يُراعي حقيقةَ الاحتياج إلى ما يرفَعُ المعرَّة ويجتلبُ المسرَّة وينْفي المضرَّة.

ومِنْ أجَلّ فوائد العقل أنّ الوحيَ المبارك يمهّد له القواعدَ ويُحْكم له العُرَى والمقاعد ثم يتركه في فَتْح المفاتح وقرْح القرائح وتفجير ينابيع الفوائد واستدعاءِ العوائد وحينئذ تجد الخيرَ الذي لا ينتهي، وتشعر بالبركة التي لا تَنْقضي، وهذا من بركة

Upload by: altawhedmag.com

متابعة منهاج النبوّة والأخذ بمعالم سبيل المؤمنين فإنّ أهل الأهواء جعلوا بين الوحي والعقل مشاقّة، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، واتّخذوا العقلَ مطيّةً للمُحادّة، فلم يتّبعوا الوحيَ المنزَّل، ولم يستفيدوا من العقل المذلَّل، فخسروا الفضيلتين ونزلوا عن المنزلتين والله المستعان.

واعلم أنّ مصاحبةَ العاقل أسرعُ للإلف وأدومُ للمحبّة وأهزُّ لعطف المودّة.

إنّ الصاحبَ العاقلَ ينتدبُ نفسَه دونك مُناضلا وينتصبُ عن عرضك مُجادلًا ويبتدرُ لمحاسنك ناقلًا، إنه شافعٌ تُدرَك به حاجتُك ومُعَزٌّ يردُّ الأحزان وواعظٌ ينهاك عن القبيح وناصح يدعوك إلى الحَسَن.

إنّ من أهمّ صفات الأخ العاقل والصاحب الفاضل أن يعترفَ بإحسانك ويقدّرك حقّ قدرك، ولا يُنكر جميلك، ويعترف بمعروفك لا رياءً ولا نفاقًا، وإنما برًّا ووفاءً وعرفانًا وامتنانًا، ومثل هذا تجودُ بنفسك من أجله، وتبذلُ له روحَك على كفِّك وأنتَ راضٍ قريرُ العين؛ لأنّه كالشِّفاء من موضع السَّقَم والدواء لمكان الداء، فإذا رُزقْت صحبةَ مثل هذا - والصحبةُ رزقٌ - فعُدَّه كنزًا من الكُنُوز التي لا يجوز التفريطُ فيها، وحصنٌ حصينٌ تلجأ إليه وقتَ احتدام الشدائد كما قيل:

ما حكَّ جلدَك مثلُ ظُفْرك
فتولَّ أنت جميعَ أمرك
واذا بُليتَ من الزّمان بحاجة
فاقصدْ لمعترف بقدْرك

حينما دعا النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر فأسلم على يديه كانت بينهما صحبةٌ وفيّة، وأخوةٌ وثيقةٌ قويّةٌ، ومع ذلك كان صلى الله عليه وسلم يعترف لأبي بكر بفضل الصحبة لما قام به الصديق من خدمة رسول الله عليه وسلم وبذل الغالي والرخيص من أجل دعوة الإسلام فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ» فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثَلاَثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لاَ، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا. (رواه البخاري في المناقب: ٣٦٦١).

وأعيذُك بالله من صاحب يأخذ مالَك، وينتفعُ برفْدك وعطائك ثم يمكرُ ويغدرُ ويُنكرُ ويفجُر فإن هذا حقودٌ ذو قسوة حسودٌ بل هذا جهد البلاء ودرك القضاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

لحى الله من لا ينفع الوُدُّ عنده
وإنْ حبلُه مُدَّ غيرُ متين
ومن هو ذو لَوْنَين ليس بدائم
على العهد خوّانٌ لكل أمين
ومَنْ هو عند العين أما لقاؤه
وأما غيبُه فخُتُون

وبالجملة فيا أخي إن كنت صادق الأخوة فاصدقْ في مودّتك وأظهرْ الخيرَ والبرَّ واسعَ في قضاء حوائج إخوانك قدرَ المستطاع فإذا فعلتَ كنتَ حارسًا لهذا العقد من النقْض والنَّقْد وحارسًا له من أطماع الشياطين إنسًا وجنًّا أن تلجَه أو تَنْقُضَه.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الأخوَّة صفةٌ نادرةٌ ولزماننا مغادرة

عقد الأُخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح

(٥)

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الْحَمد لله حمدًا يَليق بجلاله، ويَستمطر من عطاياه غيثَ نواله، ويستدرُّ من عطاياهُ وأفضاله، وَالصَّلَاة وَالتَّسْلِيم الأتمان الأكملان على سيدنَا مُحَمَّد وَآله.

أمَا بعدُ: فما يزال الحديث متصلاً عن الأخوة وعوامل بقائها، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

رابعًا: النصح:

وهو ركن وأصل أصيل من أصول الأخوة جملتُه أن تنصح أخاك وتكون دالًّا له على ما ينفعه في دينه ودنياه، ومن تصفّح أبواب فضائل الأخوة وعدّد أركان العقد الأخوي الصحيح عرفَ منزلةَ النَّصيحة في النَّفْع، وتبيّن موقعَها من إصلاح صرْح الأخوَّة وإزالة النَّقع، وعلم أنها- النصيحة- أحقّ بالتّقديم، وأسبقُ في استحقاق التّعظيم.

وهذا صحيحٌ إذ لا شرفَ إلا وهي السبيلُ إليه، ولا خيرَ إلا وهي الدليلُ عليه، ولا منقبةَ إلا وهي الداعية إليها، ولا مفخرة إلا وهي الحاملة والدالة عليها، فهي مفتاحُ الحسنات ومصباحُ المحامد، قال الشافعي: آلاتُ الرِّيَاسَة خَمْسٌ: صدْقُ اللَّهْجَة، وَكتْمَانُ السِّرّ، وَالوَفَاءُ بالعَهْد، وَابْتِدَاءُ النَّصِيحَة، وَأَدَاءُ الأَمَانَة. (السير ١٠/٤٢).

واعلم أنّ مكمنَ النّصيحة وسرَّها، ولُبَها وجوهرَها هو الغضب لله والغيرةُ على حُرُماته وحُبُّ الخير للمسلمين والحيطةُ لدين الله وصدقُ الانتماء له، فإذا اجتمعت هذه المعاني عند النصيحة أثمرتْ وآتتْ أكلها، واستطاع العبد أن يتحمل في سبيل ذلك المشاق، فاتخذ ذلك ذخيرةَ عند الاتفاق، وعُدَّةً لدى الوفاق، ففُتِحَ ما كان مُقْفَلًا، وفُصّل ما كان مُجْمَلًا، وشُفيتْ نفسُهُ العليلة، وشُحذتْ همَّتُهُ الكليلة، واتَّخذ النَّصيحة عَملًا جليلًا، وجعل منها صاحبًا وخليلًا، وأقبل عليها بعد ما كنتَ عنه صادفًا، وثاب إليها بعد ما كنتَ لها مجانفًا.

Upload by: altawhedmag.com

قال ابن القيم: القلبُ كلما كانت حياتُه أتمَّ كان غضبُه لله ورسوله أقوى وانتصارُه للدين أكمل.اهـ.

ولهذا تجد الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في زيادة إيمان وصلاح حال مع الله فييسر لهم طريق العبادة ويبارك لهم في أعمارهم وأعمالهم فالحق بهم قبل الفوات.

فالنصيحة إذن حياة القلب وبدونها يذوي ويضعف فيجف الإيمان فيه بعد غزارته، ويبس بعد نضارته، ويذبل عُودُه بعد رطوبته، ويبشع مذاقُه بعد عذوبته.

قيمة النصيحة وأثرها في الناس:

النصيحة خلق عظّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم ورفع شأنَها حين حصر الدين فيها فقال صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (رواه مسلم عن تميم بن أوس الداريّ رضي الله عنه).

وهذا الحديثُ أحدُ الأحاديث الّتي يدُورُ عليها الفقهُ، قال الإمام أبو داود "صاحب السنن": الفقهُ يدورُ على خمسة أحاديث: «الحلالُ بيّنٌ والحرامُ بيّنٌ»، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا ضررَ ولا ضرار»، وقوله «الأعمالُ بالنيّات»، وقوله «الدينُ النصيحة»، وقوله: «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه»، «وما أمرتُكم به فأتوا منه ما استطعتُم». (جامع العلوم والحكم: ١/٦٣).

وكلامنا في هذا الحديث عن نصيحة عامة المسلمين من الأقارب والأرحام والأصحاب والأخدان والخلان وغيرهم من المسلمين إذ النصيحة لا تكون لغيرهم.

قال الإمامُ أحمدُ رحمهُ الله: ليس على المسلم نصحُ الذمّيّ، وعليه نصحُ المسلم، وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «والنصحُ لكلّ مسلم، وأن ينصح لجماعة المسلمين وعامّتهم». (جامع العلوم والحكم: ١/٢٢٥).

وكلمة النصيحة كلمة جامعة لئن أوجز لفظها فلقد أشبع منها المعنى وأطيل المغزى، فهي تملؤك روعة، وتحضرُك بها الهيبة، وتحيط بالنفس هالتُها، لما فيها من مزية ظاهرة، وفضيلة قاهرة، ولا يشعرُ بذلك إلا جدّ في الأخذ بها واجتهد.

قال ابن حجر: قَوْلُهُ: " الدِّينُ النَّصِيحَةُ " يُحْتَمَلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْمُبَالَغَةِ أَيْ مُعْظَمُ الدِّينِ النَّصِيحَةُ كَمَا قِيلَ فِي حَدِيثِ " الْحَجُّ عَرَفَةُ " وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِهِ لِأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرِدْ بِهِ عَامِلُهُ الْإِخْلَاصَ فَلَيْسَ مِنَ الدِّينِ، وَقَالَ الْمَازِرِيُّ: النَّصِيحَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ نَصَحْتُ الْعَسَلَ إِذَا صَفَّيْتُهُ يُقَالُ: نَصَحَ الشَّيْءَ إِذَا خَلُصَ، وَنَصَحَ لَهُ الْقَوْلَ إِذَا أَخْلَصَهُ لَهُ أَوْ مُشْتَقَّةٌ مِنَ النصح وَهِيَ الْخِيَاطَةُ الْمَنْصِحَةُ وَهِيَ الْإِبْرَةُ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَلُمُّ شَعَثَ أَخِيهِ بِالنُّصْحِ كَمَا تَلُمُّ الْمَنْصَحَةُ وَمِنْهُ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ كَأَنَّ الذَّنْبَ يُمَزِّقُ الدِّينَ وَالتَّوْبَةُ تَخِيطُهُ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: "النَّصِيحَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ مَعْنَاهَا حِيَازَةُ الْحَظِّ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ وَهِيَ مِنْ وَجِيزِ الْكَلَامِ بَلْ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ كَلِمَةٌ مُفْرَدَةٌ تَسْتَوْفِي بِهَا الْعِبَارَةَ عَنْ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ".

وقال ابن حجر: "وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي قِيلَ فِيهَا إِنَّهَا أَحَدُ أَرْبَاعِ الدِّينِ وَمِمَّنْ عَدَّهُ فِيهَا الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ الطُّوسِيُّ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ: بَلْ هُوَ وَحْدَهُ مُحَصِّلٌ لِغَرَضِ الدِّينِ كُلِّهِ لِأَنَّهُ مُنْحَصِرٌ فِي الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرَهَا".اهـ (فتح الباري ١/٥٧).

وللإمام الذهبي تعليق ذهبيّ على حديث " الدين النصيحة " قال فيه: "فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الكَلِمَةَ الجَامِعَةَ، وَهِيَ قَوْلُه: (الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ)، فَمَنْ لَمْ يَنْصَحْ للهِ وَلِلأَئِمَّةِ وَلِلعَامَّةِ، كَانَ نَاقِصَ الدِّيْنِ.

وَأَنْتَ لَوْ دُعِيتَ- يَا نَاقِصَ الدِّيْنِ- لَغَضِبْتَ، فَقُلْ لِي: مَتَى نَصَحْتَ لِهَؤُلاَءِ؟ كَلاَّ وَاللهِ، بَلْ لَيْتَكَ تَسكُتُ، وَلاَ تَنطِقُ، أَوْ لاَ تُحَسِّنُ لإِمَامِكَ البَاطِلَ، وَتُجَرِّئُهُ عَلَى الظُّلْمِ وَتَغُشُّه، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَقَطَتْ مِنْ عَيْنِه، وَمِنْ أَعْيُنِ المُؤْمِنِيْنَ، فَبِاللهِ قُلْ لِي: مَتَى يُفْلِحُ مَنْ كَانَ يَسُرُّهُ مَا يَضُرُّهُ؟ وَمَتَى يُفْلِحُ مَنْ لَمْ يُرَاقِبْ مَوْلاَهُ؟

وَمَتَى يُفْلِحُ مَنْ دَنَا رَحِيْلُهُ، وَانْقَرَضَ جِيْلُهُ، وَسَاءَ فِعْلُهُ وَقِيْلُهُ؟

فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا نَرْجُو صَلاَحَ أَهْلِ الزَّمَانِ، لَكِنْ لاَ نَدَعُ الدُّعَاءَ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَلْطُفَ،

Upload by: altawhedmag.com

وَأَنْ يُصْلِحَنَا، آمين.اهـ (السير:١١/٥٠٠).

كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه عند إسلام أحدهم على النصيحة للمسلمين وهذا مما يزيد في الصلة ويشد الآصرة ويقوي اللحمة؛ فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: "بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ" (رواه البخاري ٥٧، ومسلم ٥٦).

وإنما أشار النبي إلى قدر النصيحة وقيمتها فهي تشفي ما في الصدر من السوّال وترد عنه الغي والضلال، فهي طب ودائع الصدور لا سيما إذا خرجتْ بإخلاص وجودة بيان وإقامة الحجة والبرهان، ثم إنها مع حسن القصد دليل على امتلاء الصدر بالخير تجاه المسلمين وأمارة على عمارة القلب بتقوى عالم الغيب وآية تدل على استيلاء حب الخير للغير وهذه كلها تأتي من وراء أكمة الإيمان وحب البرّ والإحسان.

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: "الْحُبُّ أَفْضَلُ مِنَ الْخَوْفِ، أَلَا تَرَى إِذَا كَانَ لَكَ عَبْدَانِ أَحَدُهُمَا يُحِبُّكَ، وَالْآخَرُ يَخَافُكَ، فَالَّذِي يُحِبُّكَ مِنْهُمَا يَنْصَحُكَ شَاهِدًا كُنْتَ أَوْ غَائِبًا لِحُبِّهِ إِيَّاكَ، وَالَّذِي يَخَافُكَ عَسَى أَنْ يَنْصَحَكَ إِذَا شَهِدْتَ لَا يَخَافُ وَيَغُشُّكَ إِذَا غِبْتَ وَلَا يَنْصَحُكَ" (جامع العلوم ٢١٩/١).

وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ: "النَّصِيحَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ تَتَضَمَّنُ قِيَامَ النَّاصِحِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ بِوُجُوهِ الْخَيْرِ إِرَادَةً وَفِعْلًا.

وَالنَّصِيحَةُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ: إِرْشَادُهُمْ إِلَى مَصَالِحِهِمْ، وَتَعْلِيمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَسَتْرُ عَوْرَاتِهِمْ، وَسَدُّ خَلَّاتِهِمْ، وَنُصْرَتُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَالذَّبُّ عَنْهُمْ، وَمُجَانَبَةُ الْغِشِّ، وَالْحَسَدُ لَهُمْ، وَأَنْ يُحِبَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُهُ لِنَفْسِهِ، وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ. انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ". (جامع العلوم: ٢٢٣/١).

وزاد ابن رجب فقال: "وَمِنْ أَنْوَاعِ نُصْحِهِمْ بِدَفْعِ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهِ عَنْهُمْ إِيثَارُ فَقِيرِهِمْ وَتَعْلِيمُ جَاهِلِهِمْ، وَرَدُّ مَنْ زَاغَ مِنْهُمْ عَنِ الْحَقِّ فِي قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ بِالتَّلَطُّفِ فِي رَدِّهِمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالرِّفْقُ بِهِمْ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَحَبَّةً لِإِزَالَةِ فَسَادِهِمْ وَلَوْ بِحُصُولِ ضَرَرٍ لَهُ فِي دُنْيَاهُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: وَدِدْتُ أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ أَطَاعُوا اللَّهَ وَإِنَّ لَحْمِي قُرِضَ بِالْمَقَارِيضِ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي عَمِلْتُ فِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَعَمِلْتُمْ بِهِ، فَكُلَّمَا عَمِلْتُ فِيكُمْ بِسُنَّةٍ، وَقَعَ مِنِّي عُضْوٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرَ شَيْءٍ مِنْهَا خُرُوجُ نَفْسِي". (جامع العلوم:١/٢٢٣).

وقال ابن رجب: "وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَأَنْ يُحِبَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ، وَيُشْفِقَ عَلَيْهِمْ، وَيَرْحَمَ صَغِيرَهُمْ، وَيُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ، وَيَحْزَنَ لِحُزْنِهِمْ، وَيَفْرَحَ لِفَرَحِهِمْ، وَإِنْ ضَرَّهُ ذَلِكَ فِي دُنْيَاهُ كَرُخْصِ أَسْعَارِهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ فَوَاتُ رِبْحِ مَا يَبِيعُ مِنْ تِجَارَتِهِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا يَضُرُّهُمْ عَامَّةً، وَيُحِبُّ صَلَاحَهُمْ وَالْفَتَهُمْ وَدَوَامَ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ، وَنَصْرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَدَفْعَ كُلِّ أَذًى وَمَكْرُوهٍ عَنْهُمْ".اهـ (جامع العلوم ٢٢٢/١).

إن النصيحة للمسلمين من أحب الأعمال إلى الله تعالى فبها بلغ الأئمة منزلة الإمامة في الدين.

قَالَ ابْنُ عُلَيَّةَ فِي قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الْمُزَنِيِّ: مَا فَاقَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ كَانَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِهِ الْحُبُّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالنَّصِيحَةُ فِي خَلْقِهِ. وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: مَا أَدْرَكَ عِنْدَنَا مَنْ أَدْرَكَ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، وَإِنَّمَا أَدْرَكَ عِنْدَنَا بِسَخَاءِ الْأَنْفُسِ، وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ، وَالنُّصْحِ لِلْأُمَّةِ. (جامع العلوم والحكم:١/٢٢٥).

أمّا تركها فلا يكون إلا لبذور نفاق في القلب غالبًا ولا ينكر ذلك إلا من فقد حسّه وغالط نفسه.

ومثل هذا إذا قال قولًا أو نصح نصحًا فما سدّى وما لحم، ولا قارب ولا اقتحم؛ لأنه يغرُّ صاحبه بالثناء الكاذب، ويخدعه بالإطراء المتجوز، وقد يجادل بالباطل، ويموّه على إخوانه، وقد يخلط الغثّ بالسمين والدُّرّ بالخرز المهين؛ فلا يسدّد في مَعْنًى، ولا يُوفّق في مَغْنًى.

والحمد لله رب العالمين

Upload by: altawhedmag.com

الأخوَّة صفةٌ نادرةٌ ولزماننا مغادرة

عقد الأُخوَّة الصحيح لا ينقطع على طول الزمان الفسيح

(٦)

(من صفات الناصح الأمين)

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الْحَمد لله عَلَى إحسانه وإنعامه، وإرشاده للْقيَام بالسنة والهامه، وَأشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا اللَّه وحده لَا شريك لَهُ شَهَادَة دائمَة بدوامه، وَأشْهد أَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله خَاتَمُ رُسُله ومسك ختَامه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آله صَلَاة مقرونَة بسلامه، وبعد:

فَمن تأمَّل النَّصيحة، وعَرَف مَعْنَاها، ولَحَظ مَغْزَاها، وعَلم مَوْقعها منَ الدِّين، ونظَرَ فيها نَظَرَ المتثبِّت الحَصيف الرَّاغب في اقْتدَاح زِنَاد العقل، من أجْل الازْديَاد من الأجْر والفَضْل، وقع له الاشْتيَاقُ للوقُوف على حَقَائقها، وحصَلَ التَّوقُ للوُلُوج في مَضَائقها، والتَّغلغُل إلى دَقَائقها، جعَلَنا اللَّه تَعَالَى ممَّن همُّه النُّصح، وغايتُه الدَّلالة على الخير، وبُغْيَتُه هداية النَّاس إلى الصِّراط المستَقيم ابتغَاء مرضَاة اللَّه تَعَالى وحسْبَةً له سبحانه، ونعوذُ به أن نتصدَّى لما لا نحسنُ أو أن يغرَّنا باللَّه الغرور.

وحديثُنا هذه المرَّة عن بعض صفات النَّاصح الأمين وهي كثيرةٌ؛ إذْ إنه لا يكون المرء حقيقًا بهذا الوصف جديرًا به، حتَّى يجمعَ صفات كثيرةً قد يطولُ سردُها، ويكثُر تَعْدادُها، ويحسن بنا عرضُ رؤوسها كحُسْن القَصْد، وتَجْويد الكَلام، والحرْص على اختيار الوقْت الملائم والزَّمان المناسب، والأخذ بالإسْرار.

وأول ما يَنْبَغي أنْ يعلَمَه النَّاصح الأمين أنه سائرٌ على دَرْب النبيين، مقتدٍ بهم، متبعٌ لهديهم، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (الأعراف: ٦٢)، وقال تعالى على لسان هود عليه السلام: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ» (الأعراف: ٦٨).

ومتصف ببعض أوصاف الآمرين الناهين، قال تعالى: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ

Upload by: altawhedmag.com

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ » (القصص: ٢٠).

قَالَ مَعْمَرٌ: كَانَ يُقَالُ: أَنْصَحُ النَّاسِ لَكَ مَنْ خَافَ اللَّهَ فِيكَ. (جامع العلوم: ١/٢٢٥).

وإليك بعض الخواطر في شأن الناصح وبعض أوصافه:

إن الأخ الناصح تجده منصفًا متحريًا للصواب غيرَ مُحَابٍ للقريب ولا مُجَافٍ للغريب.

إن الأخ الناصح يصل أخاه بنصحه وتفقده، وبرِّه وتعهده، فلا يداريه ولا يماريه؛ إذ المِرَاء يُفسد الصداقةَ العتيقةَ، ويحلُّ العُقدة الوثيقة، وأقل ما فيه وقوع المغالبة وهي من أمتن أسباب القطيعة وقديمًا قالوا: إذا كان لك صاحبٌ فلا تحاسبْه ولا تناسبْه، وهذا صحيح فكلاهما في كثير من الأحوال يؤدي إلى المراء، والقيل، والقال، والتنافس فينفرط عقد التآخي وتُحلُّ عُقدة الأُخُوَّة وينفسخُ عَقْدها كما قيل:

حسدُ القرابةِ للقرابةِ قُرْحةٌ
أعيتْ عوائدَها وجُرحُ أقدمُ

الأخ الناصح لا يغشُّك ولا يخدعُك بل هو مخلص لا يخلط هذا على ذاك ولا يجمع بين الصدق والكذب ولا يضم النصح إلى الغش فإن هذا لا يفلح ولا ينجح كما قيل:

ومن يخلط الماءَ الزلالَ بآجنٍ
من الماء يخبثْ لا تَطيب مشاربُه

أولاً: حسن القصد بالنصيحة:

النصيحة عملٌ، ولا يُقبل العملُ إلا بشرطيْه: إخلاص ومتابعة السُّنَّة، وفي الحديث الفرد المشهور قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» (متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه).

ومعناه تصحيح النية وإحضارها وتصفيتها من حظوظ النفس ومن الأغراض الفاسدَة والأغراض الكاسدَة، وهذا المعنى وإن كان حصوله عزيزًا إلا أنه تسكن إليه النفوس الصادقة والقلوب الصافية سكون الصادي إلى برد الماء.

قال علي بن المديني حدَّثنا سُفيان بن عيينة قَالَ: قلت لمِسعر: تحبُّ أن يُخبرك رجل بعيوبك، قَالَ: أمَّا أن يجيء إنسان فيوبِّخني بها فلا، وأما أن يجيء ناصحٌ، فنَعَم. (روضة العقلاء: ص١٩٦).

المؤمنُ الناصحُ شعارُهُ في ذلك ما قاله الأنبياءُ لأقوامهم: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فهو يقصد بنصيحته النصيحة لا الفضيحة ويرجو بها التذكير لا التشهير ويريد من ورائها التغيير لا التعيير، ولا يعمد إلى ازدراء الناس ولا التنقص والافتراء ولا التطاول عليهم ولا التشاغل بانتقاصهم والطعن عليهم.

ورحم الله الشَّافعيَّ حين قال: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا عَلَى الغَلَبَةِ إِلَّا عَلَى الحَقِّ عِنْدِي، مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا إِلَّا عَلَى النَّصِيحَةِ». (السير: ١٠/٢٩).

وإنما نبَّهتُ على تلك الآفات لأنَّ الدَّخل الذي يدخل على النَّصيحة يكونُ منها في غالب الأحيان فيكدِّرُ صفاءَها ويعكرُ صفوَها ويحوِّل جهتَها ويقلبُ قبلتها الصحيحة.

ومن تأمَّل أحوالَ من يتزيَّون بزيِّ الناصحين وجَدَ أكثرهم لا يخلو من تلك الآفات فاعرفْ ذلك فإنه أصلٌ كبيرٌ عظيمُ النَّفع كثيرُ الغَنَاء، ومع ذلك زلَّتْ فيه أقدامٌ، وضلَّتْ عنه أفهامٌ ومرجَتْ بتركه عقولٌ، وضاعتْ بضَيَاعه أصولٌ ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار.

ويتَّضح النُّصح الخالص والوُدُّ النَّقي والصحبةُ الوفيةُ عند الشَّدائد والملمَّات والنَّوازل كما وقع من أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى، فإن الناس اضطربوا ومرجوا يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ من عمر رضي الله عنه- وهو أشد الناس صحبة للصديق رضي الله عنه أن قال: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام الصديق خير قيام ونصح عمر والناس حتى استوعبوا هذا الحدث الجلل ووَعَوْه ببركة صُحبة الصِّدِّيق رضي الله عنه.

Upload by: altawhedmag.com

ثانيا: اختياره الوقت الأفضل والزمان الأمثل:

توجيه النصح كوضع البَذْر في الأرض له زمانُه وأوانُه، فليْسَ كلّ وقت يكون المرءُ مهيأ لقبول النصيحة، إذ لكُل تُرْبَة غرْسٌ، ولكُل بنَاء أسٌّ، بل ربما لعدم تحرّي الوقت الأنسب تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وقد يكون المرء بفَقْد التفقُّد لحال المدعُو صادًّا عن دعوته من حيثُ لا يشعر، وحينها يكون الصمتُ عن النَّصيحة أرْجَى لها والسكوتُ عن الإفادة أزين من الكلام، فمن المواطن ما يكون البيان فيها عدم البيان بل يكون عدم النطق أفضل ما يكون من النطق وأتم ما يكون بيانًا إذا لم تُبنْ، وهذه جملة قد تنكرُها حتى تَخْبُر وتدفعُها حتى تنظُر. فتنبَّه رحمك الله تعالى كي لا تندم ولئلا تحرم الأجر والمثوبة، ولئلا يحال بينك وبين التوفيق والمعونة الربانية.

واجعل لنصيحتك تمهيدًا وأعدَّ لها تَوْطئةً وقدّم لها فليس نصحك بالشيء بغتة غفلاً كنصحك بعد التنبيه والتقديم له، فهذا يشبه من يلوّح قبل أن يصرّح.

ثالثًا: الإسرار بالنصيحة:

وذلك بأن يعظ المرءُ من يريد موعظتَه ونُصحَه سرًّا، ولعل هذا سرٌّ من أسرار البدء بالدعوة السرية مدة ثلاثة أعوام في مهد دعوة الإسلام على يد نبينا محمد قدوة الأنام صلى الله عليه وسلم، فإن المرء حينئذ يكون أقرب إلى قبول النصح حتى تشعر أحيانًا أن بعض المنصوحين تُذلَّل لك مصاعبُه، ويَسهُل قيادُه، ويُسلِمُ ناصيتَهُ لمن ينصحُه وهذا أمرٌ بيِّنٌ لا يُدفع، وظاهرٌ مكشوفٌ لا يتقنَّع، فسبحان من قلوب العباد بين أصابعه يقلبها كيفما شاء.

إن النصح على الملأ يضيق الصدر ويوغره ويحيل الطبع ويفسده ويقلب الخُلُق ويكدر العقول ويغير الأفهام، ولذا تجد عندها الوجه عبوسًا والخير محبوسًا، والكلام كالوعيد والبصر حديد والشر يفيض والخير يغيض.

قال ابن حبان: «النصيحة تجب على الناس كافة على مَا ذكرنا قبل، ولكن إبداءها لا يجب إلا سرًّا لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه ومن وعظه سرًّا فقد زانه، فإبلاغ المَجْهود للمسلم فيما يزين أخاه أحرى من القصد فيما يَشينه».

وقال ابن رجب: «وَكَانَ السَّلَفُ إِذَا أَرَادُوا نَصِيحَةَ أَحَدٍ، وَعَظُوهُ سِرًّا حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَهِيَ نَصِيحَةٌ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ فَإِنَّمَا وَبَّخَهُ».

وَقَالَ الْفُضَيْلُ: «الْمُؤْمِنُ يَسْتُرُ وَيَنْصَحُ، وَالْفَاجِرُ يَهْتِكُ وَيُعَيِّرُ».

وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّاد: «كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ إِذَا رَأَى الرَّجُلُ مِنْ أَخِيهِ شَيْئًا يَأْمُرُهُ فِي رِفْقٍ، فَيُؤْجَرُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَإِنَّ أَحَدَ هَؤُلَاءِ يَخْرُقُ بِصَاحِبِهِ فَيَسْتَغْضِبُ أَخَاهُ وَيَهْتِكُ سِتْرَهُ».

وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ أَمْرِ السُّلْطَانِ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقَالَ: «إِنْ كُنْتَ فَاعِلًا وَلَابُدَّ، فَفِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ» (جامع العلوم والحكم: ١/٢٢٥).

وبهذه الأوصاف في النصح يقطع الناصح عذر المنصوح، ويقيم الحجة عليه، ويغلق عليه أبواب الرد والهروب، ويهديه لرشده، ويعينه على ملازمة الصواب بدلالته على ما أضاع من حظه، ويأخذ بيده لتدارك ما فرَّط في جَنْب الله تعالى.

عن علي بْن المديني عَن سُفْيَان قَالَ: «جاء طلحة إلى عَبْد الجبار بْن وائل وعنده قوم فسارَّه بشيء ثم انصرف فقال: أتدرون مَا قَالَ لي؟ قَالَ: رأيتك التفتَّ أمس وأنت تصلي».

قال ابن حبان: «النصيحة إذا كانت على نعت مَا وصفنا تقيم الألفة وتؤدي حق الأخوة».

وعلامة الناصح إذا أراد زينة المنصوح له أن ينصحه سرًّا وعلامة من أراد شينه أن ينصحه علانية. (روضة العقلاء: ص ١٩٧).

فيا أخي اعمل بما تسمع عن خير الورى بادر إليه لا تكن مقصّرًا.

نسأل الله أن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيئ الأخلاق والأعمال، إنه جواد كريم.

Upload by: altawhedmag.com

كيفَ يُعرَفُ الحقُّ في أزمنة الفتنِ المزمنة؟

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة والنعمة المسداة ومن تبع هداه، وبعدُ:

فهذا مقالٌ أكتبُهُ نصيحةً لأهل الإسلام؛ فالمؤمنُ ناصحٌ لإخوانه، والمنافق شامت فيهم وغاشٌ لهم، وأسأل الله أن يزيح عَنَا غطاء الهوى، وأعوذ بالله من طغيان القلم.

وقد حاولتُ أن أذكرَ فيه بعض الأصول والقواعد التي تَجْمع المتَفَرِّق، وتُنير المَعالم، وتزيلُ الإشكال، وتُعالجُ بعضَ فاسد المفاهيم وسيّئ الخلال، وتُوضّح المُشْتَبه، وتُفَسّر المشكل لا سيما عند الالتباس، وتيسر الضبط للمسير خاصة عند الاشتباه، وتعين على الفهم، وتقوّم المعوجّ، وتسلكُ بالقاصد السبيلَ الآمنَ والطريقَ الجَدَدَ، لا الطريق الوَعْرَ ولا سبيلَ العثار، والأعمال بالنيّات، وقد جمَّلْتُه بحُسْن الدِّيباجة ليكون في أجْمل حُلَّة وأجلّ حلْيَة فالكلام الحَسَن كنَوَافث السِّحْر يصبُو إليه القلبُ، والنفس لا تنجَذبُ إلا لمعْنًى لطيف يظهرُ في لفظ شريف يكسُوهُ قبولًا ويورثُه أثرًا في النُّفوس لما فيه من صفاءِ السَّبْك وبهاء السَّلْك فأقول:

الفتن أسباب وآثار:

إنّ الفتن التي مُنيت بها الأمة الإسلامية، ورُميت حتى جرتْ دماءٌ، وسُلَّتْ سيوفٌ، وحُمل سلاحٌ وسقطتْ جَماجم، وأزهقَت أنفسٌ، وذهبتْ أرواحٌ، وأتلفتْ أموالٌ، ودون ذلك أمور وفوق ذلك أمور، وكل ذلك بسبب تلك المسالك التي سلكها مَن لا يعرفون الفتن ولا يميزونها، ومشتْ وراءهم طوائف مخدوعة ببهرج زائف، ومنخدعة بسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، ثم كان ما كان من توابع

Upload by: altawhedmag.com

وآثار مدمِّرة ممَّا أسْمَوْه أسماءَ ما أنزل الله بها من سلطان وما تَبِع ذلك من خلاف واختلاف حتى تفرَّقوا أيادي سبأ وتَمزَّقوا كل مُمَزَّق، وتخالفَ أقوامٌ كانوا أمَّةً واحدةً، وتحالفَ آخرون مع آخرين بعدما كانوا فرائق بددًا، وترتَّب على ذلك أيضًا توقُّف المسيرة العلمية، وتأخُّر القوافل الدَّعوية وتعطُّلها، وسُقوط رموز بدعاوى فارغة لا تُغني من الحقّ شيئًا وسُقوط أقوام بما أتَوا من البُهتان وولغوا فيه من الزُّور، وخُفوت أعلام باجتهادات قد يزلُّ فيها أحدُهم غيرَ قاصدٍ الخطأ ولا متعمِّدَه، ثم ارتفعتْ على إثْر ذلكَ أقزامٌ، وقامتْ أزلامٌ، وظهرتْ للباطل أقلام، وبدتْ وجوهٌ علمانية، وتكلمتْ ألسنةٌ مُلحدة شقيَّة، وكشَّرَ الباطلُ عن أنيابه وركبَ أهلُهُ كلَّ مفسَدَة، وعَلا جندُه على جند الإيمان، وظهرَ الباطلُ على الحقّ؛ لأن أكثر القلوب غير ملازمة له بجهْل أو عِنَاد، بل السوادُ الأعظمُ مجافٍ لهذا الحق ومتجافٍ عنه، وهذه أشد محنة تنزل بالمسلمين حين يظنون بالله الظنونا ويبتئس بعضهم «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا».

ومن كلام العرب: إذا طرَتْ فَقَعْ قَريبًا، غيرَ أنَّ قَوْمَنا طارُوا وراء الفتن بعيدًا بهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وإنما كتبتُ هذا المقال بعد أن حضرني هذا المعْنى وأنا أقرأ سورة يوسف عند قوله تعالى: «الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ»، وجالَت في خاطري بعض هذه المعاني، فلم أجد بدًّا من أن أفصح عما يجولُ في نفسي منذ سنوات، وهو من الوفاء لأمَّتي وكما قيل: دارُ الوفاء لا تخلُو من كريم ولا يستقرّ فيها لئيمٌ.

واعْلَم أنّ الجوابَ على هذا السؤال ليس مما تهونُ إضاعتُه، ولا تُبْخَس بضاعتُه؛ لذا عقدتُ العزم على الجواب عليه بما فتح الله به، فإنَّه لا يختلف اثنان، ولا ينتطح عنزان في حقيقة واضحة كشمس النهار المضيئة وقمر الليل المنير أن أزْمنتَنا قد أزْمَنَتْها الفتن، وآذتْها وأزَمَتْها المحَنُ حتى خُيِّل للناس أن الخير في نُضُوب، وأن الحقّ قد لَحِقَ أهلَه ضعفٌ ولغوب، ومسَّهُم قحْطٌ ونُضُوب، حتى كاد أمرُهم أن يؤول إلى اضْمِحْلال وذهاب، وعدم رجوع إلى الصواب وإياب، وبعضهم معذور في ذلك لشدَّة غليان هذه الفتن حتى لكأنها القدور التي لها أزيز.

أسس النجاة:

أوَّلًا: الحرص على مُوافقة الكتاب، والسنَّة، وما عليه سلفُ الأمَّة:

هذه الركائزُ الثلاثةُ: الكتاب العزيز، والسنَّة المشرفة، وما عليه سلفُ الأمَّة من منهاج النبوة، تُفصح عن شَيْئين مهمَّيْن، وتُبين عن محورين رئيسيْن في معرفة الواقع وإدراك فقه المراحل:

أولُهما: هو الدليل على الحق من الكتاب الناطق، والحديث النبوي الصادق.

وثانيهما: هو الفهم العملي والتطبيق الصحيح المستلْهَم من السَلف الصَالح الذين هم عمدتُنا، ومُعوَّلُنا في فهْم ذلك النصّ المتلوّ والمرويّ، وهؤلاء القومُ هم الأمناء فلا بد أن تكون القدوة فيهم ممَن بعدهم، ولا عجب فالقوم زكاهم الله تعالى في الآيات وأثنى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الثابتة عنه.

وبفهم السلف يُحرز المرءُ نفسه من الأهواء والضلالات، ويفتكُّها من أغْلَال الهَوى، ويَقيها ضلالَ الأصحاب، ويفْتَديها من اتِّباع كلّ ناعق.

قال ابنُ المُفَضَّل المقدسي:

أيَا نَفْسُ بِالمَأْثُورِ عَنْ خَيْرِ مُرْسَلٍ
وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ تَمَسَّكِ
عَسَاكِ إِذَا بَالَغْتِ فِي نَشْرِ دِينِهِ
بِمَا طَابَ مَنْ نَشْرٍ لَهُ أَنْ يَمَسَّكِ

ثانيًا: الرُّجوع إلى أهْل العلْم بمآلات الأمُور:

قال تعالى: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، وترك الرجوع إلى هؤلاء الأعلام وذوي الأفهام يجعل المرء ممن قال فيهم صلى الله عليه وسلم: "اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا

Upload by: altawhedmag.com

فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ علْم، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"، فمعرفة مآلات الأُمُور أمرٌ لا يُدركه إلا أعيانُ العلماء، أما المتوسطون وطلاب العلم والمبتدؤون؛ فقد يغيب عنهم ذلك وربما ظن كثيرون الصواب في الخطأ الصريح الواضح، وقد يُخدع كثيرون بالمظهر أو بالشعارات الفارغة المحتوى والأقاويل الزائفة.

إنّ الأفاعيَ وإن لانَتْ ملامسُها
عند التقلُّبِ في أنيابها العَطَبُ

والعرب تقول في صاحب الحذر والحزم: "أحزم من الحرباء"؛ لأنها لا تُرسل غُصنًا إلا أمسكتْ بآخر ولذا يُشبَّه بها الرجلُ الحصيفُ الذي لا يترك شيئًا إلا أخذ بسبب أمْتَنَ منه.

ومن تأمّل النظرَ في العواقب وجدَ فيها تلقيحَ العُقول، ووَجَدَ اتّساعَ الآفاقِ وبُعدَ النّظر وجودة الرؤية وحسن الرويّة فلا يبق خيرًا إلا قدّمه ولا عهدًا إلا أحْكَمه، ولا عَقْدَ برٍّ إلا أبْرَمَه، فتجدُه في الحقوق قاضيًا، وفي الحقائق ماضيًا، حتى تكون الفتوح معقودةً بأقاليد آرائه ومقاليد غَنائه، ولا يكون هذا إلا بصُحْبَة أهل العلم وذَوي الفهم والنّظر، ومن رَزَقهم الله الخبرةَ بالأمور والبصرَ، فإن هؤلاء لا تُثمر صحبتُهم إلا الفهمَ والعلمَ والعملَ والخيرَ كلَّ الخير كما قال زُهَيْر بن أبي سُلمى:

وهلْ يُنبتُ الخطيُّ إلّا وشيجَهُ
وتُغرسُ إلّا في مَنابتِها النخلُ

المرجع الصحيح من أهل العلم:

إنّ من أشدّ الآفات التي يُعاني منها المسلمون في زماننا أنهم لا يرجعون إلى أهل العلم في أمورهم وأكثر الراجع منهم من يرجع إلى من يهواه من العلماء ويتفق مع مراده وميله بل ينبغي التعويلُ على رأي الجمهور الأعْظَم من أهل العلم لا سيّما مع كثرة الخلاف ووقوع النّاس في الحيْرَة فالحقّ غالبًا في مثل هذه الأحايين مع الجمهور.

مَن هم العلماء؟

واعلم أن المراد بالعلماء هم: العاملون بالعلم، فهذا هو العلم المعتبر الذي يكون جَمَالًا لا يَخْفى ونَسَبًا لا يُجْفى.

ولهذا قال ابن مسعود: إنما العلم الخشية، ولما قيل للشعبي: يا عالم، قال: إنما العالم من يخشى الله.

قال الشاطبي رحمه الله: "الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ الْعِلْمُ الْمُعْتَبَرُ شَرْعًا؛ أَعْنِي الَّذِي مدح الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أَهْلَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ الْعِلْمُ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ، الَّذِي لَا يُخَلِّي صَاحِبَهُ جَارِيًا مَعَ هَوَاهُ كَيْفَمَا كَانَ، بَلْ هُوَ الْمُقَيِّدُ لِصَاحِبِهِ بِمُقْتَضَاهُ، الْحَامِلُ لَهُ عَلَى قَوَانِينِهِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا" اهـ (الموافقات: ١/ ٨٩).

وبعض الناس قد يُظن به أنه من أهل العلم وليس كذلك بل (حَقِيقَةُ أَصْلِهِ وَهْمٌ وَتَخْيِيلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، مَعَ مَا يَنْضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَغْرَاضِ وَالْأَهْوَاءِ؛ كَالْإِغْرَابِ بِاسْتِجْلَابِ غَيْرِ الْمَعْهُودِ، وَالْجَعْجَعَةِ بِإِدْرَاكِ مَا لَمْ يُدْرِكْهُ الرَّاسِخُونَ، وَالتَّبَجُّحِ بِأَنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الْمَشْهُورَاتِ مَطَالِبَ لَا يُدْرِكُهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ، وَأَنَّهُمْ مِنَ الْخَوَاصِّ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْصُلُ مِنْهُ مَطْلُوبٌ، وَلَا يَحْوِزُ مِنْهُ صَاحِبُهُ إِلَّا بِالِافْتِضَاحِ عِنْدَ الِامْتِحَانِ) (الموافقات: ١/ ١٢١).

رأس الأفعى:

واعلم أن من أعظم أسباب الفتن التي نعيشها استماعَ كلام الأحداث والصّغار في العلم والفهم، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة"، وقوله صلى الله عليه وسلم أيضًا: "اتّخذ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا فسُئلوا فأفْتَوْا بغير علم فضَلُّوا وأضَلُّوا".

وأنا أسأل متعجبًا: متى صار الهلال بدرًا، والشبل ليثًا، والغصن ساقًا، والقطوف معتاقًا، حتّى يتكلم هؤلاء الأصاغر، ويُرْجَع إليهم في المهمّات والنّوازل؟! إنّ التثبتَ يُسهّل الطريقَ إلى الإصابة، فتثبّتْ ممّا تسمعُ، وممّا تقول ولا تَسْمع إلا للمُتَثبّتين لئلا تزلّ بك قدمٌ بعد ثُبُوتها فتذوقَ السُّوء وتندمَ وقْتَمَا لا ينفع النّدمُ.

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

كيف يُعرَف الحقُّ في أزمنة الفتن المزمنة؟

الوسَطِيَّةُ والاعْتِدال

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، ومن تَبِعَ هُدَاه، واقْتَفَى أَثَرَه وخُطَاه، وسَرَى مَسْرَاه وبعد.

فنواصل لقرائنا الكرام القول لعلهم يتذكرون، وذلك في حديثنا عن سبل النجاة من الفتن، فأقول:

ثالثًا: الأخذُ بالتوسُّط والاعتدال:

معنى التوسط:

التوسط: طريقة من طرائق معرفة الفتن ومن سُبُل النَّجَاة منها؛ إذْ إنّ التوسُّط والاعْتِدَال ضَرْبٌ من ضُروبُ العَقْل، وَنَمَط من أنْمَاط الرَّزانة والفَهْم، وعلامةٌ على جَوْدَة العَقْل وحُسْن الاخْتيار، ولا يزال أمر النّاس مُقاربًا ما لم يَخْرُجوا إلى المُجَاوزة، ولا يزال شأنُهم جاريًا على القَصْد والاسْتقَامة ما لم يدخلوا في الشَّطَط.

قال الشيخ أبو محمد بن بري رحمه الله تعالى: "واعلم أن الوسط قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسمًا من جهة أن أوْسَطَ الشيء أفضلُه وخيارُه كوسط المَرْعَى خيرٌ من طرفَيْه، وكوسَط الدّابة للرُّكوب خيرٌ من طرفَيْها لتَمَكُّن الرّاكب؛ ولهذا قال الرّاجز:

إذا ركبتُ فاجْعَلاني وَسَطا

ومنه الحديث: "خيارُ الأمُور أوْسَاطُها"؛ ومِنه قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّه عَلَى حَرْفٍ»؛ أي على شك فهو على طرف من دينه غير متوسِّط فيه ولا مُتَمَكّن، فلما كان وسَطُ الشيء أفضلَه وأعدلَه جاز أن يقع صفةً، وذلك في مثل قوله تعالى وتقدّس: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»؛ أي عدلًا. اهـ (لسان العرب: ٤٢٧/٧ ٤٢٨).

أهمية التوسط والاعتدال:

عند الكلام عن هذه الصفة أعرني سمعَك، وارْعَني بصرَك؛ فإنّ فَقْدَها يُحدث التوجُّع، ويُحضر التفجُّع، وأرجو

Upload by: altawhedmag.com

من الله أن نعالجه بحاقٍ (أي: كامل) المُعالَجَة، وصادق الشَّفقة، وخالص الضمير، مع حسن النيّة، وسلامة الطويّة، وهي صفة قُرةٌ للعين وشفاءٌ لما في الصُدور إذ إنّ من اتّخذها درْعًا للتعامل مع النّاس كانتْ حاميةً له من أحْوالهم ومن لَبسها في أزمَانِ الفِتَن كانتْ واقيةً له من أهوالها.

ومن تقلّدها اتّصف بكرائم الخِصال وكريم العَقائل (وهي الشيء الكريم النفيس من الذوات والمعاني) وولّدها واستحق أن تُخلّد في صحائف القُلوب أقوالُه، وأن تُدوّن في ضمائر النفوس أفعالُه، وتكتب على أحداق العيون أحوالُه.

وهذا حقيقٌ بهذه الصّفة لأن التوسُّط في الأُمور أمرٌ علا في الأوصاف حتى جاوزَ ألْسنَة الوُصّاف، ومن تأمّلَ أخلاقَ أهْل السِّيادة وذوي الإفَـادَة والإجَـادَة وَجَـد أن التوسُّطَ رأسُها وعنوانُها.

وإنَّ المَـرْءَ عنـد الحـديث عـن التوسُّط والإنصاف لينزعجُ ويقلَقُ حتّى يأخذَه ما قرُب وما بعُد، وما قدُم وما حدُث، ولأهميّة هذا الأمر وقلّته في النّاس حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على تَـرْك الغُلو والتزيُّد، ونهى عن التَّقْصير والتَّفْريط، وأمَر بلزُوم القَصْد والمُقَاربة.

الوصية النبوية بالتوسط والمقاربة:

عَنْ عَائشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: " سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ" قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: "وَلَا أَنَا، إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنيَ اللهُ منْهُ بِرَحْمَة، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ". رواه البخاري (٦٤٦٤) ومسلم (٢٨١٨).

فقوله: " سَدِّدُوا وقاربوا" أي: توسطوا. قال ابن الأثير: أي اقْتَصدوا في الأُمور كلّها، واتركوا الغُلوَّ فيها والتَّقْصير، يقال: قاربَ فلانٌ في أموره إذا اقتصد" (النهاية: ٣٣/٤).

وقال أيضًا: أي اطلبوا بأعمالكم السّداد والاستقَامة، وهو القَصْد في الأمْر والعَدْل فيه. (النهاية: ٣٥٢/٢).

وقال مطرف بن عبد الله لابنه لمّا اجتهد في العبادة: خير الأمور أوساطها، والحسنة بين السيئتين" أي الغلو سيئة والتقصير سيئة، والاقتصاد بينهما حسنة. (النهاية: ٤٣٠/٢).

وَعن الْحَكَم بْن حَزْن الْكُلَفيّ، قَالَ: وَفَدْتُ إلَى رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ سَابعَ سَبْعَة- أَوْ تَاسعَ تسْعَة- فَدَخَلْنَا عَلَيْه، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، زُرْنَاكَ فَادْعُ اللهَ لَنَا بخَيْر، فَأَمَرَ بنَا، أَوْ أَمَرَ لَنَا بشَيْء منَ التَّمْر، وَالشَّأْنُ إذْ ذَاكَ دُونٌ، فَأَقَمْنَا بهَا أَيَّامًا شَهدْنَا فيهَا الْجُمُعَةَ مَعَ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا، أَوْ قَوْس، فَحَمدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْه، كَلمَات خَفيفَات طَيّبَات مُبَارَكَات، ثُمَّ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّكُمْ لَنْ تُطيقُوا- أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا- كُلَّ مَا أُمرْتُمْ بهَ، وَلَكنْ سَدِّدُوا، وَأَبْشرُوا". رواه أبو داود (١٠٩٦).

وكان العلماء قديمًا يقولون: من ترك سبيل المهاجرين والأنصار وقع في أسر الذل والعار، وهذا كلام حق، ومقال صدق لأن سبيل هؤلاء هو الوسط إذ القوم ساروا على منهاج النبوة الصافي وسلكوا الجَدَدَ فأمنوا الزلل العثار.

الأخذ بالوسط العدل هو المخرج في أزمنة الفرقة وأوقات التعصب وأيام الميل والحيف؛ لأن الناس تشعّبوا على طُرق وانقسموا على فِرَق: فمنهم من يأخذ بالشدة، ومنهم من يركب متْن التّفْريط، والحقّ بين هؤلاء وهؤلاء.

نزغ الشيطان عند الأمر إفراط أو تفريط:

الحقُّ دائمًا وَسَطٌ بين الغالي والجافي وبين الترخُّص والتشدُّد، وبين الضَّعْف والرَّخَاوة، والشدّة والصَلابَة، وكلا طرفي قصْد الأمور ذَميمٌ، ورحم الله ابنَ القيم حين قال: "وما أمَرَ الله عزوجل بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصيرٌ وتفريطٌ، وإما إفراطٌ وغلوٌّ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشامُّه، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذَهُ من هذه الخُطّة فثبّطه وأقْعَدَه وضربَهُ بالكَسَل والتَّواني والفُتُور، وفَتَحَ له بابَ التأويلات والرَّجاء وغيرِ ذلك، حتى ربَّما ترك العبدُ المأمورَ جملةً.

وإن وَجَد عندَهُ حَذَرًا وجِدًّا وتشميراً ونهضةً

Upload by: altawhedmag.com

وأيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد وسوَّل له أنّ هذا لا يكفيكَ وهمتُك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقدَ إذا رقدُوا، ولا تُفطر إذا أفطَروا، وأن لا تَفْتُر إذا فَتروا... ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه وأن لا يقربه، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم: هذا بأن لا يقربه ولا يدنُو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعدّاه.

وقد فُتن بهذا أكثرُ الخلق، ولا يُنجي من ذلك إلا علمٌ راسخٌ وإيمانٌ وقوةٌ على محاربته ولزوم الوسط والله المستعان اهـ (الوابل الصيب: ص:١٤)

فمن أخذ بالوسط من تلك المَحاسن والخَلائق وعَمل على تَحقيق هذه الحقَائق وفّقه الله وسدّد خُطاه وبلّغه من الخير مرادَه ومُناه.

حال الناس في الميل والمجاوزة:

وصدق ابن القيم رحمه الله تعالى فإن المَيْل والتّجانُف صار خُلُقًا مَلَك قلوب الناس واستولى عليهم استيلاء الجَهالة على المُغْتَلم، وعَشَّشتْ مفاسدُه في الصُّدور، وتشرَّبَتْهُ النُّفوس، ومن الدّليل على ذلك أنّك ترى النّاس كأنّما قُضي عليهم أن لا يكونُوا على جادّة الإنصَاف والعَدْل بل يتركُونه ويذهبُون إلى الوَهْم البَحْت، والتّخيُّل المَحْض، والجَوْر الصِّرْف، أمّا التوسُّط فتلفظُه أسْمَاعُهم، وتكرهُه نفوسُهم، وقد أصبحتْ هذه الأوصَاف في العامّة والخاصّة، فكيف تقوم قائمةٌ لقوم يصدُّون عن الحقّ ويعرضون عن البُرْهان والدّليل ويسلكُون غير سبيله؟!

نعم، لقد جَنَوْا على أنفُسهم ووَرَدُوا مَوْردًا عظيمًا، لأنّ طريقَ التعصُّب مَدْحضَةٌ مَزلّة من تَوَرَّط فيها لم يَسْلَمْ، ولا عَجَبَ فَمَنْ تَرَكَ الوَسَط والاعْتدَال أخذَ بالخُدَع والاحْتيَال ووَقَع في الآصار والأغْلال، أمّا المُتَوسّط المُقْتصد فتجِدُهُ مُوفقًا مُعَانًا مُسَدّدًا فالْخَيْرُ ما يتَعَاطَاه والشَّرُّ ما يَتَخَطَّاه.

واعلم أن التعصُّبَ والمَيْل داءٌ قاتلٌ للتوسُّط والإنْصَاف بل ومُهْلكٌ للناس حتّى يقتلَ بعضُهم بعضًا ويعودَ إبرامُهُم نَقْضًا.

من فوائد الوسطية:

ومن الفوائد المُهمّات المُستَفَادة من التوسُّط: ظهورُ حقائق المُخَالفين واتضاحُ مذاهب العاطلين؛ لأن خلق التوسط والإنصاف غُرّتان ودُرّتان يُلهمَان العبدَ بتوفيق الله تعالى إدراكَ المعارف، ويُعينانه على التَّفْتيش عن الحَقائق وسُهولَة الوُصُول إليها، أمّا الذي يتركُ التوسُّط فتراه حَائرًا مُضْطربًا لأنّه لا يقفُ على سَواءِ السَّبيل.

واعلم أن التوسُّط مطلوبٌ ومقصودٌ في كلّ شيء، ففي العبادة لا يغلو المرء في دينه حتى لا ينقطع فيصبح لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى، ولا يفرّط حتى يترك ويَذَر، وفي قراءة القرآن لا يغلُو فيه ولا يجفُو عنه، وفي صَدَاق المَرْأة لا يزيدُ زيادةً فاحشةً، ولا ينقص حتى تهون المرأة على نفسها وأهلها، وفي الأخلاق لا يكون عند شُموخُ الأنف كبرًا وعلوًّا، ولا يتصف بالضعة والذلة.

قال صلى الله عليه وسلم: "القصدَ القَصْدَ تبلُغُوا" قال ابن الأثير: "أي: عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل، وهو الوسط بين الطرفين" (النهاية: ٤/٦٧).

فمن أراد سلامة المَسير وحَاقَّ بُلُوغ المَصير فليلزمْ هذا الوصفَ وليتعلّقْ بهذا الخُلُق فهو من جَميل أخْلاق نبيّنا صلى الله عليه وسلم، بل ومن كَمَال خليقته أيضًا فقد كان عليه الصلاة والسلام "أبيضَ مقصّدًا" قال ابن الأثير: "هو الذي ليس بطويل ولا قصير ولا جسيم، كأن خلقه نُحيَ به القَصْد من الأمُور والمُعْتدل الذي لا يَميل إلى أحَد طَرفي التفريط والإفراط". اهـ هدانا الله سبيلًا وسطًا لا تفريط فيه ولا شططًا.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

Upload by: altawhedmag.com

التربية في رمضان

إعداد د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي علّم بالقلم، وصلّى الله على نبيّنا محمد المُفرَد العَلَم، وعلى آله وصحابته أئمّة الهُدَى ومَصابيح الظُّلَم، وبعد:

قيمة شهر رمضان بين شهور العام:

فإنّ شهرَ رمضانَ قد عُلم إطْبَاقُ النّاس على تَعْظيم شأنه، وتَفْخيم قَدْره، والتَّنْويه بذكْره، فهُوَ في العام الهجريّ قُطْبٌ عليْه المَدار، وعمودٌ به يكون القَرار، وقد أقْبَلَ يَحْدُو ركابَه مُسْرعًا إلَيْنا، ويَطْوي الشهورَ طيًّا ويتَجاوَزُ الأزْمنَةَ عَجلًا حتّى يَضَعَ رحالَهُ عنْدَنا، ثمّ يأخُذَ عَصَا التَّسْيار فيذْهَبُ ويُغادر، ويَمْضي ويُبادر، ومَعَ قلّة أيّام رمضان وأنّها كما قال الله تعالى: «أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ»؛ فإنها فرصةٌ نفيسةٌ لا عوَضَ منها، ولا بَديلَ عنها في إعْداد الأنْفُس وإصْلاح القُلُوب وتَرْبيَة الأبْدان والجوارح، وتَزْكية النّفوس، وإلْف الطّاعة والإقْبَال عليها وإدْمانها، ومُغَادَرَة المَعْصية وبُغْضها، وحُبّ الخَلْوة بالله تعالى ومُنَاجَاته، ولُزوم ساعة المُحَاسَبَة والمُعَاتَبة لنَفْسه، وتَرْطيبَ اللّسانَ بذكْر الله تعالى، واللَّهَج بتلاوة القُرآن.

ولَا بُدّ أنْ يعلمَ كلُّ مُسْلم أنّ مَرَاشدَ هذه الأمّة مَعْقُودةٌ على أمْر التّربية، لذَا اعْتَنَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بتربيَة أصْحابه حتّى صارُوا خيرَةَ الخَلق بعد النَّبيّينَ والمُرْسلين وباتُوا حُجّةً على مَنْ بعدَهُم وقُدْوةً لَهُم وأئمّة للمُتّقين.

وإذا تَصَفَّحْنا الشُّهور لنَرَى مَوَاقعَها منَ التّربية ومنازلَها منها وجدْنا شهرَ رمضانَ أحقَّ بها وأهلَها فلا يَدْفَعُ فضْلَه دَافع، ولا يُنْكرُ رُجْحَانَه على غَيْره منَ الشُّهور مُنْكرٌ ولا مَانع.

آثارُهُ تُنبيكَ عَنْ أخْبَاره
حتّى كأنّك بالعُيُون تَرَاهُ

من فضائل وغنائم رمضان:

فاهْتَبلْ الفُرْصَةَ واظْفَرْ بالغَنيمة بأنْ تتّخذَ منْ رمضانَ مطيّةً إلى الجنّة، وسَبيلًا إلى العتْق من النّار، وبابًا للمَغْفرَة، وفُرْصَةً للفَوز بعَظيم الثّواب، ومَدْخلًا للوُلُوج على ربّ العَالَمين، واعْلمْ أنّ أحْوَالَ رمضانَ وما نرى منَ الاجْتهَاد في أيّامه ولَيَاليه تَقْطَعُ عُذْر

Upload by: altawhedmag.com

المُتهاون، وتدلُّه على ما أضاعَ من حظه، وتهديه إلى رُشده وصوابه، فتأمل لتعرف ما عرفه السابقون، وذق لتجد ما وجده العاملون، واعمل على عدم الفوات؛ فمَنْ أدرك رمضان ولم يظفر بمطلوبه فقد خسر؛ ففي صحيح ابن خزيمة (١٨٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقِيَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ»، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كُنْتَ تَصْنَعُ هَذَا فَقَالَ: « قَالَ لِي جِبْرِيلُ: أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَ عَبْدٍ - أَوْ بَعُدَ - دَخَلَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: آمِينَ...» بل كان كعطشان وهو في لُجة البحر كما القائل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

من قواعد تربية النفوس في رمضان:

التربيةُ في رمضان لا تُجدي ولا تَنفع من خُبَّاط عشوات يَخبطون خبط عشواء، ويَمشون في عَمْياء، ويَركبون الأمور بجهالة، ويسعَون من غير بصيرة بهدف ولا مَعْرفة بغاية كأنهم على ضلالة، وهذا حال الذي يَمشي إلى غير غاية ولا مُنتهى لا بُدَّ أن يتحيَّر ويَضل.

فطالبُ التربية في رمضان يَحتاجُ إلى خُطة مَدْروسة ومُقرَّرة قد فرغ منها ليأخذها مأخذ الجدّ، ويُلزمها به، ليسعى في فكاك رَقبته من النار فيتحقق فيه قولُ الله تعالى: « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا » (الإسراء).

أما مَنْ أزمَنَهُ الكَسَلُ وأمْرَضَه العَجْزُ وأدْرَكَهُ المَلَل، وانغمَسَ فيها إلى الأذقان فمثل هذا أنَّى يُفلح؟! إنه كمَنْ يَعمل في غير مَعْمَل، فلا تَسألْ عن اضطراب حَبْل أحواله وتَتابُع أهْواله.

أولًا: التربية على عُلوّ الهمة:

مَنْ رَجَعَ إلى نَفسه عَلِم علمًا لا يَعْترضه الشكُّ ولا يَجْهله عاقلٌ ولا يَخفى على أحدٍ من النَّاس أنَّ الهمّة رَأسُ مَالِ كلِّ عامل، وأنّ الهمّة عُنوانُ كلِّ ناجح، وخُلُقُ كلِّ موفق، وصفةُ كلِّ مُعانٍ مُسدَّد، ومَنْ نَظَرَ في سيرِ سلفنا وجَدَ أنهم بَلَغُوا من الهمّة مُنتهاها، ووصلُوا إلى قمّتها وحقَّقُوا منها القَدْرَ الذي لا مَزيدَ عليه وانتَهوا إلى الغايَة التي لا مَذْهَب بَعْدَها، وكان ذلك بالتربية عليها مُنذُ الصِّغر ورَضاع لبانها حتى نَبَتُوا على الجِدّ والتفاني في حُبّ الخَيْر، وإنّما تَفاوَتَ القَوْمُ بالهِمَم لا بالصُّوَر كما قال ابن القيم.

وأفضلُ ما في عُلوّ الهمّة أنّه يَرُدُّ العَوائق، ويُمزّق العَواقِ، ويَقْطعُ العَلائق، فما عَلِقَ وتَعلّق به لا يُضعفُ سَيْرَه ولا يُثنيه عَنْ مُرَاده ولا يَصْرفُهُ عَنْ مَطْلوبه، بَلْ المُؤمن حقًا مَن يَجْعَل من هذه العَوائق والعَلائق سَبيلًا للوُصول إلى ربِّه وذلك بالاستعانة بالله عليها، وحُسن نيّته، وسَلامَة قَصْده، وتَخليص عِبَاداته وعاداته من كل شَائبة وشَوْب، قال ابن القيم: متى هَمَّتْ أقدامُ العزْم بالسُّلوك اندفَع من بَيْن أيْديها سَدُّ القواطع اهـ.

وسَبَبُ ذلك أنّ همَّةَ المَرْء تُحفزُه للوُصول إلى الغَرَض، وتَحْدُوهُ إلى بُلوغ الهَدَف فيَقْتَحم العَقَبة، ويتخطى الشدائد، ولا يزال يَسْعى إلى ما يُريدُ حتى يُصبح ذاك السّعي دَيدَنَه وهجيراه، فلو جَلَسَ قَعيدًا لأحَسَّ بالمَلَل، ولَوْ قَعَدَ فارغًا لَشَعَرَ بالألم كأنه باشر الزلل، وصَدَق الله تعالى حين قال: « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا » (الإسراء: ١٩).

ومَنْ تدبَّر آيات القُرآن الكريم وجدَها تحثُّ على المُسارعة والمُسابقة والمُنافسة وكل هذه من مُحفزات الهِمَم ومن مُقتضيات ولَوازم عُلوِّها.

قال تعالى: «وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » (آل عمران: ١٣٣). وقال تعالى «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، وقال أيضًا: « سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ » (الحديد: ٢١). وقال أيضًا: «وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ» (المطففين: ٢٦). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا». (رواه مسلم: ١١٨).

ثانيًا: التربية على شَغْل الوَقْت بالعَمَل الصَّالح:

مَنْ كان على مُراد الله لَمْ يكنْ على مُرَاده من نَفْسه، ومِثْلُ هذا العَبْد يُخَالفُ نَفْسَه دَائمًا.

Upload by: altawhedmag.com

فاشتَرِ نَفسَكَ في أيّامِ الغَنيمةِ فالسُّوقُ في رمضانَ قائمةٌ، والثّمنُ في لَيَاليهِ مَوْفُورٌ، والبِضاعةُ رائجةٌ نافقةٌ، وربّما كانَتْ سَهْلَةَ المَنالِ، واغْتَنِمْ قِلّةَ أيّامِه قَبْلَ أنْ تَمُرَّ كالطّيْفِ فَلا تُحَصِّلُ مِنها الكثيرَ ولا القليل.

واجْعَلْ لكلِّ وقتٍ مَا يُنَاسِبُه فوَقْتُ الصّلاةِ للصّلاةِ، ووَقْتُ الذِّكْرِ للذِّكْرِ، ووقتُ الدُّعاءِ للدُّعاءِ.

قال ابن القيم: «أنفعُ الرّبحِ أنْ تَشْغَلَ نَفْسَكَ كلَّ وَقْتٍ بِمَا هُو أولى بها وأنفعُ في مَعَادِها» اهـ.

إنّ مَنِ اعْتَادَ الاشْتِغَالَ بالعَمَلِ الصّالحِ يَعُدُّ الفَرَاغَ غَفْلَةً، ويرى الرّاحَةَ بَطَالَةً لأنّهُ حِلْسُ عَمَلٍ، لا حِلْسَ غَفْلَةٍ وهَمَلٍ، فتَجِدُه يَهونُ عَلَيْهِ الدّأبُ والكَلالُ في الحِلِّ والارتحالِ، ويُجْهِدُ النّفسَ ويَبْذُلُ الأمْوَالَ، ويَرْكَبُ المَخَاوِفَ والأهْوالَ، وهو فَرِحٌ مَسْرُورٌ؛ لأنّهُ يُؤْمِنُ أنّ الجَاهِلَ يُعَوِّلُ على الأمَلِ، بينما العَاقِلُ يَعْتَمِدُ على العَمَلِ، شعارُهُ:

فاعمِلْ لنفسكَ إنْ قَدَرْتَ ولا تَكُنْ فَرِقًا وكُنْ حَيْثُ الأمورُ مُسَلَّمَا

ثالثًا: لُزُومُ الصَّبْرِ حتّى بُلوغِ المَنْزِلِ:

قال تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا» (الكهف: ٢٨)، وقال صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ». قال ابن القيم: مَنْ تَلَمَّحَ حَلاوَةَ الأجْرِ هانَتْ عَلَيْهِ مَرَارَةُ الصّبرِ. اهـ.

فمَنْ أرَادَ أنْ تَثْبُتَ قَدَمُه في الطّاعةِ فلْيَتَمَسَّكْ بعَمُودِ الصّبرِ، ولْيَعَضَّ عليْه بالنّواجِذِ، فمَنْ صَبَرَ على العَوَائِقِ لِيَتَخَطّاها اسْتَحَالَتْ مِنَحًا بعْدَما كانَتْ مِحَنًا، قال ابن القيم: القَوَاطِعُ مِحَنٌ يَتَبَيّنُ بها الصّادِقُ مِنَ الكَاذِبِ فإذَا خُضْتَها انْقَلَبَتْ أعْوانًا لكَ تُوصِلُكَ إلى المَقْصُودِ اهـ.

رابعًا: العُزْلَةُ أو الخَلْوَةُ:

قال تعالى: «وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا» (المزمل: ٨)، وعَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: جَاءَ أعْرَابِيٌّ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أيُّ النّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ؛ يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النّاسَ مِنْ شَرِّهِ» رواه البخاري (٦٤٩٤)

والمُرَادُ بالعُزْلَةِ: اعْتِزَالُ النّاسِ والبُعْدُ عنهم في مكانٍ بَعيدٍ، وهذا غيرُ مُمْكِنٍ في أكثرِ الأحوالِ، فتكونُ الخَلْوَةُ هي المَخْرَجَ لأنّ الخَلْوَةَ قد تكونُ والمَرْءُ وسْطَ النّاسِ فلو اتّخذَ مِن دُونِهم حِجابًا واختارَ مكانًا وهو بَيْنَهم لاسْتَطَاعَ أنْ يَخْلُوَ بربّه ونَفْسِه.

قَالَ ابن القيم: غَرْسُ الخَلْوَةِ يُثْمِرُ الأُنْسَ اهـ وهذا كلامٌ دقيقٌ يحتاجُ إلى قلبٍ رَقِيقٍ وفَهْمٍ عَمِيقٍ؛ لأنّ المَخْلُوقَ قدْ تَخْلُو به فتَسْتَوْحِشَ منه واللهُ سبحانه وتعالى إذا خلوتَ به أحْسَسْتَ بالأُنْسِ وأثْمَرَ ذلك قُرْبًا «وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب» (العلق ١٩).

إنّ العُزْلَةَ في رمضانَ تُشْبِهُ الحَجْرَ لاسْتِصْلاحِ الأذْيَانِ الذي هُو أوْلى مِنَ اسْتِصْلاحِ الأمْوَالِ والأبْدَانِ، مِنْ أجْلِ ذلك شُرِعَ اعْتِكَافُ العَشْرِ الأواخِرِ مِنْهُ.

خامسًا: الحِرْصُ على تَحْقِيقِ المَطْلُوبِ:

قال تعالى عن بعضِ أنبيائه: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ» (الأنبياء: ٩٠)، وقال صلى الله عليه وسلم: «احرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلَا تَعْجَزْ» رواه مسلم(٢٦٦٤). قال ابن القيم: قُوّةُ الطّمَعِ في بُلُوغِ المَأمُولِ تُوجِبُ الاجْتِهادَ في الطّلبِ وشِدّةَ الحَذَرِ مِنْ فَوْتِ المَأمُولِ اهـ.

واعْلَمْ أنّكَ مَهْما حَرَصْتَ فلنْ تكونَ حَرِيصًا طُولَ الوَقْتِ على الطّاعةِ بل لا بُدّ مِنْ طَارِئِ الغَفْلَةِ وعَارِضِ النّومِ والكَسَلِ.

قَالَ ابن القيم: «لا بُدّ مِنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ ورُقَادِ الهَوَى ولَكِنْ كُنْ خَفِيفَ النّومِ فَحُرّاسُ البَلَدِ يَصِيحُونَ: دَنَا الصّبَاحُ».

ودَلِيلُ الحِرْصِ شِدّةُ السّعْيِ وخَوْفُ فَوَاتِ المَطْلُوبِ، والنّدَمُ على التّقْصِيرِ في طَلَبِه، والحُزْنُ على ما فَاتَ مِنْهُ، وكلُّ هَذا يَقَعُ لِمَنْ طَلَبَ شَيْئًا مِنْ دُنْيَاهُ فَفَاتَه ومَا أدْرَكَه، أو أدْرَكَ بَعْضَه.

وباللهِ نَسْتَعِينُ على إدْرَاكِ الصّوابِ في القَوْلِ والعَمَلِ، ونَسْتَعِيذُ بِه مِن مَوَارِدِ الزّلَلِ وهُوَ حَسْبُنَا وكَافِينَا مِنْ كُلِّ أمَلٍ وصلى اللهُ على نبينا محمد وآله وصحبه.

Upload by: altawhedmag.com

الحور بعد الكور

إعداد د. عماد عيسى

الْحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَ الدِّينَ والعملَ به لمرضاتِه أتَمَّ وَسيلَة، وَأَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَأَنْصَارِهِ وَحِزْبِهِ، وَبَعْدُ.

فعَقِيبَ انتهاءِ رمضانَ وانقضاءِ زمانه ومع كَوْنِ مَرَاكِبِه قد شَارفَتْ بُلُوغ النهاية ترجع أكثر النفوس إلى ارتضاع ثُدِيّ الهوى من بَعْد الفطَام منْ عادَاتها ومَأْلُوفَاتها، والرُّكون إلى الشَّهوات، والإخْلَاد إلى الأرض، والتَّثاقُل عن الطَّاعَة، والكَسَل عن العبَادة، والتَّواني في التَّوبَة بَعد ما قَضَوْا أيامًا بالصِّيام والقيام عامرَة، وليالي بالاجْتهاد ولذَّة العبَادة غامرة.

وهذا هو الحَوْرُ بعد الكَوْر الذي تعوّذ النبيّ صلى الله عليه وسلم منه، فعَنْ عَبْد اللهِ بْن سَرْجِسَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ منْ وَعْثَاء السَّفَر، وَكَآبَة الْمُنْقَلَب، وَالْحَوْر بَعْدَ الْكَوْر، وَدَعْوَة الْمَظْلُوم، وَسُوء الْمَنْظَر في الْأَهْل وَالْمَال. (رواه مسلم: ١٣٤٣).

قال ابن الأثير: أصْلُ الحَوْر الرُّجُوعُ إلَى النَّقْص.

وقال أيضًا: "نَعُوذُ باللَّه منَ الحَوْر بَعْدَ الكَوْر" أيْ: منَ النُّقْصَان بَعْد الزِّيادة، وَقيلَ: منَ فَسَاد أمورنا بَعْدَ صَلاحها، وَقيلَ: منَ الرُّجُوع عَنِ الْجَمَاعَة بَعْد أنْ كُنَّا منْهُمْ، وَأَصْلُهُ منْ نَقْض العمَامة بَعْدَ لَفِّها. النهاية: ٤٥٨/١.

وفي بعض نسخ مسلم "وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ".

قال ابن الأثير: "أعُوذ بِكَ منَ الحَوْر بَعْدَ الكَوْن" الكَوْن: مَصْدَرُ "كَانَ" التامَّة. يُقَالُ: كَانَ يكونُ كَوْنًا: أيْ وُجِدَ واسْتَقَرَّ: أيْ أعُوذُ بِكَ منَ النَّقْص بَعْدَ الوجُود والثَّبات. النهاية: ٢١١/٤. ومعنى ذلك أن الحور بعد الكور أشبه بنقض الغزل من بعد قوّة أنكاثًا، فَمَا عَقَدهُ المرء وأبْرَمَه من أمْره رَجَع فَنَقَضَهُ وحَلَّه، وما بَنَاهُ عادَ فقوَّضه وهَدَمَه.

وهذه بعضُ أسباب الحَوْر بعد الكَوْر، والنُّقْصَان عَقب الزِّيَادَة، وحُصُول الفَسَاد بعد الصَّلاح:

أولها: عدم ذوق حلاوة الطاعة:

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا" (رواه مسلم٣٤). فالطاعة لها طعمٌ، والعبادة لها لذّةٌ، مَنْ ذاقَها هانَتْ عليْه نَفْسُه واسْتَمْرَأ التّعبَ فيها؛ لأنّه يُؤمن أنّ عاقبة الاجتهاد الرّاحة الأبديّة، كما قيل لبَعْض السّلَف: إلى كَمْ تُتْعبُ نَفْسَك؟ قال: راحَتَها أُريد. وطريقُ الرّاحة إلى العبَادة والرَّغْبة فيها شاقٌّ لكراهيَة النَّفْس ذلك، والنّفس تُحبّ الرّاحة وتَميل إلى الكسل، ومُخالفتها بكَثْرة العبادة والنشاط فيها، فلابُدَّ من الصّبر على ذلك، والتّصبُّر عليْه حتّى بُلوغ الغَرَض والوصُول إلى المأمول ورحم الله ابن القيم حين قال: من لم يُباشِرْ حَرَّ الهَجير في طَلَب المَجْد لم يَقِلْ في

Upload by: altawhedmag.com

ظِلالِ الشَّرَف.

ثانيًا: إحسان الظن بالنفس:

من دعوات نبينا صلى الله عليه وسلم المأثورة عنه "اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي"، وعلم بعض أصحابه دعاءً فقال: "قل: اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي". وهذه الأدعية تدل على خطورة شَرِّ النفس، ومن هنا لزمَ المرْء أن لا يركَنَ إليها ولا يَرْضى عَنْها. إنَّ مَنْ حَسُن ظنُّه بنَفْسه قَهَرَه الشَّيطانُ ولعب به تلاعُبَ الصِّبيان، أمّا من ساء ظنُّه بنفْسه فإنّ أمرَهُ لا يزالُ في ازْدياد لأنّه لا يُعْجَب بنفسه فهو عامل دائمًا على استصلاحها، وقد كان بعضُ السّلف يقوم اللّيل فإذا فترتْ نفسه من المجهود والتّعب جاء بسوْط وضربَ قدَمَيْه، وقال: "قُومي يا مأوى كلّ سُوء، واللّه ما رضيتُك للّه طَرْفة عَين"، أمّا من يُحسن الظنَّ بحاله وعمله فإنه قد يحبط العمل وهو لا يشعر وقد يكسل عنه لحرمانه التوفيق إليه.

ومِنْ علامَات الرّضا عن النّفْس احْتقَار النّاس وازْدراؤُهم، والنّظر إليْهم بشَيْء مِنَ الدُّون والقلّة، ومَنْ فَعَلَ ذلكَ اسْتَأْسَدَتْ عليْه نفْسُه فَخَسر صَفْقَة عَمَله ورَجَعَ مَغْبُونًا بِخُفَّيْ حُنَيْن.

ثالثًا: وقوع العبد في المعاصي بعد إذ نجاه الله منها:

لا ينجو أحد من الإثم، ولا يخلو من المعصية، ولا يسلم من الخطيئة، عَنْ أَنَس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: "كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ" (رواه ابن ماجه ٤٢٥١)، لكن كل ذلك يكون عرضًا وطارئًا وليس على سبيل المعاندة والمجاهرة، بل هو إما لنزغ شيطان أو غلبة الهوى أو ضعف النفس، وإذا كانت المعصية لشي من هذه الثلاثة فالتوبةُ من قريب، والرجوعُ ليس ببعيد، أمّا الاشتغالُ بالذُّنوب والإكثار منها فهذا مما يُعثِّر العبد في سيره إلى الله تعالى.

وعلاجُ آفة الحور بعد الكور بما يلي:

أولاً: الشكر على الطاعة بالطاعة:

اعلم رحمنا الله جميعًا أن التوفيق إلى الطاعة هو أجل نعمة لأنه ميراث الجنات بالعمل الصالح قال تعالى: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»؛ ولذلك يحتاج إلى شكر والتوفيق لشكر الطاعة يحتاج إلى شكر ثان وهكذا، وقد أمر الله بشكر نعمة المعونة على الصيام فقال تعالى: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» البقرة: ١٨٥.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تتورم قدماه فيقال له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا".

وقد فقه السلف ذلك فكان بعضهم إذا وُفِّق لقيام ليلة من اللّيالي أصبح في نهاره صائمًا ويجعل صيامه شكرًا للتوفيق للقيام.

وكان وُهيْب بن الوَرْد يُسأل عن ثواب شيءٍ من الأعْمَال كالطّواف ونحوه؟ فيقولُ: لا تسألوا عن ثوابه ولكن اسألوا ما الذي على من وُفِّق لهذا العمل من الشُّكر للتّوفيق والإعانة عليْه. (لطائف المعارف: ص ٢٢١).

ثانيًا: الدعاء بالمعونة على العبادة:

من صدق في دعائه وسؤاله القوة على الطاعة صدقه الله ورزَقَهُ حُبَّها بلْ حبَّبَ إلَيْه الإيمان وزيَّنه في قلْبه وأكرَمَه بطَعْمه ووهَبَه حَلاوَتَه، فعن أبي عَبْد الرَّحْمَن الْحُبُلِيِّ، عَنْ الصُّنَابِحِيِّ، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل، أَنَّ رَسُولَ صَلَّى عَلَيْه وَسَلَّمَ أَخَذَ

Upload by: altawhedmag.com

بِيَدِه، وَقَالَ: "يَا مُعَاذُ، وَاللَّه إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّه إِنِّي لَأُحِبُّكَ"، فَقَالَ: "أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"، وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى بِهِ الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ. (رواه أبو داود: ١٥٢٢).

ومن تأمل هذا الحديث وأمعن النظر في تلك الوصية كفته وأغنته، فقوله عليه الصلاة والسلام: "أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ" تصريح بأهمية الأمر ليعتني به؛ إذ لا تكون الوصية عادة إلا بالمهمات، وقوله عليه الصلاة والسلام: "لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ" تحذير ونهي عن ترك هذه الدعاء وأن يلزمه عقب كل صلاة فيدعو به كل يوم خمس مرات.

ثالثًا: الثبات على الطاعة:

المؤمن عمله دائم لا يتعلق بالمواسم فهو يعمل لنزول الموت به في أي لحظة ومن كان كذلك لا ينقضي عملُه حتى يأتيَه أجلُه. قال الحسن: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلا دون الموت ثم قرأ: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (الحجر:٩٩).

قال ابن رجب: "هذه الشهور والأعوام والليالي والأيام كلها مقادير الآجال، ومواقيت الأعمال، ثم تنقضي سريعًا، وتمضي جميعًا، والذي أوجدها وابتدعها، وخصها بالفضائل وأودعها باقٍ لا يزول، ودائمٌ لا يحول، هو في جميع الأوقات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد، فسبحان من قلَّب عبادَه في اختلاف الأوقات بين وظائف الخدم يسبغ عليهم فيها فواضل النعم ويعاملهم بنهاية الجود والكرم" (لطائف المعارف: ص ٢٢٣).

وهذا واضح مع أدنى تأمل؛ فبقدوم شهر رجب ثم مجيء شعبان ثم دخول رمضان تجد الوظائف من الصيام والقيام والذكر والعبادة كثيرة وقد وعد الله بمغفرة الذنوب لمن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ثم تأتي أشهرُ الحجّ: شوال وذو القعدة وذو الحجة وبها يخرج الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ثم يأتي شهر الله المحرم الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: "أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم" (رواه مسلم).

قال ابن رجب: "فما يمضي من عمر المؤمن ساعة من الساعات إلا والله فيها عليه وظيفة من وظائف الطاعات فالمؤمن يتقلب بين هذه الوظائف ويتقرب بها إلى مولاه وهو راج خائف المحب لا يمل من التقرب بالنوافل إلى مولاه ولا يأمل إلا قربه ورضاه" (لطائف المعارف: ص ٢٢٣).

رابعًا: الندم على فوات الطاعات:

كلُّ ساعةٍ تَمْضي من عُمْرِ العَبْد لم يَرْبَحْ فيها ثوابًا فهي خسارة لأنه عُمرٌ مضى لم يقدّم فيه شيئًا لنَفْسه، وهو مُحَاسبٌ عليه يومَ القيامة ومَسْؤولٌ عَنْه وهذا سِرُّ النَّدَم على الفَوَات.

بل أعْجَبُ من ذلكَ نَدَمُ أهْلِ الجَنّة على هَذه الأوْقات الخَالِيَة من الحَسَنَات قال صلى الله عليه وسلم: "لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الجَنَّة على شَيْء إلَّا على سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لم يَذْكُروا الله عَزَّ وجَلّ فيها" (رواه الطبراني والبيهقي في الشعب، الصحيحة:٢١٩٧).

قال ابن رجب: "كلُّ وقتٍ يُخْليه العبْد من طاعَة مَوْلاهُ فقَدْ خَسِرَهُ، وكلُّ ساعة يغْفُلُ فيها عن ذكْر الله تكُونُ عليْه يوْمَ القيَامة تِرَةً، فوا أسَفَاهُ على زمانٍ ضاع في غير طاعته، وواحَسْرَتَاهُ على قَلْبٍ باتَ في غَيْرِ خِدْمَتِه". (لطائف المعارف: ص: ٢٢٣).

نسأل الله القبول ودوام العافية، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

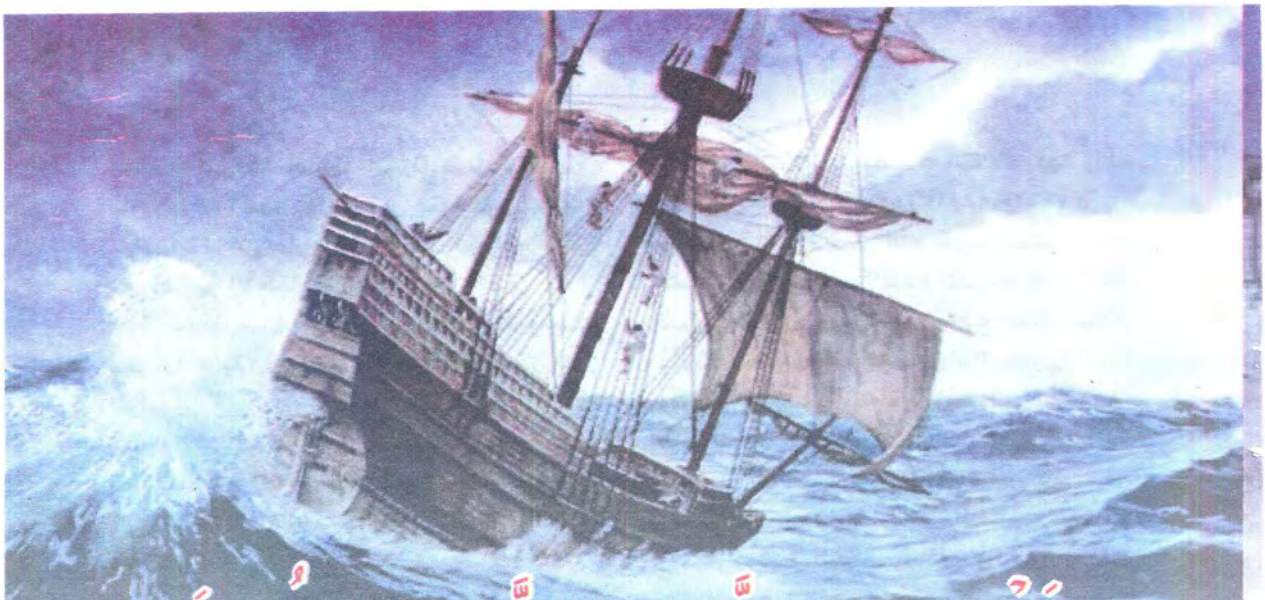

تَحْذِيرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْفِتَنِ بَعْدَهُ

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد رسول الله، وبعد:

فإنَّني لَمَّا نظرتُ في هذه السِّنينَ القليلة الماضيَة، وجُلْتُ فيها ببَصَري رَأَيْتُ أَنَّهُ قَدْ أَمِرَ (أي: عظُم) أَمْرُ هَذِهِ الفتنِ، وَبَلَغَتْ مَبْلَغًا يَجِلُّ عَنْ وَصْفِهِ الْبَنَانُ، وَيَكِلُّ عَنْ نَعْتِهِ اللِّسَانُ؛ ومع ذلك لَمْ نَسْعَ في اجتنابها، ولم نعمل على اتقائها مع كثرتها وَقِلَّةِ الْمُحَذِّرِينَ مِنْهَا.

ومن أشد ذلك عليَّ أني رأيت الفتن على كَثْرَتِها تَسْتَخِفُّ فُؤَادَ الرَّجُلِ الْحَلِيمِ، وتستنزل ذا العقلِ السَّدِيدِ والنَّظرِ القويمِ، ولا قوة إلا بالله وهو المستعان.

وإن الناظر في حالنا ليتأوه آهة الرجل الحزين، من شدة الفتن وتتابعها وامتلاكها النفوس وغلبتها عليها، واستضعاف الناس أنفسهم لديها، ثم تفيض عينه من الدمع من فرط الحُزْنِ، ويبكي من شِدَّةِ الوَجْد، ويَنْتَحِبُ الليلَ الطويلَ لأجْلِ الخَطْبِ الجَلِيلِ، ويَبِيتُ يرْعَى النُّجُومَ من غَلَبَةِ الهُمُومِ، فلا يَسْتَطِيعُ مَضْجَعًا ولا مَهْجَعًا.

وَإِنْ رُمْتَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فَانظُرْ -يرحمك الله من منصف- إلى حال النَّاس مثلًا مع عُلَمائهم وشُيُوخهم وإخوانهم تراهم يطعنون على أهل العلم وفرسانه، ويعيبون الراكضين في ميدانه، ويرمونهم بمظالم أنقضت الظهور بأثقالها، ويا ليْتَ ما يعيبُونهم به حَقائق، بل إنها شقاشق وبوائق، لعل الله قد برَّأهم منها، وهذا في الجَهْلِ غَايَةٌ، وفي التَّقْصيرِ عن مَرَاتِبِ الفضْلِ نهايةٌ؛ فإلى الله المشتكى.

وقد سألت نفسي سؤالًا: أما حذَّرنا النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن؟ وكان الجواب

Upload by: altawhedmag.com

القاطع: بلى، قد حذرنا وأنذرنا، فسألت نفسي سؤالًا آخر: فما بالُ الناس يتهافتون عليها تهافتَ الفَرَاش على النّار؟ وكان الجواب: أنّهم لم يطّالعوا الأخْبَار في التّحْذير من الفتن.

وقد حذّرنا منها نبيُّنا صلى الله عليه وسلم، وخافَها علينا أن تَقَع بنا فتَنْدُ الإيمانَ في القلوب.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: كَانَ النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الفتن ومن شرها ويتخوف من وقوعها؛ لأنها تذهب بالدين وتتلفه، وقال: قول الله: " وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً " (الأنفال: ٢٥) قال: إنَّ الفتنة إذا عمّت هلك الكُلُّ، وذلك عند ظُهور المعَاصي وانتشَار المنكر، وقد سألت زينب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ" اهـ (شرح ابن بطال: ١٠/٦).

وقال أيضًا: وقد روى النضر بن شميل، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "ويل للعرب من شرٍّ قد اقْتَرب، مُوتُوا إن اسْتَطَعتُم" وهذا غاية في التّحذير من الفتن والخوض فيها حين جَعَل الموتَ خيرًا من مباشَرَتها، وكذلك أخْبَرَ في حديث أسامة بوقوع الفتن خلال بيوتهم ليتَوَقّفوا ولا يخوضُوا فيها ويتأهّبوا لنزولها بالصبر، ويسألوا الله العصمة منها والنجاة من شرها. اهـ. (شرح ابن بطال: ١٠/١١-١٢).

عن أَبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يُقْبَضُ العِلْمُ، وَيَظْهَرُ الجَهْلُ وَالفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ" قيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الهَرْجُ؟ فَقَالَ: "هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا، كَأَنَّهُ يُرِيدُ القَتْلَ". (رواه البخاري٨٥). وَفِي لَفْظٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ- وَهُوَ القَتْلُ القَتْلُ- حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ".

قال ابن حجر: قوله: "وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ" فَالْمُرَادُ كَثْرَتُهَا وَاشْتِهَارُهَا وَعَدَمُ التَّكَاتُمِ بِهَا وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ اهـ فتح الباري: (١٣/١٨، ح٧٠٦٢).

وإذا كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ، مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، قَالَ: "هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى، إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ القَطْرِ". (رواه البخاري١٨٧٨) ومسلم٢٨٨٥، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال النووي: وَالتَّشْبِيهُ بِمَوَاقِعِ الْقَطْرِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْعُمُومِ أَيْ إِنَّهَا كَثِيرَةٌ وَتَعُمُّ النَّاسَ لَا تَخْتَصُّ بِهَا طَائِفَةٌ وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الْحُرُوبِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهُمْ كَوَقْعَةِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ وَالْحَرَّةِ وَمَقْتَلِ عُثْمَانَ وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفِيهِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهـ (شرح النووي على مسلم: ١٨/٧-٨ (٢٨٨٥).

وقال المهلَّبُ: مُثِّل للنبي صلى الله عليه وسلم الفتن التي حدثتْ بعدهُ فرآها عيانًا، وأنذرَ بها عليه السلام قبل وقوعها، وهذه علامةٌ من علامات نبُوَّته؛ لإخباره عن الغيب في ذلك، فكانت الفتنُ بعده كالقطر كما أخبر وخبره الصادق المصدوق اهـ شرح ابن بطال: ٤/٥٤٩.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ذَكَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْ فِتْنَةٍ عَمْيَاءَ صَمَّاءَ بَكْمَاءَ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَيْلٌ لِلسَّاعِي فِيهَا مِنَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (رواه ابن حبان ٦٧٠٦).

قال المناوي: "ستكون فتْنَة"، كان هنا تامة، أي: ستحدُثُ فتنةٌ "صمَاء بكْمَاء عمْيَاء" يعني: يَعْمى الناس فيها فلا يرَوْن منها مَخْرجًا ويُصمُّون عن استماع الحقّ أو المراد فتنة لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق فهي لفقد الحواس لا تقلع ولا ترتفع "من أشرف لها استشرفت له" أي من اطلع ينظر إليها جرته لنفسها فالخلاص في التباعد منها والهلاك في مقاربتها. اهـ. (فيض القدير: ٤/١٠١).

Upload by: altawhedmag.com

فما بالك بزماننا؟! الذي أصبحت فيه الألسنةُ مُخْصِبَةً، وَأَمْسَت القُلُوبُ مُجْدِبَةً؛ فأما العقول فإنها صغيرة، وأما النفوس فإنها ممتلئة غلًّا وَضَغِينَةً، وَأَمَّا الأَخْلَاقُ فَإِنَّهَا رَقِيقَةٌ صَفِيقَةٌ قَدْ غَلَبَ عَلَيْه "حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ" فإلى الله المشتكى.

وقد جاءَ هذا الوصفُ في قول عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ" (رواه البخاري٣٦١١، ومسلم١٠٦٦).

وقد أجاد منصور بن عمار في وصف هذا الزمان فقال: تَغَيَّرَ الزَّمَانُ حَتَّى كَلَّ عَنْ وَصْفِه اللِّسَانُ فَأَمْسَى خَرِفًا بَعْدَ حَدَاثَتِه، شَرِسًا بَعْدَ لِينِه، يَابِسَ الضَّرْعِ بَعْدَ غَزَارَتِه، ذَابِلَ الفَرْعِ بَعْدَ نَضَارَتِه، قَاحِلَ العُودِ بَعْدَ رُطُوبَتِه، بَشِعَ المَذَاقِ بَعْدَ عُذُوبَتِه، فَلَا تَكَادُ تَرَى لَبِيبًا إِلَّا ذَا كَمَدٍ وَلَا ظَرِيفًا وَاثِقًا بِأَحَدٍ، وَمَا أَصْبَحَ لَهُ حَلِيفًا إِلَّا جَاهِلٌ، وَلَا أَمْسَى بِهِ قَرِيرَ العَيْنِ إِلَّا غَافِلٌ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الخَيْرِ إِلَّا الاسْمَ، وَلَا مِنَ الدِّينِ إِلَّا الرَّسْمَ وَلَا مِنَ التَّوَاضُعِ إِلَّا المُخَادَعَةَ، وَلَا مِنَ الزَّهَادَةِ إِلَّا الانْتِحَالَ، وَلَا مِنَ المُرُوءَةِ إِلَّا غُرُورَ اللِّسَانِ. اهـ.

وفي حلية الأولياء:(٥/٢٥١) قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْوَلِيدِ: سَمِعْتُ ابْنَ حَلْبَسٍ، يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ عِنْدَ الْمَوْتِ:

ذَهَبَ الرِّجَالُ الصَّالِحُونَ وَأُخِّرَتْ
نَتْنُ الرِّجَالِ لِذَا الزَّمَانِ المُنْتِنِ

نعم، إنه لأمرٌ مُفْزِعٌ لا يُطاقُ فالله المستَعانُ، وحينما طالعت حديث الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ، الذي قَالَ فيه: وَايْمُ اللَّه، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا". رواه أبوداود (٤٢٦٣) وإسناده صحيح.

وفي لفظ أبي نعيم عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، أَنَّ الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ، جَاءَنَا لِحَاجَةٍ لَنَا، فَقُلْنَا: اجْلِسْ عَافَاكَ اللَّه حَتَّى نَطْلُبَ حَاجَتَكَ، فَجَلَسَ فَقَالَ: الْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ مَرَرْتُ بِهِمْ آنِفًا، يَتَمَنَّوْنَ الْفِتْنَةَ، وَيَزْعُمُونَ لَيَبْتَلِيَنَّهُمُ اللَّه فِيهَا بِمَا ابْتَلَى بِه رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ، وَايْمُ اللَّه لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ- يُرَدِّدُهَا ثَلَاثًا- وَإِنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ" (الحلية: ١/١٧٥).

حينما طالعت الحديث تَأَمَّلْت أَلْفَاظَهُ فوجدت فيه من علامات التوكيد (إنّ - لام التوكيد) ما يشدُّ الانتباه إلى أهميَّة الأمر، وَأَنَّ الْخَطْبَ جِدّ وَالْأَمْرَ إِدّ؛ إِذْ إِنَّ عَامَّةَ الْخَلْقِ يَبْحَثُونَ عَنِ النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ كُلٌّ بِمَا ارْتَآهُ وَارْتَضَاهُ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ طَالِبِ الشَّيْءِ يَجِدُهُ.

قال الخطابي: "واهاً " كلمة معناها التَّلَهُّف، وقد يُوضع أيضاً مَوْضِع الإعجاب بالشيء، فإذا قلت: ويها، كان معناها الإغراء. (معالم السنن: كتاب الفتن ٤/٣٤٣).

وقال المناوي: "إنّ السعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ" بضم الجيم وتشديد النون "الفتن" يعني بَعُدَ عنها ووُفِّقَ للزوم بيته وكَرَّرَهُ ثلاثًا مُبالغة في تأكُّد المُباعَدة عنها "وَلَمَنِ ابتُلِيَ" أي: بتلك الفتن هُوَ بفتح اللام جواب قسم في صدر الحديث و"مَنْ" بفتح الميم شرطية و"ابتلي" في محل جزم بها "فَصَبَرَ" معطوف عليه أي: صبر على ما وقع في الفتن، وصبر على ظُلم الناس له، وتحمُّل أذاهم ولم يَدْفَعْ عن نفسه وقضية كلام المصنِّف أنّ ذا هو الحديث بتمامه والأمر بخلافه بل بقيته عند أبي داود " فواهًا ثُمّ واهًا" أي: طوبى له لِمَا حصل أي: فواهًا له، ما أطيبَه اهـ فيض القدير: ٢/٣٤٥.

نسأل الله أن يعافينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

Upload by: altawhedmag.com

حصاد الفتن

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على تظاهر آلائه وجميل بلائه وصلى الله على نبينا محمد سيد أصفيائه وعلى آله وصحبه ومن تبعه من أحبابه وأوليائه، وبعد:

فلَقَدْ تَجَشَّمتُ بالحديث عن الفتن وعلاج آفاتها مُرْتَقَى صَعْبًا لَسْتُ لَهُ بأَهْلٍ حَقًّا، لَكِنَّهَا المحاولة الجادة لأداء حقٍّ حقيق بالتأدية في هذا الزمان المضحك لكنه ضحكٌ كالبُكا، كما قال القائل.

وهذه المحاولة من أجل القيام بالنصيحة الواجبة للمسلمين التي أرجو الله تعالى أن يقضي بها بعض الحق عني، ولعل الله تعالى أن ينفع بها؛ فإنه سبحانه بما شاء نفع ولا قوة إلا به.

ولقد علمتُ أنه لا يَسعَني إلَّا الإنكارُ عَلَى مَنْ وقع في الفتن بعد أن بلغ وجاوز حدَّ الإكثار، ولم يَخُلْ من نفسه عُقْدَةَ الإصْرار، فاجتهدتُ في بيان خَطَرها، وعملتُ على بَثِّهَا وَدَعوة النَّاسَ إلَيْهَا، مُنَافَحَةً عَنْ ديني، وتثبيتًا لإخواني وأخواتي من المسلمين والمسلمات، وَمُحَامَاةً عَنْ ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَأَهْلِ الْغَفْلَةِ أن يضلوا بهَا، أو أن يُفتَنوا، لا سيَّما وأن من يَنْشُر الفتنَ أناسٌ لا يعرفُون مَدَاها ولا يُدْرِكون مُنْتَهَاها، وأكْثَرُهم - فيما أحسب- لا يَقْصد الشَّرَّ ولا يتعمَّدُهُ، لكنَّهم أتَوا من قِبَلِ جهلهم بأحكام الشرع مع عدم درَايتِهم بأيام الله تعالى وتاريخ من كانوا قبلنا، فالواجب علينا أن نَفْطَنَ لعثرات كل مُتَعَثِّر إن هُوَ غَشَّ، أو كان مخدوعًا وغُشَّ، أو متأولًا معذورًا، فَكُونُوا منْهُم ومن غيرهم عَلَى حذر، ولا تتمارَوا بالنذر.

ولعلها أيضًا أن تكون من أداء حقِّ العلم أيضًا في هَيْئَة زَهِيَّة، وَحُلَّة بَهِيَّة تَرُوقُ لَهَا الأَعْيُنُ، وَتُسَرُّ بِهَا الأَنْفُسُ وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى سَبِيلِ المُقَارَبَةِ كما قال صلى الله عليه وسلم: «سدِّدُوا وقارِبُوا».

ولا شكَّ أنَّ المنصفَ يشهدُ بالخير إنْ وجدَهُ، ويُقيل العثرةَ إنْ عَثَرَ عليها.

أمَّا المتَعَسِّفُون الذين تنطوي قلوبهم على غلٍّ للذينَ آمنوا فلا اعتبَارَ لوُعُوعَتهم ولا اعْتدادَ بوَسْوَسَتهم، بل هؤلاء نذرهم يعضُّون على صمِّ الحَصَى كمدًا، إذْ إنَّهم جَهِلُوا منازلَهُم، ولم يعرفوا مقاديرَهم، وقد قدَّر الله تعالى الناسَ مَنازلَ، وفضَّل بعضَهم على بعض حتى صاروا درجاتٍ متفاوتة، ومنازلَ متباعدة كما قدَّر القمرَ منازلَ حتى صار كالعرجُون القَديم، وصَدَقَ الله تعالى حين قَالَ: «وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» (الصافات: ١٦٤).

ومَن ذا الذي ينْجُو من الناس سَالمًا
وللناس قَالٌ بالظُّنون وقِيلُ

إن حصاد الفتن لا يكاد يصفه قلم ولا ينعته لسان، ومما يدل على ذلك ما كان في عهد الصحابة وهم خير القرون؛ فإن الفتن عصفت بأيامهم عصفًا وفرَّقت الناس فرَقًا، مع قلة من خاض فيها منهم، فما بالك بزمان كزماننا الذي خاض في الفتن كل خائض.

قال ابن سيرين: «قامت الفتن فلم يدخل فيها من الصحابة إلا كذا وكذا رجلاً» يعني القليل أو كما قال.

فإذا كان هؤلاء لم يسلموا منها وهم السادة فما بالك بمن بعدهم من قرناء الوسادة.

فالكل لا بد أن يبتلى ويمتحن والناس في أصل ذلك سواء المُؤْمِنُ والكافر والبر والفاجر والمطيع والعاصي، ثم يفترقون في الصبر والاحتساب أو في العجز والسخط على المقدور.

أصناف الناس في الفتن:

أَمَّا أَهْلُ الإيمَانِ فَإِنَّهَا تَزِيدُهُمْ ثَبَاتًا عَلَى دينهمْ ويزدادون إيمانًا إلى إيمانهم، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ وَشَكٍّ؛ فَهُوَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

Upload by: altawhedmag.com

يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » (الحج: ١١).

فهذا الصنف يَدْخُلُ في الدِّين عَلَى طَرَف، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبُّهُ اسْتَقَرَّ، وَإِلَّا انْشَمَرَ وانزعج، فإذا وُسِّعَ عليه في معيشته وصح له جسمه آمَنَ وإلا أتاهُ الشَّيْطَانُ فقال: واللهِ مَا أصبت مُنْذُ كُنْت عَلَى دينك هَذَا إلَّا شرًّا، فينقلب على عقبيه وَذَلِكَ هُوَ الْمَفْتُونُ وَتِلْكَ هِيَ الْفِتْنَةُ.

وَمِثْلُ هَذَا يَجْعَلُ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ » (العنكبوت: ١٠).

من آثار ركوب الفتن:

إنّ الفتن مركبها شديد، ومذهبُها بعيد، وإذا قامت الفتن -أعاذنا الله منها- غشي الناس ما غَشِيَهُم من الحيرة والتَّرَدُّد وضُربتْ الحجُبُ على أكثر العقول وأرخيَتْ الستُور فغابت المعرفة كغياب الشمس عند الأفول، وقلَّ في النَّاس من يعرفُ ساعَتَها المخرَجَ أو يُبْصِرُ ببَصيرته المآلَ.

فإذا انجلى ما غشيها من الظلام انكشف قناع الحق وظهر الصواب من الخطأ وبان الصدق من الكذب وبدا ما كان خافيًا على الناس لكن بثمن باهظ وخسارة فادحة من الإيمان والأرواح والأنفس والأموال والثمرات وغير ذلك؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

قال الإمام البخاري: «قَالَ اللَّيْثُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد، عَنْ سَعِيد بْنِ الْمُسَيَّب: وَقَعَت الفتْنَةُ الأُولَى- يَعْنِي مَقْتَلَ عُثْمَانَ- فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ أَحَدًا، ثُمَّ وَقَعَت الفتْنَةُ الثَّانِيَةُ- يَعْنِي الحَرَّةَ- فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ الحُدَيْبِيَةِ أَحَدًا، ثُمَّ وَقَعَت الثَّالِثَةُ، فَلَمْ تَرْتَفِعْ وَلِلنَّاسِ طَبَاخٌ. (صحيح البخاري: ٤٠٢٤).

قال الحافظ ابن حجر: «قَوْلُهُ: وَقَعَت الْفِتْنَةُ الْأُولَى يَعْنِي مَقْتَلَ عُثْمَانَ فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ أَحَدًا أَيْ: أَنَّهُمْ مَاتُوا مُنْذُ قَامَتِ الْفِتْنَةُ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ إِلَى أَنْ قَامَتِ الْفِتْنَةُ الْأُخْرَى بِوَقْعَةِ الْحَرَّةِ وَكَانَ آخِرُ مَنْ مَاتَ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَمَاتَ قَبْلَ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ بِبِضْعِ سِنِينَ وَغَفَلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي الْخَبَرِ يَعْنِي مَقْتَلَ عُثْمَانَ غَلَطٌ مُسْتَنِدًا إِلَى أَنَّ عَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ عَاشُوا بَعْدَ عُثْمَانَ زَمَانًا؛ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ قُتِلُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ وَلَيْسَ ذَلِكَ مُرَادًا.

وَقد أخرج بن أَبِي خَيْثَمَةَ هَذَا الْأَثَرَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد بِلَفْظ «وَقَعَتْ فِتْنَةُ الدَّارِ الْحَدِيثَ وَفِتْنَةُ الدَّارِ هِيَ مَقْتَلُ عُثْمَانَ».

وَزَعَمَ الدَّاوُدِيُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفِتْنَةِ الْأُولَى مَقْتَلُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ خَطَأٌ؛ فَإِنَّ فِي زَمَنِ مَقْتَلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ مَوْجُودًا.

قَوْلُهُ ثُمَّ وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ الثَّانِيَةُ يَعْنِي: الْحَرَّةَ إِلَخْ كَانَتِ الْحَرَّةُ فِي آخِرِ زَمَنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ».

نصائح في أزمان الفتن

أولًا: كُنْ عاملًا بإعلان السنن، وإعلاء أمور الدين، وإظهار شعائره في كل ناد، وارفع صوتك به ليسمعه من بعُدَ ومن قَرُبَ، ولا يَزَالُ اللهُ تعالى يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّين بغرس الإيمان ونَبْتِ الإسلام فالحقْ بهم عسى أنْ تكونَ منهم.

ثانيًا: لا تأمَنْ إلى فتنة مهما هانَ أمرُها في بَصَرِكَ، وصَغُرَ شأنُها في نَظَرِكَ، فإنها تَبْدو صغيرةً ثم يحيط بالمرءِ سُرَادِقُهَا فلا يَسْتَطِيعُ الخُرُوجَ، بل اجعَلْ شعارَك ما قاله يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (يوسف: ٣٣- ٣٤)، وليكُنْ شعارُكَ «احذر الفتن» فإنها كالأفاعي والعقارب يَلِينُ مَلْمَسُهَا وَالعَطَبُ فيها.

إِنَّ الْأَفَاعِيَ وَإِنْ لَانَتْ مَلَامِسُهَا ××× عِنْدَ التَّقَلُّبِ فِي أَنْيَابِهَا الْعَطَبُ

ثالثًا: قد يضلُّ في الفتن عقلُ ذي العقل وتذهبُ حكمةُ الحكيم فاتَّخِذْ عالمًا ذا بَصَرٍ يهديك.

رابعًا: أصلحْ سريرتَكَ، ونقِّ باطنَكَ، وطيِّب دواخلَك، فلا تَنْطوي على شكٍّ أو ريب أو دخَنٍ واجْتَنِبْ غَمْرَةَ الفتن، وإلَّا تفعَلْ رَجَعْتَ بالبَخْس والغَبْن.

خامسًا: إننا في أيام نَحِسَات، بل في يوم نَحْس مُسْتَمِرٍّ، ولم يبق من الخير إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابُّها أحدُنا، ومع ذلك يقع فيها التفريط على قلَّتها فتَتَولَّاها أيدي العابثين، ويُسمع لكلام العابثين، فاحرص على الخير تكن من أهله.

سادسًا: اتَّبِعْ ولا تبتدعْ فإنَّنا في زمان اتَّخذ بعضُ الناس من الشرائع للإفساد ذرائع، وجعلوا من قواعد الشريعة وما فيها من قوانين رحمة كوانين إحراق وعذاب ونقمة، كل هذا بالتلاعب بالنصوص وعدم الرجوع إلى الأثبات من أهل العلم.

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

بحارُ الفِتن وسُفنُ النّجاة

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على فضائله، ونستَوْهِبُه معونةَ على أداءِ فرائضه ونوافله، ونصلّي ونسلّم على مَنْ نافَتْ على الاستقصاء خِصَالُه، وجلّتْ عن الإحْصَاءِ شمائلُه وخلالُه، ومن تَبِعَه واقْتَفى أثَرَهُ فكُلٌّ أولياؤُهُ وآلُه.

وبعدُ، فأنْواعُ الفِتَنِ تجلُّ عن العَدّ، وتَعزُّ على الاسْتقصاءِ والحَصْر؛ إذْ إنّها كأمْواجِ البَحْرِ تلاطُمًا وتفاقُمًا وتطاوُلًا وتصاوُلًا، بل كزَبَدِه كثْرَةً وتكاثرًا، لهذا لا يكفيها الوصف مجمَلًا، ولا يقال فيها قولًا مرسلًا، بل لابُدّ أن يُفَصَّلَ القولُ فيها ويحصَّل، ويُطالُ فيه ويُوَصَّل، ونحن فيما نستقبل من مقالاتنا ونطالع منها في قابل أيّامنا سنتَتَبّع بعضَهَا كشْفًا لِخَبايَاها وعلاجًا لِخَفَايَاها، وهذا الأمرُ قَصْرُه عَسيرٌ، وحصرُهُ صعبٌ غيرُ يسير، وقد لا يُمكن الوصولُ إلى الغَاية منه؛ إذْ كلُّ شيء من الْخَير والشرّ قد يكون فتنَةً للعبْد، فالعذر إلى من وقف على شيء فاتني مبْذُول، وهو عند الكرام مقْبُول، وأسألُ الله توْفيقًا، وأن يَجْعلَني لِمُعَالَجَة هذه الْمُهِمَّة جَديرًا وخليقًا، فهو الْمُعين على سُلُوك سُبُل السّلام، والسّير فيها وبُلُوغ الْمَرام، وهو سبحانه في ذلك الْمَأمُول، ومنه الإثابَة على سَائر الأعْمَال، وإليه الْمَرْجع وبيْن يديْه الْمَثُول، ومنْهُ وعليْه القَبُول.

خطرُ هذه الفِتْنة:

هذه الفتنة كالبحْر الأُجاج، المضطرب الأمْواج، واستحالَةُ الْمِلْح الأجاج إلى عَذْب فُرَات غايةٌ في الْمَشَقّة ونهاية في العَنَت بعيدةُ الشُّقّة، وقد ورد في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، قَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ في الفتْنَة؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنَا أَحْفَظُ كَمَا قَالَ، قَالَ: هَات، إنَّكَ لَجَرِيءٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: "فَتْنَةُ الرَّجُل في أَهْله وَمَاله وَجَاره، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوف، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَر"، قَالَ: لَيْسَتْ هَذه، وَلَكن الَّتي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْر" رواه البخاري (٣٥٨٦).

ولا يشعر بهذا الخطر إلا من أشرقتْ شمسُ

Upload by: altawhedmag.com

الإيمان على قَلْبه، وانجابَتْ عنه سحائبُ غيِّه، ومن عرف التاريخ وقرأ وقائع أيام الله ثم خاف على نفسه وعمل على الخلاص لها من الفتن، وأدمن الدعاء، وألح في طلب المخرج، وحرص على المهرب والمفر.

من لم يبتْ والبينُ يصدعُ قلبَه
لَمْ يدرِ كيف تُفَتِّتُ الأكبادُ

ولكي تستعين على توقي هذا الخطر لابُدَّ أنْ تلجأ إلى الله تعالى أوّلًا وتتضرع إليه، وتدعُوه تضرُّعًا وخُفْيَة، وتُناديه نداءً خفيًّا، ثُمّ تَنْظُر بقلبك، وتستعين بفكرك وتُراجع عقلك وتُحدّد رؤيتك وتُجدّد رويّتك وتستنجد بفهمك.

إنَّ الحديثَ عن فتنة النّاس بعضهم ببعض حديثٌ ذُو شُجُون من جهة لأجْل ما فيه من كلّ جديد وحديد، ومن جهة أخرى هو أمرٌ جللٌ لمَا يكونُ فيه من أحوال كالأوحال، ووقائعَ وأحْداث ونوازل تفوقُ تصوُّر المنازل، ذلك أن هذه الفتنة منبئةٌ عن ودائع القُلوب، وكاشفة عن ذوَات الصُّدور، وهل كانَ من دَوَران أحْداث الزّمان، وتداوُل الأيّام، وتقلُّب الأحْوال إلّا من جرّاء هذه الفتْنة.

فمَنْ نَجَا منها كان من السُّعداء الألبَّاء، والموفّقين الفهمَاء، ومن انغمَس فيها إلى الأذْقَان عاشَ على جَهْله المُقيم، ومات على ضلَاله القديم حتى يَلْحقَ بالأشْقياء، أو مرضَ مرضًا يصيرُ به حرضًا أو يكون من الهالكين.

إنَّ هذه الفتنةَ غُصّةٌ لا تُطاقُ؛ لأنّها موصولَةٌ بالتّجرّي مَبْتُوتةُ الصّلة بالتّحَري، والتحذير منها واجب أكيد، فرُبَّمَا كان في ذلك شفاءُ الغَليل وبُرْءُ العَليل.

لَعَلَّ عتبَكَ محمودٌ عواقبُهُ
وربَّمَا صحَّتِ الأجْسامُ بالعلَلِ

والذي صعّب شأنها أنها أهملت من جهة العلاج، وتُركتْ معالجَتُها حتى استَمْكنت من المسلمين، وتجذَّرتْ في أخلاقهم، وتأصّلتْ في طباعهم، فلهذا عزّ دواؤُها وَقلَّ شفاؤُها.

ولو نظروا في مؤداها وتبيَّنوا عاقبَتها لَمَا وَرَدُوا حتّى يعرفُوا الصَّدَر، بل لعملوا على البناء ولتركوا الهدم وذلك لقلة البناة وكثرة الهادمين واليوم ذهب البُنَاة إلا النَّزرُ اليسيرُ وبقي مَن يهدم وهم الجمُّ الغفير فلا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله العزيز الحكيم.

مَتى يَبْلُغُ البُنْيانُ يومًا تَمامَه
إذا كنتَ تَبْنيه وغيرُك يهدمُ
مَتى يَنتَهي عن شَيْءٍ مَنْ أتَى به
إذَا لَمْ يكنْ عَلَيْه منهُ تَنَدُّمُ

لقد أعرَضَ عن ردِّها كلُّ ناظر، وترك صدَّها كلُّ راغب حتى نسجَتْ عليها-من طُول الإهْمَال - العناكب، فهل من فاتح لمُغلَق معانيها، وكاشف عن غامضها وخافيها؟

إنّ من يقومُ على هذا الثّغر لقائمٌ بعمل صالح، ومُشْتغلٌ بمتْجر رابح، وسالكٌ مسلكًا من أفضل المسالك، وناهجٌ نهجًا يُنَجّي من أكثر المَهالك، فهل من مستعدٍّ ومشمّر لها؟

كثرة الفتن وفشوُّها:

وقد انتشرتْ هذه الفتنة بين الجمهور حتىّ بَهرتْ العقُول، وتناكر الناس وفسد تصورهم ومرجوا فصاروا أشتاتًا، فلم يعودوا كما كانوا لحمة واحدة، أو يدًا واحدة، بل تفرقوا تفرُّقَ سَبأ، فأصبحتْ القُلوب تغْلي كالقُدُور، بدليل ما تغرفُه الألْسنة منها، وما تَرْمي به العِبَاد من الإفْك البَيِّن، والزور الذي ليس بالهيّن، والبهتان المُبين والقذْف المُهين، فضلًا عمّا تَعْنيه النّظرات، وما تحملُه الظُّنونُ الكواذبُ المُزلّة- "والظَّنُّ أكْذَبُ الْحَديث" كما قال صلى الله عليه وسلم- وما تَسُوقُ إليْه الأوْهامُ المُضلّة حتى تنغَّصت الْحَياة وعادَتْ لذّاتُها آلَمَا وصارتْ أطَايبُها خَبَثًا، وذهب طيبُ العَيْش وتكدَّرَ الصَّفْو، ممّا جعَل المَرءَ يحْكُم على زماننَا بإعْضَال دائه وتعذُّر شفَائه، ولله الأمر من قبلُ ومن بعْد.

Upload by: altawhedmag.com

وهكذا ضُربتْ قلوبُ النّاس بعضهم ببعض كما كان من بني إسرائيل حينَمَا تركُوا الأمْر بالمَعْرُوف والنّهي عن المُنْكر، تنكرت طباعهم وفساد الطباع يصعب إصلاحه.

إذا كان الطّباعُ طباعَ سَوْء
فلا أدَبٌ يُفيدُ ولا أديبُ

صعوبَةُ النّجاة منها:

إذا رجع المرء إلى نفسه وتأمل هذه الفتنة علم علمًا لا يعترضُه شكٌّ، ولا يعتورُهُ امْتراءٌ أنّه إذا طال الأمَدُ شقَّ الوصولُ إلى الغرض وبعُد، وأنّ طولَ مدّة المَرَض بابْن آدم تُفسدُ مزاجَه وطبيعتَه، فلو أنّه بادرَ بالتّداوي لَحاصر الدّاءَ بالدّواء، لكنّ الآفةَ أنّ المَرَضَ طالَ بالأمّة وتغلْغل فيها، وحَلّ في كَوامنها حتى تحكّكَتْ عقاربُه بأفاعيه، والتبست أسبابُه واختلطتْ دَوَاعيه.

وهذا ما نزل بالمسلمين؛ إذْ إنّ هذا الدّاءَ العُضال بدأ يَسْري فيهم منذُ أزْمان حتّى غلب عليهم، ولذا يُحاولُ المَرءُ مستعينًا بالله أن يلجَ مَوْلجًا أو يجد مَخْرَجًا ليذْهَبَ إلى طَريق النّجاة من هذه الأمْراض فلا يَكادُ يصلُ إلى شَيْء من ذلكَ إلّا بعد الفَيْنة والفَيْنة.

لو نقّب الأرضَ باغٍ غيرُ ذاك لهُ
معنًى، وصعّد يَعْلُو في ترقيهِ
ما عاد إلّا بخُسرٍ في تطلّبه
ولا رأى غيرَ غيٍّ في تَبَغّيه

وذلك لأنّ فتْنة الناس بعضهم ببعض قد دخلتْ كل بيْت، وسلكَتْ كلَّ فَجّ، وأمَّتْ كلّ جهَة، ووردَتْ كلَّ موْرد، وصدرَتْ كلَّ مصْدر، وغلَبَ النّفاق، وانتَشَر الخلافُ والشّقاق، حتّى عُدم الوفاق، وانعَدم الاتّفاق إلّا في ما يسّر الله تعالى، ومن عَايَنَ أبْصَر، ومن ذاقَ عَرَف، فاللهمّ اكْفنا نَوائبَ الزّمان، ونَوازلَ الحَدَثان، وأنتَ المُستعان، وعليكَ التُّكْلان.

عَنْ أبي سَعيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللّه عَنْهُ، أنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: "يُوشكُ أنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِم غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ" (صحيح البخاري ١٩).

إنّ المَرء ليَخْشى عند تصوُّر هذه الفتنة، ويخاف بالنظر في عواقبها أن يكون كلامُه كلُّه عَويلًا وزُويلًا، أو أن يصيرَ جلُّهُ تَشاؤمًا وتطيُّرًا، لكنّا نحاولُ أن نَبُثّ روحَ الثّقة مع هذا الفَزَع الذي يُلِمّ بنا، وأن ننشرَ التّفاؤل مع ذلك الخَوف الذي أحاطَ بنا، وأنْ يَشُوب هذا ذاك، وأنْ نخلطَ معنًى بمَعنًى، وهذا خيرٌ من أن نغترَّ بالثّناء الكاذب أو أن ننخدع بالإطْراء المُتَجوِّز أو نقنط من رحمة الله أو أن نستيئس ونظن بالله الظُّنونا.

وبعضُ السُّمِّ ترياقٌ لبعْض
وقد يشْفي العضالُ من العضالِ

ومما يزيد النجاة صعوبة قلة الصالحين وندرة الرفقاء المصلحين وذهاب الطيبين حتى بقيت في الناس بقية لا تعرف من الحقّ رسمًا، ولا تُقيم في مقاطع الحُقوق حُكْمًا بلْ أكثرُهم يتبع الآراءَ المخترعة، والأحوالَ المبتدعة.

السعادة في اجتناب الفتن:

في بادئ الأمر وعند بادي الرأي يظن الناس أن السعادة في المال والعرض الزائل؛ فإذا جاءت الفتن ومواطن الإشكال قام البرهان للمرء أن السعادة في المخلص من الفتن فاهتدى لرشده وفطن لما أضاع من حظه في السعي للآخرة.

عَنِ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: إيْمُ اللّه، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا" (رواه أبو داود ٤٢٦٣).

وللحديث بقية عن الأسباب والعلاج، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

بحارُ الفِتن وسُفُنُ النّجاة

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ

كيف فُتن النّاسُ بعضُهم ببعض؟

(٢)

إعداد د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الْحَمْد لله الَّذي طهَّر قُلوبَ أَوْليائه بِمَاء هدَايته، وقرَّبهم بالهدَاية زيادةً لَهُم من عنَايته، والصلاة والسلام على صاحب الْمَقام الْمَحْمود في العُقبى، والغَنيّ عن أنْ يَسْأل أجرًا إلا الْمَوَدّة في القُربى، والْمَخْصُوص بمَنْصب لم يُشاركه أحدٌ في معَاليه، هو فكُّ الرّقاب والصّكاك يوم يُغلّق الرهنُ فيه، وعلى آله وصحبه وتابعيه ومن تبعهم إلى يوم الدين من مُحبِّيه.

وبعد، فمن فتَّش عن هذه الفتْنة - فتنة الناس بعضهم ببعض- وجَالَ في معَانيها بانَتْ له خَوَافيها، واتّضحتْ لدَيْه مبَانيها، وأفصَحتْ له عمَّا فيها، فقد قدَّر الله تعالى الناسَ- بحكْمَته ورَحْمَته- منازلَ ومناقل، وجعلهم أصنافًا وألفافًا، وخلقهم على أنحاءٍ كثيرة، قال تعالى: «وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ» (الأنعام: ١٦٥).

فالنَّاسُ كبَحْر مضطرب الأمْواج فيهم العَذْبُ الفُرَاتُ، والْمِلْحُ الأجَاج، ومنهم الرَّابحُ الصَّالحُ، والخَاسرُ الطَّالح.

قالَ ابن كثير: فَاوَتَ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَخْلَاقِ، والمحاسن والمساوي، وَالْمَنَاظِرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي

Upload by: altawhedmag.com

ذلك، كقوله: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا» (الزُّخرُف: ٣٢)، وقَوْلُه تعالى: «انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا» (الإسراء: ٢١).

وقَوْله: «لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ» أيْ: ليَخْتَبِرَكُمْ في الَّذي أنْعَمَ به عَلَيْكُمْ وَامْتَحَنَكُمْ به، ليَخْتَبِرَ الْغَنيَّ في غِنَاهُ وَيَسْأَلُهُ عَنْ شُكْرِه، وَالْفَقِيرَ في فَقْرِه وَيَسْأَلُهُ عَنْ صَبْرِه.

وَعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» رَوَاه مُسْلِمٌ.

ولم يقصُرِ اللهُ تعالى هذا التنوُّع والاختلافَ على زمنٍ دون زمن، بل جعل ذلك مُشتركًا مقْسُومًا بين العُصُور، فمنهم علماء ودون ذلك، وملوكٌ ورعيّة، وأغنياء وفقراء، وضعفاء وأقوياء، ومن جهة الأخلاق منهم من فيه سهولةٌ وسماح، ومنهم من فيه عسرٌ ويُبُوسةٌ، ومنهم سليم الناحية نقيُّ الفطرة، ومنهم الحاقدُ والشانئ، ومنهم مُهْتدُون ومنهم ضالّون غُواة، ومنهم صادقون ومنهم كذبة غُواة، ومنهم ذاكرون وللنداء مُلبُّون، ومنهم غافلون عن الحق وفي الباطل غُواة.

هذا، وتصنيفهم أمرٌ اقتصاصه يطول، وحكايته تحول، ومن رام منه بلوغ الغاية مسَّهُ النَّصَب ولم يصل بعدُ إلى النهاية.

وهذا ما جعل الإنصافَ بين الناس قليلاً، والإقرارَ بالْحَقّ والاعترافَ به ثقيلاً، لهذا يتجلّدُون في مذاهبهم كل الْجَلادة، ويتبلّدون فيها كلَّ البَلادَة حتّى ولو كان بها من الشُّذوذ ما بها فالله المستعان.

قال ابن القيم: قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً» (الفرقان: ٢٠)، وهذا عامٌّ في جميع الْخَلْق، امْتَحنَ بعضَهم ببعْض، فامتَحَنَ الرُّسلَ بالْمُرْسَل إليهم، ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم، وتحمُّل المَشاقّ في تبليغهم رسالات ربّهم، وامتَحَن المُرْسل إليهم بالرسُل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدّقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟ وامتحن العلمَاء بالجهّال، هل يعلّمونهم، وينصحُونَهم، ويصبرون على تعليمهم ونُصْحهم، وإرشادهم، ولَوَازم ذلك؟

وامتحن الجهّال بالعلمَاء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟ وامتحن المُلوك بالرعيّة، والرعيّة بالمُلوك، وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة، وامتحن المَالك بمَمْلوكه، ومَمْلوكه به، وامتَحَن الرَّجُل بامْرَأته وامْرَأته به، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار، والكفار بالمؤمنين.

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: «لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ» (الأحقاف: ١١).

وقالوا لنوح عليه السلام: «قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ» (الشعراء: ١١١).

قال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم

Upload by: altawhedmag.com

بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ » (الأنعام: ٥٣).

فإذا رأى الشريفُ الرئيسُ المسكينَ الذليلَ قد سبَقَه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حَمِيَ وأنِفَ أنْ يُسلم، فيكون مثلَه، وقال: أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حدٍّ سواء؟

قال الزجّاج: كان الرجلُ الشريفُ ربّما أراد الإسلام، فيمتنع منه لئلّا يُقال: أسْلَمَ قبْله مَنْ هو دُونه فيُقيم على كفره لئلّا يكون للمُسلم السّابقة عليه في الفضْل.

ومن كوْن بعض الناس لبعضهم فتْنةً، أنّ الفقير يقول: لمَ لَمْ أكن مثلَ الغني؟ ويقول الضعيف: هَلّا كنتُ مثلَ القويّ؟ ويقول المبْتَلى، هلّا كنتُ مثل المُعافى؟ وقال الكفار: «لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ » (الأنعام: ١٢٤).

قال مقاتل: نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين، نحو بلال، وخباب، وصهيب، وأبى ذر، وابن مسعود، وعمار، كان كفار قريش يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمدًا من موالينا وأراذلنا؟ قال الله تعالى: «إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ » (المؤمنون: ١٠٩- ١١١)، فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ » (الفرقان: ٢٠). قال الزجاج: أي: أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون. (إغاثة اللهفان: ٢/ ١٦٠ - ١٦٢).

ومنها كون الرجل فتنةً للمرأة، والمرأة فتنةً للرجل، والغنيّ فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، والفاجر فتنة للبَرّ، والبَرّ فتنة للفاجر، والكافر فتنة للمؤمن، والمؤمن فتنة للكافر كما قال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ » (الأنعام: ٥٣)، وقال الله عز وجل: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا » (الفرقان: ٢٠).

والمذهبُ الشريفُ الذي صانَ الله أهله عن التّحريف هو السّعْي إلى النّجاة من تلْكَ المَهالك، والاستقامة على الصّراط المستقيم للسّالك، وذلك لأنّه حقّق العملَ بعد الدّعوى وذاك هو الشّاهد وحصَلَ ما هو على أكثر النّاس صعبٌ ومتباعد، وهذه ثَمرة القَواعد والمَطْلوب كضَالّة النّاشد.

فمن نَحّى الهوى، وراجَعَ عقْلَهُ، وحرَسَ قلْبَه، وجدَّدَ إيمانَه، لم يقعْ في حبائل هذه الفتْنة ولم يَسْقُط في غوائلها، وإن كانتْ هذه الأمورُ عسيرةً إلا على من يسّرها الله له »وإن كانَتْ لَكَبيرَةً إلّا عَلَى الّذينَ هَدَى الله».

وهذه الأمور لها من الثّقل على النّفس شيءٌ لا يُوصف، لكنّ مع الصّبْر والاستعانة بالله يجعلُ الله بيْنَك وبينها نسبًا، ويهيّء لك منها سَبَبًا، ويُزَيّنها في عَيْنك، ويُحَبّبها إلى قلْبك حتّى تُصْبح على قلْبك كبَرْد اليَقين فتُجمّل الحَسَن في عَيْنك، وتكرّه إليها القَبيح.

وللحديث بقية إن شاء الله، نسأل الله أن ينجينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

Upload by: altawhedmag.com

بحارُ الفِتن وسُفُنُ النّجاة

سُفُن النّجاة من فِتنِ الغُوَاة

(٣)

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي كتب على نفسه الرَّحمة وأسبغ على عباده النِّعمة، وصلى الله على الرَّحمة المُهداة والنِّعمة المُسداة الذي وضع الله به عن شريعته الأغلال.

وبعدُ: ففتنةُ النّاس بعضهم ببعض كثيرة الأحوال، مُحمّلة بالأهوال، وأمورها شديدة، وأسبابها عنيدة، لا سيّما مع إقبال النّاس على الدّنيا، وافتتانهم بزهرتها، وتنافسهم على حظوظها وزينتها، وقد جعل الله أسبابًا للنّجاة منها قبل الولوج فيها ووُلوغها والدخول في معانيها، وكذا للخروج من هذه الفتنة إذا وقع المرءُ فيها، منها:

الرّضا بما قدّر الله لعباده:

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١).

وعن عبد الله بن مسعود قال: حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، قال: «إنّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإنّ الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة» (رواه البخاري ٣٢٠٨، ومسلم ٢٦٤٣).

فالرزق مقدر ومكتوب لا يسوقه حرص حريص ولا تدفعه كراهة كاره، والأجل محدود لا تطيله الحيطة ولا يقصره ضدها، وعمله صالحا كان أو طالحا ميسّرٌ له، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

ولو كتبت لعبد النجاة من أمر فكادته السماوات والأرض إلا الله جعل له منها مخرجا، ولو قدر على عبد الوقوع في شيء فأراد من في السماوات ومن في الأرض أن يدفعوا عنه، لم يدفعوا عنه إلا من بعد أن يأذن الله بذلك؛ قال صلى الله عليه وسلم: «واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك

Upload by: altawhedmag.com

بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» (سنن الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني).

حاجة العباد إلى الإيمان بقدر الله تعالى:

لقد قدر الله تعالى للناس بحكمته آجالا معلومة، وأرزاقا مقسومة، وآثارا موطوءة، وهذا معتقد لا مفر من التسليم به لوضوح أمره «رفعت الأقلام وجفت الصحف». وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود، قال: قالت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئا قبل حله، أو يؤخر شيئا عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيرا وأفضل» (رواه مسلم: ٢٦٦٣).

وحاجة العباد إلى الإيمان بالقدر فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة؛ لأنه لا تتم النجاة من هذه الفتنة بين الخلق إلا بأمور أولها: الإيمان بالقدر، كما أنه لا راحة للعبد ولا طمأنينة إلا بالإيمان بالقدر.

ومن أراد أن ينازع الله في أقداره فهو مغلوب مخذول فلا يأتي بحجة إلا دحضت، ولا زخرف قول إلا بطل ودرس أثره وانقضى أمره، ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل.

وفي الله خلف من كل فائت، وعوض من كل مصيبة، وعزاء من كل هالك، والفائز من حاز الثواب، والخائب الخاسر من أمن العقاب، حتى حق عليه العذاب.

وبهذا المعتقد يركن العبد إلى ركن مولاه الشديد، ويأوي إلى ظل رحمته المديد، فلا يكون مستراحه إلا هناك، وهذا وعد صادق والشك فيه غاية الجهل، ونهاية التقصير عن مرتبة الفضل.

فلم الجزع مما لا بد منه؟! ولم الهلع إلى ما لا ترجى فائدته؟! واعلم أن المصيبة تهون مع مرور الزمان وتعاقب الأيام، وأعظم منها سوء الظن بالله تعالى وسوء الخلف منها: فاتق فإن المرجع قريب.

ثم إننا في الدنيا نهب للمصائب وأهداف للمنايا، وأغراض لمقادير الخفايا والخبايا، والحياة لا تخلو من الغصص والنغص، فكم من جرعة فيها شرق؟! وكم من أكلة فيها غصص؟! ولا تكاد تكتمل نعمة من النعم حتى يعتريها النقص، ولا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، فنحن نساق إلى الفناء فكيف نرجو البقاء، وأنفاسنا خطانا على طريق الآجال، ومشينا منتهى الآمال، ومقدار اللبث في الدنيا قليل، والحبس في القبور طويل.

الاستعانة بالله والتعلق به:

من استعان بالله أعانه، ومن سأله حاجته أعطاه ومانه (من المؤونة)، فربنا حيي كريم.

قال تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين». ولما توعد فرعون موسى وقومه بالقتل والقهر كان المخرج في الاستعانة بالله تعالى واستصحاب الصبر قال الله تعالى أيضا: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (الأعراف: ١٢٧-١٢٨). وقال صلى الله عليه وسلم في وصيته لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما «وإذا استعنت فاستعن بالله» وهذا من أوصل حبال النجاة، والسعيد من وفق إليه والشقي من حرمه، ولا خاذل لمن وفقه الله، ولا مضل لمن هداه الله.

فمتى ما رأيت من نفسك عجزا عن مواجهة الفتن وضعفا في مجابهة المحن فسل المنعم والجأ إليه فهو الموفق والمعين فلن تنال خيرا إلا به «وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» (الأنبياء: ١١٢).

أخي المؤمن: حفز نفسك، وأوقد بالعمل والجد عزمك، واحث مطايا همتك فإن الهمة قد تقصر والعزيمة قد تنطفئ وتفتر فإذا حدوتها كحداء الإبل سارت مع الركاب وسابقتها فسبقتها وفتح لها الباب.

أحضر عقلك، وتدبر أمرك، وأعمل فكرك، واخل بربك وسله التوفيق فستعان على سلوك الطريق من غير رفيق، واحذر الكسل فإن بئس الصاحب والصديق.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

Upload by: altawhedmag.com

بحارُ الفتنِ وسُفُنُ النّجاة

فِتنةُ المُقلِّينَ بالمُكثِرينَ

(٤)

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على نعمه أولا وأخيرًا، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي أرسله ربُّه بالحقّ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله وأصحابه ومن كان له مُعينًا وظهيرًا، ومن تبعه على دعْوته، وكان لها مواليًا ولأهلها هاديًا ونصيرًا.

أما بعد: ففتنة المُقلِّين بالمُكثرين أصبحتْ من المصائب الكبار، والمِحَن الغلاظ التي دبَّ في النّاس داؤها، وعَسُر بل استحال دواؤها، والكلام في ذلك طويل الذّيل؛ لأنه أدْخل في أخلاق الناس وأعْلق بطباعهم، وأكثر إظهارًا لأحوالهم، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "والصّدقةُ بُرْهانٌ" أي: علامة على إيمان العبد؛ لأنّ الإنفاق دليل الإيمان بالله واليوم والآخر، والشُّحّ دليل ضعْف هذا الإيمان.

وهذه النوع من الفتن من أخطر أسباب افتتان الناس بعضهم ببعض؛ إذ ينظر المُقِلّ إلى المُكْثر ويرمق الفقيرُ الغنيَّ، ويحسد المعوزُ المكفيَّ، ويحقد المُعسر على المُوسر.

وترى هذا في الناس باديًا فاشيًا؛ ولو رضي المُقلُّ وقنع الفقير، وسلّم المعوز، واستسلم المُعسر لما وجدنا لهذه الفتنة خبرًا ولا عاينّا لها أثرًا كما كان في عهد الصحابة؛ إذ كان فيهم أصحاب الأموال كعثمان وابن عوف وغيرهما، ومع هذا لم يجد أحد في نفسه شيئًا تجاه أخيه.

ولا ريب أنّ اشتغال النّاس بهذه الفتنة يُبدي عوراتهم الباطنة، ويُظهر العيوب المَنْطوية عليها نفوسُهم.

تلمُّح العواقب يهوّن الدُّنيا:

من ذكر المَنيّة نسي الأُمْنيّة، ومَن تلمّح عواقب الأمور وتدبّر نهاياتها هان عليه ما فاتَهُ من الدنيا، وصبر بالفطام عن ما يَشتهي، ولم يعْبأ بشيء من الحُطام ولم يلْتفتْ إليه إلا على سبيل الضّرورة لقضاء حوائج المَعاش ومصالحه.

بل تجدُهُ قانعًا متورّعًا، مُسلمًا مسلّمًا، مُتمسّكًا بالدّين الثّخين والورَع المتين، ولو كان ثمنُ ذلك أن يخطو على الدّحْض ويحْتسي غير المَحْض.

إن المرء قد يجمع مالا ثم يَمُوت ويغادره قبل الانتفاع، وقد يوفر متاعًا ثم يتركه قبل الاستمتاع، وكل هذا يتركه للورثة بعده، وهذا حال من لم يعتبر بالأيام، ولم ينزجر بالملام، وهو الشقي الذي يجمع لغيره ويضنّ على نفسه بخيره، وفي الحديث عن عبْد الله بن مسعود قال: قال النّبيُّ صلّى الله عليْه وسلّم: "أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليْه من ماله؟" قالوا: يا رسُول الله، ما منّا أحدٌ إلا مالُهُ أحبُّ إليْه، قال: «فإنّ ماله ما قدّم، ومالُ وارثه ما أخّر" (رواه البخاري ٦٤٤٢).

وعنْ أبي هريرة، أنّ رسُول الله صلّى الله عليْه وسلّم، قال: " يقُول العبْدُ: مالي، مالي، إنّما لهُ منْ ماله ثلاثٌ: ما أكل فأفنى، أوْ لبس فأبْلى، أوْ أعْطى فاقْتنى، وما سوى ذلك فهُو ذاهبٌ، وتاركُهُ للنّاس" (رواه مسلم: ٢٩٥٩).

وعن أنس بْن مالك، قال: قال رسُولُ الله صلّى الله عليْه وسلّم: "يتْبعُ الميّت ثلاثة، فيرْجعُ اثْنان ويبْقى واحدٌ، يتْبعُهُ أهْلُه ومالُه وعمَلُه، فيرْجعُ أهْلُه ومالُه

Upload by: altawhedmag.com

ويبقى عمله" (رواه مسلم ٢٩٦٠).

فإن وجدت من نفسك حرصًا على الدنيا وقسوة في القلب، فاذهب إلى المقابر وهون عليها عسير الحياة وهجير الفتن ولظى الخلاف، وذكرها بقرب الرحيل، فستخضع لك، وإن لم يكن ذلك في أول المطاف وبداية الطريق فستجده وأنت سائر إلى ربك كادح إليه وساعتها سترتدي بالكفاف وتكتسي بالعفاف وأنت فرح مسرور.

عبد الدينار والدرهم تعس بئس:

من علم فهم، ومن فهم سلم، فلو عقل من يعبد المال لعلم أن حطام الدنيا لا ينبغي بري القلم من أجله، فضلًا عن الدخول في لجتها، وعبد الدينار تخدعه من الدنيا خدائعها حتى تفوته ودائعها فيرحل بغير الزاد إلى يوم المعاد، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش" (رواه البخاري ٢٨٨٧).

إن الذي يستعبده المال يرد أكثر مما يصدر، ويتطاول ويجهد جهده ثم يقصر، فقلبه بغير الآخرة مشتغل وباله عن العاقبة متغفل، وهذا كلام لا يدفعه إلا من فيه شعبة من الجنون أو طاف به طائف من الوسواس، ومثل هذا كيف يعامل وهو في مثل هذا الإهاب؟!

والعجب في هؤلاء أن الواحد منهم يرى المحسنين ولا يلوم نفسه يومًا، ولا يتمنى أن يكون في صفهم، نعم لا يستحيل الشجاع جبانًا ولا يكون الجبان شجاعًا.

حال البخيل المُمسك:

تجد هذا النوع من الناس في الإنفاق حريصًا على المال، وفي النفقة شديد التوقي ضعيف الإحسان والترقي، لا يعطي ولا يتصدق فهو قليل السكب بطيء العطاء وسيء السبك، لا يستعان به في داهمة، ولا يعين عند نازلة، ضيق الصدر عند بذل المال، بعيد العهد بالنفقة، إذا طلب منه الإحسان أدركه الجبن، وغلبه الخور، ولم تحمله قدماه إلا إلى الفرار، ولو زلت به القدم يومًا فاضطر إلى الإحسان يلوم نفسه كأنما سلقته ألسنة حداد، أو جابهه أحد بالملامة وواجهه بالتوبيخ، وحينها يود أن لو رآه الناس حتى يشهدوا على صدقته اليتيمة وعطيته السقيمة ومنحته اللئيمة، وخلاصة القول: أن البخيل حارس نعمته لورثته.

فهدى الله من علم منه الهدى، وجذ عروق من غلبت عليه الشقوة منهم واستأصل شأفته وأراح البلاد والعباد من فتنته فقد عظمت البلية بهم، وعمت الآفة بسببهم.

حال المؤمن المتقي:

أما المؤمن المحتسب فهمته دائمًا تسمو إلى الكمال قد أكرمه الله بالمواهب السنية والمنائح الهنية يتخذ من الدنيا معبرًا إلى الآخرة فيأخذ من دنياه ما يعينه على عمارة أخراه.

وتجده عند رؤية المحتاجين ألطف من الهواء وعند معاينة المساكين أرق من الماء فيتبسم وكأنما تفتر فمه عن ثغر باسم، وعند الحث على البر والانفاق أغزر من بحر وأندى من الغيث والغمام وأنفذ من السهام، ولن تجد خيرًا من هذه الطائفة ولا أخشع قلبًا ولا ألين جانبًا وأقرب حبًا.

لقد أثر ذكر المعاد في نفوسهم، وصارت له ليطة بقلوبهم، بل أصبح بردًا على الأكباد يروي الغلة ويشفي العلة ويرد الروح.

وقد اقتدى في ذلك بالأنصار رضي الله عنهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩).

وهذا الصنف لا يندم على سخائه ولا ينقطع عن بذله خوفًا من الإملاق بل تأخذه عند الجود الأريحية وتحركه اللوذعية، على هذا جرت ضريبته وغريزته، واستقرت طبيعته ونحيزته.

وقد يكون قليل ذات اليد ومع لا يحرم نفسه من الصدقة ولا يكاد يذهب عن باله حديث أبي هريرة، قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ فقال: " أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان" (مسلم ١٠٣٢).

فأحسن مساعيك تطب مراعيك، واعلم أن البر كنز الموسر: فاحرص على النجاة من فتنة القلة والذلة، فالأيام تمضي، ولن تجد من يؤدي عنك ويقضي، وما انقضت ساعة من عمرك إلا ببضعة من نفسك، وقطعة من يومك وأمسك، فخذ الفرصة قبل بلوغ الروح موضع الغصة، وتأمل هذه الكلمات القوارع، والعظات البوارع، والمواعظ القصار الجوامع، تفز وتنج مع الناجين، والله أعلم.

Upload by: altawhedmag.com

الحلقة (٢)

بحارُ الفتنِ وسُفنُ النَّجاة

فتنةُ المقلِّينَ بالمكثرينَ

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على نعمه أولًا وأخيرًا، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي أرسله ربُّه بالحقِّ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وبعد:

فإنَّ الله تعالى قد جعل لكل داء دواءً، ولكلِّ علة شفاءً - خلا المَوْت - وهذه إشاراتٌ وومضاتٌ، قد تصلح أن تكون قلادة جيد، وقاعدة تجويد؛ إذ إنها تُعينُ على تخطي العقبة الكؤود في هذا الزمان وهي فتنة الناس بعضهم ببعض لا سيَّما فتنة المُقلِّين بالمُكثرين.

فعالجْ نفسك وأصلحْ حالك بما يلي:

أولًا: عوِّدْ نفسك الصَّدقة:

خُلق الإنفاق له مكانةٌ من الفخامة والنُّبل كما أنه دليلٌ قاطع وبرهانٌ ساطع على أصالة معْدن صاحبه وحُبِّه لدينه وإيثاره لما يبْقى على ما يفْنى، من أجْل ذلك تسكنُ إليه النفوس الأبيَّة سكون الصَّادي إلى بَرْد الماء، ويميل إليه ذوو الطباع السوية ميْل الماء إلى بطْن الوادي بحيْث لا يُمنع ولا يُدْفع.

إنَّ المؤمنَ العاقلَ الذي لا تصرعُه شهْوة، ولا تخدعُه لذَّة، ولكي لا تَتتابع القطرات وتصبح سَيْلًا بتوالي الغفلات فاجْعلْ لنفْسك عادةً في الصَّدقة، واعْتيادًا في الإحسان، وكنْ سَمْح النَّفْس بالمال؛ فإنَّ العادة مُحكمة، واعلم بأنَّ خصال الخير تزيدُ وتنقص بحسب صاحبها، فإذا تعاهد المرءُ نفسه بالخير صارتْ عزيمتُه مُوقدةً لما خمد، ومُحركة لما جمد كما يتحالم غيرُ الحليم، ويتكاظم الغاضب، ويتراشد الغبيّ، ويتصاحح العييّ، ويتأنى الطائش؛ فقدْ يصبحُ البخيلُ كريمًا والمُمسك جيدًا.

وانتهز الفرصة وحقِّق في نفْسك بعض حديث نبيِّنا صلى الله عليه وسلم: «سبَق درْهمٌ ألْف درْهم» ترْقى إلى رَبْوة الإيمان، وتُبصره بعيْن لا قذى بها، وتجد في قلبك خيرًا بلا مرية، وتخبر عنه بلا فرية، ومتى صدقْت في هذه السَّبيل قدْر استطاعتك، وعلى مقْدار مُكْنتك أحسسْت بنور في قلْبك

Upload by: altawhedmag.com

كالنهار إذا ارتفع، والقمر إذا استنار حين طلع.

الإنفاق عمل من أراد الآخرة وسعى لها:

لن ينفق المرء عادة إلا إذا حضرت الآخرة على باله، وقفزت إلى فكره وصارت جزءًا من حاله، وصارت همًا له غالبًا عليه، وهذا يفسر غامض حالنا ومشكله إذ إن أكثر الناس مقترين وليسوا مقلين ولا مملقين (فقراء).

وقد جاء الأمر بالإنفاق قبل نزول الموت بغتة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، وقال تعالى أيضا: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (المنافقون: ١٠)، وساعتها يتجرع العبد الغصص ويحمل على مرها وفي تلك الساعة يغلب على المرء الندم ويهجم عليه حب الرجوع ليعمل صالحا ولينفق، ولن يستطيع رجوعًا، بل لو رجع أحد هؤلاء لعاد لما كان عليه «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون»، فتعجل بأعمال البر خشية الموت وقبل الفوت.

جود العرب قبل الإسلام:

لئن كان لكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، فيها ما فيها من كمال وتقصير؛ لأن الأخلاق قد أفاضها الله على جميع الخلق، وجعلها مفضوضة بينهم مبثوثة فيهم، فلقد كان العرب أعقل الأمم لصحة فطرتهم واعتدال فكرتهم وصفاء قريحتهم، وسلامة ونقاء طينتهم، ولذا كانوا قديمًا أهل كرم وبر، فإغاثة الملهوف وإعانة المستجير تجري فيهم جري الدماء في العروق.

حال كثير من المسلمين اليوم:

اعلم أن الداء الدوي الذي أعيا أمره الألباء، وحار فيه الأطباء هو داء البخل وعدم الإنفاق، فمع دعوة الناس إليه وحثهم عليه تجد الأكثرين ناكصين مولين الأدبار، وكثير منهم يشتكي ولو من غير علة، ويشكو الفاقة من غير قلة، فخيره يغيض، وشره يفيض، ومنهم من يسأل الناس إلحافا وينفقه إتلافا، وفيهم من وجهه للسائلين عبوس، وخيره عنهم محبوس.

ومنهم من كلامه للفقراء وعيد، وبصره للمعوزين حديد، فقربه مصيبة، وبعده حروب حريبة، يأخذ لما، ويوسع الأخذ ذما، يؤذي الأخيار ويعمل الاقتار، فأي خلاق في قوم كهؤلاء هجروا الدين وعروا من الحياء ونسوا الأخلاق، فاللهم سلم سلم.

إن أمثال أولئك المبعدين لن يظفروا بطائل، ولن يفعلوا فعال الخيرين الأماثل، فغاية أحدهم لو أحسن إلى فقير يومًا أن يتشبه بالمنفقين لكنه من المنقوصين.

مهمة الدعاة إلى الله وواجب المصلحين تجاه ذلك:

يحتاج الدعاة إلى يشفوا من الناس تلك العلة بالنظر في زواياها والتغلغل في مكامنها وتتبع ذلك كتتبع المرء الماء حتى يصل إلى منبعه مع ترويض الناس على حب الإنفاق حتى يشرح الله له الصدور.

وينبغي أن يكون للدعاة إلى الله كلام يحاضون به على المكارم ويحثون به على اصطناع المعروف ويرغبون به الناس في ابتناء المحامد واكتناز الفضائل.

ولا بد أن يكون لهم في علاج فاسد الأخلاق والفعال، وإصلاح ذميم الصفات والخلال فكر وروية، حتى تصبح الأخلاق الحسنة شيئا ينتهي به الناس عن المنكر ويرغبون به في الجميل ويتجنبون به النقائص والدنايا.

وليكن على بال الداعي إلى الله تعالى أنه يزاول أمرا عظيما يجب أن يقدره قدره، وأنه يدخل بحرا عميقا لا يدرك قعره، والخطب فيه جليل، والمحصول منه في زماننا قليل.

ولا بد أن يشعر الناس أن المقل في الإنفاق ملوم، وأن القابض يده عنه مذموم حتى تجري عادتهم بخلافه، وتنشط همتهم إلى الخلاص من الإمساك وإتلافه.

نسأل الله السلامة والعافية، وللحديث صلة بإذن الله.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

الحلقة (٣)

بحارُ الفتن وسُفنُ النجاة

فِتنَةُ النِّسَاءِ

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن فتنة النساء من أشد الفتن؛ فهي فتنة تأخذ بلب الرجل الحازم، فما بالك بغيره ممن طاش عقله، وخف فهمه، وغلبته شهوته وطغت عليه سكرته ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الحجر: ٧٢).

من أجل هذا نهى الله النساء عن مجرد الخضوع بالقول فضلاً عما فوق ذلك فقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

قال ابن القيم: «أمرهن أن لا يلنّ في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية اللّيان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشن في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفًا».

وعن أبي سعيد الخدري، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟

قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها» (رواه البخاري ٣٠٤، واللفظ له، ومسلم ٧٩).

قال ابن حجر: «قوله: «من ناقصات... يظهر لي أن ذلك من جملة أسباب كونهن أكثر أهل النار لأنهن إذا كن سببًا لإذهاب عقل الرجل الحازم حتى يفعل أو يقول ما لا ينبغي فقد شاركنه في الإثم وزدن عليه. قوله «أذهب» أي أشد إذهابًا واللب أخص من العقل وهو الخالص منه والحازم الضابط لأمره وهذه مبالغة في وصفهن بذلك لأن الضابط لأمره إذا كان ينقاد لهن فغيره الضابط أولى» (فتح الباري: ١/ ٤٨٤ (٣٠٤).

ثم قال: «وليس المقصود بذكر النقص في النساء لومهن على ذلك لأنه من أصل الخلقة لكن التنبيه على ذلك تحذيرا من الافتتان بهن ولهذا رتب العذاب على ما ذكر من الكفران وغيره لا على النقص وليس نقص الدين منحصرا فيما يحصل به الإثم بل في أعم من ذلك قاله النووي؛ لأنه أمر نسبي فالكامل مثلا ناقص عن الأكمل ومن ذلك الحائض لا تأثم بترك الصلاة زمن الحيض لكنها

Upload by: altawhedmag.com

ناقصةٌ عن المُصلي» (فتح الباري: ١/ ٤٨٥).

ومَنْ أراد أنْ يأخذ لنفسه العظة فليَنْظُرْ إلى كل من ابْتُلي بهذه الفتنة، واصْطلى بنارها، واكْتوى بأوارها فإنه سيخشى على نفسه معرة الدُّنيا وفضيحة الآخرة.

لعمرك ما في الموت عارٌ على الفتى
إذا لم تُصبْه في الحياة المعايرُ

وكفاهُ بذلك ناهيًا أنْ يرى العبر والعظات له في غيره ونعوذ بالله من الخذلان.

كما قال الشاعر:

كفى زاجرًا للمرء أيام دهره
تروح له بالواعظات وتغتدي

وإذا كان لا مفر من أن يُمْتحن الكثيرون بفتنة النساء إن لم يكن كل الناس، فإن تقوى هذه الفتنة باتقائها واجتنابها والبعض عن مواطنها.

ففي الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء». وفي صحيح مسلم عنه قال: «اتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». إن فتنة النساء من حبائل الشيطان التي يصيد بها من وقع في شركها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان» (رواه الترمذي ١١٧٣).

قال المباركفوري: (فإذا خرجت استشرفها الشيطان) أي زينها في نظر الرجال وقيل أي نظر إليها ليغويها ويغوي بها.

والأصل في الاستشراف رفع البصر للنظر إلى الشيء وبسط الكف فوق الحاجب والمعنى أن المرأة يستقبح بروزها وظهورها فإذا خرجت أمعن النظر إليها ليغويها بغيرها ويغوي غيرها بها ليوقعهما أو أحدهما في الفتنة أو يريد بالشيطان شيطان الإنس من أهل الفسق سماه به على التشبيه. اهـ (تحفة الأحوذي: ٤/ ٢٨٣).

فاحذر هذه الفتنة ولا تكن على وثيقة منها فإنها أشد الفتن محنة ولهذا كثرت وصايا السلف بالحذر منها.

قال ميمون بن مهران: «ثلاثٌ لا تبلون نفسك بهن: لا تدخل على السلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة، ولو قلت: أعلمها كتاب الله. (سير أعلام النبلاء: ٥/ ٧٧).

وقال أيضا: «لأن أؤتمن على بيت مال، أحب إلي من أن أؤتمن على امرأة». (السير: ٥/ ٧٧).

وعن عطاء، قال: لو ائتمنت على بيت مال، لكنت أمينًا، ولا آمن نفسي على أمة شوهاء.

قلت (الذهبي): صدق -رحمه الله- ففي الحديث: (ألا لا يخلون رجل بامرأة، فإن ثالثهما الشيطان. (السير: ٥/ ٨٧ - ٨٨).

لقد قعد الشيطان بفتنة النساء للناس رصدًا بكل مرصد ونصب لهم شركا منها بكل ريع وأجلب عليهم بخيله ورجله وتحقق له ما تغياه وتمناه فأصبحوا إلا قليلاً ممن عصم الله تعالى مفتونين بها حتى صدق إبليس ظنه على الأمة بسبب هذه الفتنة فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين، فاللهم لا تقطع عنا حبل عصمتك فقد تمسكنا بعروتك.

لقد كان الرجل من السلف يبلغ من السن مبلغا قد لا يصلح فيه للنساء ومع هذا يخاف على نفسه تلك الفتنة.

قال سُفيانُ بنُ عُيينَة: عنْ عليّ بنِ زَيد، عنْ سعيد بن المسيب، قال: قال لنا سعيدٌ- وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه، وهو يعشُو بالأخرى-: ما شيءٌ أخوف عندي من النساء. (السير: ٤/ ٢٣٧).

ولولا أن محنة فتنة النساء من أشد الفتن ما قص الله علينا خبر نبيه الكريم يوسف عليه السلام.

قال تعالى: (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون (٢٣) ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين (٢٤) واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) (يوسف: ٢٣-٢٩).

قال ابن كثير: «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون»: يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه» أي: حاولته على نفسه،

Upload by: altawhedmag.com

ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبًا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، «وقالت هيت لك» فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و«قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي»، وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله، «إنه لا يفلح الظالمون» قال ذلك مجاهد، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قدًا فظيعًا، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربًا ذاهبًا، وهي في إثره، فألفيا سيدها -وهو زوجها- عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءا» أي: فاحشة، «إلا أن يسجن» أي: يحبس، «أو عذاب أليم» أي: يضرب ضربًا شديدًا موجعًا، فعند ذلك انتصر يوسف، عليه السلام، بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال بارًا صادقًا «هي راودتني عن نفسي» وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه، «وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل» أي: من قدامه، «فصدقت» أي: في قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت: «وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين» وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لتردّه إليها، فقدت قميصه من ورائه. اهـ. (تفسير ابن كثير باختصار: ٣/٣٧٩ - ٣٨٣).

إن الشيطان يعد فتنة النساء مصيدة لكل الناس لا سيما من أيس منه لأنه يعدها من أعظم مصايده وأحكمها صيدًا.

قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْد، عَنْ سَعِيد بن المسيب، قال: «ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء». (السير: ٤/٢٣٧).

نسأل الله السلامة والعافية، والحمد لله رب العالمين.

مؤلفات د. عماد عيسى

المفتش بوزارة الأوقاف

متوفرة في معرض القاهرة الدولي للكتاب

في الفترة من ٢٢ يناير إلى ٤ فبراير ٢٠٢٠

صالة ٤ - جناح B٢٦

Upload by: altawhedmag.com

واقع الفُرقَة والتَّفرُّق

«ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم»

الحلقة (١)

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله المليك العلام، والصلاة والسلام على خاتم الرسل ومسك الختام، وعلى آله البررة الكرام، وصحابته الغُرّ الأعلام، ما جرتْ على الصحائف الأقلام، ومن تبعهم على دربهم ونهجهم إلى يوم الحشر والزحام.

وبعد: فهذه مجموعة مقالات في فقه واقعنا الذي غرّ كل مغرور، وأغرى كلّ غرير، وهو مركَبٌ وعرٌ، وفجٌّ مُوحش، وسبيلٌ غير مذلّلة، وطريقٌ ليستْ معبَّدة، فلا عجب إذن أن يُحجم عنها الجمهرة من الكُتّاب؛ لأنها محفوفة بالمكاره والمصاعب، محجُوبة بالمشاق والمتاعب، فلا يسلكها ذوُو الهمم الضعيفة، ومن سوّلتْ له نفسُهُ من هؤلاء المتنكّبين فسلكها أخذَ سُداها وترك لُحمتَها، وقبلَ سَهلَها ورفضَ صعابَها.

وقد هممتُ بالكتابة فيه الوقتَ بعد الوقْت، وقلتُ: أبتدؤها بهذا المقال تلو المقال، وأرجو أن تكون من قلائد المقالات، ومن القول المحرَّر الزكيّ الذي يحمل زوائدَ الفوائد، فيكشفُ المُغطّى ويسرع سيرَ المُبطّى، ويبلغ بالقاصد إلى فهْم أجلّ المقاصد بما يحملُ من مباهج الفكر، ويشمل في طيّاته من مناهج العبر مما حضر وغبر بحيث يكون فيها إيقاظُ المتغفّل وإيعاظ المتدبّر والمتأمّل، ولتكونَ عُنوانًا للسير في تلك الدُّروب الشائكة والسُّبل المتشابكة.

وقد يحسم بعضَ مادّة الشرّ والفساد، ويقطعُ دابرَ العناد الذي غلبَ على عُقول الأشهاد، ولعله يؤدّي عنا بعضَ الحُقوق المحتُومة والواجبات الملزُومة، ويسدُّ عنّا بعض تقصيرنا.

وقد حملني عليها حملًا، ودفعني إليها دفعًا واقعُنا المعاصر الذي فقدَ الموجّه والمناصر، وقلّ فيه المعين على الحقّ المبين، وغابَ المساعد والمساند، وكاد أن ينعدم فيه المفيد والمجيد.

لقد صرفتُ بصري تلقاء واقعنا الأليم، وتُجاهَ عصرنا الذي خيّم عليه الفساد فهو وخيم، فراعَني ما رأيتُ، وأفزعني ما أبصرتُ من أحوال مردية وأخلاق متردية، وسلوك سُبُل حائرة ومسالك جائرة فالغشّ قد أصبح نصيحة، والكذبُ قد صار حرفة وصناعة، والخداع بات تكسُّبًا

Upload by: altawhedmag.com

> من قرأ القرآن وتدبّره، وعاش في ظلاله وتفيأ أفياءه، وجد المخرج، ووقف على دواء الداء.

أكلُّ امرئ تحسبين امرأً
ونار توقّد بالليل نارا

حتى صارتْ القلوب كسيرة، وباتتْ العقول أسيرة، ورجعت الأبصار حسيرة، ونزل بالناس ما كنا نيأس من نُزوله، ووقع فيهم ما كنا نقنط من وقوعه.

ومن يَمْشِ في وَرْدِ الخُطُوبِ وشَوْكِها
يعُدَّ الخُطَا أو يَحسبُ العَثَراتِ

لقدْ تعاطى الناس المُنكر حتى عُرف وشُهر، وتناكروا المعْروف حتى نُسي ونُكر، وتمسّكوا بالوضائع، وتركوا أثمن البضائع حتى صارتْ عُيونُنا سخينة، وصدورُنا مَغيظة وبلاؤنا مُتواصل.

إذا كان الرُّماةُ رُماةَ سَوْءٍ
أحلّوا غيرَ مَرْماها السِّهاما

حتى حال الزمان إلى أمر لا يأتي عليه الوصف، ولا يستوعبه النعت والرصف، وهو مع ذلك في زيادات على مرّ الساعات وطول الأوقات.

ألا ترى ما ظهر في الناس من إحكام الحِيلة واتقان الغيلة، وانتشار الخيانة وبئست الخطيئة والجناية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

صعوبةُ علاج واقعنا:

معالجةُ هذا الواقع أمر صعب، ودرجة صعوبته تفوق التصوُّر لكنّه ليس مُحالًا؛ إذ إنّ الأمّة سرَى فيها المرض، وتغلغل في مكامنها الداء، وانتشرت فيها أسباب الفتن وكثُرت المحن، هذا مع اتّساع رُقعتها وكثرة رَعيّتها.

ومن نظر إلى قوى البشر في علاج الواقع المحيط بالأمّة تعايى الأمرُ عليه وأغلق دُونه البَاب، وغلُظ حجابُ الرؤية فلن يرى ساعتها مخرجًا ولا ملجأ.

غير أنّ من قرأ القرآن وتدبّره، وعاش في ظلاله وتفيأ أفياءه، وجد المخرج، ووقف على دواء الداء، وأيقن أنّ الأمر مع صعوبته فهو في الإمكان، وآمن أنّ الحُجّة له عند ربّه في أداء واجبه حتى يلقى الله تعالى وهو مُقبل غيرُ مُدبر مؤدٍّ لما وجب عليه قائمٌ بالحق الذي ألزم به.

ومن توخّى الحقّ احتمل مرارته، وصبر على بشاعته، وعالج طبْعه في قبُوله.

ويزيد الأمر كشفًا، ويُكسبُه وضوحًا ولُطفًا أنّ الله تعالى وعدنا بالتمكين وبشّرنا بالنصر فنحنُ الأمّة الخاتمة، ونحن الوارثون لخلافة الأرض في آخر الزمان كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (النور: ٥٥- ٥٧).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١-١٧٣).

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥-١٠٦).

الحقُّ شديدُ المرارة:

هذه جملةٌ خشناء وفيها شيء من الغلظة، لكن لا بُدّ منها لأنّ الحقّ في مبدأ أمره مُرٌّ كالعلقم ثم مع اعتياده وانشراح الصّدر له

Upload by: altawhedmag.com

وانفساح القلب يكون كالماء الزلال والعسل المصفى.

جاء في الأثر عن ابن مسعود: «إن الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء»؛ ومن طالع السنين الأولى من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم وهو في مكة والسياط على ظهور الصحابة ملهبة، أدرك صعوبة التمسك بالحق، ولذة العض عليه في آنٍ واحد.

ولقد صار الحق اليوم كما من قبل فهو كالدواء المر يتكاره المرء على شرابه ويتجرعه كالغصص؛ فالله المستعان على بلوى الزمان.

من واقع الفرقة:

من سنة الله الجارية في خلقه الاختلاف والتخالف، قال تعالى: «وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ» (هود:١١٨)، وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلا، ثم انصرف إلينا، فقال صلى الله عليه وسلم: «سألت ربي ثلاثا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة؛ سألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» (رواه مسلم: ٢٨٩٠).

إن التفرق والاختلاف، والتخالف وترك الائتلاف قد أصبح سمة من سمات زماننا ووصفًا لازمًا له لا يكاد يخلو منه أمر من أمور الحياة، وصار كلٌّ له وجهة في بغض صاحبه، وصار من لا يوافق هو العدو والمنافق، حتى أصبح شعار الواحد من هؤلاء ما حكاه الله على ألسنة يهود «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم».

وصدق المتنبي حين قال:

عدوك مذموم بكل لسان
ولو كان من أعدائك القمران

ومن تأمل أحوال الخلق ضاق صدره وامتلأ بالغيظ قلبه؛ إذ يجدهم مشغوفين بالخلاف مسرعين الكرّة إليه، ولقد ذمّ الله اليهود والنصارى بالفرقة والبغي قال تعالى: «إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ» (آل عمران:١٩).

وقال تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ» (الجاثية: ١٦-١٩).

فإذا أردنا علاج واقعنا وشفاء أمراضه وعلله فلا بُدَّ من الأخذ بأسباب ذلك بقوّة.

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما
نُجُحُ الأمُور بقوّة الأسبابِ
فاليوم حاجتُنا إليك وإنما
يُدْعَى الطبيبُ لساعة الأوصابِ

ولحديثنا تتمة وفقنا الله لما يحبه ويرضاه، وجعلنا ممن يحمد قصده ولا يخيب مسعاه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

> ومن توخى الحق احتمل مرارته، وصبر على بشاعته، وعالج طبعه في قبوله.

Upload by: altawhedmag.com

واقع الجهل

الحلقة (٢)

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله القائم بالقسط، والمالك للقبض والبسط، الذي لا رادَّ لما يقضيه، ولا دافع لما يمضيه، وصلى الله وسلم على المبعوث بالرحمة، والمختار لهداية الأمة، الذي دعا إلى الحق، وهدى من وُفق للهداية من الخلق.

وبعد؛ فمنذ مدة خلتْ، وفترة انقضتْ ونفسي تحدثني بالكتابة عن هذا الواقع الذي نعيشه، وتراودني أن أعلق فيه كتابًا أكشف فيه عن بعض أهواله، وأفصح عن بعض أحواله حتى ولو كان في كتاب صغير أو رسالة لطيفة والأيام تجري بُسُطها من حيث لا أشعُر والأمة تنزل بها صنوف الأحداث وصروفها، وحالها لا يكاد يتغير فلمَّا رأيتُ أنَّ الأيام الفائتة لا تلحق؛ لأنها ماضية سابقة، وأنَّ الهمم قد تفتر وتضعُف بعد ما كانتْ قويَّة العزم صادقة تركتُ هذا الإباء وسئمت النفور عن ذلك والالتواء، واستعنتُ بربي القدير فهو نعْمَ المولى ونعْمَ النصير.

ولم أتخذ في ذلك سابقًا أقتفيه ولا مثالاً أحتذيه إنَّما هو محاولة تشخيص بعض آفات الواقع المُعاين ووصْف الدواء لمن ابتغى الشفاء.

وهذا الداء -أي: الجهل- من أسباب الواقع المرير الذي نحتاج في علاجه إلى مراجعة العلماء ومدارسة الشيوخ ومباحثة الحذاق من أهل الفضل؛ لأنه عقَّد واقعَنا وجعلَه من المُعضلات والمُشكلات بينما العلْم حياةُ القلوب من الجهْل ومَصابيحُ الأبصار من الظلم.

ومن عاين الأهوال التي نعيشُها أدرك أنَّ الجهْل هو أوَّل الأسباب التي عفى بها الحق بعد ما كان ناجمًا ودرس بعد ما كان واضحًا حتى أصبح المسلمون كأنهم ثوبٌ مُهلْهل خيط من رُقع متباينة نشأت عنه فرق متناحرة.

وقد حكى الله تعالى عن مُوسى قوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧).

وتعوذ موسى عليه السلام إشارة بل عبارة واضحة تدل على خطورة الجهل.

وقد حذر الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم من الجهل فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٥).

وقد أمره بالإعراض عن الجاهلين من جهة أذاهم؛ أمَّا من جهة التعليم والدعوة والبلاغ فلا بد أن يتصدى لدعوتهم وإقامة الحجة عليهم.

قال أيضًا: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ولما غرق ابن نوح وكان قاب قوسين أو أدنى من النجاة، إذ إنَّ نوحًا قال له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود: ٤٢)، فأبى وقال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود: ٤٣) عندئذ نادى نوحٌ ربَّه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود:

Upload by: altawhedmag.com

٤٥-٤٧).

وقال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣).

> إنَّ الجهل في أهله فتنة تغلي مراجلها وهو أذوى الأدواء، لا سيما إذا كان نشأ المرء عليه وشبَّ وكان في مَنِعة الصبا وشرخ الشبيبة فحينها تدنس الفطرة النقية وتفسد القريحة.

وحكى الله عن الذين أوتوا الكتاب فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥).

وعن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر- أو يعصب «شك موسى- على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده» (رواه أبو داود ٣٣٦).

ولئن وجدت العالم قد ضاق ذرعًا وحرج صدرًا وامتلأ غيظًا بجهل الجهلاء، ومن أعرض عن العلم ونبذه جانبًا وولى عنه ذاهبًا فلا مفر من وقوعه في اتباع الهوى والضلال عن سبيل الهدى.

ووقود الخلاف جهل الجاهلين؛ فإنهم يفسدون من حيث لا يشعرون، ولو حلفت لأحدهم بين الركن والمقام بأن الرأي ما رأيت والصواب ما ذكرت لما صدق.

فهو -أي: الجهل- يوقظ الفتن النائمة حتى لا تعرف الإغماض ويؤجج نيرانها ويحدث فيها لهيبًا ممضًا ونارًا موقدة لأن صاحبه يقول بغير علم ويقضي ويفصل في الأمور بغير حلم، بل ويجري في إثر كل قبيح وجهه حسن.

نعم، إن الجهل فرصة عزيزة للفتن وأرض خصبة للمحن ولا يدفعه إلا النظر في العلم ولا يدمغه إلا إيجاد طلاب العلم وعلماؤه.

وقديمًا كان العالم لفظه مسموع وكلامه مرفوع، وللناس به فخار وللكسير به انجبار، أما اليوم فقد تخطى وقارهم وقفز على سور هيبتهم صغار لا يكادون يفقهون حديثًا.

فالذي ينبغي علينا أن ننضم إلى أهل العلم الذين جعلوا شعارهم ما شرع المصطفى ولم يعرجوا عنه إلى رأي ولا هوى، فكانوا ممن حملوا العلم حفظًا ونقلًا وعملوا قولًا وفعلًا حتى ثبتوا أصله وكانوا أحق به وأهله.

خطر الجاهل:

سقام الحرص ليس له دواء

وداء الجهل ليس له طبيب

إن الجاهل كالذئب الضاري والسبع العادي ينتظر -بجهله- حتى إذا دخل منك كل مدخل مال ميل عدوك وجعلك من مضاحك العقلاء وصيرك عبرة لغيرك.

والجاهل يخبط خبط عشواء ويمشي مشي عمياء فتراه يزل ويضل، وعن سواء السبيل يضل فينبغي أن يكشف العلماء ما يخدعون به الناس من التخاييل والترهات والأباطيل وكل أمرهم تهويل ليس وراءه تحصيل.

الجاهل كثعلب تشبه بأسد وقتل لأمته حبال كيد من مسد فمن صاحبه ضل وحار وكثر منه الخطأ والعثار.

وهو عيب بالمرء لذا ينبغي للعاقل أن يتنزه عنه ويتبرأ منه بتعلم ما ينفي عنه معرته.

كيف يعامل الجاهل؟

فيجب أن يعامل كما يعامل الطبيب المريض فلا يجالس إلا للدعوة إلى الله تعالى، أو للنصيحة في أمر من أمور الدنيا أو الآخرة، أو لتعليمه ما لا يعلم، أما مجالسته لغير هذه المصالح ونحوها فلا يُنصح بها، بل الواجب الإعراض عنه؛ لا كبرًا عليه ولا احتقارًا له، وإنما خشية ضياع الوقت أو انتقال الطباع القبيحة، أو نحو ذلك. وقد يُعامل الجاهل معاملة النار فتأخذ منها ما ينفع وتذر ما يضر.

وللحديث بقية إن شاء الله، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

رمضانُ

بيْنَ أهلِ الاستقامَة وأهلِ الإخْفَاق والنَّدَامة

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الميسر لكل عسير، وأشهد أن لا إله لا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي قائلها من عذاب السعير، وصلى الله على نبينا محمد البشير النذير، وعلى آله الطاهرين وأصحابه الطيبين.

وبعد: فإنَ مما ينبغي أن يُنادى به جهرة في كل واد، ويُسمع به في كل ناد: أن أيام رمضان فرصة لا عوض منها، ومنحة لا درك لفائتها؛ ففيها سهامُ الخَيْر مُسدَدة لاصطياد القلوب، والصدقات مرصودة من الجُيوب، والمُراقبة عاملة في أهلها لعلام الغيوب، وهذا شيء مما يظهر من فوائدها، ومما يجري من جميل عوائدها.

Upload by: altawhedmag.com

ومن الفرص فيه أيضا: شحذ العزائم للاستقامة، وإيقاظ الهمم للعمل الصالح، وإرهاف ذائقة الإيمان لتجديده بالبكاء، وتقوية واهيه، وصقل القلوب حتى تعقل الروائع القرآنية، وتتدبر البدائع الإيمانية، وتفهم الإشارات السماوية، وما أكثرها في رمضان. ولا ريب أن كل هذا يحتاج إلى قلب زكي، وعقل ذكي، وعبد أبي، ونفس صبورة، وفهم نفاذ، وهمة طماحة إلى العلياء وبلوغ السماء.

إن الاستقامة وإن كانت أمرا صعب المذهب عويص المطلب إلا أنها في رمضان تكون لطيفة المسلك طريفة المطلب.

ومع ذلك فهي أمر مفعول عنه غير مأبوه له، لذا ينبغي أن يكون لكل مسلم فيها مورد، وله منها مشرب، والعجب أن الاستقامة وإن كانت جامعة لمعاني الدين ضامة لنشرها غير أن التفريط فيها يقع في عضد الإيمان ويكون أوهى لحبله وأدمى لكبده.

قال ابن الأثير: والاستقامة يقال في الطريق الذي يكون على خط مستو... واستقامة الإنسان: لزومه المنهج المستقيم اهـ أي: كما قال القائل:

فالزم طريقا جليا واضحا بلجا
ما فيه ميل ولا حيف ولا نكب

وقيمة الاستقامة تشير إليها الآية الكريمة في سورة الفاتحة «اهدنا الصراط المستقيم» (الفاتحة:٦)، فإننا نقرأ هذه الآية وندعو بهذه الدعوة في كل ركعة فرضا كانت أو نفلا.

كيفية الاستقامة:

عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن" (أخرجه ابن ماجه ٢٧٨، وصححه الألباني).

والمعنى أن بلوغ الغاية من الاستقامة في الصعوبة غاية؛ لذا جاء في الحديث: "ولن تحصوا" أي: لن تبلغوا من الاستقامة النهاية، ولن تحققوا منها الغاية؛ فعليك بما تستطيع، وسل الله المعونة؛ فإن هذا مما يرفع عن المرء الحرج، ويفتح له أبواب الفضائل المحامد، ومن أجل هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض مفاتيح الاستقامة وهي الصلاة التي قال عنها: "واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة"، والمحافظة على الطهارة؛ فإن ذلك مما يدل على اليقظة الداعية إلى الاستقامة.

> "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن"

أولا: حسن الاستعداد:

بإعداد العدة لأيام رمضان قال الله تعالى: «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة» (التوبة:٤٦)، فمن أحسن الدخول على رمضان حصل الاستقامة في أيام معدودات وهي أيسر مدة، ومن يدري فلرب كنز في أساس جدار. فمن صفى قلبه من الأكدار وأخلاه من الأغيار مع دخول رمضان فهو قريب من التوفيق إلى بلوغ الاستقامة وهذا هو الفضل الكبير والفوز المبين.

فحيهلا بالمكرمات وبالعلا
وحيهلا بالفضل والسؤدد المحض

ثانيا: إحضار النية:

العمل بغير حضور النية يدركه الانحلال ويلحقه الوهن وأما صاحبه فتخبو عزيمته، وتهرم همته، وتغيض قواه، لذا لابد من العناية بالنية فإن ذلك يشد عرى العمل ويعقد أواصره، فمن حضرته النية في الاستقامة، وفقها جد الفقه، وفهمها حق الفهم فتحت له سماء الاستقامة فصارت أبوابا، وزحزحت عنه جبال عسرها فكانت سرابا.

إن من أحسن العدة لرمضان وأضاف إليها

Upload by: altawhedmag.com

خلوص النية فقد أضاف اللؤلؤة إلى الدرة لأن إحضار النية مع تخليصها من الشوائب يفتح أبواب الخير للعبد وييسر له كل عسير وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" متفق على صحته.

ثالثا: اللهج بالدعاء:

عقب آيات الصيام قال الله تعالى: « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (البقرة: ١٨٦)، وهذا يدل على قوة الصلة بين الصيام والدعاء.

وقال الله تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (غافر: ٦٠)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الدعاء هو العبادة" رواه الأربعة وإسناده صحيح. وهذه عبادة من أهم العبادات المعينة على الاستقامة، فلا بد أن يؤمها من هجرها، وأن يقدمها من أخرها، ومن أكثر الدعاء مستجمعا شرائطه، ومتحريا أسباب قبوله وإجابته بلغ المنزل من هذا المقام، وانتظم في سلك بديع الانتظام.

قال تعالى: "قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (يونس: ٨٩)، إن اجتهاد العبد في الدعاء بنوال الاستقامة، والظفر بها قبل الفوات والندامة، فإذا أدمن المرء الدعاء واجتهد في طرق أبواب السماء تحققت الاستقامة بعد العدم، وصارت لديه من أكمل النعم.

رابعا: الجد والاجتهاد:

الاستقامة لا بد لها من عزم مقدام وإصرار على الثبات في ميدان الطاعة، بل الإقدام، ومحاولة توسيع الخطو ونقل الأقدام، فإذا جد الجد بلغ المنزل وفاق الحد.

أما من يدب إليه الملل دبيب الصهباء في الأعضاء ويسري إليه الكسل سريان الكرى إلى الجفون مع الإغضاء فأنى لمثل هذا أن يخطو إلى طريق الاستقامة خطوة واحدة، وقد اغتالت همته وأحالت فتوته كثرة الذنوب حتى امتلأ منها كل دلو وذنوب، وأجالت يد الخراب في كل الدروب، فصارت بساتين الإيمان مجدبة وحدائقه قحط.

وكأن الضغائن قد ملأت النفوس فأشربتها شراب الغفلة من الكؤوس، وأما العقول فإنها جامدة في الرؤوس، ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك القدوس.

فاجتهد ولا تعبأ بأحوال الناس فمن ابتغى الوصول إلى الله لم يبال بأي عائق ولا وامق.

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلا
تساوى المحابي عنده والمقاتل

التمسك والتعلق:

وهذا يعني الثبات والاعتصام بالاستقامة والرغبة الشديدة فيها للفوز بالثواب. عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قل ربي الله ثم استقم» رواه الترمذي: (٢٤١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح اهـ. وهذا الثبات تصح به العزائم وتقوى به البصائر، حتى يقتحم المرء لجة الاستقامة، ويخرج من غسق الحيرة والضلالة وينجو من ظلمة الجهالة.

> "فاجتهد ولا تعبأ بأحوال الناس فمن ابتغى الوصول إلى الله لم يبال بأي عائق."

أما من يتردد فكثيرا ما يقوده هذا التردد ليصبح للكسل أسيرا وتتخذه نفسه مأمورا لا آمرا ولا أميرا، فانزع بقلبك إلى معاملة الله، وطر بروحك إلى جو السماء، واخل بربك، ولا تخاطر باستقامتك فتغلب وتثلب وتسلب.

اللهم ارزقنا استقامة تهيئنا لك، ومن علينا بدوام الهداية، وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بك، وصلى الله على نبينا وعلى آله صحبه وسلم.

Upload by: altawhedmag.com

من فقه الابتلاء (١)

المِحَنُ بينَ العقلِ المُفكّر والقلم المُعبر

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي إذا أعطى من النعم أعطى جزيلاً، وإذا شُكر قَبِل من الشُكر قليلاً، سبحانه سامع النجوى وكاشف البلْوى، وصلى الله على نبيِّنا مُحمّد الذي فضَّله على كل مَنْ خَلَق تفضيلاً، ولم يجعل له في جنسه عديلاً ولا مثيلاً، وعلى آله وصحبه بكرة وأصيلاً.

وبعد، فهذا مقال ربطت فيه بين الفكر الصحيح والقول الفصيح، وجمعت الدليل إلى البرهان لمن كان له عينان وأذنان، أما من مشى في إثر عُمْيان فعَنْ نقصه وجَهْله قد أبَان، وقد حاولت أن أستلهم فيه وفيما يتلوه من مقالات بعض الدروس والعِبَر عسى أن يكتُبَ الله تعالى لنا بها الأجر والمثوبة.

سُنّة الابتلاء جارية:

إنَّ الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا دارَ ابتلاءٍ وغرورٍ، لا دارَ حُبورٍ وسرورٍ، ومَشْرع انقطاعٍ وانفصام، لا موطِن قَرارٍ ودَوام، وجعلَ البلاء فيها فتنةً وامتحانًا وسنّةً جاريةً، بخلاف الجنّة فإنها دار الرّاحة والنّعيم.

وإنّه قد رحَضَت (أي: غَسَلَتْ) النوازلُ

Upload by: altawhedmag.com

> المؤمن يتسلى بالبشارات القرآنية والبشائر النبوية والمبشرات المصطفوية فيثبُت ولا يجزع.

النَّاسَ رَخْصًا، ومَخَّضتهم النوائبُ مَخْضًا حتى جعلتهم في الْخَيْر أو الشَّرِّ شيئًا مَحْضًا، ولَمَّا نزلَ هذا البَلاءُ عمَّ أرجاءَ المَعْمُورة حتَّى خافَه الصالح والطالحُ، والعامل والعاطل، والغنيُّ والعائل (الفقير)، وأحسَّ الناسُ أنَّه قد طوَّحت بهم طوائحُ الزمن، ولوَّحتْ لَهُم لوائحُ المِحَن، أو تربَّصت بهم الدَّوائر، ونزلتْ بهم رَيْب المنون.

وفزعَ الجميعُ يطلُبون النَّصير ويلْتَمسون المُجير لعلَّهم يجدُون بعدَ اليَأس أمَلاً، ومن البُؤس بللاً، ومن الناس مَن فَهِمَ الْحِكمة من هذا الوَبَاء فتنبَّه تنبُّه النَّاسي وانبعثتْ همَّته كهمَّة الآسي واجتهد في إصلاح نفسه وقلبه.

مبشرات على طريق الابتلاء:

المؤمن يتسلى بالبشارات القرآنية والبشائر النبوية والمبشرات المصطفوية فيثبُت ولا يجزع، ويعلمُ أنَّه إنْ عاش كان حميدًا، وإن مات صابرًا مُحتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدَّر لهُ كان شهيدًا.

قال تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" (البقرة: ١٥٥-١٥٧).

وقال تعالى: "لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (آل عمران: ١٨٦).

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا "أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ" (رواه البخاري: ٥٧٣٤).

ففي هذا الحديث بشارة فإنه يصرّحُ بأنّ الوباءَ رحمةٌ للمؤمنين، وللصابر المُحْتسب فيه أجرُ الشهيد.

وعن أنَس بْنِ مَالِك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ" (رواه البخاري: ٥٧٣٢)، وفي هذا تصريحٌ بالشّهادة لِمَنْ ماتَ بِهذَا الطّاعُون.

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ" (رواه البخاري: ٥٦٤٥)، وفي هذا الحديث تسلية لكلِّ مصاب بأنّ اللّه تعالى يُريد بهِ الْخَيْر.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ" (رواه الترمذي: ٢٣٩٩، وقال: هذا حديث

Upload by: altawhedmag.com

حَسَنٌ صَحِيحٌ).

وفي هذا الحديث بشارةٌ بخُلُوّ صحيفة العَبْد من الذُّنوب والخَطايا بسبب البَلاء.

وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ" (صحيح الترمذي ٢٣٩٦).

وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ" (رواه الترمذي ٢٣٩٦، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ).

وفي هذين الحديثين بيانُ أنّ البلاءَ وإن كانَ عقابًا في الدُّنيا إلا أنّه خيرٌ لمحْوه الذُّنوب في الدُّنيا قبل الآخرة، وأنّ الجزاء على قَدْر البَلاء.

عموم المحنة:

ومن عجائب هذه المحنة أنها جاءت والقلوب مشحونة بالشهوات، ومستغرقة في حُبِّ الحياة وأسبابها، والنفوس نفس مَمْلُوءَة بطلب الحظوظ

> "من أعظم آثار استحضار الموت خمود نيران الشهوات وامتلاء القلب من الآخرة حتى تصير نصب عينيه."

فعرف الناس أنَّ كلَّ ذلك لا قيمة له، وأن ذلك "كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ" (النور: ٣٩).

كما أنها عمَّتْ وطمَّتْ، فمَنْ يشْكُو إلى مَنْ، والمصاب طال الكُلّ، كما قال أبو القاسم الإشبيلي:

لمن أشكو مصابي من البرايا
ولا ألقى سوى رجل مُصاب
أمورٌ لو تدبَّرها حكيمٌ
لعاش مدى الزَّمانِ أخا اكتئاب
أما في الدَّهر من أفضي إليه
بأسراري فيُؤنِس بالجواب

حالُ النَّاس عند المحنة:

وقد كان من فضل الله تعالى أنْ حوَّلت هذه المِحْنة بعضَ النَّاس من الانشغال بالمَعازف إلى الاشتغال بتحْصيل الإيمان والمَعارف، ونقلَتْهم من المَراقص والنَّواقص إلى الدُّعاء واللُّجوء إلى ربِّ العالَمين.

وإن كانتْ عادةُ ابن آدم كما قال الله تعالى: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ" (فصلت:٥١).

وقال تعالى: "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ" (الزمر:٨).

لقدْ كان كثيرٌ من المُسْلمين قبْل حُلول النَّكْبة لا يكادُون يفقهُون قوْلاً، ولا يسْمعُون حديثًا، وكأنَّ من بيْنهم وبينَ الحقّ حجابًا، أو في آذانهم وَقْرًا، أو على أبصارهم غشاوة، وبعضهم انقطعوا عن أعمال البرّ وزهدوا في طلب الثواب والتحصيل، وضلُّوا عن سَواء السَّبيل.

وبعضُهم ساقتْهم الظُّنون إلى مَهْواة الشَّقاء، وغرَّتهم أنفسُهم بباطل وزُخْرف الأهْواء، وغُلَّتْ أيديهم، فلما وقَع شيءٌ ما كان في الْحُسْبان، حُلَّتْ عُقْدة الرُّكون إلى الدُّنيا

Upload by: altawhedmag.com

والرِّضا بها، وأُطْلق الموتُ من عِقَالِه كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث عن يأجوج ومأجوج : "فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ" (رواه مسلم ٢٩٣٧).

والنَّغَف: هو دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم، الواحدة نغفة- ومعنى هذا أنَّ المَوْتَ صارَ قريبًا من الكبير والصغير - وهو كذلك دائمًا - لكنَّ الغفلة تُنسي النَّاس أنهم سيَمُوتون، فلْيَكُن شعارُ المُؤمن "أن اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ" (لقمان: ١٤).

من منح هذه المِحنة:

لَمَّا ابتُلي سكانُ المَعْمُورة بالداء الذي أسموه (كورونا) وورد عليهم اندهشوا وخافوا، واستوحش الناس بعضهم من بعض حتى فرَّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وأصبح لكل امرئ منهم شأن يغنيه، ولسانُ حال الجميع يقول: بأي داهية دُهينا، بل وقع في هواجس الناس واستبق إلى نفوسهم.

وقد جلستُ أفكِّر في شأن هذه البليَّة وثَمَرات هذه الرزيَّة، وكيف أكتب كلامًا يشرحُ صُدُور قارئيه وقائليه، ويُضيئ سماءَ عقولِ مُطالعيه وناقليه.

لقد تأملتُ هذه المِحْنة فتعلَّمت منها أمورًا أجابَتْ على بعض مآرب نفسي، وإن لم أقفْ على قَاصيها في المَطْلوب، وربَّما كان المستفادُ عقائدَ راسخةً جَمَعتْ بين النَّقيضيْن وهُما: السِّرُّ الخَافي والعلانيةُ البادِيَةُ، فهيَ واضحَة لكونها معلومةً لكن نسيها النَّاس في غَمْرة النِّعَم وكَثرة الْخَيْرات، وهي خافيةٌ لشدَّة نسيانها حتَّى كأنَّها مَجْهُولةٌ، منها:

أولاً: استحضار قُرب الموت ودنُوّ وُقُوعه:

قال تعالى: "أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ" (النساء: ٧٨).

وقال تعالى: "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (الجمعة: ٨).

وهذا المعنى فيه شفاءٌ لِما في الصُّدور، وتسليةٌ على ألم المقدور، فحينما ظهر في الناس الوباء غلب الرُّعب على طوائف من الناس واستولى الفَزَع على قلوبهم، وهذا أمر لا يُستراب في صدْقه فقد عايناه ورأيْناه.

فالإيمان بملاقاة الموت وإدراك المنية في أي ساعة يُعطي القلب ثباتًا وثقةً وطُمأنينة، لأنه مقدَّرٌ ومكتوبٌ، وقد يموت الصحيح ويعيش المريض فليس لذلك مقياس إلا قوله تعالى: "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ" (الرعد: ٣٨).

ومن أعظم آثار استحضار الموت خمود نيران الشهوات وامتلاء القلب من الآخرة حتى تصير نصب عَيْنَيْه كأنه يراها عيانًا، وحقارة الدُّنْيا في نظره حتى يجعلها وَرَاء ظَهره.

نعم، ينبغي للدَّاعي أن يعلِّل النُّفوس بأماني العافية حتى تكونَ آمالاً كافية، ثمَّ تُصبح الآمَال حقَائق تُنَال، فيواصل الاجتهاد، ويصل العمل بالعمَل حتَّى يلْقَى الله تعالى.

وللحديث بقية إن شاء الله.

Upload by: altawhedmag.com

من فقه الابتلاء

إيقاظُ المتغفِّل وإيعاظُ المتأمِّل

إعداد: د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

نتابع سرد بعض الفوائد والعظات من أرحام البلايا نسأل الله العافية والمعافاة، وهذه العظات موقوفة على أربابها وموهوبة لمستحقيها وأصحابها فلا ينالها كل متمنٍّ.

أولا: كلُّ ملك سوى ملك الإله سرابٌ زائل:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ" رواه البخاري (٣٨٤١).

لا يرى الناظر أغرب من شأننا، ولا يجد المتأمل أعجب من أمرنا، فالبشر من أضعف خلق الله تعالى كما قال الله عزّ شأنه: "وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا" وقال أيضًا: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ" وقد تحقق هذا المعنى فإنه لما وقعت هذه الداهية وانتشر الوباء عجزت قوى الأرض عن مواجهته كلها على السواء، مع تقدُّم المعرفة علوم الطب وقوة السلاح وكثرة العدة والعتاد والجنود والسدود.

سلم الجميع الأمر وأذعنوا وأعلنوا ضعفهم وبعض أهل الملل الأخرى صرح بأن الأمر ليس له مخرج إلا من السماء.

وصدق الله تعالى حين قال: «لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء».

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويودي المال والولد
لم تُغن عن هرمز يومًا خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تسري الرياح به
والإنس والجن فيما كلفوا عبدوا
أين الملوك التي كانت نوافلها
من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هناك مورود بلا كذب
لا بد من وردنا يومًا كما وردوا

نعم لا نملك من هذه الحياة مُجرّد النَفس، لكن هذه الحقيقة لا يسلم بها الناس أجمعون

Upload by: altawhedmag.com

إلا يوم الآزفة قال تعالى: «يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» (غافر:١٦).

وقد أبرزت قدرة الله تعالى بعض مشاهد الحكمة في خضم هذا البلاء الذي طمّ وعمّ، ومن هذه المشاهد أن القوة لله جميعًا كما قال تعالى: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ» (البقرة: ١٦٥).

ثانيا: كل نعيم دون نعيم الجنة إلى زوال واضمحلال فلا تغتروا:

نعيم الدنيا متاع زائل وسراب حائل، وهو تافه قليل وزخرف مزين لكنه حقير «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (النساء: ٧٧)، ومن تأمل حال العباد في فترة انتشار هذا الوباء تأملًا إيمانيًا على سبيل العبرة يستطيع أن يعتقد أن الدنيا لو جئت بين يديه وقعدت إلى ركبتيه فإنه ما وجد مأموله ولا أحرز غاية سُوله وقد رأينا من غير المسلمين من أصحاب الأموال من قتل نفسه وألقى بها من شاهق وبناية عالية فنسأل الله أن نموت على الإسلام وأن يتفضل علينا ربنا بحسن الختام.

> **كل شيء بقدر، وكل ما هو كائن مكتوب ومستطر فلا يأس مع الإيمان بقدر الله والتسليم لأمره وحكمه.**

مع شدة هذا الداء الفتاك في بلاد الغرب وقارة أوربا وأمريكا تمنى الأوربي أن يكون خارج حدود بلاده وأن يكون من العرب الذين كان يحقرهم مدة عمره حتى ينجو بنفسه ويغتنم روحه.

ثالثا: انتظار الفرج وترقب الأمل في رحمة الله:

كل شيء بقدر، وكل ما هو كائن مكتوب ومستطر فلا يأس مع الإيمان بقدر الله والتسليم لأمره وحكمه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا" رواه أحمد.

قال أمية بن أبي الصلت:

ربما تكره النفوس من الأمر
له فرجة كحل العقال

وقال آخر:

هي الأيام والغير
وأمر الله ينتظر
أتيأس أن ترى فرجًا
فأين الله والقدر؟!

رابعا: العمل بحال أهل اليقظة:

حينما ينزل البلاء يسيء المؤمن الظن بنفسه ويزري عليها، ويعلم أنه بذنوبه فقد يكون متسببًا فيها، وهذا من فعل الأولياء والصالحين من السابقين فقد كان بعض سلفنا يقول: "لو مات عطاء لاستراح الناس".

وهذا يدل على أن القوم كانوا ينبهون أنفسهم دائما من الغفلة، ويكتحلون من سنة النوم باليقظة، ويهجرون البطالة إلى الجد والعمل والعتاد واكتساب الزاد إلى يوم المعاد.

خامسا: الاشتغال بطاعة الله:

قال تعالى: «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»، وعن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى

Upload by: altawhedmag.com

مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رواه مسلم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» رواه مسلم (١١٨).

عندما اشتغل الناس بحبس أنفسهم وعزلها عن المخالطين أحسست أنهم نسوا عيوب الآخرين، واشتغلوا بحال سلامتهم من الوباء ونجاتهم من البلاء، فلو أن المسلمين عملوا على ذلك في أيامهم ومُهلتهم لكان لهم شأنٌ آخر.

والاشتغال بالطاعة يعني المبادرة مع المواظبة، فلا يتكاسل ولا يَمَلُّ ولا يعجز.

سادسًا: العزلة المحدّدة والأعمال المجدّدة:

قال إبراهيم عليه السلام: «وأعتزلكم وما تدعون من دون الله»، وقال فتية الكهف: «فأووا

> **والاشتغال بالطاعة يعني المبادرة مع المواظبة، فلا يتكاسل ولا يمل ولا يعجز.**

إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته».

وقال البخاري في صحيحه: بابٌ: العُزْلَةُ راحةٌ من خُلاط السُّوء. وساق في الباب حديثين:

الأول: عن أبي سعيد الخدري، قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: " رجلٌ جاهد بنفسه وماله، ورجلٌ في شعب من الشِّعاب: يعبُدُ ربَّه، ويدعُ الناس من شرِّه " رواه البخاري (٦٤٩٤).

الثاني: عن أبي سعيد الخدري أيضًا، قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «يأتي على الناس زمانٌ، خيرُ مال الرجل المسلم الغنمُ، يتبعُ بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن» (٦٤٩٥).

المراد بالعزلة المحدّدة أن تكون عزلة مؤقتة وفي نطاق معين هو ما عدا الخير فلا تكون عزلة مطلقة ولا تكون على كل نطاق، فاعتزل الناس إلا في الخير.

والمراد بالأعمال المجددة أي الهمة التي لا تدأب، ولا يدركها كلال ولا ملال.

من استئناف المحافظة على الفرائض وشفعها بالنوافل من قيام الليل وكثرة الذكر والاجتهاد في القربات واتباع ذلك بترك المآثم والبعد عن مظالم العباد في الأعراض والأبدان والأموال والدماء وحفظ اللسان من الولوغ في المحارم.

نسأل الله أن يحفظنا من الفتن وأن ينجينا من البلاء وأن يعافينا في ديننا وأبداننا وأهلينا وأموالنا وأن يحسن عواقبنا في الأمور كلها، وأن يمُنَّ علينا في النعمة بحسن التمام وفي البلاء بجميل الختام، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

(١)

سبيلُ الحَيَاة وسَفِينةُ النَّجَاة

طريق المَكَارِم

مَحْفُوف بالمَكَارِه والمَغَارِم

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي صرَّف الدهور والأزمان ودبَّر الخلائق والأكوان حتى عجزت لدى قدرته العقول والأذهان وخضعت لعظمته؛ وصلى الله على نبينا محمد الذي بُعث بأفصح لسان وأعذب بيان حتى اهتدى به كل حيران فازداد به إيمانًا على إيمان. وعلى آله وأصحابه ذَوُوا الفضل والعرفان، ما تعاقبَ المِلوان، وكرَّ الجديدان. وبعد:

فإنَّ الحياةَ في زماننا صارتْ مريرة، وأصبحت النجاة أمرَّ وأصعبَ منها، ومن نظر في أمرنا، وتأمل في شأننا يؤمن بذلك إيمانًا لا يُخالجه شكٌّ، ولا يُخالطه ريبٌ.

ومع أنَّ طريق النَّجاة لا نجدُ راحتَنا بدونه، ولا نظفرُ بضالَّتنا إلَّا فيه، ولا نُحسُّ براحَتنا إلا به لأنَّه المأمُول وغايةُ السُّول إلا أنَّ الناس يعدلُون عن سُلوكه وينحَرفون عن الحِرص عليه.

هذا، مع أن من يخالط الناس ويسمع ما يتهامَسُون به، ويشعر بما يستبقُ إلى نفوسهم، ويقرأ ما يقع في هواجسهم يرى بُعدهم عن سُبل النَّجاة، وحرصهم على سُبُل المَهالك وطُرق الهاوية.

Upload by: altawhedmag.com

طريق النجاة محفوف بالمكاره:

طريق النجاة هو طريق الجنة، وهو سبيل يجب التزامه، ويلزم ويتعين اعتزامه، وطريق الجنة فيه حسك وأشواك، وقتاد وعوسج، ومُرٌّ وحنظل، وكلها من النبات الذي يُوعر السبيل، ويصعب المضي، وفيها من العقبات التي تقطع المرء عن الوصول إلى مراده، وبلوغ حاجته، وتحقيق غرضه، إلا إذا استعان العبد بالله تعالى، فإذا استعان العبد بربه سبحانه هداه سُبله وعبّد له طريقه ويسّر عليه كل صعب، بل يستحيل العذاب إلى ماء عذب فرات سائغ للشاربين.

عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره» (رواه البخاري: ٦٤٨٧، ومسلم: ٢٨٢٢).

قال ابن حجر: "وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وبديع بلاغته في ذم الشهوات وأن مالت إليها النفوس والحض على الطاعات وأن كرهتها النفوس وشق عليها.... فإن المراد بالمكاره هنا ما أمر المكلف بمجاهدة نفسه فيه فعلًا وتركًا كالإتيان بالعبادات على وجهها والمحافظة عليها واجتناب المنهيات قولًا وفعلًا وأطلق عليها المكاره لمشقتها على العامل وصعوبتها عليه ومن جملتها الصبر على المصيبة والتسليم لأمر الله فيها والمراد بالشهوات ما يستلذ من أمور الدنيا مما منع الشرع من تعاطيه إما بالأصالة وإما لكون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات ويلتحق بذلك الشبهات والإكثار مما أبيح خشية أن يوقع في المحرم فكأنه قال: لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم. (فتح الباري: ١١/٣٢٧).

> حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره.

أصناف الناس في طلب النجاة:

الناس في طلب النجاة ثلاثة أصناف، وعلى ثلاثة أطباق وأحوال لا تخرج عن ذلك.

الصنف الأول: صنف لا يلتفت إليها ولا يعبأ بها، بل هو منشغل بغيرها، وغافل عنها، إما لكونه على غير الإسلام، وإما من المسلمين لكنه مشغول بشهواته ودنياه مع كونه مسلمًا، وهؤلاء قال الله في شأنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس: ٧-٨).

وقال تعالى أيضًا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الإسراء: ١٨).

وهؤلاء لا ينقبون إلا عن شهواتهم، ولا يطلبون إلا نزواتهم، ولا يبحثون إلا عما لا يُجدي عليهم نفعًا في آخرتهم، قد اتخذوا الآخرة وراءهم ظهريًا، وأكلوا شهيًا، ولبسوا دفيًا، وركبوا شريًا، وعاشوا عيشًا هنيًا، وإنك لتعجب أشد العجب من لهجهم وشغفهم ولهفهم بالشهوات حتى كأن طلبها عندهم من الفرائض المحتومة، وتحقيقها من الوظائف الملزومة، سلمنا الله من حال أهل الغفلة والغواية.

وسبحان الله مع فشو الإنكار، وتكرار الزجر وشيوع الوعيد على كل هذه المسالك لدى الصغار والكبار إلا أن الباب دونهم مغلق، والأمر عيي عليهم، والحجب كثيفة على قلوبهم بسوء أعمالهم ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤).

ومن أوضح آفة هؤلاء القوم لا ينتفعون بجوارحهم فترى نفوسهم ضعيفة وأحوالهم طفيفة وعاداتهم سخيفة، لا يفقهون بقلوبهم شيئًا ولا يكادون يحسنون في الحق قولًا، ولا يملكون لحجته له سمعًا، وهذه زلات فاحشة، وفعلات موحشة، لو أدركوا خطرها وعاينوا مصيرها لما ذاقت عيونهم للنوم غمضًا، ولا عرفت أبدانهم للراحة عوضًا، ولا جعلوا من هذه المعاني تركًا ورفضًا.

وصدق الله حين وصفهم وذكر نعتهم فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

Upload by: altawhedmag.com

فلما أهملوا جوارحهم صارُوا كالبهائم التي يعيش منها ما يعيش وهو هائم، بل نزلوا إلى الدَّرك الأسفل فصاروا أقلَّ من الأنعام، وأضل من البهائم والهوامّ، وأذلّ مما أدركه الذلّ والرُّغام ؛ لأنها لم تكلف، ولم تغرز فيها غريزة العقل، بل يكفيها أن يعذب شربُها، وأن يأمن سربُها، وأن يطيب لها طعامُها وشربُها، وهي مع ذلك تسبّح خالقها بما فطرها عليه، وتعبُد ربَّها بما هداها إليه، أما ابن آدم فقد وفقه الله للعقل، وجعل فيه فهمًا يتبوّأ به منازل الفضل، غير أنه هجر طريق العدل.

وقال أيضًا: « وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » (الأعراف:١٩٨).

وقال أيضًا: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ » (الأنفال:٢٠-٢٣).

وهؤلاء لا يشعرون بحجم الخسارة ولا يحسون بقدر المصيبة؛ لأنهم في غفلة مستحكمة، والمصيبة في أي شيء هينة إلا مصيبة الدين، فإنها مصيبة لا يُجبر كسرُها، ولا يعوّض فقدُها.

مصيبة الإنسان في دينه أعظم من جائحة الدهر

والصنف الثاني: صنف يدّعي طلبها، ويُظهر قصدها لكنه لم يصدُق في ذلك، ولم يقم بشيء من أسباب النجاة، ولم يأت بما يُعينه على الوصول، فهو يكتفي بالتمني، ويرضى بإظهار بعض الرغبة في ذلك، وهذا الصنف لا يهمّه أن يتصدّى لتلك الطرائق، ولا يشغله أن يغوص على شيء من هذه الحقائق.

والصنف الثالث: هو خلاصة الخلق، وزُبدة أهل الحق وقالة الصدق، قومٌ قد حلاهم الله بالتوفيق، وأيدهم بنصره، ووفقهم لهدايته، وقرن منطقهم بالسداد، وجعل عاقبتهم الحسنى ويسّر خاتمتهم لليسرى، وليس هنالك ما هو أحظى من ذلك، وهو صنف يعيش لأجل هذه

خلاصة الخلق، وزُبدة أهل الحق وقالة الصدق، قومٌ قد حلاهم الله بالتوفيق، وأيدهم بنصره، ووفقهم لهدايته، وقرن منطقهم بالسداد، وجعل عاقبتهم الحسنى ويسر خاتمتهم لليسرى.

النجاة، ويقضي حياته في طلبها، ويعملُ للظفر بها، ويجتهدُ في ارتيادها، ويتعبُ في التنقير عنها أزمنة، وطلبها طلب الخبيء في الأمكنة، ويبحث عنها بحث الدفين ؛ لأنه يقظان النفس، منتبهٌ إلى المصير المنتظر، ومستعدٌ للقاء المحتوم، ولذا فهو يعجّل بالعمل الصالح قبل هُجوم المنيّة، وفوات الأمنيّة، وهؤلاء خير البرية.

وهؤلاء قال الله فيهم: « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا » (الإسراء: ١٩).

فكن من هذا الصنف الثالث الذي يكون دائم الاستعانة بالله، ماضي العزائم، قوي الإرادة طويل النفس، بصيرًا بالطريق وعقباته، مُحبًا لدينه، حريصًا على الظفر بآخرته.

وليس يردُّ النفس عن شهواتها من القوم إلا كلُّ ماضي العزائم

إن هذه الأوصاف تحسم مادة الغفلة عن طريق النجاة، وتقطعُ العادات التي تعُوق المرء، وتزيل عنه العوائق التي تعلق به فتقعده وتثبطه.

وهذا الصنف أيضًا محبٌ للحق مائل إليه صادقٌ عمّا سواه، ومع أن الحق مُرّ، ومن توخاه لزمه أن يتحمّل مرارته، إلا أنهم قد رضوا بهذه المرارة، وصبروا على بشاعتها، وأرغموا الطبع على قبول الدواء مع كراهة طعمه لأنه ليس ينفع الدواء إلا بالصبر على مرارته.

وبهذا ملك هذا الصنف من نفسه الزمام، وعُوفي من الوقوع في الملام، ونجا من الحسرة والندامة، وفاز في الدارين بالسلامة، ولا يخفى هذا على المنصف المعافى من الهوى.

وللحديث بقية إن شاء الله.

Upload by: altawhedmag.com

سبيلُ الحَيَاة وسَفِينةُ النَّجَاة (٢)

عملُ السُّعاة في طَلَبِ الفَوْز والنَّجاة

إعداد: د. عماد عيسى

المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على سابغ فضله وجزيل صُنْعه، حمدًا يُوجب رضاهُ، ويستدْعي مَزيدَه، وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحْبه أجْمعين.

وبعد: فإنَّ النَّجاةَ من عقاب الله تعالى فوزٌ عظيمٌ وفضلٌ مبين، من ظفر به فقد ظفرَ بالْخَيْر كلِّه، ومن فاتَهُ فقدْ خَسِر الْخُسْران الْمبين، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

لكنها تحتاج إلى نفس أبيَّة صبورة، وعزم مقْدام، وعقْل درَّاك، وهمَّة طمَّاحة إلى العلياء وبُلوغ السماء؛ لأنَّ النَّفس ميَّالةٌ إلى الكسل ومحبة للراحة، فإذا دب إليها شيء من الملل كدبيب الصهباء في الأعضاء وسرَى إليها سَرَيان الكَرَى في أهْداب الْجُفون قعدتْ وتقاعستْ وأخلدتْ إلى الأرض.

Upload by: altawhedmag.com

والشيطان لعنه الله يتلون تلوُّن الحرباء، ويتزيا بسائر الأزياء حتى يستحوذ على ابن آدم، وكلٌ له طريقة عنده، فالعالم والجاهل، والعابد والزاهد، والمطيع والعاصي، لكل منهم سهم مصيب، وقسْم من الوساوس والمكر ونصيب.

فهو يرمي كلَّ امرئ بسهْم كي يوهن به عضُده، وتخور به قواه.

والشيطانُ لئيم الكيْد دنيءُ الحيلة شديدُ المكر، ولن يسبق إلى ذلك ولن يلحق فيه، لأن هذا عمله الذي أقسم عليه قائلًا: " قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ " (ص:٨٢-٨٣).

ومع ذلك فإن كيده هذا مع أهل الإيمان ضعيف إلى جنب إيمانهم واستعانتهم بالله.

قال تعالى: " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ " (الحجر:٤٢).

وقال سبحانه: " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا " (الإسراء:٦٥).

وقال جل وعلا: " إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ " (النحل:٩٩- ١٠٠).

وقال تعالى: " وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ " (سبأ: ٢٠-٢١).

وقد اعترف الشيطان كما حكى الله عنه في قوله: " وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (إبراهيم:٢٢).

> كيد الشيطان مع أهل الإيمان ضعيف إلى جنب إيمانهم واستعانتهم بالله.

فاستعنْ بالله على الشيطان يكفكَ كيْده، واستعنْ بالله على ما يُرضيه فإنه إنْ أرادك هيّأك له، والبسْ درْع الحذر، ولباس الحيطة، وثياب اليقظة، فإنه لن يستطيعَ أنْ يغويَك ما دمت على ذلك.

إنّ السّعي في طلب النّجاة لا تسمو إليه إلا النّفوس الشريفة، ولا ترغب عنه إلا القلوب المريضة والعقول السخيفة.

والواجب على الذين يحرصون على النجاة أن يطلبوها من أهلها، ويسلكوا لها مسالكها، ولا يعدلوا عن طُرقها، فإنّ ذلك يُعقبهم عظيمَ الأجر وجزيل الشكر، ورفعة الدّرجة، وحُسن الذكر.

كما ينبغي أن يتدرّجوا في مدارجها وأن يتتبّعوا خُطاها وأوّل خُطوات السّعي في طلب النجاة هو الحرص عليها والتّمسّك بها.

قال أبو ذؤيب:

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبْتها
وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقْنعُ.

قال الأصمعي حُجّة العرب: "هذا أبْدعُ بيْت قالتْه العرب".

الحرص على النجاة:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "احرصْ على ما ينفعُك واستعن بالله ولا تعْجز" رواه مسلم.

هذا اللهف بطلب النجاة أوّل الخطو على دَرْب النّجاة أنّ المؤمن الذي يطلبُ النّجاة، لا بدّ أن يفزع إلى طلب النّصير والتماس المجير، ويسعى لتحصيل النجاة بكل السُّبل، وأن يكون في ذلك راغبًا وله طالبًا.

ولا يوْهل المرء للنجاة حتى يجدّ في طلبها ويدفع الثّمن نقدًا، ويصدُق في ذلك وعدًا: " وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ " (الإسراء: ١٩-٢٠).

Upload by: altawhedmag.com

ومعنى الحرص على النجاة أن يأخذ المرء بأسبابها، ويحقق مظانها، ويجتنب معوقاتها وموبقاتها.

ولا يُكتب التوفيق إلى النجاة إلا لمن عنده إرادة خالصة كالتبر المصفى الخالص من الشوائب، حتى لو عاقه في طريق طلبها عائق، أو عطله معوق أو مائق فإنه برغبته الأكيدة فيها وحرصه الشديد عليها سيوفق لها، ويعان عليها، ويهتدي إلى سواء السبيل.

وهذا الحرص هو البداية التي تعقبها الإجابة كما في قوله تعالى: "ادعوني أستجب لكم"، وقوله تعالى: "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون" فالبداءة من العبد والإجابة من الرب.

إن الحرص على النجاة والجد في طلبها لا يتخيله المرء في نفسه، ولا يتمثله في قلبه إلا ويتجدد نشاطه، ويزداد على الطاعة إقباله، فيتحرك في مرضاة الله منه الساكن، وينبعث منه الكامن، بل إنه يحن إلى معاملة الله والتجارة معه، كما تحن المرأة إلى وليدها الذي أضلته ثم وجدته على غرة وفجأة.

فحاول أن تعيش هذا المعنى، وأن تشعر نفسك بأنها خلقت من أجله وساعية إليه، وحين ذلك سترى الفتوح من الله تعالى عليك تترا، والمدائح تساق إليك شعرا ونثرا.

حاولْ جسيماتِ الأمُورِ ولا تقُلْ
إنَّ المَحامِدَ والعُلا أرْزَاقُ
وارغبْ بنفسِكَ أن تكونَ مقصّرًا
عن غايةٍ فيها الطِّلابُ سباقُ

ضرورة مطالعة سير الصالحين:

من طالع تراجم المجدين وقرأ كتب الطبقات وجد عجائب من أحوال السلف الماضين، فالقوم كانوا على أشد ما يكونون في الاجتهاد، وفي الاهتمام بجمع الزاد والاستعداد ليوم المعاد، ففي الصلاة كانوا أطول الناس صلاة، وفي الإنفاق والجود كانوا أسرع من الريح المرسلة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الجهاد كانوا أشجع الناس وكان الموت في سبيل الله أحبَّ إليهم من الحياة، وفي غير ذلك من أبواب القربات كانوا من الآيات العجيبة، فلا تمل من مطالعة أحوال القوم، فوالله إن النظر في أحوالهم شفاءٌ من كل داء، وراحةٌ من كل تعب وعناء.

وفي أمثالهم يصدق قول ابن الجوزي رحمه الله:

ما زلتُ أُدرك ما عَلا بل ما غَلا
وأكابدُ النَّهج العَسير الأطولا
تَجْري بي الآمالُ في جَنَباتِه
جَرْيَ السَّعيد إلى مدى ما أمَّلا
أُفضي من التوفيق فيه إلى الذي
أعيا سواي توصُّلًا وتغلغلا

> إن الحرص على النجاة والجد في طلبها لا يتخيله المرء في نفسه، ولا يتمثله في قلبه إلا ويتجدد نشاطه، ويزداد على الطاعة إقباله.

خطورة عدم الحرص على النجاة:

من فقد الاهتمام بطلب النجاة تغير به الحال، وساء منه المآل، واشتدت عليه وطأة الغفلة، واستفحل خطر البعد عن مولاه، وعلقت به الأدواء القلبية والأمراض الروحية حتى يسوء حاله، وتفسد خلاله، وينطفئ ما أودع الله تعالى فيه من الخير والنور.

وما رُمي دينُ المرء بسهم أوهنَ لعضده، وأدمى لكبده من سهم إيثار ترك النجاة بنفسه والرغبة عنها، لأنه بذلك يترك للنفس الحبل على الغارب، فيضطرب إيمانه ويتزلزل اعتقاده، وربما ينكب على وجهه.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

سبيلُ الحَيَاة وسَفِينةُ النَّجَاة (٣)

الاعْتِبار سبيلُ الاسْتِبْصار

إعداد
د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على خيرة خلقه وصفوة بريّته نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا يرتاب عاقلٌ، ولا يشكُّ عارفٌ فاضلٌ، أننا قد أصبحنا في زمانٍ تراكمت على عُقول أهله سحائبُ الجهالات، وغلبت على قلوبهم فتنُ الضلالات، ورانت على بصائرهم السيئات والخطيئات وقبائح العادات حتى صارت كالظلمات، ومن أنكر هذا فهو كالذي ينكرُ ضوءَ الشمس المنيرة وهي في نحر الظهيرة.

وإنَّ أناسًا في زماننا قد خالفوا الجادة، وجانبوا الصواب فلم يعتنُوا بسُلوك سبيل النجاة وظنُّوا أنَّ الأمر سهل، وأن الخطب يسيرٌ، وهم لا يشعرون بما هم عليه من الجهل، وهم في ذلك قد أصاب بصائرهم عمًى، وغلبت على أبصارهم غشاوة حالت بينهم وبين الهدى حتى غلب الوهم على الفهم فأفسده وأنكده.

وإن المراد من هذه المقالات تحقيق معاني قيمة النجاة، وأهمية سلوك مسالكها وإن كانت وعرة شائكة.

إنَّ المؤمن الذي يسلك طرق النجاة، ويبتعد عن سبل الغواة يكون أقعد بالحال وأفهم للمقال بل يصبحُ الضالة المنشودة، والدرة المفقودة في هذا الزمان.

وهو مع ذلك لن يسلم من توارد الأذايا والفتن وتواتر البلايا والمحن.

رمتْني بناتُ الدَّهر من حيثُ لا أرى
فكيف بمَن يُرْمَى وليس برَام
فلو أنها نَبْلٌ إذًا لاتَّقَيْتُها
ولكنَّني أُرْمَى بغَيْر سهام

Upload by: altawhedmag.com

من أهم أسباب النجاة:

وان من أهم أسباب النجاة: النظر في حال السابقين سواء كانوا من الصالحين الجادين السعاة، أو كانوا من الفاسقين الطغاة والعصاة، وسواء كانوا من الأوائل أو الأواخر ومن الأقدمين أو المعاصرين، فأخذ العبرة لا يتعلق بجيل دون آخر، ولا بمتقدم ومتأخر ولا بتال وماض. قال تعالى: « قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » (آل عمران: ١٣٧-١٣٨).

> من أهم أسباب النجاة: النظر في حال السابقين سواء كانوا من الصالحين الجادين السعاة، أو كانوا من الفاسقين الطغاة والعصاة.

الأمر بالاعتبار وأخذ العبرة:

قال تعالى: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (الأنعام: ١١)، وقال أيضا: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ" (النمل: ٦٩)، وقال أيضا: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (العنكبوت: ٢٠)، وقال أيضا: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ" (الروم: ٤٢).

الاعتبار والاستبصار بأحوال الماضين:

إنَّ الاستبصار هو أن يكون النظر إلى الأحوال وتدبر الأمور بعين البصيرة قبل البصر، وأن يكون على سبيل العظة والعبرة، لا لتجنب الحزن والعبرة.

وهذا الاستبصار علم سامية شرفه، عالية غرفه، ومن تدبر وتفكر علم أنه من أحسن الأحوال وأزهاها؛ ومن أجل الأمور وأبهاها، لأنَّ صاحبه يصبح كالرائد في طلب الفوائد.

لأنَّ النظر في أحوال الخلق يُري المرء الفوائد عيانًا، ويشرح القلب ويبسط من العبد لسانًا، ويهيئه للتمييز بين الفاضل والمفضول والمعلوم والمجهول، ويجعله يقود النفس بالخطام فلا يمشي في الظلام ولا ينقاد وراء الحطام.

كما أن تدبر الأحوال وتأمل العبر وما فيها من الأهوال يجد فيها ترويحًا للخاطر، وعبرًا لكل معتبر وناظر.

إذا عاش الإنسان أخبار من مضى
توهمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر عمره
إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالما
حليمًا كريمًا فاغتنم أطول العمر

إن مطالعة أحوال الناس من المتقدمين والمتأخرين تجعل المرء يلتقط الفائدة والعبرة من كل قطعة، ويصلح بها كل بقعة، ويسد بها كل رقعة.

أصناف الناس في الاعتبار:

من تأمل أصناف الناس وجدهم صنفين:

الأول: ينتبه للعبر، وينظر إليها نظر أهل اليقظة والبصر، وهذا امرؤ يزداد مع الأيام فهمًا وعقلًا، ويصلح لأن يكون في القدوة رأسًا وأهلًا، وهؤلاء في الناس قلة، وفي كل عصر ندرة وحفنة.

الثاني: من لا يأبه للعظة ولا ينتبه للآيات والعبر، وهؤلاء أكثر الخليقة غير أنهم أهون من النقير، وأحقر من الحقير، وأضعف من القطمير؛ لأنهم ينتبهون بعد فوات الأوان وانتهاء المهلة من الزمان، كما حكى الله عن الأمم السابقة، قال تعالى: "وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" (العنكبوت: ٣٨). قال مجاهد: "ضلالة" (صحيح البخاري: ١١٣/٦)، ومعنى مستبصرين أي: عندهما بصائر لكنهم لم يعملوها في تمييز الحق من الباطل فضلوا بهذا.

أما الصنف الأول: فهم أهل اليقظة الذين يعملون ويوقنون أنهم إلى ربهم راجعون، قال تعالى: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (البقرة: ٤٦)، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ" (المؤمنون: ٦٠)، والذين يرجون الله واليوم الآخر "لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

Upload by: altawhedmag.com

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا " (الأحزاب: ٢١)، والذين يريدون الآخرة ويسعون لها سعيها ويعملون لها عملها ويحسبون لها حسابها، قال تعالى: " وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا " (الإسراء: ١٩، ٢٠).

هنالك في آخر الزمان فتن كبرى، وبلايا شداد، ومحن غلاظ مثل فتنة المسيح الدجال الذي يغوي الناس ويضل خلقا كثيرين بما يتبعه من الكنوز وما يدعيه من إحياء الموتى غير أن المؤمن صاحب البصيرة النافذة لا يقع في شركه ولا تصطاده حبائله.

- قد رزقهم الله تذكرة بتقلب الدهر بأبنائه، وبما يطرأ من عجائبه وأنبائه، ومن عليهم بفطر سليمة وأفكار مستقيمة، يُحسنون العمل في البدايات، ويشرئبون إلى النجاة والفوز في النهايات.
- الغالب عليهم الاجتهاد في عمل الآخرة.
- يقفون على المواقف بحسن النظر والتدبير، ويحذرون من عمل المقصرين كل التحذير.
- وهؤلاء أهل السعادة الباقية وأولو الدرجات والرتب العالية.

أما الصنف الثاني فهؤلاء لو نادتهم جادة الصواب لم يعبؤوا بالنداء، ولم يقيموا لها وزنًا، ولم يحركوا من أجلها لسانًا ولا قلمًا. قد شغفتهم الدنيا حبًا وأطاشت الشهوات منهم قلبًا ولبًا، فأصبحوا يرون السعي وراء الأهواء حرية وفكرًا، والجري خلف الشهوات كياسة ونظرًا، والركض في طريق الملذات والأوطار نباهة وبصرًا، فهو في ذلك منفلت العنان لا يسلم للبيان، ولا يقنع للحجة والبرهان.

بصيرة المؤمن نجاة من المحن الشداد:

هنالك في آخر الزمان فتن كبرى، وبلايا شداد، ومحنٌ غلاظ مثل فتنة المسيح الدجال الذي يغوي الناس ويضل خلقًا كثيرين بما يتبعه من الكنوز وما يدعيه من إحياء الموتى غير أنَّ المؤمن صاحب البصيرة النافذة لا يقع في شركه ولا تصطاده حبائله.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا طويلًا عن الدجال فكان فيما حدثنا به أن قال: "يأتي الدجال، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، بعض السباخ التي بالمدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول أشهد أنك الدجال، الذي حدثنا عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه، فيقول الدجال: أرأيت إن قتلت هذا، ثم أحييته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم، فيقول الدجال: أقتله فلا أسلط عليه".

فانظر إلى هذا المؤمن الذي استنارت بصيرته، وأضاءت بذلك سيرته وسريرته بلغ به الحال إلى أن عجز الدجال عن فتنته والاستحواذ عليه.

ولأجل هذه البصيرة علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نسأل الله تعالى أن يرزقنا النور في جوارحنا وأعضائنا.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يدي نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل في نفسي نورًا، وأعظم لي نورًا». (رواه مسلم: ٧٦٣).

وللحديث بقية إن شاء الله وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

Upload by: altawhedmag.com

مَهْمَا كُنتَ لاعبًا فلا تَلْعَبْ بِدِينِك

إعداد
د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله حقَّ حمده وصلَّى الله على نبيِّنا مُحمَّد رسوله وعبده وعلى آله وصحبه وأوليائه من بعده.

وبعد: فقد أصبحتْ سُوقُ السَّعاية في أيامنا كاسدة، وصار أكثرُ النَّاس من يُغبَنُ حقًّا وأقلهم من يَحرزُ غُنمًا، وباتتْ أحوال المسلمين لا تقوم على أساس، ولا تَتَمشَّى مع عقلٍ ولا قياس، وقد أضرب الجمهور عن ذكرها مع وضوح فسادها، وهذا من الجَهْل الصَّميم المُنافي للشَّرع القويم والعقْل السَّليم.

أسس النَّجاة:

من أخذ بها أسعفته وأغاثته، وكانت سببًا في نجاته وخلاصه من الفتن والمحن؛ إذ إن التمسك بها يُلحق المُقصِّر بالمُشمِّر والمُتأخِّر بالمُتقدِّم.

وإذا كان لكلِّ شيءٍ أساسٌ، ولكلِّ أساسٍ بناءٌ، فأساسُ بناءِ النَّجاة ثلاثة أمورٍ جَمعها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ» رواه الترمذي: (٢٤٠٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. اهـ.

الأوَّل: وهي امْتلاكُ اللِّسان وكفُّه عمَّا لا ينفعُ، والثاني: لُزومُ المَرْءِ بيْتَه فيُقلِّل من مُخالطته للنَّاس، والثالث: بُكاؤه على خطاياه، وندمُه على ذُنوبه، وتجديدُه للتَّوبة، وتصحيحُه للعَهْد الذي بيْنَه وبيْن الله صاحب النِّعمة عليه.

هذه هي الأصولُ الثَّلاثةُ المُعتبَرة عند الفُهَماء، والقواعد المَبْنيَ عليها أمْر النَّجاة عند العلماء.

فمَنْ أخذَ بقدْرٍ صالحٍ منها ونصيب، فقد أصابَ الغرَضَ بسَهْمٍ مُصيبٍ.

وهي مجموعةٌ في حديثٍ واحدٍ، ومسُوقةٌ في مساقِ جوابٍ عن سؤالِ المُحتاجِ الفاقدِ، وهذا الحديثُ في شأن النجاة يصدقُ فيه قولُ القائل:

Upload by: altawhedmag.com

شفى وكفى ما في النفوس فلم يدعْ لذي إربة في القول جداً ولا هزلا

لأنه قصد إلى عين الحجة بتقليل اللفظ، وهذا من بديع البلاغة النبوية صلى الله وسلم على صاحبها الذي أوتي جوامع الكلم، ورحم الله خالد بن صفوان -أحد البُلغاء- حين قال:

خيرُ الكلام ما ظرفتْ معانيه، وشرفتْ مبانيه، والتذتْ به آذانُ سامعيه.

نعم، بمثل هذا الكلام يعلق القلب به وتهش الروح لسماعه، وتهتز النفوس طربًا به لأنه جمع السلامة والنجاة في ثلاثة أمور، هي من السهل الممتنع، فهي سهلة في الظاهر لكن تحقيقها في الواقع أمرٌ صعب وشاق، وربما يظنُّ الناسُ أنَّ هذه الأسباب الثلاثة يسيرة، لكن في الحقيقة ربما سهُل الشيءُ وانقاد من جهة القول، لكنه عزَّ واعتاص من جهة الفعل.

لا تظنَّنَّ المجد تمرًا أنت آكلُه لن تبلغَ المجد حتى تلعق الصبرَ

هذه الثلاث معالم الحياة، وطوق النجاة فإنْ أخذها المسلم بحقها وقام بأمرها فقد أفلح، ومن تجاوزها ولم يلتفت إليها خاب وخسر.

حرص السلف الأوائل على النجاة:

كانت النجاةُ والحصول عليها والوصول إليها غاية النهاية عند سلفنا الصالح رضي الله عنهم، إذ كان القوم على الجادة المستقيمة والمحجة البيضاء القويمة؛ فلم يغيروا ولم يبدلوا، ولم يزيدوا ولم ينقصوا، بحيث كانوا يخطون بخطو رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمشون بمشيه حذو القذة بالقذة، أي: غلوٌ ولا جفاء، وبلا تفاوت ولا تماوت "القذذ: ريش السهم، واحدتها: قذة أي: كما تقدر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها وتقطع، يُضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان" (النهاية: ٤/٢٨).

لقد كان يزعجهم الأرقُ والقلق، ويحثُّهم على المسير خوفُ الغرق، ويحدوهم إلى الله تعالى الشوقُ والحرق، فيمشون -كما فعل يوشعُ بن نون فتى موسى عليهما السلام- على الشط، غير مبالٍ بمن انتقص ولا بمن حط، ولا ملتفت إلى من تخلف أو سقط وانحط، فبلغوا بهذا الإيمان المنزل، وحطوا على هذا الوجه الرحل في المعقل، دون أن يجدوا في ذلك نصبًا، ولا أن يخطوا في طلبه سببًا.

> "أقبل على ربك واسلك سبله ذللا، وادمن الطرق فإنه سيفتح لك، فربك كريم لطيف بعباده ويحب التوابين، فإنين التائبين أحبُّ إليه من زجل المسبحين."

وبسبب هذا السعي المبارك الجليل، والقصد النافع النبيل، سار الأسلاف على الجد الصرف ومضوا على هذا الحق المحض، حتى وصلوا إلى قمة الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الرابح، وأسسوا لمن بعدهم كل أمر ناجح، فطوبى لمن سار بسيرهم واهتدى بهديهم حتى رسخت له في منزلة النجاة أقدام، ونجا من مزلة أقدام، وصحَّ له من الأجر والثواب أفضل الأقسام وصدق الله حيث قال فيهم: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (التوبة: ١٠٠).

ولئن كانت الموانع لا تحصى ولا تنحصر، والآفات لا تنضبط ولا تقتصر، فإن من عاش حياة السلف الأوائل أدرك من أسباب النجاة جُملة صالحة، وحصلت له بذلك صفقة رابحة، فهل من مُدَّكر أم على قلوب أقفالها؟

فاجعل هؤلاء القوم أصلك وفصلك، كما كان يفعل خالد بن مَعْدان العالم الزاهد، قال الوليد بن مسلم، عن عبدة بنت خالد بن معدان: قلَّ ما كان خالدٌ يأوي إلى فراش مقيله إلا وهو يذكر شوقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والى أصحابه من المهاجرين والأنصار ثم يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، واليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم فعجل ربِّ قبضي إليك، حتى يغلبه النوم وهو في بعض ذلك. (تهذيب الكمال: ٨/١٧١).

وصدق القائل:

Upload by: altawhedmag.com

طيبُ الفُروع من الأصول ولَمْ يَزَلْ
فَرْعٌ يطيبُ وأصْلُه الزَّقُّومُ

وقد تقعدُ الهمّة ببعض النّاس ويقول: أين التراب من السّحاب، وما نحن في جنب القوم، ومن نكون إلى جوارهم؟

والجواب: صحيحٌ أنّ بين الجيل الحاضر وبين القوم من الجيل الأوّل الغابر مفاوز وأشواطا بعيدة، فإنّ ما بين القوم وبين أجيالنا كما بين الدُّرّ والصّدف، وما بين المسك والجيف، غير أنّ من سار على الدّرب وصل، وأنّ من جدّ وجد، والأعمال بالنيات فكم من قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته وربّ ميّت على الفراش يسبق إلى الله تعالى بصدقه، وصلاح نيّته، وسلامة طويّته، وخلوص قصده، وحسن عهده، فعن سهل بن حُنيف، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه» (رواه مسلم: ١٩٠٩).

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من طلب الشّهادة صادقًا، أعطيها، ولو لم تصبه» (رواه مسلم: ١٩٠٨).

فاستعنْ بالله يُعنك، وسلْه يُجبْك، واستوهبْ ربّك همّة عليّة، وعزيمة فتيّة يُمددْك كما قال القائل:

فالزمْ يديْك بحبْل الله مُعْتصمًا
فإنّه الرُّكْنُ إنْ خانتْك أركانُ
مهما كنت لاعبًا فلا تلعبْ بدينك:

إنّ طالب النّجاة لا يلعب بدينه، ولا يُضحّي بإيمانه، ولا يترك العمل الصالح من أجل أحد من النّاس كائنًا مَنْ كان، وقد كانت وصية أسلافنا التي بالغوا فيها ووصّوا بها كلّ ذي عقل راجح ولبّ ناصح، أنّهم قالوا: مهما كنت لاعبًا بشيء فلا تلعبْ بدينك.

وسبب ذكر هذه الوصية الغالية أن الساعي في طلب الآخرة لا يتماشى حاله مع اللّعب بالدّين، ولا يتّفق مع تضييع الأوقات فيما لا يُفيد، ولا تتناسب مع إفناء الأعمار فيما لا ينفع.

> إنّ طالب النّجاة لا يلعب بدينه، ولا يُضحّي بإيمانه، ولا يترك العمل الصالح من أجل أحد من النّاس كائنًا من كان.

بلْ إنّ المجدّ في شأن الوصول إلى الجنّة آمنًا تجده أحفظ النّاس لدينه، وأحرص النّاس على وقته، وأكثر النّاس سعيًا في العمل الصالح، وأقومهم قيلًا وأهداهم طريقًا، حاله كما وصف القائل:

رأيتُ عرابةَ الأوسيّ يَسْمُو
إلى الخَيْرات مُنْقَطعَ القَرين
إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجْد
تلقّاها عرابةُ باليمين

فأدِّ ما عليْك، وصل ما بينك وبين الله تعالى بصالحات الأعمال وكثرة الاستغفار والذّكر وتجديد التّوبة وصقل الإيمان والأوبة وتحوب من الآثام وتوقها قدر ما تستطيع والله معك، ولن يترك عملك كما قال تعالى: "ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا" (طه: ١٢).

ما آبَ مَنْ آبَ لَمْ يظفرْ ببُغْيته
ولم يُعبْ طالبٌ بالنُّجْح لم يخبْ

وأقبلْ على ربّك واسلكْ سُبُله ذُللًا، وادْمن الطّرق فإنّه سيفتح لك، فربّك كريمٌ لطيف بعباده ويحب التوابين، فإنين التائبين أحبّ إليه من زجل المسبّحين، وإن رُددتَ فلا تيأس.

فإنْ رُددتَ فما بالرّدّ منقصةٌ
عليْك قد رُدّ موسى قبلُ والخضرُ

ولا تعجلْ على فتح الباب، فيستحوذ عليك الشّيطان ويُقنّطك من رحمة ربّك، ولا تُسئ ظنّك بربّك، فإنّ ذلك خيالٌ فاسد، وخبالٌ كاسد من الشيطان، يريد به الشيطان أنْ يُحدث الفجوة بينك وبين ربّك، فاحذر من هذه الأكدار، وخلّ قلبك من تلك الأغيار، واطرح أحوال الجُهّال فإنها مشوّشة، ومُغيّرة ومُكدّرة، فهذا أجدى عليْك وأحمدُ لعواقب الأمور إن شاء الله تعالى. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

أركانُ النّجاة

حفظُ الذّمام والأخذُ بالزّمام

إعداد
د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فضل السائل وشرف السؤال:

فإن سؤال الصحابي عقبة بن عامر رضي الله عنه: "ما النجاة؟" يكاد يجمع الدين كله، ويلخص الهدف من الحياة، والغاية من تحقيق الأعمال وتحصيل الإيمان والهداية، ولا يصدر هذا السؤال إلا من ذوي العقول الكاملة والنفوس الفاضلة؛ لأنه يدل على همة جليلة لتحصيل الأمر الجليل، ونية جميلة لورود المورد السلسبيل، كما يدل على علو همة صاحب هذا الغرض الموجود، وقمة المطلب الأشرف المقصود، وقد كان هذا السؤال المختصر الصريح الصحيح من غير إطناب ولا إيماء ولا تلويح، بل بإيجاز بليغ وتصريح، ولا ريب أن هذا من المعونة بالتوفيق، والهداية إلى الحق من أقرب طريق، فاين هذا مما نراه من التجني والتحكم، وإصدار قول أو سؤل من غير تأمل ولا تدبر.

ولا شك أن التجول في أفياء هذا السؤال، والتأمل في معاني هذا الكلام مهما أطلنا الحديث عنه وأجلنا القول فيه فلن نعطيه حقه ولن نوفيه قسطه.

ومن أطال النظر في كلام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على كلامهم من مسحات النبوة شيئًا كبيرًا لأنهم استضاؤوا بنورها، واقتبسوا من مشكاتها، لذا اكتست كلماتهم سؤالا وجوابًا، وسردًا وعرضًا، وجمالًا وجلالًا، وحلاوةً وطلاوة، وأصبحت حكمًا مأثورة:

رأيك مما خطبت أعلى
لا زلت للمكرمات أهلا
صلبت عودًا ودمت جودًا
وفتت فرعًا وطبت أصلا
لا أستطيع العطاء حملًا
ولا أطيق السؤال ثقلا

Upload by: altawhedmag.com

قصرتُ عن منتهاك ظنًّا
وطُلتَ عمّا ظننتُ فعلا
يا رُجمةَ الدّهر والمعالي
لا لقيَ الدّهرُ منك ثُكلا

ولعَمْر الحق إنّ المرء المؤمن الإيمان الكامل ليُحسُّ بصفاء هذه الكلمات، ونقاء تلك العبارات حتى يشتاق أشدَّ الشّوق إلى سير أصحابها وسيرة أربابها، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجمعنا بهم في الجنة العالية وجعلها من أوّل وهلة مأوانا ومأواهم:

ونادتني الأشواقُ مهلاً فهذه
منازل مَن تهوى قدُونك فانزل
وخذْ بنعيم قد صفا لك شربُه
ودَعْ ما سوى الأحباب عنك بمعزل

الجوابُ المُحكم والقول المعلم:

أما الجواب فقد أجاب عليه النبي صلى الله عليه وسلم جوابًا يوجب اليقين، ويوضح الحق المبين، ويشرح صدور الخائفين، ويؤمّن روعة القلقين، ويفتح باب الأمل للقانطين، ويهيّج على مواصلة العمل من الجادّين، ويُرغم أنوف المعاندين، ومهما قلتُ عن هذا الجواب المُحكم، وأيًّا ما كان الحديث عن القول الصادر من النبي المعلم صلى الله عليه وسلم، فلن أعدو شاطئه فضلا عن بلوغ لُجّته، ولن أستطيع الوقوف على بالغ حِكَمته ولا الأخذ بكامل عُدّته، وإنّما أقتصر على قول الشاعر وأكتفي بالبيت السائر:

نفسي تَرُوم أمورًا لستُ مدْركها
ما دمتُ أحذَرُ ما يأتي به القدرُ

لقد كان الجواب على هذا السؤال الجَلل، كلامًا يلبس أجمل وأفضل الحُلل، وسياقًا موجزًا يُعَدّ على الأصابع ويحفظه الجَنان لأوّل وهلة، ولم لا يكون كذلك وقد خرج من أشرف فم وممّن أوتي صاحبُه صلى الله عليه وسلم جوامعَ الكلم، وخُصّ ببدائع الحِكَم.

لم لا أعرّض باسم عزّة إنها
أخذتْ عليّ مواثقًا وعُهودا
لو يسمعون كما سمعتُ كلامَها
خروا لعزّة رُكّعًا وسُجودا

> جمع صلى الله عليه وسلم أسباب النجاة، وحدّد أسس الحياة، وأجملها في جُمل ثلاثة ما أجملها، "أمسكْ عليك لسانك، وليسعَك بيتُك، وابْكِ على خطيئتك".

جوابٌ يَسمع الصمّ وينزل العصم:

كان في جوابه صلى الله عليه وسلم فصاحة الألفاظ، وبلاغة العبارة، مع إيجاز فصوله، وانعدام فضوله، إذ إنه جوابٌ مُختارُ الكلمات نيّرُ القسمات:

كأن هذا الجواب من جماله وجلاله يقول: سلوني أجبكم واسمعوا أعجبكم، ومن عجيب هذا الجواب أنّ عباراته الثلاث وإن كانت كادّة للقلب، شاقّة على اللبّ إلا أنها في الإمكان مع المجاهدة في العزلة والاكتنان، فمن جعلها مثابة واتخذ منها صحابة، وجعلها لنفسه في الدار كحاشيتي النهار؛ فقد حلّ من عُقَدتها الأزرار وفكّها من قيد الأوزار؛ فاحذر في هذا الزمان من رفيق يكون عدوًا في بردة صديق، ليس له همة إلا في فائدة منك يُفيدها أو عائدة يصيدها.

ويحك هذا الزمان زورُ
فلا يغرنك الغرورُ
لا تلتزم حالةً ولكن
دُرْ بالليالي كما تدورُ

ثلاثة جُمل ما أجملها:

هذه الجمل المجملة والعبارات المحلّلة (أي: التي ألبستْ أجمل الحُلل) بأثواب محبرة، ومعان مقررة، لو أخذ عالم أصنافها وصنّفها، وجمع أنواعها وصفّفها لجاءت في كتاب يجمع من كل شيء أحسنه، ومن كل نوع أجوده، ففوائدها أكثر من أن يحيط بها محيط، أو يقف على عدّها واقف؛ وحسْبُك في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم جمع أسباب النجاة، وحدّد أسس الحياة، وأجملها في جُمل ثلاثة ما أجملها، "أمسكْ عليك لسانك، وليسعَك بيتُك، وابْكِ على خطيئتك" (صحيح الترمذي ٢٤٠٦).

ولم يبْق بعد هذا الوضوح في جوابه، والبيان في خطابه إلا الاستعانة بالله تعالى وحده ولو كنت فردًا غير معان من رفيق أو أخ أو صديق، ولُزوم الوقوف على بابه، والجلوس على أعتابه،

Upload by: altawhedmag.com

مع خُضوع الرِّقاب والشَّوق المُحرِّك للقاء أفضل وأقرب الأحباب، مع الجِدّ في الوصول ومُحاولة بُلوغ المأرب المأمول، ولا تنس أنَّك في زمان الصِّعاب وغليان الصُّدور، وتأجُّج القُلوب، وغلبة دُخان الفتن، وعُلوّ غُبار المحن عليها حتى كاد أن يخنُقها، فاللهم نجنا وعافنا وسلِّمنا وغنِّمنا وأنت أكرم الأكرمين.

تركتم قِدْركم لا شيء فيها
وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفُورُ

والله المستعان على تحقيق الحق وقول الصدق بما أطلق به ألسنتنا وأجرى به أقلامنا، ونسأل الله النَّجاة من هذه الفتن التي يُرقِّق بعضُها بعضًا:

نقض قانون النجاة:

فيا أخي الكريم خُذ بقاعدة النجاة، واجمع لها حواشي الإزار، كي تتنزَّه عن كُلّ هذه الأقذار، فإنَّ الأيام التي نعيشها تُنذرُ بشرّ ولا تكاد تُعين على خير.

أرى الأيامَ لا تبقى على حال فأحكيها
فيومًا شرُّها فيَّ ويومًا شرّتي فيها

ومن تأمَّل أحوال النَّاس وجد الكثيرين قد ناقضوا قانون النَّجاة، وحلوا رباطها الأصيل، بل بعضهم اجتثُّوا أصله، وتركوه بلا قرار.

مع أنه قد كان بالإمكان أن يحصِّنوا حوزتها - أي النَّجاة- ويصونوا حُرمتها، ويحموا حومتها، ليكونوا أهدى سبيلًا، وأقوم قيلًا، وأصح تفريعًا وتأصيلًا.

وهذه القضية -أي: قضية النجاة- قد-والله بحقّ- بُحَّ من أجلها الحلق بغية تحصيلها، وضاق الصدر من أجل بلوغ تحقيقها، واعتقل اللسان فلم ينطلق، فالله الله في هذا الأمر، وعليكم بجبر كسره، وجلوة صدئه، ودعكم من التعليل الذي لا جدوى من ورائه، والتسويف الذي لا نفع معه.

وأنَّ من مذاهب الكرام الأخذ بالزِّمام وحفظ الذِّمام، والمراد بذلك أن يأخذ المرء بزمام نفسه ليحفظ ذمامها، ولا يكون ذلك إلا من كريم ماجد، ومُفضل مُحسن رائد.

فالعاقل من يجيل يده في هذه العبارة بالعمارة، ومن يوقف نفسه عليها، ويتخذ العمل بها تجارة، قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ" (الصف: ١٠-١١).

الأخذ بالزمام:

إذا أجلْتَ طَرْفك في هذه الإشارات العالية المباني الوافية المعاني، وطوَّفت في هذه الكلمات القليلات العدد الكثيرات العُدد: انفتح بصرُك، وتفتَّقت بصيرتُك عن الأخذ بالزمام في قوله عليه الصلاة والسلام: "أمسك عليك لسانك".

ومن الكلمات الجارية قولهم: من ملك الزمام فقد بلغ التَّمام، ومن تأمَّل حال زماننا ضلَّ وحار، ولم يأمن الوقوع في الزلل والعثار؛ لأنه لا يكاد يجد من يأخذ بالجِدّ الصِّرف غير المَمْزوج باللعب، ولا من يجتهد الاجتهاد المَحْض غير المخلوط السَّلب.

إنَّ من أخذ بهذه الجُمل الثلاث، وتأمَّلها بنافذ الفَهْم، وعلم ما فيها من التَّفسير، وبلغ شيئًا من كُنْه المراد من هذا التَّعبير تحقَّق بأسباب النَّجاة، وتخلَّق بأخلاق أهلها الجادين السَّعاة.

أما تركُ النَّفس بلا خطام ولا زمام فإنَّما هو من أفعال السَّفلة الجُهَّال، وأوصاف ذوي النذالة والسفال؛ لأنهم بذلك يُوردونها مواطن الهلكة، وينزلونها منازل العطب، ويشترون ذلك بثمن بخس، وعرض زائل وحال حائل، وبضاعة رخيصة تحمل كل نقص ونقيصة، وليس في الظفر بها خصيصة، وهذا عنوان على الخَيْبة ودليل على الضَّيْعة، وصدق الله تعالى حين قال: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (الشمس: ٩-١٠).

حفظ الذِّمام:

هو أن لا يأتي شيئًا ينقص من مروءته وقدره، ولا يفعل عيبًا يحط من شأنه وأمره؛ وحفظ الذمام في الشر يكون بعقد عقدة الاعتقال، وفي الخير يكون بإطلاق العنان والعقال، فهو طليق في الخير، ومغلول اليد في فعل الشرّ.

ومن تأمل السؤال والجواب في هذا الحديث الوجيز وجد في السُّؤال طلب الغاية والوصول إلى النهاية، كما يجد في الإجابة أيضًا الجواب الكافي والدواء الشافي.

وللحديث بقية إن شاء الله، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

الاستسلام للأقدارِ الغالبة والاستعداد للعواقبِ الغائبة

إعداد
د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

(١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ركوب مركب النجاة ضرورة:

إذا كانت النجاةُ غاية مسعى كل عاقل، ونهاية مطلب كل عامل، ودعوى يدعيها الجميعُ، على السواء العالم منهم والجاهل، والمتيقظ الحذر، وكذا الغافل؛ فإن الاستعداد لركوب مركب النجاة ضرورة لغياب العواقب، وتمام الجهل بالنهايات، وعدم المعرفة بالخواتيم، وقد أعيا الناس جميعًا حل رموز الأقدار؛ لأنَّ الله تعالى اختصَّ نفسه بتقديرها، وتفرَّد سبحانه بالعلم بها دون من سواه وتدبيرها، وحجبَ ما في العواقب من الأسرار ليبقى العمَّال مُجدِّين في الأعمال، ومُجتهدين في الإكثار من الصالحات، ومُجتنبين النقص منها والإقلال.

وهذه الغيوب لم يُطلع الله تعالى عليها أحدًا من خلقه، وإن كان الله سبحانه قد أطلع بعض رسله على بعض الغيب فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦- ٢٧).

والواجبُ على المسلم تفويض أمره لله، وتسليم قياده وعنانه لمولاه، والأخذ بالنَّظر في عواقب الأمور فإن ذلك يُوسِّع المدارك، ويلقِّح الفُهوم، ويورثُ علمًا بالواقع، وتدبرًا للوقائع، ويُفيد المرء بأعظم الفوائد، ويعودُ عليه بأنعم

Upload by: altawhedmag.com

العوائد.

وبذلك يرجى للمرء النجح، والظفر بالبغية، وحصول المطلوب، وبلوغ المراد، وتحقيق الفضائل، وتحصيل المكارم، إذا ضم إلى ما تقدم هذين الأمرين.

أولًا: الاستسلام للأقدار الغالبة:

لا بد من الإيمان بالقدر؛ لأنه ركن ركين من أركان الإيمان، كما في حديث جبريل "قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره" (رواه مسلم: ٨)، ولا بد أن يكون معه التسليم والاستسلام فلا يثبت الإسلام إلا على قدم التسليم والاستسلام كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١).

وقال أيضا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢).

وعن وهب بن خالد، عن ابن الديلمي، قال: لقيت أبيّ بن كعب، فقلت: يا أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فحدثني بشيء، لعله يذهب من قلبي. قال: "ولو أنفقت جبل أحد ذهبا في سبيل الله، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير ذلك، لدخلت النار" (أخرجه أبو داود ٤٦٩٩، وابن ماجه ٧٧، وصححه الألباني).

وقد قدرت مقاديرُ الخلائق وفرغ منها قبل خلق السماوات والأرض، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء" (رواه مسلم: ٢٦٥٣).

وسبحان الله مقدر الأقدار، ومكور الليل والنهار، لقد شاع هذا الوباء، وفشا ذاك الداء العياء في الأقاليم، وانتشر في كل النواحي، وطرق أبواب الديار، مع كونه صغير الجرم، ضئيل الحجم؛ إلا أنه دوخ الدنيا بخيلها ورجلها، ورعيتها ورعاتها، وساستها وملوكها، وخافه الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والقوي والضعيف، والغني والفقير.

> **"يأتي الإيمان بالقدر بردًا وسلامًا، ليُطمئن صاحبه من القلق، وفي تلك الأحايين ينزل عليها برد اليقين، فيشرح الصدور، ويرفع عنها اللبس، ويزيل منها الشكوك، ويجلوها من الوساوس، فتعود مرتاحة مطمئنة، تأنس بذكر الله."**

ثمرة الإيمان بالقدر:

لقد رأينا فزع الناس أجمعين، وعاينا خوفهم من انتشار الأوبئة والأمراض، وقد هجمت عليهم المخاوف، وتقاذفتهم الخطوب والمتالف، وكأنه قد حمي الوطيس على أولئك البؤساء، وصيرهم غرضًا للأوهام فصاروا في عداد التعساء، وبهذه الشكوك أحسوا بأنهم هدف للمصائب، ونهب للمتاعب، وعرضة للمطالب.

وفي هذه الأثناء يأتي الإيمان بالقدر بردًا وسلامًا، ليُطمئن صاحبه من القلق، وفي تلك الأحايين ينزل عليها برد اليقين، فيشرح الصدور، ويرفع عنها اللبس، ويزيل منها الشكوك، ويجلوها من الوساوس، ويمحو منها الهواجس، فتعود مرتاحة مطمئنة، تأنس بذكر الله، وترتاح إلى سماع كلام الله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ (الرعد: ٢٨-٢٩).

الاحتساب عند نزول البلاء وحلول المصاب:

ومن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر: الاحتساب عند نزول البلاء وحلول المصاب. فعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه، إلا الجنة" (رواه البخاري: ٦٤٢٤).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يصب منه" (رواه البخاري: ٥٦٤٥).

Upload by: altawhedmag.com

أما الذين لا يؤمنون بالقدر فهؤلاء انسلوا عن الدين، وتسلل لواذًا من قلوبهم اليقين، وصارت مذاهبهم مختلة القوانين، يابسة الأغصان والأفانين.

الإيمان بالقدر قوة وعزة:

إنّ الإيمان بالقدر يُحوّل صاحبه إلى جبل لا يهتزّ، ويحيله إلى طود شامخ فخور بإيمانه ومعتزّ. تزول الجبال الرواسي ولا يزول إيمانه، وبينما الناس حوله كأشجار مُتمايلة في وسط ريح عاصف، يخشى عليها السقوط، وربما يُخاف عليها أن تجتثّ من فوق الأرض، ويذهب ما كان لها في الأرض من قرار، وحامل الإيمان بالقدر بين جوانحه، والمتلبس به كأنه ثياب على جوارحه، يكون عصيًا على السُقوط، قصيًا من التصدع، فهو كبيت قوي وقصر مشيد قائم على عمد راسخة، وقواعد ثابتة راسية.

> الإيمان بالقدر يُحوّل صاحبه إلى جبل لا يهتزّ، ويحيله إلى طود شامخ فخور بإيمانه.

الصبر بمنزلة رأس المال:

بهاتين الدرجتين وبتلكما المنزلتين - الصبر والرضا - يرجع المؤمن ظافرًا بهما بعد الإيمان بالقدر، وإذا كان الصبر واجبًا عند نزول المقادير، ولزامًا عند تحقق التقادير، فإنّ الرضا مستحبّ عند حلول الأمر المقدر، والبلاء الحتم المقرر، فإذا صبر المرءُ على البلاء المقدور، لم يقنط ولم ييأس، ولم يغره - أيضًا - بالله الغرور.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "إنّ الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر، عوضته منهما الجنة" يريد: عينيه. (رواه البخاري: ٥٦٥٣).

الرضا بمثابة الزبج الحلال:

وإذا علا فوق هذه المنزلة -منزلة الصبر-، وارتفع فوق تلك الدرجة نزل منزلة الرضا - التي هي بمنزلة الزيادة فوق الأصل -، واستراح في مُستراحها، وكان بالله تعالى راضيًا عاش عيشة الهنيء المقرور، ومضت حياته وهو في راحة وحُبور، وقضى نحبه وهو ضاحك مسرور، ولله عاقبة الأمور.

وما أجمل الرضا في موقف أم سليم حينما قبض الصبي ثم جاء زوجها أبو طلحة فتعشى وأصابها ثم قالت: واروا الصبي، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهما بالبركة في ليلتهما فرزقا بغلام كان منه تسعة كلهم من حملة القرآن وأوعيته.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان ابن لأبي طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة، قال: ما فعل ابني، قالت أم سليم: هو أسكن ما كان، فقربت إليه العشاء فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: «أعرستم الليلة؟» قال: نعم، قال: «اللهم بارك لهما» فولدت غلامًا. (رواه البخاري: ٥٤٧٠، ومسلم ٢١٤٤).

فاقد الإيمان بالقدر مُمتلئ بالضجر أينما ورد وحيثما صدر:

من فقد الإيمان بالقدر غلب عليه الضيق والضجر، وشعر بحشرجة في الصدر كلما ورد وصدر، فتراه يتعثر ولا يُفيق من عثرته، ويكبو ولا يستقيل من كبوته، فهو كمن يمشي مكبًا على وجهه لا يكاد يواصل المسير، ولا يوشك أن يبلغ غاية مثمرة مهما كان يخطو نحوها ويسير، وصدق الله حين قال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢).

أو كمن يمشي وراء سراب بقيعة، ويجري خلف أذيال وضيعة، جاءته بكل فعلة شنيعة، ورمته بما يشينه من الوقيعة، وأصابته بأسقام الإيمان، وهي - لمن كان له قلبٌ حيٌّ - شديدة الوجيعة، وزخرفوا له القول غرورًا، وقالوا له بهتانًا وزورًا، حتى غشي من المنكر فجورًا.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com

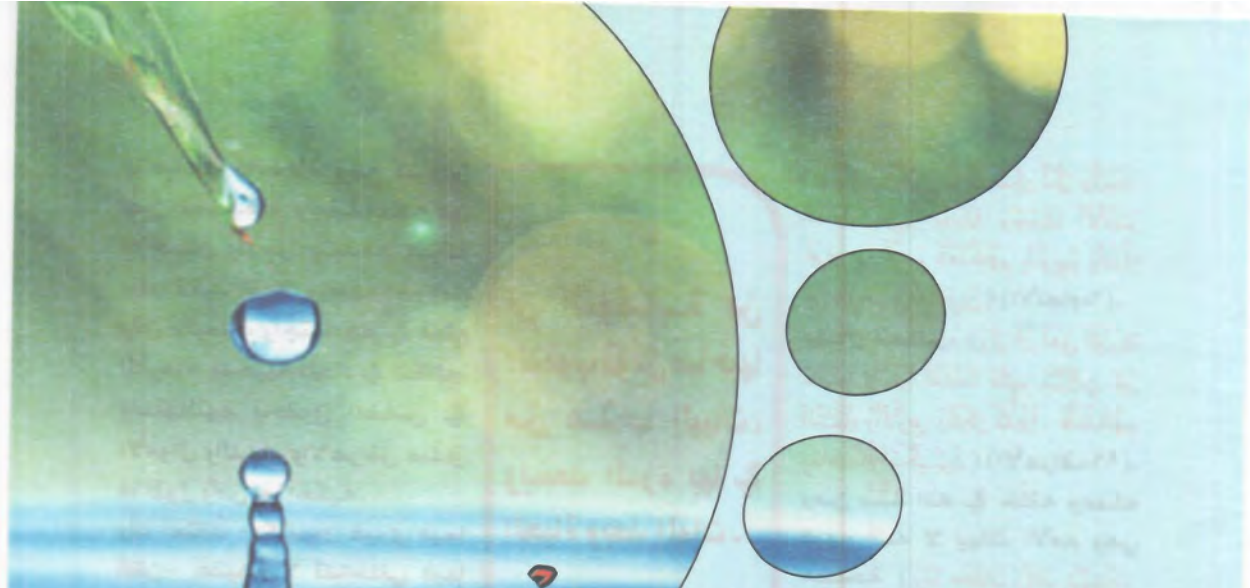

الاستسلام للأقدار الغالبة والاستعداد للعواقب الغائبة

(٢)

إعداد
د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله على نعمته علينا وتفضيله، أحمده على ما منَّ به علينا من مُحكم الكتاب وتنزيله، وأشكره على ما أكرمنا به من بعثة صفوة خلقه ورسُوله، وصلى الله على نبينا محمد الذي هدانا الله به إلى سواء سبيله، وأمرنا بتعظيمه وتبجيله، ونفى عنّا الإيمان حتى يحبه المؤمن أكثر من أبويْه وخليله، وجعل اتباعه سببًا لمحبّته لنا وتفضيله، ونصب طاعته حمًى لنا تعصمنا من الشيطان وكيده وتضليله، وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة بدوام طُلوع الفجْر وأفوله، ومن تبعهم وعمل بعملهم إلى انقضاء حياته وفناء جيله، وانتهاء مُهْلة أيامه ورحيله.

وبعد: فهذا مقالٌ أذكّر به نفسي وإخواني، وأسوق لهم به العبرة والنذير، لعلنا نعمل به على الإصلاح والتغيير، لا سيَّما والناس في وجْه الوباء فزعين كأنهم في حوْمة الوغى، إذْ لا بُدّ أن نجتهد في الوصول إلى أسباب البلاء الذي نزل بنا، ودهانا وكدّر حياتنا.

حال أكثر الناس يضُرّ ولا يسُرّ:

إنّ الناظر إلى الناس من حوله نظرة بادي الرأي يجدُ بُعدهم عن أبواب الْخَيْر، وقربهم من كلّ ما فيه خطرٌ وضير، بل ربَّما يجدُ بعضهم يعمل على إغْلاقها حتى صار بعضها موصدًا، وعلى النقيض ترى من يعمل بالسيّئات ويقعد لها بكل طريق ومرصدًا، ومن رأى هُروب النّاس من المساجد، وقلّة مبالاتهم

Upload by: altawhedmag.com

بالعبادات كالصلاة، وشُحّ كثيرين عن الصدقة، وامتناعهم عن الإحسان والبر، ونبذهم الصلة والمودة نبْذ النَّواة، ورميهم إخوانهم بكل نقيصة، واجتهادهم في قطع الأرحام، وسعيهم الجاد في المظالم، واستهانتهم بحقوق الناس في الأموال والدماء والأعراض صدّق ما أقول وآمن بما أحكيه.

وأنا أعتقدُ -وكثيرون غيري فيما أظن- عقيدة لا تداخلني فيها خلجة شك أن ما نحن فيه سببه أمران:

الأول: هو البُعد عن طاعة الله التي ثقلتْ على النُّفوس حتى صارت كأنها مُرُّ الكؤوس وعلقَم دارتْ منه الرُّؤوس، أو الدّاء العياء الذي يأتي بأشدّ البلاء.

وقد وعد الله تعالى عباده الطائعين بفتح أبواب البركات والخيرات.

قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) (المائدة: ٦٥-٦٦).

وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف: ٩٦).

الثاني: كثرة غشيان الذنوب والمعاصي بصورة تقطع نياط القلوب، وهو فرع على السبب الأول لأنه من شغل عن الطاعة شغلته نفسه بالمعصية.

وهذا المعنى في الكتاب والسنة مُقرّر ومذكور، وفي علمهما مسطور ومزبور.

قال تعالى: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (آل عمران: ١١).

وقال تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) (الأنعام: ٦).

وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف: ٩٦).

ومن سُنَّة الله في خَلْقه وعدله فيهم أنه لا يهلك الأمم وهي مصلحة (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود: ١١٧)، بل لا يكون الهلاك إلا بالأمم في وقت ظلمها.

قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود: ١٠٢).

وقال تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (الكهف: ٥٩).

فإذا جاءت الطاعة وحضر شريف تلك البضاعة، وانتشر نور الهداية، وسعى الناس في طلبها جدّ السعاية، وظهرت أنوارها الهادية الماحية لظلمة الضلال، وكشفت عن أهلها الإفك والبلاء والمحال أعرضوا وصدوا ونَدُّوا.

والعجيب في ذلك أن الناس إذا ذكرتَ لهم عقوبات المعاصي، وإذا ربطت بين البلاء وعواقب الذنوب وما فيها من السوءات والمآسي، تجد بعضهم لا يكادون يصدّقون ما قيل، ولا يعتقدون ما تناقلته الأجيال جيلًا بعد جيل، مع إيمانهم بمَا وردَ في الوحي والتنزيل، في الوقت الذي يصدّقون فيه الإفك والأباطيل، ويتبعون كلّ مُفسد كيدُه في تضليل.

> إن الوقاية من الذنوب تؤمّن صاحبها من عذاب البيات، ويسعد المرء بها في الحياة وبعد الممات.

إن الوقاية من الذُّنوب تؤمّن صاحبها من عذاب البَيات، ويسعد المرء بها في الحياة وبعد المَمات.

أثر الطاعة:

الطاعة عند المؤمن هي روحه وخلاصة حياته، وقلبُه النابض الذي إذا توقف خرجت روحه وفاضت نفسُه إلى بارئها، وهي رأس ماله الذي

Upload by: altawhedmag.com

يعمل فيه، وهي من الليل والنهار بمنزلة السمع والبصر من ابن آدم، وهي راحة المؤمن وجنّته التي إذا لم يدخلها في الدنيا لم يدخل جنة الآخرة، كما أنّ الطّاعة هي الحِصْن الحَصين للمؤمن وجُنّته، وهي قبلتُه أينَما خيّم، وكعْبَتُه أيْنَما توجّه ويمّم، بل هي لذة الدنيا وقرة العين فيها، بها تفتح الأبواب المُغلقة، وتطمئن القلوب ولو كانت مُغلفة، وتشرح الصدور ولو كانت الدنيا تغلي حولها كالقدور، فإذا خلتْ منها شعرَ المؤمن بأنّ الحياة جوفاءَ، وأنّ الدُّنيا حوله دار نَكْراء، مشوّهة الخِلقة مستنكَرَة المَرْآة.

وهذا كلام لا يشك فيه من شم رائحة الطاعة أو كان عند أدنى رغبة في العمل الصالح.

فمن اجتهد فيها كان أثرها باديًا عليه كالشمس المشرقة والنور المستفيض، ومن تذوقها غائصًا في أعماقها، قوى منها الأركان وأحكم من أجلها البنيان، فحظي بمحبتها والفوز بها، وتمتّع بانتشاق رَوْحها وشَمّ نسيمها، ونعمتْ عينه بالاكتحال بأحوالها الشريفة، والرّكون إلى مَحالّها المَنيفة، وامتلأ قلبُه بالتعلّق بها والشّغف بلزومها، واكتسى من ثيابها أجمل حلة وأفضل كسوة.

وهذا غيضٌ من فيْض، لكن التّنبيه على القليل مرشدٌ إلى معرفة الكثير لمن كان له قلبٌ أو فَهْم والله المستعان.

ومع عُروض المَوانع وترادُف الشّواغل والقواطع تذهب بعض هذه المعاني أو كثير منها، فيحتاج المسلم إلى من يساعده على تجديد إيمانه وتحريك يقظته وإشعال مَوْقد همّته حتّى يسير إلى ربّه من غير ضعف ولا فُتور حتى يكون كالطّود الشّامخ لا كأنّه ريشةٌ في مَهَبّ الريح تُفَيْئه يَمينًا وشمالًا.

> الطاعة هي راحة المؤمن وجنّته التي إذا لم يدخلها في الدنيا لم يدخل جنة الأخرة.

آثار غشيان المعاصي:

جُبلت النفوس على المعاصي، وفطرت على ما ينافي العصمة، ويضاد السلامة من الذنوب والمخالفات، هذه حقيقة جاءت بها الأحاديث النبوية، وجادت بها السنن المصطفوية.

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» (رواه ابن ماجه: ٤٢٥١).

أما الوُلوغ في أسباب المعاصي والانزلاق في مزالق تزلّ عليها الأقدام، فمثل ذلك لا بد من الحيطة خشية الوقوع في شِباكها، والسقوط في شَركها.

فهي موضع مَخافة يستوجب الحَذر اتّقاء الضّرر، ويقتضي حسن التحرّي لا الإقدام عليها والتجرّي.

ومن شؤم الذنوب أنها تجعل صورة ابن آدم مشوهة تشويهًا بالغ القبح والشناعة، ويكفي أن الذنوب تظهر على وجوه أصحابها، وتبدو على نعوت أهلها، وتستعلن بصفات وسمات الواقعين فيها والقائمين بها، بيْد أنه لا يعلم ذلك ولا يعرفه إلا من آتاهم الله قوة بصيرة وحُسن فراسة.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ" (رواه أبو داود: ٣٤٦٢).

أما إدمانها والْفها فتلك بلية البلايا؛ لأن الفطام حينها يصعب إلا بتوفيق من الله تعالى وتيسير منه لكل عسير.

والله المسؤول أن يمحو عنا قديم وحديث الأوزار، وأن يُقيل العثْرة منّا والعَثار، وأن يلحقنا بالصالحين من عباده الأخيار، وأن ينزلنا منازل الأبرار.

Upload by: altawhedmag.com

الحلقة الأولى

لنجعلها لكم تذكرةً وتعيها أذنٌ واعيةٌ

إعداد: د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله رافع الدرجات لمن تواضع لجلاله، وفاتح البركات لمن اجتهد في شكر نعمه وأفضاله، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث بالآيات الباهرة والحجج، المنزل عليه قرآن عربيٍّ غير ذي عوج، وعلى آله البررة الهادين وأصحابه الخيرة بناة الملة وحماة الدين، ومن تبعهم إلى يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين، وبعد:

فإذا كنا قد علونا شرفًا، وأسلفنا من الحديث طرفًا عن خطر غشيان المعاصي، وخطورة فشوّ الذنوب، فإننا لم نشبع الكلام عنه، ولم نفصل القول في ذلك، لذا أحببت أن أعمل على مزيد بيانه، وحاولت أن أزيل إشكاله، وأن أضفي على معنى كلامنا إجلاله، وأن أزيد على هذا السياق محبة تهيئ للقارئ إقباله، ولكي أدقق النظر حتى لا يختلط الحابل بالنابل، وبذلك يستبرئ المرء لدينه، ويحتاط لظنه ويقينه، والله المستعان.

والذي دفعني إلى ذلك أنني لما صرفت بصري تلقاء أحوال المسلمين من حولنا وجدت الواحد منهم يقع في الذنوب ويلمُّ بالخطايا وهو يشعر أو لا يشعر، وكأنه حاطبُ ليل يحمل أفعى قد تقتله في حالك السواد، وكثير منهم أصبح لا يكاد يعرف قبيلًا من دبير، وكأنما امتزج الحاثر بالزباد، فتشابهت عليه الأعجاز والصدور، وتشابكت عليه قوادمُ الأمور وحوادث الدهور، حتى وقع في

Upload by: altawhedmag.com

مهواة الحيرة واختلط، ولم يعرف الصواب من الغلط، حتى كاد يغص المرء بالماء ويشرق به فلا يكاد يسيغه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كثرة المعاصي أشد عقاب:

المعاصي هي أشد ما يُبتلى به ابن آدم، وأخطر عقاب يُعاقب به العاصي لأنها تتسبب في قسوة القلب وقد تزيد هذه القسوة حتى يموت القلب، فلا يحس بعقاب ولا يشعر بعقوبة كما قال القائل: وما لجرح بميت إيلام.

قال تعالى: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (الروم: ٤١). ومن نظر حوله وجد المعاصي فينا باتت غاشية، وعاين أن المنكرات أصبحت بيننا فاشية، حتى استعارت نارها، وتأججت نيرانها، وتوقدت شعلها، واستطار لهبها، وبعد أن كانت كبار المعاصي وصغارها ترتكب سرارًا صارت تقع مع الإعلان عنها جهارًا، وتسارع إليها أهلها ليلا ونهارًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

> **المعاصي هي أشد ما يُبتلى به ابن آدم، وأخطر عقاب يُعاقب به العاصي.**

ومن أوضح أسباب هذه الكثرة انتشار الدواعي إلى المعاصي، وازدياد العوارض الباعثة عليها، وفشو الأسباب المحركة تجاهها والمهيجة عليها. وبعد ما كان الناس يرتادون مواطن المعاصي أزمنة بعد أزمنة، ويتمهلون في التنقير عنها والبحث آونة تلو آونة، إذا بالمعاصي تنتشر في بيوتهم، وتغمرهم في حجورهم، وتحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وأصبح الشاب من هؤلاء قد انغمس في الخطايا فصار مسترسل الطبيعة منقادها، وقد بات في تلك البلايا والرزايا من الذنوب مشتعل القريحة وقادها.

ومن تابع دخول الفتيان والشباب وسائر الناس مواقع الفجور، ومن عاين نزولهم مواطن الزور ضرب كفا على كف، وألصق يمينه بشماله من شدة العجب.

جرأة الناس على الذنوب مصيبة فادحة:

وإن المرء ليكون مضطرب الحال، مكدر الخاطر والبال، إذا رأى كثرة الخبث، وشاهد افتعال الناس المعصية، وأبصر حوله اجتهادهم في اختلاق أسباب الخطيئة.

عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها»، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» (رواه البخاري: ٧١٣٥).

فيجب السعي لإطفاء هذه النار ممن كان ذاهبًا وجائيًا، والاجتهاد في النجاة من الهلكة كيفما كان المرء قائمًا وقاعدًا وساعيًا، وأن لا يقر بأحد القرار، ولا يستقر به الحال على أي وجه أو غرار حتى يؤدي تجاه ذلك ما عليه، ويصل إلى طريق النجاة بما أمكن لديه.

طريقة العلاج وتغيير هذا المزاج:

لا تظن مع هذه الظلمة الشديدة التي نعيشها اليوم ويعيشها المسلمون في كل مكان أن المسلمين قد خمل ذكرهم، وأفل نجمهم، بل هنالك مبشرات في الأمة في شدة الظلمة، وهذه على قلتها في زماننا، ومع ندرتها في أيامنا؛ إلا أن الله تعالى يسوقها لتثبيت من شاء من عباده.

علاج يصحح المسار، ويحقق من شرائح الشباب أحسن سلالة وأفضل إنتاج، وهو أن يسلك بهم تلك الطرائق، ويتعلموا الغوص على تلك الحقائق، وبهذا نستطيع معالجة حالنا وتقويم اعوجاجه، وتعليم هذه الأجيال تمييز حلوه من أجاجه، وهذا نذير لكل مطالع، وانباه وتحذير للجيل القادم والطالع.

أولًا: إضاءة المجاهل وشحذ الهمم وتفجير الطاقات:

ومن الواجب علينا قيامًا بحق هذه الملة وخدمة لتلك الأمة، وأيضًا من أجل تغيير هذا الواقع المر والحال المؤلمة التي تعيشها الأجيال المسلمة يجب علينا شحذ الهمة لصعودها عن السفح إلى القمة، والعمل على إضاءة هذه المجاهل.

Upload by: altawhedmag.com

وتفجير الطاقات في الطاعات للاشتغال بها عن سوء تلك الأعمال وما تحتويه من سيء المعامل، وخوض هذا الغمار، والسباحة في ذاك المضمار، مع كوننا حاملين مشاعل النور لتفادي الأمة السقوط في الهاوية أو العثور، وبهذا نسعد أمتنا ونرضي ربنا ونسعد، ولعلنا نقبل عند الله تعالى ونقترب منه ولا نبعد.

فهلم لنقارب الخطا إلى الباب، ونقيل على الأعتاب، وإن لم نصل إلى غايتنا ونحقق أمنيّتنا فلعل الله سبحانه يقيل الله عثرتنا، ويمحو خطيئتنا، ويجنبنا زلتنا وكبوتنا، وهو على ما يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثانيًا: لزوم الجادّة لا سيّما في فجر العُمر:

قال تعالى عن أهل الكهف: « نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » (الكهف: ١٣-١٥)، فهؤلاء فتية كانوا في رغد العيش، لا يكاد ينقصهم شيء من متاع الحياة، ومع ذلك ما أن سمعوا مناديًا ينادي للإيمان، وداعيًا يدعو لترك البهتان والأوثان حتى لبّوا النداء، وتركوا ذاك المتاع وراءهم.

وإنني على يقين يغمر القرائح، ويبهر الألباب القوارح أنه لو أتيح لكثير من الشباب التروي من القرآن العظيم، والتشبع من السُّنة النبويّة لنبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم لتخلفوا عن ركب خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وللزموا الجادّة، واستقاموا على الطريقة، واهتدوا إلى سواء السبيل، غير أنّ آفة المسلمين اليوم، وداءهم القاتل، ومرضهم العُضال أنهم يتساهلون في شأن الشبيبة، ويتهاونون في شأن السنين الأولى من حياة الأبناء والبنات، فمنهم من يزعم

الشباب طليعة وقادة الأمة في دينها وأئمتها في دنياها.

أنه التعلق بآداب الإسلام في صغر السن تضييق عليهم، ومنهم من يدّعي أنّ هذا ليس أوانه لأنهم- فيما يتوهمون- سيتمسكون بالهدى، ومنهم من يظنّ أنّ الدين ليس في التمسك بهذه الشعائر في الصغر شأن وليس دونه بلوغ مأرب بل هو شيء فيه ريب ولجاجة، هكذا يظنون، وهذا ما يزعمون، "وبئس مطية الرجل زعموا" كما ثبت في الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم. رواه أبو داود (٤٩٧٢) عن أبي مسعود البدري، وإسناده صحيح.

وإن تعجبْ فاعجب لامرأة تمشي بين الناس قد غطّت كلّ شيء من بدنها، ولم يبد منها إلا نقب عينيها، وإذا بها تصطحب معها ابنتها وهي كاسية عارية، أو شبه عارية، فقل لي بربك: أين المنهج عند هؤلاء الأقوام، وأيّ دين قد فهموا، وأيّ شرع قد عقلوا؟

ولو أن المسلمين تركوا هذه المفاهيم الضالة، وتخلوا عن تلك الأفكار المقيدة للصلاح والغالة، وهجروا الأعمال المانعة من الهداية، واشتغلوا بإصلاح أنفسهم في أمر الديانة؛ لجمع الشبابُ الصلاح والتقوى، ولاكتسبوا معارف الإيمان، ولعرفوا طرق الهداية من أوّل الطريق، ولسلموا من الولوج في طرائق البيداء، ولنجوا من التيه في مفازة الشهوات والتطوّح، ولأمنوا من الضعف الذي أدرك أفهامهم وغيّر أفكارهم والترنح.

إنّ لزامًا على هؤلاء الأقوام أن يعلموا أن هؤلاء الطليعة قادة الأمة في دينها، وأئمتها في دنياها، وهم مصابيح ظلمتها، وأساس قوتها، وأصل عُدتها، وسرّ قوتها وشوكتها، كما أنهم قاطعو من طريقها شوكها، وحاصدو عوسجها وقتادها، ومن عرف ذلك لم يبغ بإصلاح الشباب بدلًا، ولم يصرف همته إلا إليهم علمًا وعملًا، ولم يبغ عن هدايتهم حولًا.

وللحديث بقية إن شاء الله.

Upload by: altawhedmag.com

عُرَى الإيمان بين الشِّدَّة والرَّخَاوة في رمضان

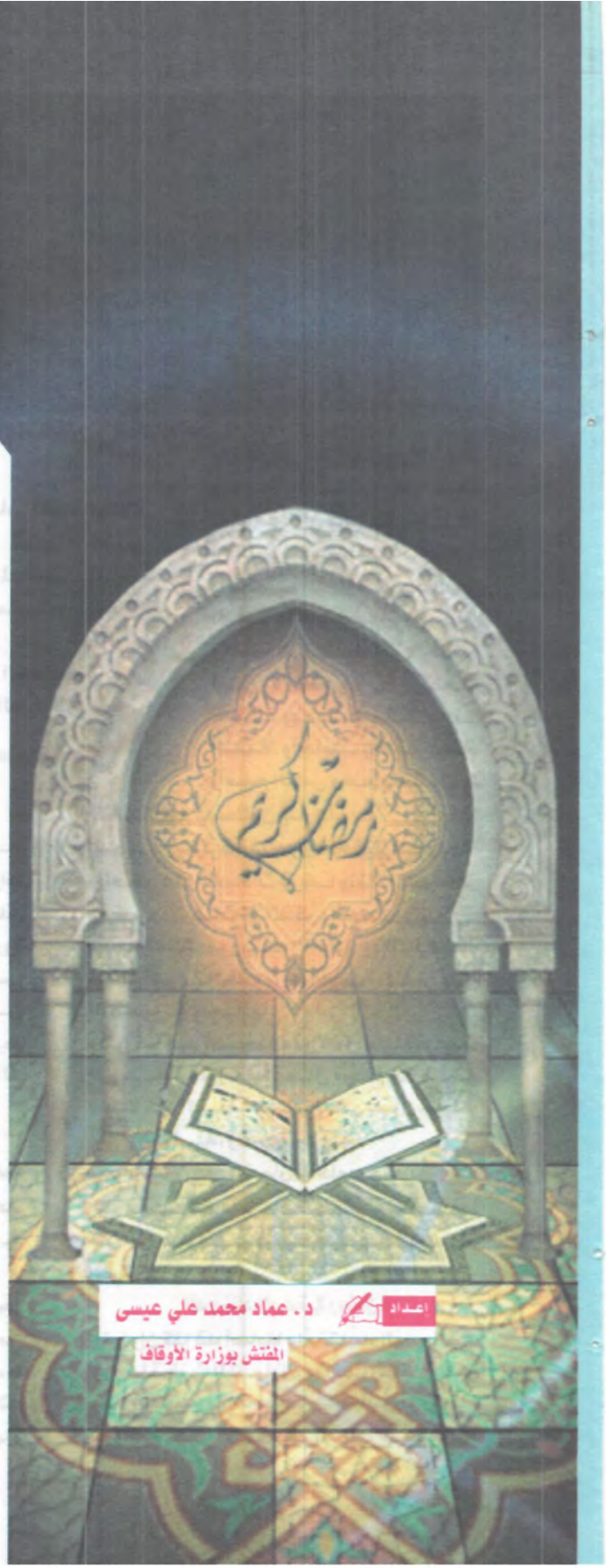

إعداد د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: فواجبُ من يتصدّى لبلوغ الغاية ويسمُو إلى النهاية: القيام بحقّ شهر رمضان، وتوفيته العبادةَ اللائقةَ به أمرٌ أتْعب من تصدّى لغايته، وعنى من سما إلى نهايته، وقد أقرّ بذلك أكثر العُبّاد، واعترف به غالبُ المجتهدين من العبّاد، فكلُّهم معترفٌ بالتّقصير لا يكادُ يخرج عن ذلك جادٌّ ولا لاعب، ولا مُتشبّع ولا ساغب (أي: جائع).

Upload by: altawhedmag.com

وإذا كنّا نريد أن نضع الحقّ في نصابه، وأن نجعله في موضع صوابه، فلا بُدّ أن نعلم أن النقص قد أصبح في الناس فاشيًا، والعجز قد بات لهم شاملاً، إلا قلّة نادرة كدراري النجوم، قد أمدّهم الله بمدده وهو الحيّ القيوم؛ لكيلا يحلّ بالناس العذاب، ولئلا ينزل بأهل الأرض العقاب.

> في رمضان أكثر الصلاة، وأدمن تلاوة القرآن، واجعل المصحف في راحة يدك كما يكون الهاتف، واحرص على الفرائض الحرص الشديد، وزِدْ من النوافل العدد المزيد.

مواسم مضاعفة الأجور والأخذ بعزائم الأمور:

لكن من رحمة الله بعباده أن جعل لهم مواسم للأخذ بعزائم الأمور، والعمل لمضاعفة الثواب وزيادة الأجور، وشهر رمضان هو أعظمُ هذه الأيام في تجديد حبال الصلة بالله وشدّ عروة الإيمان بين العبد ومولاه، ومراجعة النفس وتصفية الحسابات، وتنقية الأعمال من الشائبات، فهمَّ بالخير فإنّ الهمّة من المروءة واحرص على السلامة قبل الندامة، وإياك وتلفيق الأعذار، أو تحسين فارط الخطأ.

تراخي عُرى الإيمان:

لقد تراختْ العُرى الشادّة للإيمان يوم تراختْ حبالُ العبادة في حياة المسلمين، فصار الواحد منهم مبخوسَ الحقّ منها، ناقصَ الحظّ في تحصيلها.

ومن فتّش في نفسه وجدَ هذا المعنى واضحًا باديًا لكل ناظر، فإن البيوت اليوم قد خلتْ من العبادة إلا النادر القليل والنزرُ اليسير، فبدءًا بطلبة العلم، ثم مرورًا بحملة القرآن، ثم تعريجًا على الدُّعاة إلى الله تعالى، ثم انتهاء بالمتديّنين ومن يُظهرون النُّسك وإقامة الشعائر، كل هذه الطوائف وإن كانت على خير إلا أنّ التفريط في الوفاء بالعبادة، والتقصير في الأخذ بحظ من التعبد ظاهر للعيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، لهذا لا تعجب إذا ارتفعت البركة وذهبت النّعمة، وحلّت النقمة، وأحاطت بالأمّة الغُمّة، وأصبح الناس وهم يتقلبون في النّعم كأنهم يصطلون بنارها.

فلا بُدّ من شدّ هذه العُرى لتحقيق العُبودية، والعضّ على العبادات فرضًا ونفلاً بالنواجذ، وقضاء الأوقات في الذكر والدعاء والتلاوة، ومحاولة الشعور بتلك النّداوة، وذلك بالبكاء أو التباكي في الخلوة، ومحاسبة النفس على التقصير في واجباتها.

ولئن كنّا قد أصبحْنا على حال عليلة، وعُدْنا إلى عبادة قليلة، وأعمال مَحْدودة ضئيلة فلقد كان السلف الصالح على حال جليلة، وأعمال فضيلة، وعبادة جزيلة.

وسرُّ ذلك أنّ قوة الإيمان في قلوبهم لم تضعُف، وعزيمتهم لم تلنْ، وهمتهم لم تتلفْ، وربما كان الواحد منهم كل يوم في زيادة من حظ العبادة.

أقدح زناد العبادة في رمضان:

إنّنا وإن كنا قد أصابنا داءُ تقاعُد الهمم الذي أورثنا تخنُّث الشّمائل، وتأنُّث الطِّباع الذي حال بيننا وبين تحقيق الفضائل، وارتخاء العزائم التي لا تعرف إلا الهزائم، إلا أن

Upload by: altawhedmag.com

رمضان لو أحسنَّا فيه العمل لأزحنا عن هممنا هذه العلل، ورفعنا ذاك الخَلل، وتجنبنا هذا الزلل.

فاقدح زناد العبادة في رمضان يُنبيك عن حقيقة الأمر شرره، وتكفى ضرره.

واحتسب أيام رمضان ولياليه خاتمة عُمرك ونهايته، فإن ذلك سيكون لك دافعًا، ولأحوالك مع الله رافعًا، وحينها تجتهد في رفع همّتك، وتسعى للوفاء بما في ذمّتك.

فأكثر الصلاة، وأدمن تلاوة القرآن، واجعل المصحف في راحة يدك كما يكون الهاتف، واحرص على الفرائض الحرص الشديد، وزِدْ من النوافل العدد المزيد.

عن معدان بن أبي طلحة اليعمري، قال: لقيتُ ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: أخبرني بعمل أعمله يُدخلني الله به الجنة؟ أو قال قلتُ: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت. ثم سألتُه فسكت. ثم سألتُه الثالثة فقال: سألتُ عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة». قال معدان: ثم لقيتُ أبا الدرداء فسألتُه فقال لي: مثل ما قال لي: ثوبان. (رواه مسلم: ٤٨٨).

> فمن تهاون في رمضان فقد سفه نفسه وترك من النجاة سبيلًا، وفرط في نصيبه من الخير، وغادر موضع حظه ولحقه الضرر والضير.

لا يتهاون في رمضان إلا من سفه نفسه:

مُهلة رمضان نقلة للمؤمن في إيمانه بربه، وفرصة قليلة في توثيق العلاقة بالله وتجويد الصلة به، فمن تهاون فيها فقد سفه نفسه وترك من النجاة سبلًا ذللًا، وفرط في نصيبه من الخير، وغادر موضع حظه ولحقه الضرر والضير.

عن مالك بن الحويرث، قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر، فلما رقي عتبة، قال: «آمين» ثم رقي عتبة أخرى، فقال: «آمين» ثم رقي عتبة ثالثة، فقال: «آمين» ثم، قال: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد، من أدرك رمضان فلم يُغفر له، فأبعده الله، قلت: آمين، قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما، فدخل النار، فأبعده الله، قلت: آمين، فقال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين». (صحيح ابن حبان ٤٠٩).

جاهد الطبائع وخالف الهوى:

فلا تجعل أمرك فرطا، واعلم أن أصعب الأشياء مكابدة الطبائع ومغالبة الأهواء ومدافعة النوازع فإن هذه الأهواء والطبائع هي الدافعة إلى الشر والداعية إلى الضر، ولم تزل الدولة للهوى على طول الدهر إلا من هدى الله، وقليل ما هم.

إن سلطان الهوى يستعبد الأرواح ويأسر القلوب والأجساد حتى لا يبقى لصاحبها معه اختيار ولا مراد.

فمن أراد فك القيد وحل الوثاق من الأيد؛ فليخرج من طاعة هواه إلى طاعة مولاه، وليؤثر محبة الله على من سواه.

ولا تظنن بنفسك قط خيرًا
وكيف بظالم جانٍ جهولِ
وقل يا نفس مأوى كل سوء
أيرجى الخير من ميت بخيل
وظن بنفسك السوأى تجدها
كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقى فيها وخير
فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها ولا منها ولكن
من الرحمن فاشكر للدليل

فزن بالشرع أعمالك وأحوالك فهو أصح ميزان، واستمسك بالسنة فإنها أوضح برهان، وحينذاك ينجلي عنك ما تغشى من الظلام، ويزول ما يحول بينك وبين غاية المرام.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

يومُ الفِطْرِ يومُ الجَوائِزِ

إعداد
د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله حمدًا يبلغ رضاه، وصلى الله على أشرف من اجتباه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واقتدى به وتبع هُداه، واقتفى أثره ومَشَاه، وسلَّم تسليمًا لا يدرك منتهاه، وبَعْدُ. فهذا مقال أطفئ به لهبًا قد تضرَّمتْ نفسي به نارًا، واحتشى صدري منه أوارًا، ولعلي أشفي به غليلاً، وأداوي به عليلاً؛ لأنه بعد مُضيّ رمضان يُصبح النسيم سمومًا، ويحول نصيب المرء من الدنيا هُمومًا وغمومًا، إذْ بانصرامه يقلّ الخيْر ويكثُر الشرّ. ولئن كان الزمانُ لا يدومُ على منهاج، ولا يستمرّ على سياج، فتلك سُنّة الله في خلقه، إذْ دوامُ الحال من المُحال، لذا فإنّنا لا بُدّ أن نُكمل السّير على دَرْب رمضان، ونأخذ بطريق النّجاة والسّعادة، وأن نبلغ أجلنا الذي قدّره الله لنا من ذلك بلا نُقصان ولا زيادة، وأنْ نُحاول أنْ نُحقّق تلك الغاية بقوّة العزيمة والإرادة. هذا، مع الإيمان بأنّ الأمور كلّها بيد الله فلا يستنتج أحدٌ إلا به، ولا يُستنجز الخيْرُ إلا منه، ولا يُستدفع الشرُّ إلا به، فاستعنْ بالله، وتعلّقْ بجنابه، واستمسك بحبله، وقفْ على أعتاب بابه، ومهما طال الوقوف سيُفتح لك يومًا.

رمضان صفقة رابحة ووجهة ناجحة:

مَنْ لاحظ همم القوم من السلف الصالح لَمْ يلتفت إلى أهْل زماننا، بل استَزْرى ما النّاس فيه، واحتقر ما هم عليْه لما يرى من جَمْعهم القبائح إلى الفضائح، واستقل الدُّنيا ولم يَعْبأ بمتاعها الزائل بالة، ذلك أنّ مَنْ قرأ سيرهم، وطالع أخبارهم؛ وجد أنهم كانوا يضبطون خلجات نفوسهم، ويعُدّون نبضات قلوبهم، ويُراعُون خواطر عُقولهم، ولقد كان لأسلافنا جولات صادقة، ومواقف مشرقة، وكلمات نيّرة، لا يزال صداها يدوي في المسامع، ويروي قسْوة القلوب بماء الخشية ووابل الإنابة وسُقيا الخُشوع حتى تلين وتجري الدموع في المدامع. وحال السلف الصالح في اتخاذ رمضان صفقة رابحة ووجهة مفلحة ناجحة حال يدوم ولا يزول، ويثبُت ولا يتردّد، فلا يحيك فيه مرُّ الليالي لأنهم ما نالوا هذه المنزلة من فراغ، ولا بمشي الهُوينى، بل جاهدُوا أنفسهم في الله أشدّ المجاهدة حتى لانتْ لهُم مصاعبُها، وزالت متاعبُها، وما ناله المرء عسيرًا لم يفقده يسيرًا، وقد تحقق فيهم قول الله تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (التوبة: ١٠٠).

رحيل رمضان

فقدُ الأحبّة مصابٌ لا يشعُر به إلا من كان مُحبًّا صافيَ المحبّة، صادقَ الوُدّ، مُخلص المودّة، وإنّ المؤمن ليهمُه ذهابُ رمضان ويحزنُه مرورُه متعجّلاً حتى يكاد يشعر بالغصّة التي لا تساغ.
وهذا المضيّ السّريع شأن أيّ سباق وعادة أي تنافس،

Upload by: altawhedmag.com

وقته محدود، وزمانه مجدود، وأشدُّ المُصاب أن يمضي رمضان وينسلخ زمانه ولم تغفر ذنوب العبد لأنَّ رمضان كالبحر الأجاج العجاج، والماء الثجاج، والسَّيل الهائج المائج فمن لا يطهر فيه من الذنوب فمتى يطهر. عن أبي هريرة، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم صعد المنبر، فقال: «آمين آمين آمين» قيل: يا رسول الله، إنك حين صعدت المنبر قلت: آمين آمين آمين. قال: «إن جبريل أتاني، فقال: من أدرك شهر رمضان ولم يُغفر له فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما، فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين» (رواه ابن حبان: ٩٠٧).

الجوائز عقب انقضاء رمضان:

انقضى رمضان الذي طالما طارت له القلوب السليمة اشتياقًا، وذابت في طلبه الأنفس احتراقًا، وأعلن التائبون فيه ندمهم بالصياح، وترقبوا قدومه وتهافتوا عليه تهافت الفراش على المصباح، وبعد انقضاء رمضان وعند دخول أول ليلة من ليالي عيد الفطر توزع جوائز الفائزين، وتمنح منح العاملين، وتعلن نهاية السباق لينقسم الناس إلى فريقين: مرحوم بما قدم من عمل وجد واجتهاد العباد، ومحروم بما أهمل وفرط فحرم فضل ربِّ العباد، فمع من تكون، وإلى مصير تصير؟ قف وتأمل واستحضر الجواب.

علامات الفوز بالجائزة:

وللفوز بجائزة رمضان علامات منها: دوام العامل على ما كان من عمل، وثباته على حاله مع ربه، وحرصه على ما حقق من أعمال وأحوال إيمانية، لأنَّ المؤمن لا يعبد ربه في المواسم بل يعبد ربه حتى يموت، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٨-٩٩).

نعم، إنه يجتهد في مواسم الطاعات كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عباس، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة» (رواه البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله» رواه البخاري (٢٠٢٤) ومسلم (١١٧٤).

ولذا كان من السلف الصالح من يعتكف ليلة العيد في المسجد ولا يخرج إلا إلى صلاة العيد، ومنهم من كان يخرج في يوم العيد فتقول له زوجته كم رأيت من امرأة اليوم؟ فيقول: والله ما نظرت إلا في إبهامي، وهنا أقول: ليس فوق هذا للمفاخر مفتخر.

علامات حرمان الجائزة:

إذا أردت أن ترى علامات الحرمان، وخسارة الجوائز، وفوات المنح الرمضانية فانظر إلى حال الناس يوم العيد، وارتقب أحوالهم واصطبر، فستجد المجاهرة بالمعاصي والوقوع في المنكرات والتلبس بالعصيان وفشو المناكير وانتشار التبرج، وكأن رمضان كان كالمحبس لهم فلما خرجوا من حبسه انطلقوا في المعاصي يسبحون في بحارها ويسيحون في طرقها، وقد كان السلف الصالح يقول قائلهم عن يوم العيد: هذا يوم غض البصر، وثان تسأله زوجته: كم امرأة رأيت اليوم؟ فيقول: والله ما رأيت امرأة.

لا بُدَّ لكلِّ مطلوب من مدخل إليه:

أيُّ شيء يطلبه المرء لا بُدَّ أن يطلب له مدخلاً إليه، وسببًا يتوصل به نحوه، ومن أراد أن يبقى على حاله في رمضان وأن يدوم عليه طول العام فلا بُدَّ أن يبذر لذلك بذور الإصلاح، وأن يتعهد هذا النَّبت الطيب، وأن يسقيه بماء الوحي الطاهر حتى يشتدَّ عوده، وتخضرَّ تهامه ونجوده، ثم يشمر عن ساعد الجد وساق الاجتهاد، فإذا هبَّت عليك نسمات الإيمان، وملك العمل الصالح قلبك وصال في ساحته وجال، انقشعت سحب الوساوس الكاسدة، وأدبر ليل الخواطر الفاسدة، وأقبلت العزائم تنتصر بلا هزائم، وشمَّ المرءُ نسيم الإخلاص، وعبير الصدق، واستوحش من الدنيا وما فيها، وأوقف حياته على طلب الجنة وحبس أوقاته على مرضاة ربه.

فهذا رمضان قد هيأ لك الطريق، ومهد السبيل، وفتح لك الباب، ورفع عنك الحجاب، فاجعل منه مبدأ، وليكن لك ملجأ، واتخذه مدرجًا، والزمه معرجًا، وعُدَّه وسيلة إلى كل فضيلة.

Upload by: altawhedmag.com

فلسطين ترفعُ الرُّؤوس في حربِ البَسُوس

إعداد
د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

حربُ البَسُوس:

فحرب البَسُوس: هي الحَرْبُ المَشْهورةُ بَيْنَ بَكْرٍ وتَغْلِب، وسبب اشتعالها ناقةُ رَماها كُلَيب بْنُ وائل فقتلها. (النهاية لابن الأثير: ١/١٢٧). وإنما اخترت تسمية هذه الحرب بلفظ "البَسُوس" لأنه من "البَسّ": وهو الدَّسُّ، وهذا هو عمل اليهود منذ خُلقوا لأنهم يدسُّون الفتن، ويبعثون رُفاتها كل حين، ومن ذلك أيضًا "البَسْبَسة": وهي السِّعاية بين الناس للإفساد بينهم، وقد وصف الله اليهود فقال: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤).

فلسطين أرض البطولة والفداء:

إنَّ فلسطين-حرسها الله- غُرّة جبيننا وشامةُ زماننا - وهي من أرض الفداء والبُطولة- التي فيها مسرى نبيِّنا الأمين، والمسجد الأقصى الذي نسأل الله أن يرفع عنه الأنين، وأن يُقرّ أعيُنَنا بنصره المؤزر وفتحه المبين، ورفع راية عزه المكين.

Upload by: altawhedmag.com

وقد خاضت جارتنا الحبيبة، هذه الحرب الأخيرة مع اليهود مُكرهة لا مُختارة، إذ إن العدوَ قد بدأ بالعُدوان كعادته فاعتدى في القُدس على المصلين، وهدم بيوت الآمنين، وأخرجوهم من بيوتهم مُجردين من كل يملكون ومشردين، وكان من آخر هذه الجراح إخراج المسلمين من حيّ الشيخ جراح، فكان لا بدّ من هبّة لإخواننا المستضعفين في فلسطين. وقد صار نصرهم حديثًا للسمار، مقالاً جاريًا بين نقلة الأخبار، حتى تهودي ذكره في الأقطار، وبلغ أمره ما بلغ الليل والنهار، ومع أنهم عُزّل من السلاح إلا أنهم كانوا حُماة صدق، وكماة -شُجعان- حق، ولو كره المجرمون.

طلع السبع من غابه كاشرا عن أنيابه:

بطرف قد مُلئ صلفًا، وأنف قد حُشي أنفًا خرج يهود الغدر على المصلين المسالمين في المسجد الأقصى يدعُونهم عنه دعًا، ويطردُونهم منه طردًا، ظانين أن الأمر سيمُرّ مرور الكرام، فانعكس عمل اليهود عليهم حتى صار ظلمهم عناءً، وبغيهم وباءً، ثم لما أرادوا هدم غزة وإحراق بيوتها بمدافعهم خرجت أسود غزة من غابها، منتفخة في إهابها، كاشرة عن أنيابها، فألبسوا اليهود لباس الخوف، وكسوهم كساء الرُعب، وشعرت يهود أن الخطب مُلم، وأن الحادث مُهم، حتى رجعوا خاسئين، وعاد أمرهم هباءً، وحريهم المسلمين عليهم بلاءً، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الاستعانة بالله مفتاح النصر:

قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

لقد رأينا هؤلاء الأبطال وهم يقدمون التضحيات ويدفعون الثمن أرواحًا من الشهداء حتى بلغوا مآربهم النفيس، وأرغموا أنوف عدوهم البئيس، وكانوا خير الفرسان، وأفضل الراكضين في الميدان، وأجبروا العالم كله على الاحترام لهم والإذعان، بما تحملوا من المشقة والنصب، وحققوا جهاد الدفع، فلم يُؤثروا البطالة والدعة، ولم يستلذوا الراحة والسعة، بل تعلقوا بالله رجالاً ونساءً، كبارًا وصغارًا حتى رأينا الشيوخ والشباب والنساء والأطفال يقرؤون القرآن زمان القصف، ويذكرون الله ويكبرونه ويحمدونه أوان العصف، لأن القوم احتسبوا أنفسهم لله، وباعوها رخيصة من أجل المسجد الأقصى، فجزاهم الله عن الإسلام وأهله خيرًا، ومن عرف للإسلام حقه، وحفظ للدين حظه، وعظم حرمته، وأعلى حجته، عظم هؤلاء المرابطين، ورفع شأن أولئك المجاهدين، وأظهر حجتهم، وأبان فضيلتهم.

صمود غزة في حلوق اليهود غصة:

إن الأمور كلها بيد الله كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ ﴾ (آل عمران: ١٥٤)؛ فلا يُستنجز الخير إلا منه، ولا يُستدفع الشر إلا به، ولقد وفق الله وأعان وسدد خطا المرابطين ممن تعلق به واستعان، ودفع الله البأس عنهم لما صاروا كمرصوص البنيان، ودحر جيش الباطل لما وكلوا أمر عدوهم إليه، وعرف صدقهم وتوكلهم عليه، ولقد ضربوا مثلاً شرودًا في الثبات، وحققوا نوعًا فريدًا من الفدائية، وحازوا منقبة بكرًا في الصمود، فلم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا، وتحقق فيهم قوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٧).

وروى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون". ومن لاحظ همم وشجاعة القوم، وقرأ جهادهم؛ استزرى ما هو فيه واحتقره، ولم يبال به بالة، فقد كان أهل غزة كأنهم نجوم الليل، أو أحلاس ظهور الخيل، يفرون أسنمة النجاد، بتلك الجياد، وكأنهم ربطوا الأفراس بالأمراس (أي: الجبال)، ولم يميلوا مع من مال إلى الدعة والنعاس.

جزى الله أهل فلسطين عن الأقصى وفلسطين خيرا:

أهل فلسطين في رباط إلى أن تقوم الساعة،

Upload by: altawhedmag.com

وهم يواجهون عدوًا لئيمًا، شرس الخُلق، صعب الشكيمة، مدجّجًا بالسلاح، كامل العُدة والعتاد، غير أن الله قد وهب المقادسة صفات يغلبون بها اليهود، ويرهبون بها عدوّ الله وعدوهم.

حدِّث عن البحر ولا حرج:

ليس الخبر كالخبر، وفي الحديث: "ليس الخبر كالمعاينة" لقد رأينا أهل مصر يجودون بالمال والمؤن والدواء والغذاء تطوعًا وتبرعًا لإخوانهم المستضعفين، وهو واجبٌ من واجبات الأخوة في الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠)، بل إن قلوب أهل مصر طارت لغزة اشتياقًا، وذابت أنفسهم خوفًا عليها واحتراقًا، حتى علا الضجيج، واشتدّ الشهيق والنشيج، وغلب على بعض المسلمين النواح والصياح، خشية كثرة القتل في المسلمين وفشو الجراح، ولا عجب فمصر مرآة فلسطين، وفي الحديث عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه». (رواه أبو داود: ٤٩١٨).

ستبقى مصر شامخة رائدة قائدة وإن رغمت أنوف:

إن من الإنصاف أن نباهي بموقف مصر، ونفخر بوقفتها مع أبناء غزة العصية على الهزيمة، ونعتز بقيامها المقام المحمود مع أهل فلسطين في هذه الحرب الأخيرة، غير أن من الناس من يعمل على تقزيم شأن مصر، وتقليل قيمتها، وإلغاء دورها في حماية الأمة من أعدائها، وهذا نأيٌ عن الصواب، وردٌ للحق، وبُعدٌ عن الجادة، وإنكارٌ لنور الشمس في ضحاها، وقد أظهر وقوف مصر بجانب غزة الأبية تناقضًا وفسادًا لدى الجاحدين لدور مصر المحروسة في التمسك بالمسجد الأقصى القبلة الأولى للمسلمين، ونصرة أهلنا في فلسطين ميدان الجهاد والعزة.

غير أن اعتراف أهل غزة بدور مصر حسم مادة الخلاف، وقطع شغب الشاغبين، وقمع تشكيك المشككين.

دعوات المسلمين قذفت في قلوب اليهود الرعب:

الدعاء سلاح ماض في النصر على الأعداء، به تفتح أبواب النصر وينزل الله بأسه بالمعتدين، وإذا ضمرت المزاد ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد، كان الدعاء مخرجًا تنجلي به الأحزان، ويرتدع أهل العدوان، فشد عليه شد الضنين، وأمسك به إمساك البخيل. ومن فضل الله على أهلنا في فلسطين أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يجتهدون في الدعاء بالنصر على اليهود، وكان من سالف تقدير الله تعالى أن تدور رحى هذه الحرب على غزة في العشر الأواخر من رمضان، وهي من أفضل أيام وليالي الدنيا بإطلاق، تكون فيها النفوس طاهرة، والقلوب نقية، والصلة بالله قوية، والبصيرة صافية، فكم عاجز أو كسول نشط، وكم بخيل جاد، وغليظ الطبع لان، وكم منصرف عن الدعاء مشغول عنه أقبل وتضرع، فدعوات المسلمين لا سيما الضعفاء الذين لا يملكون سوى الدعاء كالسيف البتار، والحسام المهند.

قال الإمام البخاري: باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

وقال ابن عباس: أخبرني أبو سفيان، "قال لي قيصر سألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فزعمت ضعفاءهم وهم أتباع الرسل".

عن مصعب بن سعد، قال: رأى سعدٌ رضي الله عنه، أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل تُنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» (رواه البخاري: ٢٨٩٦).

وبدعوات المسلمين، مع عمل المرابطين، جاءت بشائر النصر تلوح في الأفق بعد ما كانت تحجبها غيابات الضعف والانهزام، وهبت نسمات النصر وصال الحق صولته، وجال جولته، وانقشعت سحائب الهزائم، وأقبلت لوائح الانتصار والعزائم، وبعد ما ظنّ الناس أنه قد أفلت الزمام، وضاع الخطام، رفع المسلمون رايات النصر، وتقدموا بعد القهقرى أشواطًا إلى الأمام، وربما دار الفلك دورته فوصل المسلمون من أسباب مجدهم وعزهم ما انقطع.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه
وما تدري بما فعل الدعاء
سهام الليل لا تخطئ ولكن
لها أمدٌ وللأمد انقضاء

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

خُطُورة الغِياب عن إِصلاح الشَّباب

د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، واهتدى بهداه، وبعد:

فهذه مقالاتٌ أسوقها بطبعٍ مُنقاد، وسياقٍ مُعتاد، أستصحبُ فيها إظهارَ الحُجة، وإيضاحَ المحجة، جمعتُ فيها العبارةَ الرائقة مع الإشارة الفائقة، كي تروحَ الخاطرَ المتعوب، وتنفي وتطرُدَ الهمَّ المجلوب، وأرجو أنْ يكونَ المعنى فيها كافيًا، ولغرضِ المتأمل شافيًا، وجعلتُ فيها تذكيرًا بالنعم، وإنذارًا بالنقم، كيْ تهذبَ القرائح، وترهب من القبائح، ولأجل أنْ يستفيدَ المقتصد منها التدبُّر وحُسنَ التدبير، ويُفيد المقصر الإعذارَ والإنذارَ والتحذير، وقد كتبته بحكم الحاجة والاضطرار لا بحكم الترفه والاختيار، ولعل الله تعالى يمُنّ علينا فيكون من منتقى الأخيار، وخيار الخيار، المبلغ إلى دار القرار، ونزول منازل الأبرار، وأرجو أن يعلم أهل الدراية قدْره، وأن يوفيه أهل التربية حقه، حتى نصل بشبابنا إلى صلاح نفوسهم واصلاح غيرهم على أيديهم وبهم، والله المستعان وعليه التكلان.

ولقد جال- قبيل كتابة المقال- بخاطري حالُ شبابنا، وطاف بذهني أمرُ شبيبتنا وأبنائنا؛ حتى اختمر واستقرَ فيه؛ إذ رأيتهم قد قال من شاء منهم ما شاء، وخبطوا خبْطَ عشواء، وركبوا متن عمياء، مع أنَّ فرصة الشباب فرصةٌ لا عوض منها، وغنيمةٌ لا عدل لها، بيْدَ أنه صدق النبيُّ صلى الله عليه وسلم حين قال: "نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ". رواه البخاري (٦٤١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الشاعر:

آلة العيش صحة وشباب
فإذا ولّيا عن المرء ولّى

خطورة قضية الشباب:

فترة الشباب فترة الخصوبة في الخير والشر، وأيام الفتوة والقوة، وشعلة الحماس

Upload by: altawhedmag.com

عند أكثر الناس، وأزمنة الجِد والنشاط بلا لبس ولا اختلاط، وقلما ترى مكرمة في بني آدم إلا ومصيرها إليها، ونادرًا ما تجد منقبة إلا وهي مقصورة عليها، فمرحلة الشباب مرحلة خطيرة في كل أمة، وادراجها موضع الاهتمام نقطة تحول في تواريخ الأمم، ومن أهم الأسباب المنجية من تقوض بنيان الأمة، والمانعة من نزول الملمة، محاولة إنقاذ الشباب، والأخذ بأيديهم إلى الله تعالى، وتربيتهم على محبة الدين والتفاني في خدمته، والسهر من أجل رفع رايته.

السؤال عن نعمة الشباب:

نعمة الشباب من النعم الغالية التي تلقى إلى صاحبها الأقاليد، حتى يحقق المجد التليد والتي تمر كطيف الخيال وتأتي بقدر، وكثير من الناس يغفل عنها فالعاقل من سبق إلى نيل المعالي وتحقيق الأماني وابتدر، فيجتهد ويجد والناس نيام، ويستقي من ماء الشباب ويردُه قبل نزول الحمام، وفي أزمنة الشباب يتقدم المرء ويحقق ما صعب وأشكل، ويقدم على ما يحجم عنه غيره وينكل.

يكون عنها السؤال والجواب، ويقع عليها الجزاء والحساب، وقد جاء السؤال عن العمر في حديثين:

الأول: عن أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عُمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». رواه الترمذي(٢٤١٧) وقال: حسن صحيح. اهـ.

الثاني: عن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم» رواه الترمذي: (٢٤١٦) وقال: حديث غريب. اهـ.

ففي الحديثين جاءت العبارة التي فيها السؤال عن العمر كله وذلك في قوله: "عن عُمره فيم أفناه"، ثم جاء السؤال عن مدة الشباب في الحديث الثاني "وعن شبابه فيم أبلاه".

وهنا سر بلاغي من بلاغة كلام صاحب النبوة صلى الله عليه وسلم؛ فإن كلمة "أبلاه" وإن كان فيها معنى الامتحان إلا أنها تستعمل في الخير.

قال القتيبي: يقال من الخير أبليته أبليه إبلاء. ومن الشر بلوته أبلوه بلاء. والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معا من غير فرق بين فعليهما. ومنه قوله تعالى «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» وإنما مشى قيصر شكرا لاندفاع فارس عنه.

ومنه الحديث «من أبلى فذكر فقد شكر» الإبلاء: الإنعام والإحسان، يقال بلوت الرجل وأبليت عنده بلاء حسنا. والابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان. يقال بلوته وأبليته وابتليته.

Upload by: altawhedmag.com

ومنه حديث كعب بن مالك «ما علمت أحدًا أبلاه الله أحسن مما أبلاني» اهـ النهاية: ١/١٥٥.

هذه نعمة الشباب التي ألحفت صاحبها رداءها، وسقته صافيها وأنداءها.

حق الشباب علينا:

من حق هؤلاء الشباب على الدعاة والعلماء الدندنة بقضية إصلاحهم، والحيلولة بينهم وبين هدم ركن الشباب منهم، وعناية أهل العلم بهذه الطائفة التي هي سلاح الأمة ودرعها في المهمات، واهتمام المصلحين بهذا الصدد اهتمامًا يؤدون به واجب الكفاية الذي صار فرضًا لازمًا، وواجبًا عينيًا في زماننا. ولعله يرفع عنهم الحرج في أيامنا، وينفي عنهم الإثم والجناح في قادم أزماننا، وباقي عهدنا، وقابل أيامنا. لأن هذه الفئة يغرر بها كثيرًا، فهم لا يميزون كما يميز الشيوخ والكبار، الذين هم أشجار الوقار، ومعادن الاختبار، وصدق القائل:

إن الأمور إذا الأحداث دبرها
دون الشيوخ ترى في سيرها الخللا

وقديمًا قالوا: رأي الشيخ الكبير خيرٌ من مشهد الغلام الصغير، وهذا حق فإن كبير السن قد عاش الأزمنة، وخالط الناس في الأودية، وعرف تاريخ وأيام الناس فهم كمن عاش الدهر وجرب الأمور بأسرها، وأيضًا فإن أكثر الشباب تستخفهم الأحداث، وتستهويهم الوقائع وإن ذهبت بهم إلى الأجداث (أي: القبور) فإذا سمعوا قولًا خلابًا، وأسلوبًا براقًا، ولو كان يحمل في طياته فكرة زائفة، وقولة عن الحق متجانفة، ودعوة هوجاء؛ قبلوها واحتملوها، ودعوا إليها وأذاعوها، وبثوها في كل مكان ونشروها.

إن اشتغال أهل العلم بإصلاح حال الشباب مسلك صحيح لأنه يأتي البيوت من أبوابها، ويرد الأمور إلى صوابها، ويرجع بالأشياء إلى أربابها، وليعلم أن سكوت المصلحين من الطوائف المذكورة سالفًا عن إنكار المنكر زيادة في تلك الورطة، وافحاش في هذه الغلطة، فلا تكن مصدودًا عن الإصلاح قدر استطاعتك، ولا مكدودًا عن الجد فيه قد مكنتك، وإذا رأيت من يسعى في الإصلاح ويرنو إلى المعالي، فلا تتأخر عنهم ولا تكن المرء المتكاسل أو الرجل المتواني، بل إما أن تطير معهم بجناحين أو تسعى بجناح، أو تعمل على إكمال قوة أو مساعدة رياح.

حال الشباب في هذا الزمان:

زمن الشباب هو وقت الزيادة، وأيام السعادة، ومعدن الإفادة، وينبوع المعرفة، فيه تتحقق المقاصد، وتجتمع الشوارد، ويصل المرء إلى المراتب الرفيعة، ويحقق بالعناية به الأمور الصعبة المنيعة، إذ الهمة فتية، والروح وثابة عليّة، وبالشباب يصل المرء إلى ما يريد من الأغراض، ويوفق إذا صدقت النية إلى بلوغ الأغراض، والأبدان سليمة- بحفظ الله تعالى- من الأمراض.

ومن عاصر ما تقدم من العصور، وباشر تلك الأحداث القديمة، وهذه الأحوال السليمة؛ علم أنه قد تغير جيل الشباب في أيامنا وزماننا الحالي، وتحولت الأجيال عما كانت

Upload by: altawhedmag.com

عليه في الزمن الخالي، فبعدما كان الشباب في الأجيال الأولى كالطود الشامخ ديانة وفطرة، أصبح الواحد منهم اليوم كريشة تفيؤها الريح يمينًا وشمالًا، وتتقلب بها الأيام حالًا فحالًا، إن حال كثير من شبابنا قد عاد شيئًا فريًا، بعدما كان غضًا طريًا، فقد خبت عزائمهم، وغاضت قواهم، وصار حال كثيرين منهم كأنهم أرواح خامدة، وجثث هامدة، وهامات جامدة، قد فترت أذهانهم، وخمدت قرائحهم، وجمدت قلوبهم، وهرمت أخلاقهم سراعًا، وأدرك آدابهم الانحلال والوهن، وتصدع صرح بنيانهم حتى أصبح ريبة في قلوبهم، واختل نظامهم وانحلت عراهم، وانتشر فيهم العصيان والفسوق، والجفاء والعقوق، ومحبة الخمول، وإيثار الفضول، فضرب بينهم وبين الهداية بسور ليس له باب بل له بأسداد، وصارت شقة بعيدة بينهم وبين المقاربة والسداد، هذا ما جرى، وانتشر في شبابنا بين الورى.

وصدق القائل:

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا
خلفًا في أراذل النسناس
في أناس نعدهم من عديد
فإذا فتشوا فليسوا بناس

الواجب على الشباب:

لو نظر شبابنا إلى حال أهل الكهف لعلموا أنهم ضيعوا عمرًا بعد عمر، وأنهم أفنوا دهرًا بعد دهر، إذ إن شباب أهل الكهف قد ضرب الله تعالى بهم المثل فقال: "إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا" (الكهف: ١٠-١٥).

فلا بُدَّ أن يكون شبابُنا - كشباب أهل الكهف - كماةً أنجادًا، وحماةً أمجادًا، وأن يكونوا كاللؤلؤة إلى جنب الدرة، وأن يكونوا في أهل الإسلام كالشامة في الجبين والغرة، حتى ينزلوا بالخير كل واد، ويعرفوا به في كل ناد، وأن يسلكوا أفضل الطرائق، ويغوصون على تحقيق الحقائق، بهمم فتية، ونفوس أبية، بطبيعة منقادة، وقريحة وقادة، وأن يشعروا بعزة الإسلام الطماحة إلى العلياء لبلوغ السماء، وأن يشمر الواحد منهم عن الساق، وأن يجد ويجتهد في إصلاح نفسه ما أطاق، حتى يكون شعارهم:

فحيهلا بالمكرمات وبالعلا
وحيهلا بالفضل والسؤدد المحض

وأن يكون ذلك في أيسر مدة حتى يصبحوا للأمة عُمدة وعُدة، قد فتحت سماء يُسرهم فصارت أبوابًا، وزحزحت جبال عُسرهم فكانت سرابًا، وأن لا يطول بهم الأمل، ولا يظنوا طول الأجل.

يؤمل دنيا لتبقى له
فوافى المنية دون الأمل
حثيثًا يروي أصول الفسيل
فعاش الفسيل ومات الرجل

ومن سنة الله الجارية في بني آدم أن الموت يأتي بغتة، والنفس تذهب فلتة، وأكثر الموت إنما يكون في الشباب، وكم من شباب نزلت بهم حوادث الزمان فاجتالتهم، وهجمت عليهم المنايا فأخذتهم بغتة واغتالتهم، ومن شعر البخاري:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع
فعسى أن يكون موتك بغته
كم صحيح رأيت من غير سقم
ذهبت نفسه الصحيحة فلته

قال ابن حجر: وكان من العجائب أنه هو وقع له ذلك أو قريبا منه. اهـ.

وبهذا يصلح الجميع من جهة الفعل ليس فقط من جهة الكلام، وينتظمون في سلك بديع الانتظام.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

خُطُورة الغِياب عن إصْلاحِ الشَّباب (٢)

قَد اهْتَدى مَن اقْتَدى

إعداد
د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الْحمدُ للّه، والصلاة والسلام على الرحمة الْمُهداة، والنعمة الْمُسداة، محمد بن عبد الله، وسيد ولد آدم وأشرف خلق الله في أولاه وأخراه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، ومن تبعه واهتدى بهداه. أما بعد: فهذا مقالٌ كتبتُه عن قيمة الاقْتداء وأثره في سُلوك طريق الهُدى والرَشاد، وبُلوغ منزلة الهداية والاهْتداء، ولا ريْبَ أنَّ أحَقَّ الناس بالقُدوة هم الشباب والفتيان، الَّذين هم في مَطْلع حياتهم، وبَواكير عُمْرهم، فهم أحْوجُ الناس إلى الصلاح والتقوى، وأحَقُّ الْخَلق بالهداية في العلانية والسِرّ والنَّجْوى، لأنَّ هذه الطائفة هي المقدمة ورأس الْحَرْبة والطَليعة في الأمة، وهم عُنوان الأمة في كلّ أزْمَة ومُلمّة، ومطيّة القيادة ورسول الريادة، ودُعاة الْحَقّ، ونتيجة الاسْتقامة، وثَمرة التَضحية، لأجْل هذا أجريْت القلم في عناني بعدما أمسكتُه ببناني، ثم تخلّلت بلساني، وغُصْت على دقائق الْمعاني، وأفصحتُ عن حال الشَباب، وفصّلتُ القول في الْخَطر المحدق بهم في دنياهم قبل الرجوع إلى الله والمآب، ووصفتُ بعض حالهم وما يؤدّي إلى فساد مآلهم، وأنا وإن كنتُ لا أستطيع أن أجمع كلّ ما يصلحُ الشباب فإنّما أنا بشرٌ والأصل في البشر النَقص والتّقصير، غير أنّ الفطن الْحاذق يستدلُّ بِمَا حضَرَ على ما غاب، ويعرف الْخَافي بِمَا يُشبهه من البادي، وبالله أستعين فهو الْمُوفّق والْمُعين.

Upload by: altawhedmag.com

أهمية التربية بالقدوة:

ممَّا اتفق عليه العقل والسمع، وتواطأ عليه الرأي والشرع أنَّ التربية بالاقتداء كثيرة الفوائد، جمَّة المنافع والعوائد، ومع أنها تُركتْ كثيرًا في الخير، وهُجرتْ طويلًا في الإحسان والبرّ، واقترفت بطريقة متكاثرة في الفساد والإفساد، واجتنبت بصورة متضافرة في الصلاح واصلاح العباد، إلا أنها من أهم سبل التربية، ومن أفضل طُرق التقويم والتهيئة، أعني: بثّ معاني الأسوة في شبابنا وتربية الشباب بالقدوة، نعم، هي من أحبّ أدوات الإعداد، وأيسر أسباب الإمداد، وهي مدخل عزيز، ومُتبوّأ شريف لمن أراد بُلوغ أعلى المنازل، والوصول إلى أفضل المحال ويعد من القلائل، ولا يوفّق له إلا السعداء، ولا يحرمه إلا الأشقياء، والعاقل يفني في ذلك عمره، ويُطيبُ به ذكره، والغافل لا يعبأ به ولا يأبه له مع كثرة تعبه في الدنيا وطول نصبه- لأنه ما علم أن السفر بطين - أي: بعيد - والمنهل معين، فإن الناظر يجد الفتيان يتعلقون بلاعب ، ويهيمون بشاغب، ويقلدون التائه، ويقتدون بالواله ، لأنهم وجدوا الملأ من حولهم يعظمون شأن هؤلاء، ويرفعون من قدرهم، وكأنهم حُماة ورُعاة، وهُداة وأُباة، من أجل ذلك ذهب بصرُ الشباب إليهم، وتعلقت أمانيهم بهم، وارتبطت أحلامُهم بأعمالهم: لبُلوغ ما سلكوه، وولهتْ عقولُهم من أجل تحقيق ما بلغوه.

الحث على التربية بالقدوة:

أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بمن قبله من النبيين والمرسلين فقال تعالى: "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ" (الأنعام: ٨٩-٩٠).

> أمر الله تعالى رسوله بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء والمرسلين، وأمر عباده المؤمنين بالاقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير: ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم: «أولئك» يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه «الذين هدى الله» أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، «فبهداهم اقتده» أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم، فأمته تبع له فيما يشرعه لهم ويأمرهم به. (تفسير ابن كثير: ٢٩٩/٣).

وكما أمر الله تعالى رسوله بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء والمرسلين، أمر عباده المؤمنين بالاقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: "لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب: ٢١).

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل. صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا

Upload by: altawhedmag.com

وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرِبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» أَيْ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: «لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا». (تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٩١).

ثم كان الأمر بالأسوة بالصحابة باعتبار أنهم أفضل الناس بعد النبيين.

وعَنْ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» قال الترمذي (٢٦٧٦): هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. اهـ.

وعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ» رواه الترمذي: (٣٦٦٢) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. اهـ

اقتداء الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم:

كان الصحابة أكثر الناس تمسكا بالأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم تعلقا بالقدوة به عليه الصلاة والسلام، فكانوا يقتدون به في كل شيء في العبادات والأخلاق والمعاملات.

في العبادات: منها الصلاة:

قال ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: " قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أُمِرَ وَسَكَتَ فِيمَا أُمِرَ، «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» (مريم: ٦٤) «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (الأحزاب: ٢١)". (رواه البخاري: ٧٧٤).

> كان الصحابة أكثر الناس تمسكا بالأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم تعلقا بالقدوة به عليه الصلاة والسلام.

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَقَالَ سَعِيدٌ: فَلَمَّا خَشِيتُ الصُّبْحَ نَزَلْتُ، فَأَوْتَرْتُ، ثُمَّ لَحِقْتُهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: أَيْنَ كُنْتَ؟ فَقُلْتُ: خَشِيتُ الصُّبْحَ، فَنَزَلْتُ، فَأَوْتَرْتُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَلَيْسَ لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ؟ فَقُلْتُ: بَلَى وَاللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُوتِرُ عَلَى البَعِيرِ» (رواه البخاري: ٩٩٩، ومسلم: ٧٠٠).

وعن حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: سَافَرَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: " صَحِبْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أَرَهُ يُسَبِّحُ فِي السَّفَرِ، وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ)" (رواه البخاري: ١١٠١، ومسلم: ٦٨٩).

ومنها الحج: عن عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَأَلْنَا ابْنَ عُمَرَ عَنْ رَجُلٍ طَافَ بِالْبَيْتِ العُمْرَةَ، وَلَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، أَيَأْتِي امْرَأَتَهُ؟ فَقَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ المَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، وَطَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ»، وَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. وَسَأَلْنَا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: «لاَ يَقْرَبَنَّهَا حَتَّى يَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ» (رواه البخاري: ٣٩٥، ٣٩٦، ومسلم: ١٢٣٤).

وفي المعاملات: منها النكاح: فعن سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدِمَ المَدِينَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يَبِيعَ عَقَارًا لَهُ بِهَا فَيَجْعَلَهُ فِي السِّلاَحِ وَالكُرَاعِ، وَيُجَاهِدَ الرُّومَ حَتَّى يَمُوتَ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ لَقِيَ

Upload by: altawhedmag.com

أُنَاسًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَنَهَوْهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ رَهْطًا سِتَّةً أَرَادُوا ذَلِكَ فِي حَيَاةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَهَاهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «أَلَيْسَ لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ؟» فَلَمَّا حَدَّثُوهُ بِذَلِكَ رَاجَعَ امْرَأَتَهُ، وَقَدْ كَانَ طَلَّقَهَا وَأَشْهَدَ عَلَى رَجْعَتِهَا. (رواه مسلم: ٧٤٦).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: «إِذَا حَرَّمَ الرَّجُلُ عَلَيْهِ امْرَأَتَهُ، فَهِيَ يَمِينٌ يُكَفِّرُهَا»، وَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ» (الأحزاب: ٢١) حَسَنَةٌ. (رواه مسلم: ١٤٧٣).

> أصبح إصلاح الشباب بالقدوة خير وسيلة، وباب إلى تحقيق الخير فيهم ونشر كل فضيلة.

القدوة وسيلة إلى كل فضيلة:

بالقدوة أيًّا كانتْ، وكيفَما كانتْ، وسواءً كانت في الخَيْر أو الشَّر أو في الصَّلاح أو الفَساد ينشط الكسْلان، وبالسَّماع عنها يطربُ الثَّكلان، فإليها تَميل الطِّباع ولها رنينٌ في الخَواطر والأسماع. والنَّاظر في حال النَّاس يجد أنَّ كثيرًا منهم قد انسلَّ عن الدِّين، وأصبحتْ مذاهبُه مُختلَّة القوانين.

لذا أصبح إصلاح الشَّباب بالقُدْوة خيرَ وسيلة، وباب إلى تحقيق الخَير فيهم ونشر كل فضيلة، وهو أيسر لصلاحهم وأنفع لعلاجهم لأنه أجلب للقلوب، وأنفى في التربية والإعداد للغوب، وأقرب إلى تحقيق المطلوب، وأفضل في الوصول إلى المَرْغوب، لاسيَّما وأنَّ نُفوس الشَّباب تحتاج إلى نظرات عميقة، ومعاملة دقيقة، وطرق رقيقة، وأساليب رفيقة من أجْل الوصول إلى ما يردهم إلى صواب الطَّريقة، ويضعهم على سواء الحقيقة، هذا، ولا يخفى ما في أمورهم من تعقيد وصعوبة؛ إذْ يختلط الحماس عندهم بالفتور، وتَمْتزج القوة بالضعف، ويتردَّد الأمرُ بين الشَّدة بالرَّخاوة، ويعتريهم الاجتهاد والكسل، ويُوصم العزمُ بالعجز، وهكذا تتناقضُ أحوالُهم، وقد تختلف أمورهم وتتشابه قلوبهم، ولهذا لابُدَّ أن نعطي هذه القضية حقَّها، وأن نوفيها فضلها ومستحقَّها، كيما نصل إلى شبابنا من أقْرب طريق، ونحقِّق فيهم كل ما هو بهم خَليق، وكيْما نستلَّ منهم الأعراف الفاسدة والأخلاق الكاسدة ونستبدلها بالذي هو خير من كل عائدة.

إن التأكيد على أمر القدوة يسهل علينا بناء الشباب، وتطهيرهم من الدنس ومن حياة اللغو والعيب والعاب، ثم إقامة القواعد منهم والأساس، بما يتَمشَّى مع الدِّين الذي هو أصل إصلاح وهداية الناس.

ومن نظر ما فيه الشباب من فاسد المآل وسيء الأحوال، وعاين منهم الكَبَوات والأهْوال، ووجَد فيهم من المُغالطات الكثير، أحَسَّ بأنَّ طعمَ الحياة مُرٌّ مرير، لأنهم قد رانتْ على قلوبهم الذنوب المُكْتسَبات، وغطَّتْ على عقُولهم سحائبُ الجَهالات، وتراكمتْ على بصائرهم قبائحُ العادات، حتَّى أصبحُوا في غَمْرة من الشُّرور، وعادوا بضرر جسيم وأمْر مَهُول، وبلغ أنَّ طائفةً منهم ليست قليلةً لا يلتفتون إلى ناصح، ولا يعبؤون بلائم، ولا يستترون من حافظ ولا رقيب، ولا يبالون بشيء من بعيد ولا من قريب.

وأسأل الله توفيقًا لنا، وعونًا يسدِّد فيما يُرضيه أعمالنا.

Upload by: altawhedmag.com

النافلة في مسيرة الدكتور سعيد صوابي (رحمه الله) تعالى وسيرته الحافلة

إعداد: د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمدُ لله الذي قدّر الأرزاق وكتب الآجال والأعمار، والصلاة والسلام على سيد الأبرار نبينا محمد عليه صلوات الله وسلامه ما دام الليل والنهار، وبعد.

فإن الدكتور سعيد صوابي رحمه الله ضرب مثلاً شرودًا ومنقبة بكرًا في شخصيته الفذّة بما حباه الله من جميل الأوصاف، وجليل الألطاف حتى صار قدوة في أبواب العلم والعمل والأدب والخلق، وأصبح سيرة عطرة.

مولده:

وُلد بقرية بني صالح، مركز بلبيس محافظة الشرقية ١٩٥٥/٢/١٦م، ونشأ في بيت دين وصلاح.

مسيرته العلمية:

حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة، وحصل على الإجازة في القراءات السبع في سنٍ مبكرة، والتحق بالأزهر وحصل على الثانوية عام ١٩٧٣م ثم التحق بكلية أصول الدين وحصل على الليسانس ١٩٧٧م بتقدير عام جيد جدًا، وكان ترتيبه الثاني على الدفعة، ثم عمل مدرسًا عدة أشهر بمعهد شبرا النخلة الإعدادي الأزهري، ثم عُيّن معيدًا بقسم الحديث بكلية أصول الدين سنة ١٩٧٨م، ثم حصل على الماجستير بتقدير ممتاز عام ١٩٨٤م، ثم الدكتوراه عام ١٩٨٧م بمرتبة الشرف الأولى، ثم درّس بجامعة أم القرى بالطائف من عام ١٩٩١م إلى ١٩٩٧م، ثم عاد إلى مصر ١٩٩٨م ونال درجة أستاذ مساعد سنة ٢٠٠٣م.

حبّه للقرآن والعلم:

كان عالمًا بالسنة النبوية المشرفة، عاملاً بها، مدافعًا عنها، غيورًا عليها، حريصًا على تعليمها لطلبته وتلاميذه، وقد تعلمت على يديه أصول التخريج ودراسة الأسانيد عام ٢٠٠٥م في مرحلة إشرافه عليّ، وقد سافر في التحكيم بالمسابقات الدولية للقرآن الكريم بدولة قطر من عام ٢٠٠٠م إلى عام ٢٠١١ م.

أخلاقه:

كان رحمه الله دائم البِشْر، كثير التبسم، متواضعًا باذلاً نفسه للناس يمزح مع طلبته المزاح الخفيف الذي يدخل السرور عليهم، محبًا للعطاء، ملازما للسخاء بالهدية التي كان يحملها في يده.

آثاره العلمية:

ترك الشيخ رحمه الله قرابة تسع كتب أشهرها "المعين الرائق في سيرة خير الخلائق" في أربعة أجزاء، وقد شارك في موسوعة نضرة النعيم وأشرف على كثير من الرسائل العلمية وناقشها وخرّج طلابًا كثيرين في مصر والعالم العربي والإسلامي وفي إفريقية وغيرها.

حياته الدعوية:

كان الشيخ رحمه الله شغوفًا بالدعوة وقد مكث يخطب الجمعة والعيدين ويلقي الدروس والمحاضرات في مسجد أبي سعيد الخدري وغيره قرابة ثلاثين عامًا.

أسرته وأولاده:

تزوج الشيخ من زوجته الطيبة السخية أم محمد -حفظها الله- وأخلاقها كأخلاق الشيخ في السماحة والكرم والدعاء لمن يدخل البيت أو ترد عليه في الهاتف، وقد رزق الله تعالى الشيخ ببنت واحدة وثلاثة أولاد: هم الأستاذ: محمد والدكتور/ عبد الرحمن- دكتوراه في الحديث وعلومه- والأستاذ: طارق، وقد خالطت أولاده فوجدتهم على أخلاقه السمحة وما أنكرت عليهم خُلقًا ولا دينًا، بل وكلهم يحفظ القرآن ويصلي بالناس.

وفاته:

مرض الشيخ في آخر حياته بالكبد ثم مكث في الرعاية أيامه الأخيرة أربعين يومًا كاملة ثم توفي يوم الجمعة: ١٠ صفر ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١/٩/١٧م، وصُلّي عليه صبيحة السبت في مسجد أبي سعيد الخدري، ثم دفن في مسقط رأسه بقرية بني صالح بالشرقية عقب صلاة الظهر.

اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله من خطاياه بالماء والثلج والبرد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Upload by: altawhedmag.com

خُطُورة الغِياب عن إصْلاحِ الشَّباب (٣)

رعي العُدْوَة بتَحْقيق فوائد القُدْوة

د. عماد محمد علي عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله الذي أكرمنا بتنزيله، وشرفنا بمعرفة تأويله، وصلى الله على نبينا مُحمد، أرسله الله بشرع ما أوسعه وأشرحه، ولسان ما أفصحه، وبيان ما أوضحه، وعلى آله وصحبه ما بقي على الأرض إنس ولا جن ولا حجر ولا شجر وحده وسبحه.

وبعد: فهذا مقال أسميته: رَعْيَ العُدْوَة بتحقيق فوائد القُدْوة، والعُدْوة: (بالضَّم والكسر، ضَرْبٌ من المَرْعى مَحْبُوبٌ إلى الإبل. أردت أن أجلي فيه عن فوائد القدوة وأكشف عن هذا المعنى وأن أرفع النقاب عنها وأعرب عن تلك الفحوى، وأسأل الله أن يجعل فيه الأثر وأن يفتح له القلوب، وأن يغفر لي زللي ويتقبل عملي.

أرجو بها عفو الإله لأنني
ما زلت أمعن في الذنوب وأسرف

وذلك لما رأيت هذا الأمر مُهْملاً لا مُعْمَلاً، وعندما عاينتُ هذا الباب موصودًا لا مفتوحًا ولا للولوج منه مرصودًا، وباب القدوة باب واسع لمن أراد الولوج منه وسهل لمن أراد الدخول فيه، وهو سلم لما بعده يعين على العروج فيه، ومدرج لما وراءه يدنو الوصول به، ولولا أنه في الإمكان ما أمر الله تعالى به، فإنه سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وقد راعني ما راع كل مُحبٍّ لدينه، وأزعجني ما أزعج من أشرب قلبه وأشبعت نفسه بمحبة الخير للأمة المسلمة وهو أن الشباب والفتيات من الأجيال المتأخرة زمانًا وأيامًا وفهمًا والمامًا وعقلاً وخلقًا قد اتبعوا ما يتلو السفهاء من الناس، ومشوا على خُطى الساقطين في الأدناس، وحذوا حذو اللاعبين ونسجوا على منوال اللاغبين، وأعرضوا عن القدوة المثلى والأسوة العليا، ولم يلتفتوا إلى أهل القدوات حقًا من العلماء والزهاد والصالحين والعُبَّاد، ولو فكر أحدهم أن يقتدي يومًا بشيء من حال هؤلاء الفضلاء لقنع بأيسر الزاد.

ومع كثرة الفتن، وتعظيم السفهاء، وافساح

Upload by: altawhedmag.com

المجال لكل أرعن من البلهاء، وإعطاء المزايا للرقعاء، ومنح الشهادات من غير المسلمين للمفسدين الذين ضيّعوا الأجيال وأغووا الشباب، وشجّعوا الشاب اليافع على الإقبال على المنتن من الفكر، وتسويغ العفن من الأفكار من غير روية ولا نظر، ما يجعله أشبه بالغراب، حتى باتت أحلام الفتيان تدور على أن يكون أحدهم لاعبًا شهيرًا، أو ماجنًا أو مغنيًا قديرًا، ولا تكاد تجد من تخرج عن ذلك.

ولأن الشباب حدثاء الأسنان، ضعفاء العقول والإيمان، وأكثرهم جاهل بالحال، وغالبهم عار من التجربة قريب العهد بالدنيا تعصف الفتنة بهم من أول لمحة.

نداء لأهل الإسلام:

فيا أهل الإسلام هذه الأجيال نحن عنها مسؤولون وبإصلاحها مكلفون فإلى متى نحن عنها مشغولون، إن الأمر جد خطير وإن الحال قد بات قاب قوسين أو أدنى من الضياع، والأمة على شفا جرف هار، والأعداء متربصون لا ينامون، وجادون في عدائنا وعاملون، ومجتهدون في إغراق الأمة المسلمة بالشهوات وساعون، فهل نحن مدكرون، وعلى قدر المسؤولية جاهزون؟

فكان لا بد من إيقاظ الأنظار وإنباه ذوي الأبصار لمعالجة هذه القضية، وذلك بالرجوع إلى الكتاب العزيز الفائق، والعودة إلى معين السنة النبوية الرائق، ومحاولة التأسي بالسلف الصالح وإطالة النظر في حياتهم التي لم يكن فيها اقتداء بأي فارغ أو طالح، وتأمل أحوالهم وأخلاقهم بما يحقق من أعظم المصالح.

ورحم الله شوقي حين قال:

إذا فاتك التفات إلى الماضي
فقد غاب عنك وجه التأسي
تمسك بحبل الأوائل والزم غرزهم

قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الترمذي: (٢٦٤٠).

وهذا مخرج من البلايا عمي عنه من عمي وهم كثيرون، ومدخل لاجتناب الرزايا أبصره من أبصره وهم قليلون، حتى صارت عقول شبيبتنا عن الفكر الصحيح أسيرة، وأبصارهم عن البصر بحقائق الأمور حسيرة، وقلوبهم عن تحقيق الإيمان كسيرة، وأحوالهم في الأخذ بعزائم الأمور عسيرة.

فتمسك بحبل الأوائل والزم غرزهم فإنه النجاة يقينًا لا ظنًا ولا خرصًا ولا تخمينًا، فإن الاقتداء بهم يجعل المنهج صحيحًا، والفهم مليحًا، والعقل خصيبًا، والذهن صقيلاً.

واعلم بأن الحرب على قدم وساق ضد كل من دعا إلى منهاج النبوة، واقتدى بالقرون الفاضلة الخيرية، والأجيال المزكاة في الآيات القرآنية، وعلى لسان خير البرية، وأن الأعداء قد كشروا عن أنيابهم وكشفوا عن خبيئاتهم وبات الشر مصرحًا لا يخفى ولا يتوارى، والله تعالى لا يهدي كيد الخائنين وقاصم ظهر الماكرين، وقد اجتهدت في المنبهة إلى ذلك أداءً للأمانة وإبراءً للذمة وإخلاء لساحة المسئولية، والله بما يعملون محيط.

أولا: القدوة تهدم صنم الأعراف الفاسدة:

قضية القدوة من أوسع الأبواب التي ندخل منها إلى علاج فاسد أحوال شبابنا، وتقويم سلوكهم، وتحسين أخلاقهم، والتخلص من ذميم طباعهم، ومع ذلك لم تأخذ حقها من

Upload by: altawhedmag.com

الرعاية، ولم تبلغ نصيبها من الاهتمام والعناية، ذلك أنها مما قد لا ينتبه إليها كثيرون، ولا يدركون أثرها في النفوس إلا الأقلون، وبهذا الإهمال لها والترك يتعاظم الألم بما يعجز عن التعبير عنه صاحب الدواة والقلم.

ويؤكد هذا المعنى ما نراه من إقبال الناس مع اختلاف طبقاتهم وتعدّد مشاربهم على التأسي بأهل الفحش والمجون، ودعاة التعرّي والفنون حتى ولغوا في حضيض الانغماس، وأعرضوا عن طريق المعالي والالتماس، فصاروا من أهل الغفلة والإفلاس.

ومن الأمور الصعبة التي يعزّ حلّ إشكالها الأعراف الفاسدة، والعادات البعيدة عن الصواب والشاردة؛ لأنها تنصبُ لابن آدم الحبائل، وتبغي له الغوائل، وتمدّ حوله الأشراك، وتنصبُ له الفخاخ والشباك، ولا عجب، فإنّ لها سلطانًا على الناس، وتسلطًا عليهم، وكثير من المسلمين يصبح عبدًا لهذه الأعراف وهو لا يشعر، وقد يتخذها ندًّا من دون الله وهو لا يدري؛ لأنه يجدها كالفريضة التي لو تركها كان آثمًا، ولو اجتنبها كان مخطئًا غاشمًا، فهذه الأعراف لا مناص منها عند كثير من الناس، ومن تركها إيمانًا بالله واحتسابًا لامه اللائمون، وأنكر عليه المنكرون، وكأنه وقع في الفتون، فساءتْ به الظنون، وأتى شيئًا إدًّا، ونعوذ بالله من الخذلان والشقاء.

وقد يكون الذي في أعراف الناس أمرًا فاحشًا وفعلاً منكرًا بين النكارة، ومع ذلك يستندون في تجويزه إلى الأعراف وما فعله الآباء وما تناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل، وما توارثوه قبيلاً تلو قبيل.

قال تعالى: « وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (الأعراف: ٢٨).

لقد أصبحت الأعراف الذميمة تصنع أحوالاً أليمة، وتمحو أخلاقًا كريمة، وتعفو أثر العقول السليمة، وصارت أصنامًا يلتف الناس حولها فهم لها عاكفون، وعن غيرها معرضون.

وقد حكى الله تعالى ما فعلته الأمم مع أنبيائها من الإعراض عن دعوة الرسل، والعداء لدعوة كل نبي الذي ظهر في الصد عنها والتحذير منها وهذا يؤكده قول الله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا » (الفرقان: ٣١).

وكان سلاح العادات وارث الآباء والتقاليد الجامدة الموروثة عن الآباء والأجداد تواجه به الأمم رسلها وتحاد به أنبياءها وتحارب دعوات الإصلاح والتغيير.

وقال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ » (المائدة: ١٠٤).

وقد ورثته الأمم ففعلته كلُّ أمّة بعد التي سبقتها، وقالت به كل أمّة لحقت ما قبلها من الأمم.

قال تعالى: « بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ » (الزخرف: ٢٢-٢٣).

وهذه الآيات تفصح بكل وضوح، وتعرب عن حال الأمم في الجمود والتقليد والتمسك بكل قديم ولو خرج عن الجادة، وتبين أن الأمر كان طريقًا مسلوكة لدى كل أمة بحيث لم تخرج أمة واحدة عن هذا السياق، وكأنهم تواصوا به مع تفاوت الأزمنة واختلاف الأمكنة.

نسأل الله السلامة والعافية.

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com

خطورة الغياب عن إصلاح الشباب (٣)

الأسوة في بلوغ الصحابة تمام القدوة

إعداد: د. عماد محمد علي عيسى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

بلوغ الصحابة الذروة في تحقيق القدوة:

لقد بلغ الصحابة في القدوة تمام الإصابة، وحققوا منها أعلى درجاتها بما أبدوا من قوة الاستجابة؛ إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم قد قدم إليهم في نفسه الشريفة، وفي شخصيته الفريدة المنيفة، وأخلاقه البديعة، وآدابه المنيعة أنموذجًا لم ترَ مثله عينٌ قطّ ولم تسمع بمثله أذن من قبل ولا من بعد، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله تعالى أنّ هذه مُهمّته وتلك رسالته وأمانته فقام بها على أكمل وجه ونزلت الآيات الناصرة والحجج الباهرة والبيّنات القاهرة وأيده سبحانه وتعالى بالمعجزات الظاهرة حتى صار أعظم، وأجمل مُربٍّ، وأكمل مُؤدّب، وأكرم وأفضل معلم.

ولذا قال الله تعالى له في جانب العلم "وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" وقال له في شأن التربية والتعليم والقدوة: " كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" (البقرة: ١٥١).

وقال تعالى أيضًا: " رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (البقرة: ١٢٩)، وامتن الله على المؤمنين ببعثته لاشتمالها على العلم والتزكية والتأديب والتربية فقال: " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (آل عمران: ١٦٤)، وقال أيضًا: " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الجمعة: ٢).

وفي هجرة الصحابة إلى الحبشة أظهر بعض الصحابة عناية المسلمين بالقدوة، قال جعفر بن أبي طالب: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، " فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق

Upload by: altawhedmag.com

الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام"، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا" (رواه أحمد: ١٧٤٠).

ومن تأمل في سير الصحابة رضي الله عنهم، ظهر له في شأن القدوة وجه الحق، وبدا له صواب الرأي، فإنه يجد نقلتهم من أوحال الجاهلية إلى أحوال الإسلام العلية بسبب أمر القدوة فإن العادات كانت قد حكمتهم وغلبت عليهم، ثم لما رأوا القدوة المصطفوية، والأسوة النبوية، وعاشوها وامتلأت بها نفوسهم، وأشربتها قلوبهم، وجرت في عروقهم، وسرت في عقولهم حتى إذا اختلطت بها أفكارهم، وامتزجت بها حياتهم؛ تخلوا عما كانوا عليه في الجاهلية، وخلعوا لباس العادات الدنية، واقتلعوا شجرة التقاليد الردية، وحملوا لواء الرسالة المحمدية، وأحبوا الدين حبًا شديدًا، وصار الاقتداء برسول الله قضية الحياة، وهدف الصحابة الهداة.

ومما يشير إلى أن القدوة باتت عند الصحابة أمرًا مهمًا، بل صارت ملازمة لهم ما رواه أبوداود (٦٥٠) عن أبي سعيد الخدري، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته، قال: «ما حملكم على إلقاء نعالكم» ، قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن جبريل صلى الله عليه وسلم أتاني فأخبرني أن فيهما قذرًا" الحديث. وبهذا الاقتداء المطلق، والاتباع المحض، والتأسي المجرد، كان المخرج لهم من الظلمات إلى النور، وطوق النجاة من حياة الشهوات والغرور.

تسهيل وتيسير القدوة:

كان من حكمة الله تعالى في خلقه البالغة، وحجته بين عباده الدامغة أن يكون الرسل من البشر فأرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين، ولم يجعلهم من الملائكة المطهرين، ولا السفرة الكرام البررة المقربين، ولا الجن القادرين المتمردين، وإنما جعلهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويشربون، ويعيشون بين الناس ويمشون، ويتناكحون ويتناسلون، "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا " (الفرقان: ٢٠).

ولهذا لما سأل المشركون تحقيق بعض الخوارق تعجيزًا للنبي صلى الله عليه وسلم كان الجواب عليهم أنه بشر من البشر لكنه رسول من رب العالمين، ولو كان في الأرض ملائكة لكان الرسول من جنسهم فلا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم حتى تسهل القدوة وتتيسر الأسوة، ولما طلب المشركون بعض المعجزات من النبي صلى الله عليه وسلم أجابهم عليه الصلاة والسلام بأنه بشر رسول، قال تعالى: "قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا " (الإسراء: ٩٥).

فوائد القدوة:

أولاً: تخفيف وعلاج الداء:

اعترض قوم من أهل زماننا على قيمة القدوة فهونوا من شأنها، وقللوا من فضلها، وقد لغا في ذلك قوم وهجروا، واتبعوا أفهامًا كليلة، ونظروا بأبصار عليلة، وأعملوا انظارًا مدخولة، وفكروا أفكارًا معلولة، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وعدلوا به عن سبله ليفسدوا على العامة دينهم ويشتتوا أفكارهم، وقدحوا بالشكوك في الصدور، واعترضوا بالشبه على القلوب، فأمالوا عن

Upload by: altawhedmag.com

سبل الهداية قوما أغمارًا، وأحالوا عن طرق الاستقامة أحداثًا أغرارًا.

أما تخفيف الداء وعلاجه: فإنه بالقدوة نعالج آفات أهل الزمان، لأنها توجب اليقين، وتوضح الحق المبين، وتفتح للعبد آفاقًا، وتصلح منه أعمالًا وأخلاقًا، وتزرع في قلبه للخير حنينًا وتغرس فيه إشفاقًا، وتضيء له الطريق وتجعل في جانبيه شفوفًا وإشراقًا.

ثانيًا: تقريب زوال البلاء:

أما تقريب أجل البلاء: فإنه الأيام التي نعيشها غلبت عليها الصعوبة في كل صغير وكبير ودقيق وجليل، لا سيما الأخلاق الحسنة التي صار التعلق بها والتمسح بأهلها والتعلق بأهدابها من عزائم الأمور، حتى نُبذت الخلائق الرضيّة، وأبعدت الآداب الشرعية، وغلبت الطباع الفاسدة غير المرضية، بدليل أنه قد جهل المعروف، وماتت العزائم، وضيّعت الخواطر، وذهبت من النفوس الهمم، وخربت الذمم، وأصبح الفهم بلا أذن واحدة بعدما كان بأذنين، وعاد الجواب من غير لسان بعدما كان ذا لسانين.

وكذلك تمهيد طريق الجلاء: والمراد به جلاء ذميم الأخلاق، واسترجاع حميدها الذي فقد مع مرور الأيام، ومَلح بعدما عذُب بتعاقب الأعصر والأعوام، ذهبت آثارها إلى الضياع، وتفرقت في سائر البقاع لما أصابها من التغيير والتبديل، والإفساد والتعليل.

فقدان الأسوة مصيبة وحرمان وخذلان:

إذا فقد المرء الأسوة الحسنة ولم يجد من يتأسى به إلا من كان من أهل المعصية الذين خرجوا عن الجادة وتركوا سواء الصراط أحس بالغربة ووقعت في نفسه وحشة لا يزيلها إلا أن يتأسى بالنبي وأصحابه، وأصابته فاقة لا يسدها إلا النظر في سير الأولين.

وهذا الشعور هو ما عبر عنه كعب بن مالك رضي الله عنه في تخلفه عن غزوة تبوك بقوله: " فطفقتُ، إذا خرجتُ في الناس، بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء". رواه البخاري: (٤٤١٨) مسلم: (٢٧٦٩).

عناية القرآن والسُّنة بأمر القدوة:

الذي يأخذ بالقدوة يكون من المرحومين، والذي يتخلف عنها يعود من المحرومين، ولهذا كان الحديث عنها متكررًا في كتاب الله تعالى " وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ" (هود: ١٢٠).

قال تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ" (يوسف: ٣)، وقال تعالى: " نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى " (الكهف: ١٣).

وقد قصّ النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه كثيرًا من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية ما يبين قيمة القدوة ويعلم بخطرها وما يفصح عن أثرها وتأثيرها.

فمن ذلك: قصة أصحاب الغار الذين توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم كي ينجيهم من الصخرة التي سدت فم الغار، وقصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم قصد التوبة وانطلق إلى الأرض الصالحة فقبض في وسط الطريق وكان أقرب إلى الأرض الصالحة بشبر حينما نأى بصدره نحوها ثم دخل الجنة، وقصة الرجل الذي أسلف أخًا له ألف دينار، وقال: كفى بالله شهيدًا، فرد الله إليه ماله الذي جعله المدين في خشبة ودق عليه وزجّج المسمار ثم دفعه في البحر وسط تعالي الأمواج وهيجان البحر حتى بلغ المال صاحبه، وقصة الرجل الموسر الذي كان يُيسّر على المعسر فدخل الجنّة بذلك.

والغرض الذي قصد من أجله هذه القصص إحداث انفراجة في النفوس للتأمل في هذه القدوات، والترغيب في الأخذ بالقدوة، وتمهيد الطريق لتحقيق هذه النماذج الفذة، وتربية النفوس على النظر إلى أمثلة بديعة المثال، وغير منيعة المنال، وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

Upload by: altawhedmag.com

خُطورة الغِياب عن إصلاحِ الشَّباب (٥)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

تَمييز وتمايز، لا عقد مقارنة، ولا سباق ومغامرة؛ هذا مقال أردت به أن أفصح عن حالين، وأصف فيه قومين، وأشير إلى حال طائفتين:

د. عماد عيسى

المسلمون بين جيل بلغ المنزل وجيل انزوى في معزل

الأول: حال الأسلاف الصالحين وأهل الهداية من السابقين، والثاني: حال الخلف اللاحقين، والخلف المتأخرين، ليس لعقد مقارنة، ولا لإنشاء سباق ومغامرة، فإن بيننا وبين القوم مسافات بعيدة ومفاوز، أدتْ إلى تمييز بيننا وبينهم وتمايز، بسبب حرصهم على أمر الدين بينما نحن في تفريط وتجاوز، بل أردت نقل محاسنهم، ونشر عبير فضائلهم، دلالة على حالهم لمن يرغب في صنيعهم، ومن يحب أن يعمل بعملهم ويقتدي بهم، وتحفيزا لما ضعف من الهمم، وإعلامًا بشأن تلك القمم، والمحاسن تُروى وتُنقل، والفضائل تُجلى وتُصقل، لإحياء الأسوة فينا والقدوة بهم، جعلنا الله ممن أسبل عليه جلابيب الستر في الدنيا، والعفو والتجاوز في الآخرة.

بلوغ السلف المنزل وتحقيق المؤمل:

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد علمه الله ما لم يكن يعلم، وفضله على العالمين، فحفّ شخصه بالعصمة، وشدّ أمرَهُ بالتأييد، ويسّر له التوفيق، وألقى على كلامه مهابة وغشّاه بقبول عظيم، وكساهُ حلاوةً وطلاوة، فقلّ منه عددُ الكلام، مع تيسير الفهْم وسُهولة الإفهام، فلما شعَرَ الصحابةُ بهذه النعمة عظموا هذه الميزة، أنْ كان فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يفوتوا من أمره شيئًا إلا عملوه، ولا من نهيه نهيًا إلا اجتنبوه، ولا من سننه سنة إلا وفّوها حقّها، ولا من أدبه آدابًا إلا رعوها حقّ رعايتها وأتموا نقصها، ولا من خلق من أخلاقه إلا تأسوا به وكملوا في أنفسهم وقصها، فلمّا حافظ القوم على آداب النبوة وأخلاق الإسلام في ذاك العهد الأول-عهد التشريع ونزول الوحي- وتمسكوا بالاقتداء بنبيّنا صلى الله عليه وسلم تسبب ذلك في رفعة همتهم، وعلو عزيمتهم، وتأديبهم أنفسهم وزمّها بالنصوص الشرعية، والتزامهم بالسنن النبوية، ورعايتهم ولها

Upload by: altawhedmag.com

وتمسكهم بالأحوال المرعية، حتى بلغوا الذروة من المجد، ووفوا بما تركهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد.

لقد ربى فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ملكة العلم، وصقل الذائقة والفهم، حتى حققوا البدائع والروائع، بعزم أكيد، وإخلاص شديد، وهمَّة طمَّاحة بلغت العلياء، وناطحت السماء.

وقد أثنى الله عليهم الثناء العالي، وزكاهم بالكلام النفيس الغالي، وعدَّد أوصافًا لا يحقِّقها إلا المُخلصون ولا يبلغ منتهاها من عباد الله إلا المُخلَصون، منها: قوتهم في دين الله وشدَّتهم على أعداء الله عند الجهاد والدفاع عن دعوة الإسلام، ومنها: الرحمة التي سرت بينهم، وحملوها تجاه إخوانهم حتى صاروا كأنهم جسد واحد، ومنها: إخلاصهم وحسبتهم، وتفانيهم في حسن القصد، وتجويد العمل، وتخليص النوايا، حتى زكتْ نفوسُهم وطهرتْ قلوبهم، ومنها: اجتهادُهم في العبادة، وتحقيق الذروة منها، وبلوغ الدرجة القصوى في عمارة الأوقات بالطاعة، والاشتغال بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر وقيام الليل وقضائه في الركوع والسجود، وقد جُمعتْ هذه الأوصاف في آية واحدة فقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

ولا يكاد يحقق هذه المنزلة إلا من أوتي حظًا وافرًا من الإخلاص المتجرِّد، والبصر النافذ، والصبر الجميل، والاحتساب المتواصل، والهمة العالية، والولاء المكين والحرص المتين على الإسلام والمسلمين، وتحقق بهم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣).

رجوع الأخلاف القهقرى ونزولهم من القمة إلى السفح:

بعد ما ظهرت أنوار الإسلام الماحية لظلمة الضلال، وكشفت عن الدنيا الإفك والشرك والزور والمحال، مضت هذه الحقبة المباركة وكأنها ومضة برق في ليل بهيم ما لبثت أن انطفأت وتلاشت، ولم يبق منها إلا أقل القليل. نعم، كان شيئًا كان ثم انقضى، فتناسخت القرون، وتعاقبت الأزمنة والسُّنون، وأهمل المسلمون تربية الشباب والأشبال، وأضاعوا الأجيال بهذا الإهمال، فوقعوا من القمة إلى القاع، وهبطوا من العُلو إلى السَّفال، فردُّوا الحقَّ وقبلوا التضليل، وصدَّقوا الأكاذيب والأباطيل، وعوَّل المُسلمون على النزاع، واشتغلوا بالخلاف وتشاغلوا بالوقيعة والوقاع، حتى دبَّ إليهم الشقاق، وبدا في أخلاقهم النفاق، من أجل مُلك ورياسة، ومناصب لا يسعى إليها صاحبُ فطنة وكياسة، فذهب الخيرُ وولَّى مدبرًا، وحل الضير وأصبح الأمرُ مُعسرًا، والحال غير مبشِّر بل مُنفرًا، يعدُ بالشرِّ ويحلول السُّوء مُنذرًا، ومن سُوء العاقبة مُحذرًا، لأنهم فقدوا النَّظر الصَّحيح، وعُدموا البصر الرَّجيح.

أساس الرجوع وسبب التخلف والقنوع:

كان أسّ ذلك وأساسه أنهم تركوا الإرث الضخم، وتجاهلوا الكنز الخبيء الدفين الفخم، وتقاعسوا عن الجد، وركنوا إلى الإيهام والوهم، وعوَّلوا على أناس ليس لهم نهج مستقيم ولا عدالة مستفيضة، قد انكسرت فيهم أجنحة الخير فصارت مهيضة، وجعلوا أمر هؤلاء الأقوام سنَّة متَّبعة، ودَرْبًا مطروقا مع أنها كانت مبتدعة، فأضرُّوا بأنفسهم إضرارًا بينًا، وركبوا من عظائم الأمور شيئًا ليس هينًا، ومن نظر إلى الخلافة العباسية وقرأ تاريخها وكيف استحوذ الترك والبرامكة وغيرهم على الملك، واستولوا على شأن الخلافة حتى أوقعوا بالأمة الهُلك، فأصبحوا يسوسون الأمة العظيمة، ويقودون زمام أمة مجيدة ذات الآثار القديمة، وكان ذلك بعدما سلم الخلفاء لهم الحبل والخطام، وفوضوا إليهم القيادة والزمام، وذهبت الأمة إلى حتفها، بعدما حققت الأمجاد بغزوها وفتحها، وصاروا كمن

Upload by: altawhedmag.com

يحفر قبره بيده، أو ذهب إلى حتفه بظلفه، لأنه والى خلفه وتبرأ من سلفه، وصدق فينا قول الشاعر:

لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم
ضعفتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم
حمتكم السادة المذكورة الخشد
قوم هم الجد والأنساب تجمعهم
والمجد والدين والأرحام والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهم
بغير قحطان لم يبرح به أود
بعد الديار من الديار

ومقتضى هذا البعد ابتعاد حال الشباب عن تحقيق الحضور وترك الانقطاع عن النظر إلى أحوال السابقين والغياب، وعدم أخذ هؤلاء الشبيبة من الأخلاف بحال أولئك الأسلاف حتى شط بشبابنا المزار، واختلطت عليهم الأوزان والأعيار، واضطربت الأفكار وحارت الأبصار، وتبدلت القيم واتضعت الأقدار، وبعدت بهم الأماني عن إصلاح الديار، وبدلا من أن يكونوا مقتدين بالنبي وآله، ومحبين أصحابه حملة أحواله، ومنتهجين نهج حفظة أحاديثه وأقواله، ومتبعين نقلة سننه وأفعاله، تركوا هذه المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، واقتدوا بشرقي وغربي، وفارسي وأوربي، وكل ما هو غير إسلامي وعربي.

لقد أقام أسلافنا أود الأدب بحيث لم يبتلوا بالأهواء المنكوسة، والآراء المنحوسة، لأنهم كانوا يتبعون السنن حيث دارت، ويتباعدون عن مظان الأهواء مهما مالت إليهم ودالت.

ولأجل هذا كتب الله في قلوبهم الإيمان، ونجاهم من وساوس وخطوات الشيطان، وجعل لهم في كل غاشية من الفتنة درعا من الصبر، وفي كل نازلة من النوازل واقيا من الثبات، وفي كل مظلمة نورا من الهداية، وفي كل مجهلة معلما من اليقين والعلم.

فقدان القدوة أحدث امتزاج الخير بالشر:

هذا لون عجيب، وأمر غريب، من فتن آخر الزمان، سببه ترك القدوة وعدم تحقيق الأسوة، هو أنه قد امتزج العقوق بالبر، واختلط الخير بالشر، والتبس الحق بالباطل، وأصبح كثير من الناس لا يكاد يميز، ولا يجرأ على أن يميل إلى الحق ويتحيز، ولا يستطيع أن يفرق في بعض الأحيان بين ما ينفع وما يضر، وما يسر وما يغر، حتى عجزت أهل الأذهان الذكية، وتاه بعض أصحاب الأفكار السوية والعقول القوية والأخلاق الأبية، فما بالك بمن دونهم.

وآفة زماننا أن هذا الاختلاط يبعث في الناس الحيرة، ويرسل عليهم الاضطراب وترك الخيرة.

وأحيانا يعذر المرء من حوله لشدة التباس الأمور وصعوبة اقتباس الحل ووقوعهم في الغرور، وحينها يعز المهرب، وتصعب النجاة، ويضيق المخرج، ولا ينفع إلا التعلق بالله والعوذ بالجناب ولزوم الأعتاب، وانتظار الفرج بعد ذلك من رب الأرباب.

إذا مزجت الحق بالباطل
جوزت ما شئت على الغافل
وفيهما فرق صحيح له
علامة تبدو إلى العاقل
كالتبر إن تمزج به فضة
جازت على كل فتى جاهل
وإن تصادف صائغا ماهرا
ميز بين المحض والحائل

فإذا ما حضرت القدوة يسرت وسهلت، ووضحت وبينت، وجلت البصائر، وأنارت القلوب والضمائر، وسهل أمر الله وتيسر لهم معرفة الحق من الباطل، لأنه كما تقول العرب: إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وحينئذ لا يكاد يخفى الحال إلا على الذين لا خير فيهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال: ٢٢-٢٣).

ولله در الشاعر حين قال:

وماذا على الشمس المنيرة بالضحى
إذا قصرت عنها ضعاف البصائر

والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com